2020
5.1.2020

مارك توين

مغامرات
هكلبِري فِن

ترجمة: جهاد الشبيني



مرايا | منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



مارك توين

مغامرات هكلبِري فِن

رواية

ترجمة

جهاد الشبيني





الكاتب: مارك توين

عنوان الكتاب: مغامرات هكلبِري فِن

ترجمة: جهاد الشبيني

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 6-07-723-9921-978

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2018

2000 نسخة

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw

www.takweenkw.com @takweenKw



لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com @Dar alrafidain

كلمة الناشر



كان عالمًا مختلفًا عندما كتب مارك توين هذه الرواية في ١٨٨٤. كانت ٢٠ عامًا قد مرَّت بالكاد على إعلان تحرير العبيد الذي وقَّعه الرئيس إبراهام لينكولن في ١٨٦٣. رغم ذلك كان المجتمع الأمريكي ما زال -خاصة في الجنوب- يغلي ضد ما اعتبره خرقًا لناموس الطبيعة.

مارك توين يكتب عن زمن طفولته، حينما كان «الزنوج» في أمريكا عبيدًا. وكان من البديهي أن يتعجب الناس من رؤية زنجي يفكر. ويقتنع هاك فِن بأن صديقه جيم رجل أبيض من داخله لأنه شهم.

كان هذا حال الأمريكيين الأفارقة الذين جُلبوا من غرب إفريقيا عبيدًا إلى العالم الجديد.

اليوم تغير العالم كثيرًا. لذلك يمكننا أن نقرأ ما كتبه مارك توين كتأريخ اجتماعي لِمَا كان عليه البشر في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

وسيلاحظ القارئ أن سخرية مارك توين النقدية واضحة في حديثه عن الكنيسة، والرِّق، وعلاقات السلطة والثروة في أمريكا، والتنمر المجتمعي ضد الضعفاء.

لا يحتاج توين إلى أن يكتب منولوجًا مهاجمًا الرِّق، حين يطرح الآراء العنصرية بشكل كاريكاتوري مضحك ومُنفِّر في نفس الوقت.

إنها قوة الأدب، السابق زمانه، والذي لا يحتاج إلى أن يكون منشورًا حقوقيًّا ليدعِّم الحقوق والحريات. يكفيه أن يكون منشورًا جماليًّا لترى كَمَّ القيم الإنسانية التي يمتلئ بها.

من الغني عن الذكر أننا تركنا لفظة «زنجي» كما كتبها مارك توين طوال الرواية، لأنها وثيقة أدبية مهمة في تأريخ حال المجتمع. لكننا نعلم اليوم أن هذا التعبير لم يعد مقبولًا ويفتقر إلى الحساسية العنصرية.

الناشر

تنبيه

كل من يحاولون البحث عن دافع في هذه الرواية ستتم مقاضاتهم، وكل من يحاولون البحث عن عظة أخلاقية سيتم نفيهم، وكل من يحاولون البحث عن حبكة سيُقتلون رميًا بالرصاص.

بأمر من المؤلف

ج.ج. - رئيس المدفعية

توضيح

يرد في هذا الكتاب عددٌ من اللهجات، مثل: لهجة زنوج ميزوري، وأشد لهجات الجنوب الغربي غير المأهول تطرفًا، واللهجة المألوفة لمقاطعة بايك، وأربعة أشكال مُعدلة من تلك اللهجة الأخيرة. وأوضح أن التقليد لم يتم بشكل عشوائي أو عن طريق التخمين، وإنما بعناية فائقة وبتوجيهات موثوق فيها ومعرفة شخصية بهذه الأشكال المتعددة من لغة الخطاب.

وأقدم هذا التوضيح؛ إذ بدونه من الممكن للعديد من القُراء افتراض أن كل هذه الشخصيات كانت تحاول التحدث بطريقة متشابهة وأنها لم توفق في المهمة.

المؤلف

(١)

إذا لم تكن قد قرأت كتابًا بعنوان: «مغامرات توم سوير»، فأنت لا تعرفني، لكن لا بأس. لقد ألَّف السيد مارك توين ذلك الكتاب، وقد كان صادقًا إلى حدٍّ كبير. لقد تزيد في بعض الامور، لكنه كان صادقًا في العموم. وهذا أمر هيِّن، إذ إنني لم أرَ أحدًا إلَّا وكذب مرة أو أخرى، باستثناء الخالة بولي أو الأرملة أو ربما ماري، وقد ورد ذكر الخالة بولي، خالة توم، هي وماري والأرملة دوجلاس، في ذلك الكتاب، الذي كان على الأغلب كتابًا صادقًا، مع بعض التزيد، مثلما قلتُ آنفًا.

المهم أن ذلك الكتاب انتهى على هذا النحو: وجدتُ أنا وتوم النقود التي خبأها اللصان في الكهف، وصرنا أثرياء، وأصبح بحوزة كل منا ستة آلاف دولار، جميعها من الذهب، وكان منظر المال مهيبًا وهو مكدس بعضه فوق بعض، ومن ثم أخذه القاضي ثاتشر ليستثمره، وعاد ذلك على كلٍّ منا بدولار واحد يوميًّا، على مدار العام، وهو مبلغ يفوق إدراك المرء لما يمكن أن يفعل به.

اعتبرتني الأرملة دوجلاس ابنًا لها، وعكفت على أن تحولني إلى شخص متحضر، إلَّا أن البقاء في المنزل طوال الوقت كان أمرًا صعبًا، إذا وضعنا في الاعتبار كم كانت الأرملة وقورة ومنظمة على نحو كئيب في كل شؤونها، وعليه فقد رحلتُ عندما لم يعد باستطاعتي تحمل الأمر، وعدتُ إلى أسمالي القديمة وبرميل السكر مجددًا، وكنت حرًّا وراضيًا. إلَّا أن توم سوير عثر عليَّ وأخبرني أنه سيبدأ في تشكيل عصابة من اللصوص، وأن بإمكاني الانضمام إذا عدتُ إلى الأرملة وأصبحت محترمًا، وعليه فقد عدت.

بكت الأرملة من أجلي، ونعتتني بالحَمَل الضائع المسكين، ونعتتني بأسماء أخرى كثيرة أيضًا، لكنها لم تكن تقصد بها أذًى أبدًا، وجعلتني أرتدي ملابس جديدة مرة أخرى، ولم يسعني سوى أن أتعرق وأتعرق، وأشعر كليًّا بالتشنج. حسنًا إذًا، لقد عاد كل شيء من جديد. قرعت الأرملة الجرس إيذانًا بموعد العشاء، ومن ثم كان يتوجب عليك ألَّا تتأخر، وعندما تجلس إلى الطاولة، لا تستطيع أن تتناول طعامك مباشرة، لكن كان يتعين عليك أن تنتظر الأرملة حتى تدس رأسها إلى أسفل وتتذمر قليلًا بسبب الطعام، رغم أنه حقًّا لم يكن به أي عيب، ذلك باستثناء أن كل شيء كان مطبوخًا على حدة، إذ إن الأمر يكون مختلفًا في برميل من الفضلات، فتختلط الأشياء، ويسيل العصير بين الأشياء نوعًا ما، وتصير أفضل.

بعد العشاء، أخرجت الكتاب المقدس وأخذت تعلمني عن موسى وحشائش المستنقع، وكنت متشوقًا لمعرفة كل شيء عنه، إلَّا

أنها أخبرتني بعد قليل أن موسى قد مات منذ أمد بعيد، وعليه فقد فقدت اهتمامي به، لأنني لا ألقي بالًا للموتى.

سرعان ما رغبت في التدخين، وطلبت من الأرملة أن تسمح لي. إلَّا أنها رفضت، وأخبرتني أنها عادة سيئة وغير صالحة، وأنني يجب أن أحاول الإقلاع عنها. هذا هو حال بعض الناس، ينتقدون الشيء عندما لا يعرفون أي شيء عنه. وها هي ذي مهتمة بأمر موسى، الذي لم يكن من أهلها، وليس مفيدًا لأي أحد، نظرًا لكونه ميتًا، كما ترى، ومع ذلك تجد عيبًا كبيرًا فيَّ لقيامي بأمر به شيء جيد. أما هي فقد كانت تأخذ نشوقًا، أيضًا، بالطبع لم يكن بذلك بأس، لأنها هي من كانت تفعل ذلك.

جاءت شقيقتها الآنسة واتسون، وهي عجوز نحيفة غير متزوجة تضع نظارات، لتعيش معها، وعكفت على مجالستي ومعها كتاب تهجئة، وجعلتني أعمل جاهدًا ما يقرب من الساعة، إلى أن طلبت منها الأرملة أن تبطئ قليلًا. لم أستطع تحمل الأمر أكثر من ذلك، ومن ثم أصبح الأمر مملًا بدرجة مميتة لمدة ساعة وأصبت بالضجر، وكانت الآنسة واتسون تأمرني: «لا ترفع قدمك هناك، يا هكلبري»، و«لا تتكور هكذا يا هكلبري، اعتدل»، وبعد ذلك بقليل تقول: «لا تتثاءب وتتمطى هكذا يا هكلبري، لماذا لا تحسن التصرف؟»، ثم حكت لي كل شيء عن النار، فقلت إنني أتمنى أن أكون هناك، فغضبت، لكنني لم أكن أقصد شيئًا سيئًا، كل ما أردته هو أن أذهب إلى مكان ما، كل ما أردته هو تغيير، لم أكن محددًا؛ أخبرتني أنه كان أمرًا سيئًا أن أقول ما قلت، وقالت إنها لم تكن

لتقوله مهما كان، إذ إنها كانت تعيش من أجل أن تدخل الجنة. حسنًا، لم أستطع أن أرى ميزة في الذهاب إلى حيث كانت ذاهبة، وعليه فقد قررت أنني لن أسعى إليها، لكنني لم أقل ذلك أبدًا، لأن ذلك كان ليتسبب في المشاكل وحسب، ولن يأتي بأي خير.

ومن ثم بدأتْ وأخذت تحكي لي كل شيء عن الجنة، وقالت إن كل ما على المرء فعله هناك هو التجول طوال اليوم بقيثارة والغناء، إلى أبد الآبدين، وعليه لم أهتم كثيرًا بالأمر، لكنني لم أقل ذلك أبدًا، وسألتها إن كانت تعتقد أن توم سوير سيدخل الجنة، وأخبرتني أن ذلك بعيد المنال، وقد كنتُ مسرورًا لذلك، لأنني أردت أن نكون معًا.

ظلت الآنسة واتسون تضايقني، وتزايد الشعور بالتعب والوحدة. ثم بعد قليل، أرسلوا في طلب السود إلى الداخل من أجل تأدية الصلاة، وخلد الجميع إلى النوم بعد ذلك. صعدتُ إلى غرفتي ومعي شمعة وضعتها على الطاولة، ثم جلست على مقعد بالقرب من النافذة وحاولت أن أفكر في شيء مبهج دون جدوى. شعرت بوحدة شديدة حتى أنني تمنيت لو كنت ميتًا. كانت النجوم تتلألأ والأغصان تحدث حفيفًا شديد الحزن في الغابات، وسمعت بومة تنعب بعيدًا على أحدٍ قد مات وطائر ويبوويل وكلب يبكيان على شخص كان يُحتضر. كانت الريح تحاول أن تهمس إليَّ بشيء لم أستطع تبينه، وهكذا سرت قشعريرة باردة في جسدي. ثم بعيدًا في الغابات، سمعت ذلك الصوت الذي يصدر عن شبح، عندما تكون لديه رغبة في التحدث عن شيء يدور في خلده ولا يستطيع أن يجعل

نفسه مفهومًا فلا يستطيع أن ينعم بالراحة في قبره ويضطر إلى أن يسير على نفس المنوال كل ليلة حزينًا. انقبض قلبي بشدة وشعرت بالخوف وتمنيت لو كان أحد برفقتي. بعد قليل، أخذ عنكبوت يتسلق كتفي، فنقرته بطرف إصبعي فسقط على الشمعة، وقبل أن أستطيع أن أتحرك كان قد ذبل كليًّا. لم أكن بحاجة إلى أن يخبرني أحد أن ذلك كان نذير شؤم وأنه سيجلب لي حظًا عاثرًا، وعليه كنت خائفًا وكدت أتخلص من الملابس التي كنت أرتديها، ثم نهضت ودرت حول نفسي ثلاث مرات ورسمت علامة الصليب على صدري في كل مرة، ومن ثم ربطتُ خصلة صغيرة من شعري بخيط، حتى أبعد الساحرات. إلَّا أنني لم أكن واثقًا، إذ إنك تفعل ذلك الأمر عندما تجد حدوة حصان ثم تفقدها، بدلًا من أن تثبتها فوق الباب، لكنني لم أسمع أحدًا أبدًا يقول إن هذا يبعد الحظ السيئ الذي يأتي من وراء قتل عنكبوت، بأي طريقة.

جلست مجددًا، وأنا أرتجف كليًّا، ثم أخرجت غليوني من أجل أن أدخن، إذ إن المنزل كله الآن كان ساكنًا كالموت، وعليه لم تكن الأرملة لتدري بالأمر. حسنًا، بعد فترة طويلة، سمعت الساعة من بعيد في البلدة تدق: بوم.. بوم.. بوم.. اثنتا عشرة دقة، ثم سكن كل شيء من جديد، سكونًا أكبر من ذي قبل. بعدها بفترة وجيزة، سمعت غصنًا ينكسر في الظلام وسط الأشجار، كان شيء ما يتحرك. بقيت ساكنًا وأطرقت. مباشرة، كنت بالكاد أستطيع أن أسمع: «مي ـ ياو! مي ـ ياو!» في الأسفل. كان هذا جيدًا! فقلت: «مي ـ ياو! مي ـ ياو!»، بهدوء قدر استطاعتي، ثم أطفأت الضوء

وتسللت خارج النافذة فوق السقيفة، ثم انزلقت إلى أسفل على الأرض وزحفت بين الشجر، على يقين بأن توم سوير كان ينتظرني.

(٢)

سرنا على أطراف أصابعنا بطول ممر يقع وسط الأشجار ناحية طرف حديقة الأرملة، وقد انحنينا حتى لا تحتك الفروع برأسينا، وبينما كنا نمر بجانب المطبخ، سقطتُّ على جذر فأحدثتُ ضوضاءً فانبطحنا أرضًا وبقينا ساكنين. كان خادم الآنسة واتسون الأسود الضخم، جيم، يجلس عند باب المطبخ، وقد تمكنا من رؤيته بوضوح شديد، لأن الضوء كان يأتي من خلفه. نهض ومد عنقه إلى الخارج إلى ما يقرب من دقيقة، وهو يرهف السمع. ثم قال:

«من هناك؟».

أطرق مزيدًا من الوقت، ثم جاء على أطراف أصابعه ووقف بيننا بالضبط، حتى كدنا نستطيع لمسه. حسنًا، على ما يبدو أن دقائق ودقائق قد مرت، دون أن نسمع صوتًا ونحن على مقربة بعضنا من بعض هكذا. أخذ مكان على كاحلي يحتكني، لكنني لم أحكه، ثم بدأت أذني تحتكني، ثم ظهري، بالضبط بين كتفيَّ. بدا كما لو أنني سأموت إن لم أتمكن من الحك. حسنًا، لقد لاحظت ذلك الأمر

مرات عديدة من قبل؛ إذا كنت مع الصفوة، أو في جنازة، أو كنت تحاول الخلود إلى النوم دون أن تكون نعسانًا، إذا كنت في أي مكان لن يجديك أن تحك فإنك ستشعر برغبة في حك كل جسدك في أكثر من ألف مكان. سرعان ما قال جيم:

«من أنت؟ أين أنت؟ فليصبني العمى لو لم أسمع شيئًا. حسنًا، أنا أعرف ماذا سأفعل: أنا سأجلس هنا وأنصت حتى أسمعك مجددًا».

وعليه، جلس على الأرض بيني وبين «توم»، وأسند ظهره إلى شجرة، ومد قدميه حتى كادت إحداهما تلمس إحدى قدميَّ. بدأ أنفي يحتكني. ظل يحتكني حتى دمعت عيناي، لكنني لم أحكه، ثم بدأ يحتكني من الداخل، ثم شعرت بحاجة إلى أن أحك أسفله. لم أعرف كيف أبقى ساكنًا. استمر هذا البؤس إلى ما يقرب من ست أو سبع دقائق، إلَّا أن المدة بدت أطول من ذلك بكثير، وانتابتني رغبة في حك أحد عشر مكانًا مختلفًا الآن، وظننت أنني لن أستطيع أن أتحمل الأمر دقيقة واحدة أكثر من ذلك، لكنني أطبقت أسناني وظللت أقاوم. حينئذ فقط، بدأ نفس جيم يتثاقل، ثم بدأ يغط، وسرعان ما شعرت بالراحة من جديد.

أشار إليَّ توم، بصوت خفيض من شفتيه، ومضينا نزحف على يدينا وركبتينا، وعندما أصبحنا على بعد عشرة أقدام، همس إليَّ «توم» بأنه يريد أن يربط جيم في الشجرة على سبيل الدعابة، إلَّا أنني رفضت، إذ ربما يستيقظ جيم ويحدث جلبة، ومن ثم

يكتشفون أنني لم أكن بالداخل، فقال توم إنه لم يكن لديه ما يكفي من الشمع، وأنه سيتسلل إلى المطبخ ويأتي بالمزيد. لم أكن أريده أن يحاول، وقلت إن جيم من الممكن أن يستيقظ ويأتي، إلَّا أن توم أراد أن يغامر، وعليه تسللنا إلى هناك وأخذنا ثلاث شمعات، ووضع توم خمسة سنتات على الطاولة مقابلًا لهم، ثم خرجنا، وكنت أتصبب عرقًا من أجل أن أهرب، إلَّا أن شيئًا لم يفلح مع توم لمنعه من أن يزحف، على يديه وركبتيه، إلى حيث كان جيم، ويدبر له مقلبًا. انتظرت إلى ما بدا أنه فترة طويلة، وكان كل شيء ساكنًا وموحشًا جدًّا.

فور أن عاد توم، دلفنا من الممر حول سور الحديقة، ورويدًا رويدًا استرحنا على القمة المنحدرة للتل المتواجد على الجانب الآخر من المنزل، وقال توم إنه جذب قبعة جيم من فوق رأسه وعلقها على غصن فوقه بالضبط، فتحرك جيم قليلًا، إلَّا أنه لم يستيقظ. فيما بعد، قال جيم إن الساحرات سحرنه وجعلنه يدخل في غيبوبة وأنهن امتطينه وطفن به كل أنحاء الولاية، ثم أجلسنه تحت الشجر من جديد، وعلقن قبعته في غصن حتى يعلم من فعل به ذلك، وفي المرة التالية التي سرد فيها جيم الحكاية، قال إنهن طفن به حتى «نيو أورلينز»، وكل مرة كان يسرد فيها الحكاية كان يوسع النطاق أكثر فأكثر، حتى وصل الأمر بعد قليل إلى أن قال إنهن طفن به العالم بأسره، وأنهن أنهكنه إلى حد الموت، وأن ظهره كان كله ممتلئًا بقرح السروج. كان جيم معتدًّا بنفسه بدرجة فظيعة إلى حد أنه كان بالكاد يستطيع ملاحظة السود الآخرين. كان السود يأتون من على

بعد أميال حتى يستمعوا إلى جيم وهو يروي هذه الحكاية، وكان يُنظر إليه بتبجيل أكبر من أي أسود آخر في ذلك البلد.

كان سود أغراب يقفون فاغرين أفواههم وهم يتطلعون إليه، كما لو كان أعجوبة. دائمًا ما يتحدث السود عن الساحرات في الظلام بالقرب من مدفأة المطبخ، لكن متى تحدث أحدهم مصرحًا بأنه يعرف كل شيء عن هذه الأمور، كان جيم يتدخل ويقول: «مم! ماذا تعرف أنت عن الساحرات؟»، فيصمت الآخر وينزوي إلى الخلف. أبقى جيم تلك العملة ذات الخمسة سنتات مربوطة حول رقبته بخيط، طوال الوقت، قائلًا إنها كانت تميمة أعطاها له الشيطان بيده وأخبره أن باستطاعته أن يعالج بها أي شخص وأن يأتي بالساحرات أينما أراد، بمجرد أن يتمتم شيئًا للقطعة، إلَّا أنه لم يقل أبدًا ما هذا الذي كان يتمتمه لها. كان السود يأتون من كل مكان، ويعطون جيم أي شيء لديهم، لمجرد أن يروا تلك العملة ذات الخمسة سنتات، إلَّا أنهم لم يلمسوها، إذ إن الشيطان قد وضع يده عليها. لم يعد جيم صالحًا لأن يكون خادمًا، على الأرجح، لأنه علق بمسألة رؤيته للشيطان وامتطاء الساحرات له.

حسنًا، عندما وصلت أنا وتوم إلى جانب قمة التل، نظرنا بعيدًا إلى أسفل باتجاه القرية، وكان بإمكاننا أن نرى ثلاثة أو أربعة أضواء تتلألأ في مكان ربما يتواجد به مرضى، وكانت النجوم فوقنا تلمع على نحو فائق الجمال، وإلى أسفل بالقرب من القرية كان هناك النهر، باتساع ميل كامل، وكان ضخمًا وساكنًا جدًّا. هبطنا التل ووجدنا جو هاربر وبِن روجرز، واثنين أو ثلاثة آخرين من الصبية، مختبئين

في المدبغة القديمة. ومن ثم، قمنا بفك قارب وجدفنا في النهر حوالي ميلين ونصف، حتى وصلنا إلى العلامة الكبيرة المتواجدة على جانب التل، ورسونا.

مضينا نحو مجموعة من الشجيرات، وجعل توم الجميع يقسم أن يحفظوا السر، ثم أطلعهم على فجوة في التل، كانت داخل الجزء الأكثر كثافة من الشجيرات بالضبط. ثم أضأنا الشموع، وزحفنا إلى الداخل على أيدينا وركبنا إلى ما يقرب من مئتي ياردة، ثم انفتح الكهف، أخذ توم يبحث بين الممرات، وسرعان ما انبطح تحت حائط لم تكن لتلاحظ أن به فجوة، ومضينا إلى مكان ضيق ودخلنا إلى ما يشبه الحجرة، وقد كانت باردة لزجة ورطبة تمامًا، وهناك توقفنا.

قال توم:

«الآن، سنشكل هذه العصابة، ونسميها عصابة توم سوير، وكل من يريد أن ينضم يجب أن يؤدي اليمين ويكتب اسمه بالدم».

كان الجميع مستعدًّا، فأخرج توم ورقة مكتوب عليها اليمين وقرأها. كانت تقضي بأن يقسم كل فتًى أنه سيظل مخلصًا للعصابة، وألَّا يفشِي أيًّا من أسرارها، وأنه إذا فعل أحد أي شيء بحق أي فتًى في العصابة، فعلى أي فتًى قد أُمِر بأن يقتل ذلك الشخص وعائلته أن ينفذ الأمر، ويجب ألَّا يأكل أو ينام حتى يقتلهم ويقطع صدورهم راسمًا صليبًا، الذي هو علامة العصابة، ولا يمكن لأي شخص لا ينتمي إلى العصابة أن يستخدم تلك العلامة، وإذا فعل ذلك يجب

أن تتم محاكمته، وإذا كرر فعلته يجب أن يُقتل. وإذا أفشى أي فرد ينتمي إلى العصابة الأسرار، يجب أن يُذبح، ثم تُحرق جثته، ويبعثر رمادها في كل مكان، ويُشطب اسمه من القائمة بالدم ولا تذكره العصابة أبدًا من جديد، بل وتوضع عليه لعنة ويُنسى إلى الأبد.

قال الجميع إنه كان قسمًا جميلًا بحق، وسألوا توم إذا كان قد فكر فيه بنفسه، فقال إنه فكر في جزء منه، أما الباقي فقد كان من كتب قراصنة وكتب لصوص، وكان لدى كل عصابة رفيعة الشأن. فكر البعض في أن قتل عائلات الفتيان الذين يفشون بالأسرار سيكون أمرًا جيدًا، فأقر توم بأنها فكرة جيدة، وعليه أخذ قلم رصاص وأضاف ذلك. ثم قال بن روجرز:

«لكن هاك فن ليس لديه عائلة، ماذا ستفعل حيال ذلك؟».

قال توم سوير: «حسنًا، أليس لديه أب؟».

«نعم، لديه أب، لكن لا يمكنك أن تعثر عليه أبدًا هذه الأيام، إذ اعتاد أن يرقد سكرانَ مع الخنازير في المدبغة، لكنه لم يُرَ في هذه الأماكن منذ عام أو أكثر».

تحادثوا في الأمر، وكانوا سيستبعدونني، لأنهم قالوا إن كل فتًى يجب أن تكون لديه عائلة أو شخص يُقتل، وإلَّا فلن يكون ذلك عدلًا وإنصافًا للآخرين. حسنًا، لم يستطع أيٌّ منهم أن يفكر في أي شيء يمكن فعله، وكان الجميع حائرًا هادئًا، وكدتُ أن أبكي، لولا أن خطرت إليَّ فكرة فجأة، ومن ثم عرضتُ عليهم الآنسة واتسون، بإمكانهم قتلها. فقال الجميع:

«أوه، ستفي بالغرض. هذا جيد. يمكن لهاك أن ينضم».

ثم غرس جميعهم إبرة في أصابعهم ليحصلوا على الدم الذي يوقعون به، وبصمتُ أنا على الورقة.

قال بن روجرز: «والآن، ما هو مجال عمل العصابة؟».

قال توم: «لا شيء سوى السطو والقتل».

«لكن ماذا سنسرق؟ منازل أم ماشية أم..».

قال توم سوير: «أشياء! إن سرقة الماشية وما على شاكلتها ليست سطوًا، إنها سرقة، نحن لسنا لصوصًا، لا يوجد ما هو جميل في هذا، نحن قطاع طريق، نعترض القوافل والعربات على الطريق، مرتدين أقنعة، ثم نقتلهم ونأخذ ساعاتهم وأموالهم».

«هل يتعين علينا دائمًا قتلهم؟».

«أوه، بالطبع. ذلك أفضل. تتبنى بعض العصابات طريقة مختلفة، لكن غالبًا ما يكون قتلهم أفضل، باستثناء بعض من تحضرونهم إلى الكهف هنا، وتبقونهم حتى تُدفع فديتهم».

«تُدفع فديتهم؟ ما هذا؟».

«لا أعرف. لكن هذا ما يفعلونه، لقد رأيته في الكتب، وبالطبع هذا ما يتعين علينا فعله».

«لكن كيف يمكننا أن نفعله دون أن نعرف ما هو؟».

«بئسًا، يجب أن نفعل ذلك. ألم أقل لكم إنها في الكتب؟ هل

تريدون أن تذهبوا وتفعلوا أشياء مختلفة عما وردت في الكتب، وتخلطوا الأمور ببعضها؟».

«أوه، كل ما تقوله جيد يا توم سوير، لكن كيف في هذا البلد سيُطلب فدية من هؤلاء الناس إذا لم نكن على علم بكيفية فعل ذلك بهم؟ هذا هو الشيء الذي أريد الوصول إليه. والآن، ما هو هذا الشيء في اعتقادك؟».

«حسنًا، لا أعرف. لكن ربما إذا أبقينا عليهم حتى نحصل على الفدية، فإن ذلك يعني أننا نبقيهم حتى يموتوا».

«هذا جيد، هذا يجيب على السؤال. ألم يكن بإمكانك أن تقول هذا من قبل؟ سنبقيهم حتى تُدفع فديتهم ويموتوا، وسيتسببون في كثير من الإزعاج أيضًا، لأنهم سيأكلون كل شيء، وسيحاولون الفرار دائمًا».

«ماذا تقول يا بن روجرز، كيف يمكنهم الفرار عندما يكون هناك حارس عليهم، مستعدًّا لأن يطلق النار عليهم إذا أحدثوا أي حركة؟».

«حارس! حسنًا، هذا جيد. إذًا، فيجب على شخص ما أن يسهر طوال الليل وألّا ينام مطلقًا، فقط من أجل أن يراقبهم. أعتقد أن هذه حماقة. لماذا لا يأتي أحد بهراوة ويطلب الفدية منهم فور وصولهم إلى هنا؟».

«لأن الأمر لم يرد في الكتب بهذه الطريقة، هذا هو السبب. والآن يا بن روجرز، هل تريد أن تفعل الأمور بالطريقة المعتادة،

أم لا؟ هذه هي الفكرة. ألا تعتقد أن الأشخاص الذين ألفوا هذه الكتب يعرفون الصواب؟ هل تظن أن بإمكانك أن تضيف أي شيء؟ لا يمكنك أن تضيف كثيرًا. لا، يا سيدي، سنفعل المتعارف عليه، ونطلب الفدية منهم بالطريقة المعتادة».

«حسنًا، لا أمانع، لكني أقول إنها طريقة غبية، على أي حال. قل لي، هل نقتل النساء أيضًا؟».

«حسنًا يا بن روجرز، إذا كنت في مثل جهلك، ما كنت لأظهره. نقتل النساء؟ لا، لم يرَ أحد أي شيء مثل هذا في الكتب أبدًا. أنت تحضرهن إلى الكهف، وتكون دائمًا مؤدبًا معهن إلى أقصى درجة، ورويدًا رويدًا يقعن في حبك، ولا يرغبن في العودة إلى المنزل أبدًا».

«حسنًا، إذا كانت هذه هي الطريقة فأنا موافق، لكنني لا أستسيغها، لأنه سرعان ما سيتكدس الكهف بالنساء وبأولئك الذين ينتظرون أن يُفتدوا، حتى لن يكون هناك متسع لأفراد العصابة. لكن هيا، فليس لديَّ ما أقوله».

كان الصغير تومي بارنيز قد نام حينئذ، وعندما أيقظوه كان خائفًا، وبكى، وقال إنه يريد أن يعود إلى المنزل إلى والدته، وأنه لم تعد لديه رغبة في أن يصبح قاطع طريق.

سخروا منه جميعًا، ونعتوه بالبكاء، فأغضبه ذلك، وقال إنه سيستقيم ويفشي جميع الأسرار، إلَّا أن توم أعطاه خمسة سنتات حتى يبقى صامتًا، وقال إننا جميعًا سنذهب إلى المنزل ونلتقي الأسبوع المقبل، ونسرق أحدًا ونقتل بعض الأشخاص.

قال بن روجرز إنه لم يكن باستطاعته أن يخرج كثيرًا، باستثناء أيام الآحاد، ومن ثم أراد أن نبدأ الأحد المقبل، إلَّا أن جميع الصبية قالوا إن فعل شيء كهذا يوم الأحد سيكون ملعونًا، فحسم ذلك الأمر، واتفقوا أن نجتمع ونتفق على يوم فور استطاعتنا، ثم انتخبنا توم سوير ليكون زعيم العصابة الأول وجو هاربر الزعيم الثاني، وهكذا عدنا إلى المنزل.

تسلقت السقيفة وتسللت عبر نافذتي قبل سطوع النهار. كانت ملابسي الجديدة قد تشحمت تمامًا وتلطخت بالطين، وكانت قواي قد أُنهكت.

(٣)

وبختني الآنسة واتسون العجوز، في الصباح، توبيخًا شديدًا بسبب ملابسي، إلَّا أن الأرملة لم تؤنبني ونظفت الشحم والطين فحسب، وكانت تبدو آسفة جدًّا إلى درجة أنني فكرت في أن أتأدب قليلًا إن كان بوسعي، ومن ثم أخذتني الآنسة واتسون إلى الصومعة وصلَّت، إلَّا أنني لم أجد فائدة في ذلك، وأمرتني بأن أصلي كل يوم وسأحصل على أي شيء أطلبه، إلَّا أن ذلك لم يحدث عندما جربت الأمر، إذ إنني حصلت ذات مرة على صنارة دون خطاطيف، ولم تكن ذات نفع لي بدون الخطاطيف، وقد حاولت أن أصلي من أجل أن أحصل على الخطاطيف ثلاث أو أربع مرات، إلَّا أنني لم أفلح. ورويدًا رويدًا، طلبت إلى الآنسة واتسون، ذات يوم، أن تجرب أن تصلي من أجلي، فأخبرتني أنني أحمق، ولكنها لم تخبرني أبدًا سبب ذلك، ولم أستطع أن أفهم أبدًا.

ذهبت إلى الغابة، يومًا ما، وجلست أفكر طويلًا في الأمر، وقلت لنفسي إنه إذا كان بإمكان المرء أن يحظى بأي شيء يدعو من

أجل الحصول عليه، فلماذا لم يستعد «ديكين وِن» المال الذي خسره في لحم الخنازير؟ لماذا لم تستطع الأرملة أن تستعيد علبة النشوق الفضية التي سُرِقت؟ لماذا لا تستطيع الآنسة واتسون أن تسمن؟ لا، لا فائدة من ذلك. ذهبت وحدثت الأرملة في الأمر، فأخبرتني أن «العطايا الروحانية» هي ما يمكن للمرء الحصول عليه بالدعاء، وقد كان فهم ذلك صعبًا عليَّ، فبيَّنت لي قصدها، وهو أنني يجب أن أساعد الآخرين، وأن أفعل كل ما بوسعي من أجلهم، وأن أرعاهم طوال الوقت، وألَّا أفكر في نفسي أبدًا، وقد كان هذا يتضمن الآنسة واتسون حسبما فهمت. عدت إلى الغابة، وقلبت الأمر في رأسي طويلًا، لكنني لم أستطع أن أرى ميزة في الأمر، سوى للآخرين، ومن ثم استقر رأيي في النهاية على أن أنسى هذه المسألة ولا أفكر فيها مجددًا. كانت الأرملة تأخذني جانبًا، في بعض الأحيان، وتحدثني عن الرب، بطريقة مشوقة جدًّا، ثم تأتي الآنسة واتسون في اليوم التالي وتدمر كل ما فعلته الأرملة من جديد، وهكذا شعرت بأن هناك إلهين، وأن المرء المسكين يمكنه أن يحيا حياة طيبة مع الإله الذي تصفه الأرملة، أما إذا وصلت إليه الآنسة واتسون فلن يكون هناك من يعينه. وقد فكرت في الأمر كله، وتوصلت إلى أنني سأكون مع الإله الذي تصفه الأرملة، إذا هو أرادني، رغم أنني لم أكن أعرف كيف سيكون أفضل مما كان عليه من قبل، ذلك أنني كنت جاهلًا جدًّا، و نوعًا ما سيئًا جدًّا ومشاكسًا.

لم يُرَ أبي منذ أكثر من عام، وقد كان ذلك مريحًا لي، فلم أعد أرغب في رؤيته، فقد اعتاد أن يضربني بالسوط عندما يفيق من

سكره، ورغم أنني كنت أستطيع الهرب منه إلى الغابة، معظم الوقت الذي كان متواجدًا فيه، كان يستطيع الإمساك بي. وحسبما قال الناس، فقد عثروا عليه هذه المرة في النهر، غريقًا، على بعد اثني عشر ميلًا من البلدة، وحكموا بأنه هو، وقالوا إن الرجل الذي عُثِر على جثته كان في مثل حجمه، وكان رثًّا، وكان شعره طويلًا على غير ما هو مألوف، وهي أمور جميعها تشبه أبي، إلَّا أنهم لم يستطيعوا تبين ملامح وجهه، لأنه ظل في المياه فترة طويلة حتى لم تعد به ملامح وجه، وقالوا إنه كان طافيًا في المياه، على ظهره، ثم أخذوه ودفنوه على الضفة، إلَّا أنني لم أنعم بالراحة طويلًا، لأنني أخذت أفكر في شيء؛ لقد كنت أعرف جيدًا أن الغريق لا يطفو على ظهره، وإنما على وجهه، وعليه فقد عرفت أن تلك الجثة لم تكن لأبي، وإنما لامرأة ترتدي ملابس رجل، ومن ثم عاد إليَّ الشعور بعدم الراحة من جديد، وشعرت بأنه سيظهر من جديد، بعد فترة قصيرة، رغم أنني تمنيت ألَّا يحدث ذلك.

لعبنا دور قطاع الطرق، من حين إلى آخر، إلى ما يقرب من الشهر، ثم استقلت، وكذلك فعل جميع الصبيان، إذ إننا لم نسطُ على أحد أو نقتل أحدًا، وإنما تظاهرنا بفعل ذلك وحسب، وقد اعتدنا أن نخرج مندفعين من الغابة وننقض على رعاة الخنازير والنساء في عربات نقل موارد البساتين إلى السوق، إلَّا أننا لم نحظَ بأي غنيمة منها أبدًا، وكان توم سوير يطلق على الخنازير «سبائك»، ويسمي اللفت وغيره «مجوهرات»، وكنا نذهب إلى الكهف ونجتمع لمناقشة ما فعلنا وكم شخصًا قتلنا ووضعنا عليه علامتنا، لكنني لم أستطع

أن أرى مكسبًا في الأمر. وفي مرة، أرسل توم فتًى ليطوف البلدة بعصًا مشتعلة، مسمِّيًا هذا الأمر شعارًا (أي: إشارة إلى العصابة بأن تجتمع)، ثم أخبرنا أن لديه أنباءً سرية حصل عليها من مخبريه، تفيد بأنه في اليوم التالي ستخيم مجموعة من التجار الإسبانيين والعرب الأثرياء في كهف «هولو» ومعهم مئتا فيل، وست مئة جمل، وأكثر من ألف بغل، محملين جميعًا بالألماس، وحرس يبلغ عددهم أربع مئة فقط، وقال إننا سننصب لهم كمينًا، حسب وصفه، ونقتلهم جميعًا ونسرقهم، وقال إننا يجب أن ننظف سيوفنا وأسلحتنا ونستعد، ورغم أنه لم يتمكن حتى من مطاردة عربة محملة باللفت أبدًا، فقد كان صقل السيوف والأسلحة أمرًا واجبًا في سبيل ذلك، ولأنها كانت مجرد ألواح خشبية وعصي مقشات، فإنك إذا ظللت تصقلها حتى تموت وتتعفن، فلن تزيد قيمتها أكثر مما كانت عليه من قبل؛ حفنة من الرماد. لم أصدق أن بإمكاننا أن نهزم مثل هذا الحشد من الإسبانيين والعرب، لكنني أردت أن أرى الجِمال والفيلة، وعليه فقد ذهبت في اليوم التالي، السبت، إلى الكمين، وعندما صدر الأمر، اندفعنا خارج الغابة نحو التل، إلَّا أننا لم نجد إسبانيين وعربًا، ولم يكن هناك جمال أو أفيال. لم تكن سوى رحلة لمدرسة يوم الأحد، ولم يكن بها سوى الصف الأول. هاجمناهم، وطاردنا الأطفال حتى الكهف، إلَّا أننا لم نحصل على أي غنائم سوى بعض المعجنات والمربى، باستثناء بن روجرز، الذي حصل على دمية رثة، وجو هاربر، الذي حصل على كتاب ترانيم ومنشور ديني، ومن ثم تدخل المدرس، وجعلنا نلقي بكل شيء ونكف. لم

أرَ أي ألماس، وأخبرت توم سوير بذلك. فقال إن الكثير منه كان موجودًا هناك، وقال إن عربًا كانوا هناك أيضًا، وكذلك الأفيال وغيرها. سألته لماذا لم نستطع رؤيتهم إذًا؟ فقال لو أنني لم أكن جاهلًا هكذا، وقرأت كتابًا اسمه «دون كيخوتي»، كنت لأعرف الإجابة دون أن أسأل. قال إن ذلك كله كان بفعل السحر، وقال إنه كان هناك المئات من الجنود، والأفيال والكنوز، وما إلى ذلك، إلَّا أننا كان لدينا أعداء أسماهم مشعوذين؛ حولوا كل هذا إلى مدرسة يوم أحد للأطفال، عن ضغينة. فقلتُ إن ما يتعين علينا فعله إذًا هو أن نصل إلى المشعوذين، فقال توم سوير إنني أحمق.

قال: «يمكن للمشعوذ أن يستحضر العديد من الجن، وقبل أن تستطيع نطق اسم جاك روبنسون[1]، سيكونون قد هرسوك كما لو لم تكن شيئًا؛ إنهم بطول شجرة وضخامة كنيسة».

قلت: «حسنًا، افترض أن بعض الجن كان موجودًا لمساعدتنا، ألا يمكننا هزيمة الحشد الآخر حينها؟».

«كيف ستستحضرهم؟».

«لا أعرف، كيف يستحضرونهم؟».

«يدعكون مصباحًا قديمًا من القصدير أو خاتمًا من المعدن، فيأتي الجن مندفعًا، وسط ضربات الرعد والبرق وسحب الدخان، ويفعلون كل ما يُطلب منهم، ولا يهمهم إذا اقتلعوا برجًا من

---

(١) شخصية أسطورية، يُستدل بها على السرعة الشديدة.

الرصاص من جذوره، وضربوا به مدير مدرسة يوم الأحد فوق رأسه، أو أي رجل آخر».

«ومن يجعلهم يندفعون هكذا؟».

«أي شخص يدعك المصباح أو الخاتم، لأنهم يصيرون ملك من يدعك المصباح أو الخاتم، ويتعين عليهم القيام بأي شيء يقوله هذا الشخص، فإذا أمرهم بأن يبنوا قصرًا طوله أربعين ميلًا من الألماس ويملئونه بالعلكة أو بأي شيء تريده ويحضرون ابنة إمبراطور من الصين من أجل أن تتزوجها، يجب أن يفعلوا ذلك، ويجب أن يفعلوه قبل شروق شمس الصباح التالي أيضًا. بل أكثر من ذلك: يجب أن يطوفوا بذلك القصر في أي مكان تريده في البلد، أتفهمني».

قلت: «أعتقد أنهم حفنة من الأغبياء لعدم احتفاظهم بالقصر لأنفسهم بدلًا من التصرف فيه هكذا. بل أكثر من ذلك، إذا كنتُ واحدًا منهم، كنت لأفضل الذهاب وملاقاة رجل في أريحا، على أن أترك عملي وأذهب إلى ذلك الشخص لأنه دعك مصباحًا قديمًا من القصدير».

«كيف تتحدث يا هاك فن. عليك أن تذهب عندما يدعكه، سواء أردت ذلك أم لا».

«ماذا! وأنا بطول شجرة وضخامة كنيسة؟ حسنًا إذًا، سأذهب، لكني سأجعل ذلك الشخص يتسلق أطول شجرة في البلد».

«اللعنة، لا فائدة من الكلام معك يا هاك فن. لا يبدو أنك تعرف أي شيء، يا لك من أحمق».

فكرت في كل هذا، يومين أو ثلاثة أيام، وقررت أن أتأكد إذا كان الأمر صحيحًا، فأحضرت مصباحًا قديمًا من القصدير وخاتمًا معدنيًّا، وخرجت إلى الغابة وأخذت أدعك وأدعك حتى تصببت عرقًا كما لو كنت من الهنود الحُمر، بينما أخطط لبناء قصر وبيعه، إلَّا أن ذلك كله ذهب هباء، ولم يأتِ أي جان. ومن ثم استقر رأيي على أن جميع تلك الأمور كانت إحدى أكاذيب توم سوير، ورأيت أنه صدق مسألة العرب والأفيال تلك، أما أنا فكان لي رأي مختلف؛ لقد كانت لديهم كل علامات مدرسة يوم الأحد.

(٤)

مرت ثلاثة أو أربعة أشهر، وأصبحنا في فصل الشتاء الآن. كنتُ في المدرسة طوال الوقت تقريبًا وتعلمت التهجئة والقراءة والكتابة، بقدر يسير، واستطعت أن أحفظ جدول الضرب حتى وصلت إلى أن حاصل ضرب ستة في سبعة هو خمسة وثلاثون، ولا أظن أن بإمكاني أن أحفظ أكثر من ذلك إلى الأبد، فأنا لا أهتم بالرياضيات على أي حال.

كرهتُ المدرسة في البداية، لكنني ما لبثت أن اعتدت عليها بعد فترة، وعندما كنت أضيق ذرعًا، كنت أهرب من المدرسة، وكان الضرب الذي أتلقاه في اليوم التالي يفيدني ويبهجني، وهكذا مع طول ذهابي إلى المدرسة، أصبح الأمر أيسر. بدأت أعتاد على الأسلوب الذي تعيش به الأرملة، خصوصًا أنهم لم يكونوا قساة عليَّ. كان العيش في منزل والنوم في فراش مقيدين جدًّا لي، وعليه كنت أتسلل إلى الخارج، قبل حلول الشتاء، وأنام في الغابة لبعض الوقت، وقد كان ذلك مصدر راحة لي، فقد كنت أحب أسلوب

حياتي القديم أكثر، لكنني اعتدت على هذا الأسلوب الجديد أيضًا وأحببته، ولو قليلًا، وأخبرتني المرأة أنني أحرز تقدمًا بطيئًا، ولكن بخطًى ثابتة وعلى نحو مرضٍ جدًّا، وقالت إنها لم تكن تشعر بالخجل مني.

ذات صباح، وبينما كنا نتناول الإفطار، أسقطتُّ الملَّاحة، فمددت يدي بأقصى سرعة لألتقط بعضًا منه وألقي به فوق كتفي اليسرى لأبعد الحظ السيئ، إلَّا أن الآنسة واتسون كانت أسرع مني وأبعدت يدي، قائلة: «ابعد يديك يا هكلبري، يا للفوضى التي تحدثها دائمًا!»، ورغم أن الأرملة قالت كلامًا جيدًا بحقي، فإنني كنت أعلم تمام العلم أن ذلك لن يبعد الحظ السيء. انطلقت خارجًا، بعد الإفطار، وأنا أرتجف وأشعر بالقلق، متسائلًا أين سيقع عليَّ هذا الحظ السيئ، وبأي شكل سيكون، ورغم أن هناك طرقًا لإبعاد بعض أنواع الحظ السيئ، فإن هذا لم يكن واحدًا من تلك الأنواع، وعليه لم أحاول أن أفعل أي شيء أبدًا، ومضيت منقبض الصدر أنتظر في ترقب.

ذهبتُ إلى الحديقة الأمامية وتسلقت السلم الموجود عند السور العالي العريض؛ كانت طبقة جديدة بارتفاع بوصة قد تكونت على الأرض، فرأيت آثار أقدام شخص يبدو أنه كان قادمًا من ناحية المحجر قبل أن يتوقف قليلًا حول السلم ويدور حول سور الحديقة، كان من الغريب أنه لم يدخل بعد أن وقف حوله هكذا. لم أفهم ماذا حدث، وأثار الأمر فضولي. كنت سأتبع آثُار الأقدام، لكنني انحنيت أولًا من أجل أن ألقي نظرة عليها. لم ألحظ شيئًا

في البداية، لكنني انتبهت بعد ذلك إلى وجود صليب مصنوع من مسامير كبيرة، في الكعب الأيسر للحذاء، من أجل إبعاد الشيطان.

انتفضتُ وانطلقت كالبرق إلى أسفل التل، وكنت أتلفت ورائي من حين إلى آخر، لكنني لم أرَ أحدًا، ذهبت إلى منزل القاضي ثاتشر بأقصى سرعة، فبادرني قائلًا:

«أنت منقطع الأنفاس يا فتاي، هل أتيت من أجل أرباحك؟».

قلت: «لا سيدي، هل هناك أرباح لي؟».

«أوه، نعم، لقد وصلت الأرباح نصف السنوية ليلة أمس، أكثر من مئة وخمسين دولارًا، إنها ثروة كبيرة، من الأفضل أن تجعلني أستثمرهم مع الستة آلاف، لأنك إن أخذتهم ستنفقهم».

«لا سيدي، لا أريد إنفاقهم، أنا لا أريدهم على الإطلاق، لا هم ولا الستة آلاف. أريدك أن تأخذهم، أريد أن أمنحك إياهم، الستة آلاف وكل شيء».

بدا متفاجئًا، ولم يبدُ أنه يستطيع فهم الأمر، فقال:

«لماذا، ماذا تقصد يا فتاي؟».

قلت: «لا تسألني عن أي شيء من فضلك. ستأخذه، أليس كذلك؟».

فقال:

«حسنًا، أنا مدهوش، هل هناك خطب ما؟».

قلت: «خذه من فضلك، ولا تسألني عن شيء، حتى لا أضطر إلى أن أكذب».

تَفكَّر قليلًا، ثم قال:

«أوه! أعتقد أنني فهمت. أنت تريد أن تبيع كل أملاكك لي، لا أن تمنحني إياها. هذا هو قصدك».

ثم كتب شيئًا على ورقة وقرأها، وقال:

«خذ، مثلما ترى فإنها مكتوب عليها «مقابل مبلغ مالي»، ويعني ذلك أنني قد ابتعتها منك وأعطيتك مقابلًا لها. هذا دولار من أجلك، والآن وقع».

فوقعت ومضيت.

كان لدى جيم، خادم الآنسة واتسون الأسود، كتلة شعر[1] بحجم قبضة اليد، كان قد حصل عليها من معدة رابعة لثور، وكان معتادًا على أن يستخدمها في السحر، وكان يقول إن بداخلها روحًا تعرف كل شيء. ومن ثم، ذهبت إليه في تلك الليلة وأخبرته أن أبي عاد مجددًا، وأنني وجدت آثار حذائه في الثلج. ما كنت أريد معرفته هو ماذا كان سيفعل، وما إذا كان سيبقى؟ أخرج جيم كرة الشعر وتلا عليها شيئًا، ثم رفعها وألقى بها على الأرض، فسقطت بثبات شديد وتدحرجت حوالي بوصة واحدة، حاول جيم الأمر مجددًا، ثم كرر المحاولة، إلَّا أن الشيء نفسه تكرر. انحنى جيم على ركبتيه،

---

(١) كتلة من الشعر تتكون على بطن الحيوانات نتيجة لعقها لفروتها.

ووضع أذنه عليها وأنصت، دون جدوى، إذ قال إنها لا تتحدث وأنها في بعض الأحيان لا تتحدث دون مقابل مادي، فأخبرته أن معي ربع سنت مزيف أملس قديم ليس له قيمة، لأن القصدير كان ظاهرًا من تحت الفضة، ولم يكن ليصلح على أي حال، حتى لو لم يكن القصدير ظاهرًا، لأنه كان أملس جدًّا إلى درجة أن ملمسه كان دهنيًّا، وكان سيُكشف أمره في كل مرة. (قررتُ ألَّا أقول له شيئًا عن الدولار الذي حصلت عليه من القاضي). أخبرته أن العملة سيئة جدًّا، لكن من الممكن أن تقبلها كرة الشعر، إذ ربما لن تعرف الفارق، فشمها جيم وعضها ودعكها، وقال إنه سيتدبر الأمر حتى تقبلها كرة الشعر، وقال إنه سيقطع حبة بطاطس أيرلندية نيئة إلى نصفين، ويغرز بينهما الربع سنت، ويبقيه بداخلها طوال الليل، وفي الصباح التالي سيُمحى أثر القصدير، ولن يكون ملمسه دهنيًّا، وسيقبل أي شخص في البلدة أن يأخذه على الفور، ناهيك عن كرة شعر. لقد كنت أعرف أن البطاطس بإمكانها أن تفعل ذلك، من قبل، ولكنني كنت قد نسيت.

وضع جيم الربع سنت تحت كرة الشعر، وانحنى ليستمع إليها من جديد، وأخبرني أن الأمر قد نجح هذه المرة مع كرة الشعر، وقال إنها ستخبرني بطالعي كله إذا أردتُ ذلك، فأخبرته أن يستمر، ومن ثم تحدثت كرة الشعر إلى جيم، ونقل جيم كلامها إليَّ، قائلًا:

«لا يعرف والدك العجوز ماذا سيفعل بعد، إذ إنه يفكر في الرحيل أحيانًا، ثم يشعر من جديد برغبة في البقاء، وأفضل ما تفعله هو أن تطمئن وتدع الرجل العجوز يختار طريقه، لأن هناك

ملكان يحومان حوله، أحدهما أبيض نوراني، والآخر أسود، فأما الملاك الأبيض فيحاول أن يجعله يسير في الطريق المستقيم، وأما الملاك الأسود فيأتي ويفسد كل شيء. لا يمكن للمرء أن يحدد أيهما سيفوز في النهاية، لكنك ستكون بخير؛ ستتعرض لمشاكل كثيرة في حياتك، وستنعم بفرحة كثيرة، ستتألم أحيانًا وتمرض أحيانًا، لكنك ستتحسن في كل مرة من جديد. هناك صبيتان في حياتك، إحداهما شقراء والأخرى سمراء، إحداهما ثرية والأخرى فقيرة، وستتزوج الفقيرة أولًا ثم الثرية بعد ذلك، وابتعد عن الماء قدر استطاعتك، ولا تغامر حتى لا تتعرض للشنق».

عندما أشعلتُ شمعتي وصعدتُّ إلى غرفتي في تلك الليلة، وجدتُّ أبي بنفسه جالسًا هناك!

(٥)

فور أن أغلقت الباب والتفت، وجدته أمامي. كنت أخاف منه دائمًا، لأنه اعتاد أن يضربني كثيرًا، وظننت أنني خشيته في تلك اللحظة أيضًا، إلَّا أنني أدركت بعد دقيقة أنني كنت مخطئًا، وأنني كنت فقط مرتجفًا من الصدمة الأولى، مثلما يقولون، لأنني لم أكن أتوقع وجوده فانقطع نفسي نوعًا ما، وسرعان ما وجدت أنني لم أكن أشعر بالخوف وأنه لا يوجد فيه ما يستحق أن أخشاه.

كان تقريبًا في عمر الخمسين، وكان مظهره ينم عن سنه. كان شعره طويلًا ومنسدلًا إلى أسفل ومضفرًا وأملس، وكان بإمكانك أن ترى عينيه تلمعان، كما لو كان ينظر إليك من وراء عناقيد عنب. كان شعره كله أسود، ولم تكن فيه شعرة بيضاء واحدة، وكذلك كانت سوالفه الطويلة الشعثاء. لم يكن من الواضح أن وجهه تجري به أي دماء، إذ كان وجهه أبيض، ولم يكن بياضه مثل بياض رجل أبيض، وإنما بياض إلى درجة تجعل المرء يشعر بالغثيان، بياض إلى درجة تقشعر لها الأبدان، بياض ضفادع الشجر، بياض بطن

السمك. أما بالنسبة إلى ملابسه، فلم تكن سوى أسمال، وكان يضع كعب إحدى ساقيه على ركبة ساقه الأخرى، وكان الحذاء الذي كان يرتديه في تلك القدم مقطوعًا، وتدلى خارجه إصبعان ظل يحركهما من وقت إلى آخر. كانت قبعته ملقاة على الأرض، وكانت سوداء مصنوعة من الجوخ، وتقعر جانبها العلوي إلى الداخل فأصبحت تشبه الجفن.

وقفتُ أتطلع إليه، وجلس هو يتطلع إليَّ من مكانه وقد مال كرسيه قليلًا إلى الوراء. وضعت الشمعة، ولاحظت أن النافذة كانت مفتوحة؛ إذًا فقد تسلل إلى الداخل بعد أن تسلق السقيفة. ظل يتطلع إليَّ، ثم قال بعد فترة وجيزة:

«ملابس أنيقة جدًّا. أنت معتد بنفسك كثيرًا، أليس كذلك؟».

قلت: «ربما أكون، وربما لا».

قال: «كُفَّ عن طريقتك هذه، لقد صرت في حال أفضل كثيرًا منذ أن رحلت، سألقنك درسًا على عجرفتك هذه قبل أن أنتهي من أمرك، إنهم يقولون أيضًا إنك تعلمت وأصبح بإمكانك أن تقرأ وتكتب، هل تظن أنك صرت أفضل من والدك، لأنه ليس لديه ما لديك؟ سألقنك درسًا. من قال لك إن بإمكانك أن تنخرط في هذه الترهات السخيفة، ها؟ من قال لك هذا؟».

«الأرملة، هي من قالت لي هذا».

«الأرملة، ها؟ ومن قال للأرملة إن بإمكانها أن تتدخل فيما لا يعنيها؟».

«لم يقل لها أحد هذا».

«حسنًا، أنا سأعلمها كيف تتدخل فيما لا يعنيها، واسمعني أنت أيضًا؛ ستترك هذه المدرسة، أتسمعني؟ سأعلم الناس كيف يتجرءون على تعليم صبي أن يتعالى على أبيه وعلى أن يعامله باعتباره أفضل منه. إياك أن أراك تتسكع بالقرب من تلك المدرسة من جديد، أتسمعني؟ لم تكن والدتك تعرف القراءة والكتابة حتى ماتت، ولم يكن أحد من أهلك يعرف القراءة والكتابة حتى ماتوا، وأنا لا أستطيع، وهأنت ذا تتعلم، أنا لست الرجل الذي يقبل بهذا، أتسمعني؟ دعني أن أستمع إليك وأنت تقرأ».

أمسكت بكتاب وشرعت في قراءة شيء عن القائد واشنطون والحروب لما يقرب من نصف دقيقة، حتى أمسك والدي بالكتاب في يده وأطاح به بطول الغرفة، قائلًا:

«الأمر صحيح إذًا أن باستطاعتك القراءة، لقد كانت عندي شكوك عندما أخبرتني. والآن، انظر إليَّ: كف عن عجرفتك هذه، فأنا لن أسمح لك بهذا، وسأترصد لك أيها المتحاذق، وإذا لمحتك بالقرب من تلك المدرسة، سأضربك ضربًا مبرحًا، لم يبقَ سوى أن تصبح متدينًا أيضًا، لم أرَ ابنًا مثلك».

أمسك بصورة صغيرة لفتى مع بعض البقر، لونها أصفر وأزرق، وقال:

«ما هذا؟».

«لقد أعطوني إياها من أجل أن أذاكر دروسي جيدًا».

فمزقها، وقال:

«سأعطيك شيئًا أفضل، سأعطيك علقة».

ثم جلس هناك يتمتم ويزمجر لمدة دقيقة، وقال:

«لقد أصبحتَ مدللًا ذا رائحة طيبة؛ فراش وملاءات وسجادة على الأرض، بينما ينام والدك مع الخنازير في المدبغة، أنا لم أرَ ابنًا مثلك، أعدك أنني سألقنك درسًا على عجرفتك هذه قبل أن أنتهي من أمرك، ألن تكف عن تعاليك هذا، إنهم يقولون إنك أصبحت ثريًّا، ها؟ كيف حدث هذا؟».

«إنهم يكذبون. هذا هو ما حدث».

«اسمعني، انتبه إلى طريقة كلامك معي ولا تكن وقحًا، فقد فاض بي الكيل. لقد وصلت إلى البلدة منذ يومين، ولم أسمع شيئًا سوى أنك أصبحت ثريًّا، وقد سمعت بالأمر عند النهر أيضًا، وهذا هو سبب مجيئي، ستجلب إليَّ النقود غدًا، أنا أريدها».

«ليس لديَّ أي نقود».

«هذه كذبة، النقود مع القاضي ثاتشر، وأنت تملك النقود، وأنا أريدها».

«أقول لك إن ليس لديَّ أي نقود، اسأل القاضي ثاتشر وسيقول لك نفس الشيء».

«حسنًا، سأسأله، وسأجعله يدفع أيضًا، أو سأعرف منه سبب ثراءك. قل لي، كم معك في جيبك؟ أنا أريد ما معك».

«ليس معي سوى دولار واحد، وأنا أريده من أجل..».

«لا يهمني من أجل ماذا تريده، أعطني إياه وحسب».

أخذه وعضه ليرى إن كان حقيقيًّا، ثم قال إنه سيذهب إلى وسط المدينة من أجل أن يتناول بعض الويسكي، قائلًا إنه لم يشرب كأسًا واحدًا طوال اليوم.

تسلل خارجًا إلى السقيفة، ثم أدخل رأسه مجددًا وسبني على غطرستي ومحاولتي أن أكون أفضل منه، وعندما ظننت أنه رحل، عاد مجددًا وأدخل رأسه مرة ثانية، وأخبرني أن أحذر لأنه سيترصد لي عند المدرسة ويضربني إن لم أنسَ أمرها.

في اليوم التالي، ذهب إلى القاضي ثاتشر وهو سكران وضايقه، وحاول أن يجبره على أن يعطيه المال، إلَّا أنه لم يفلح، فأقسم على أن يجعل القانون يجبره على فعل ذلك.

ذهب القاضي والأرملة إلى المحكمة، من أجل أن يبعداني عنه ويجعلان أحدهما الوصي عليَّ، إلَّا أن القاضي كان قد وفد حديثًا إلى البلدة، ولم يكن يعرف أبي، وقال إن المحاكم لا يجب أن تتدخل في تفريق الأهل إن كان بوسعها ألَّا تفعل ذلك، وقال إنه لا يود أن يبعد طفلًا عن أبيه، وهكذا تخلى القاضي ثاتشر والأرملة عن الفكرة.

لم تسع الفرحة والدي بهذا الأمر، وقال إنه سيضربني حتى يصير جسدي أسود وأزرق ما لم أعطه بعض النقود، ومن ثم اقترضت ثلاثة دولارات من القاضي ثاتشر، وأخذ أبي النقود وثمل، وظل يصيح ويسب ويدور في البلدة كلها، حتى منتصف الليل تقريبًا،

حاملًا معه مقلاة من القصدير، فأخذوه إلى السجن، وعرضوه على المحكمة في اليوم التالي، وحبسوه مجددًا لمدة أسبوع، لكنه قال إنه كان راضيًا، وقال إنه يسيطر على ابنه وأنه سيضربه.

عندما أُطلق سراحه، قال القاضي الجديد إنه سيجعل منه رجلًا، ثم أخذه إلى منزله وألبسه ملابس نظيفة ولطيفة، وقدم إليه فطورًا وغداءً وعشاءً مع العائلة، وإن جاز التعبير فقد كان ودودًا معه. وبعد العشاء، تحدث إليه بشأن الإقلاع عن السُّكر وما إلى ذلك، حتى بكى والدي، وقال إنه كان أحمق، وأنه ضيع حياته، وأنه سيبدأ الآن صفحة جديدة ويصير رجلًا لا يخجل منه أحد، وتمنى أن يساعده القاضي وألَّا يستحقره، فقال القاضي إنه على استعداد أن يعانقه بعد أن سمع هذه الكلمات، ثم بكى، وبكت زوجته مجددًا. قال أبي إنه كان رجلًا كان يُساء فهمه دائمًا من قبل، فأخبره القاضي أنه يصدقه. قال والدي إن ما يحتاجه المرء هو أن يُرفق به، ووافقه القاضي، وبكيا من جديد. وعندما حان وقت النوم، نهض والدي ورفع يده قائلًا:

«انظروا إليها جميعًا أيها السادة والسيدات، أمسكوها، صافحوها. كانت هذه يد دنسة، لكنها لم تعد كذلك، إنها يد رجل بدأ حياة جديدة، وسأموت قبل أن أعود إلى ما كنت عليه. تذكروا كلامي هذا؛ لا تنسوا أني قلت هذا الكلام. لقد أصبحت يدًا نظيفة الآن، صافحوها، لا تخافوا».

فصافحوها واحدًا تلو الآخر، وبكوا، وقبلتها زوجة القاضي.

ثم بصم والدي على تعهد، وقال القاضي إن هذه اللحظة كانت من أقدس اللحظات على الإطلاق، أو ما شابه ذلك. ضيفوا والدي في غرفة جميلة؛ كانت غرفة إضافية، ثم في وقت ما من الليل شعر بعطش شديد، فتسلل خارجًا عبر سطح الشرفة، وانزلق على عمود، وقايض معطفه الجديد مقابل إبريق من ويسكي رخيص قوي المفعول، وتسلل عائدًا من جديد، مستعيدًا ذكريات الأيام القديمة، وقرب شروق الشمس، تسلل إلى الخارج من جديد، وهو ثمل، وانزلق على السقيفة وكسر ذراعه الأيسر في موضعين، وكاد أن يموت من البرد حتى وجده شخص بعد شروق الشمس. وعندما ذهبوا إلى غرفة الضيوف، كان عليهم أن يقدروا حجم الخسائر التي لحقت بها قبل أن يدخلوها.

شعر القاضي بالضيق نوعًا ما، وقال إنه يعتقد أن المرء يمكنه أن يصلح والدي، ربما بطلقة رصاص، لكنه لم يكن يعرف طريقة أخرى.

(٦)

حسنًا، سرعان ما أفاق والدي من جديد واستعاد نشاطه وذهب يشكو القاضي ثاتشر في المحاكم من أجل أن يجبره على إعطائه النقود، وطاردني أنا أيضًا لأنني لم أتوقف عن الذهاب إلى المدرسة، وأمسك بي مرتين وضربني، لكنني ظللت أذهب إلى المدرسة، وكنت أراوغه أو أسابقه ركضًا أغلب الوقت. لم تكن لديَّ رغبة كبيرة في الذهاب إلى المدرسة، قبل ذلك الحين، لكنني قررت أن أذهب من أجل إغاظة والدي. كان سير المحاكمة بطيئًا، وبدا كما لو أنها لن تبدأ أبدًا، وهكذا كنت أقترض من القاضي دولارين أو ثلاثة دولارات، من حين إلى آخر، من أجل أن أعطيهم لأبي حتى أتحاشى ضربه. وفي كل مرة كان يحصل فيها على نقود، كان يسكر، وفي كل مرة كان يسكر: كان يحدث صخبًا في البلدة، وفي كل مرة كان يحدث فيها صخبًا: كان يُسجن، وقد كان متكيفًا مع ذلك، كان هذا نمط حياته.

كان أيضًا يحوم حول منزل الأرملة كثيرًا، فأخبرَتْه نهاية

الأمر أنه إن لم يتوقف عن الحومان فسيلقى ما لا يرضى. حسنًا، ألم يكن مجنونًا؟ أخبرهم أنه سيجعلهم يعرفون من هو مالك ذمام هاك فِن، وهكذا ترصَّد لي أحد أيام الربيع وأمسك بي وأخذني في قارب وابتعد ثلاثة أميال ووصل إلى شاطئ إلينوي الشجري الخالي من المنازل باستثناء كوخ قديم مصنوع من الخشب يقع في مكان تتكاثف فيه الأشجار بكثرة، حتى أنك لن تستطيع الوصول إليه ما لم تكن تعرف مكانه بالضبط.

كان يجبرني على البقاء معه طوال الوقت، فلم تسنح لي الفرصة أبدًا أن أهرب. عشنا في تلك المقصورة القديمة، وكان دائمًا ما يغلق الباب ويضع المفتاح تحت رأسه ليلًا. كان معه بندقية، على الأغلب سرقها، وكنا نذهب إلى صيد السمك وغيره، وكان هذا ما نقتات عليه. وكان يحبسني كل مرة يخرج فيها، ثم يأخذ القارب ويذهب إلى المتجر الواقع على بعد ثلاثة أميال، وكان يقايض السمك والطيور بالويسكي، ثم يجلبه إلى المنزل ويسكر ويقضي وقتًا لطيفًا ويضربني. بطريقة ما اكتشفت الأرملة مكاني، وأرسلت رجلًا يجرب إعادتي، إلَّا أن أبي هدده بالبندقية. لم يمر وقت طويل حتى كنت قد اعتدت على المكان وراق لي الأمر كله باستثناء مسألة الضرب.

كان الاستلقاء طوال النهار في كسل والتدخين والصيد، بدون كتب أو دراسة، أمرًا مريحًا وممتعًا نوعًا ما. بعد مرور شهرين أو ثلاثة أشهر، كانت ملابسي قد تمزقت واتسخت تمامًا، ولم أفهم كيف كنت أحب الاستحمام وتناول الطعام في طبق وتمشيط شعري والنوم والاستيقاظ في مواعيد منتظمة والانكفاء على كتاب وتلقي

انتقادات الآنسة واتسون العجوز طوال الوقت، في منزل الأرملة. لم تعد لديَّ رغبة في العودة، وقد عدت إلى السباب مجددًا، بعد أن كنت قد توقفت عنه لعدم قبول الأرملة به، لكن والدي لم يكن يعترض. وفي المجمل، فقد كان الوقت ممتعًا في الغابة.

لكن سرعان ما أصبح ضرب والدي لي أكثر حدة، وملأت آثار الضرب جسدي، ولم أستطع تحمل الأمر. وكان أيضًا يخرج كثيرًا، ويحبسني في الداخل. وفي مرة، حبسني ولم يعد إلَّا بعد ثلاثة أيام، وكان ذلك موحشًا بدرجة رهيبة، إذ ظننت أنه غرق وأنني لن أخرج أبدًا، وكنت خائفًا، وقررت أنني سأجد طريقة أهرب بها، وحاولت الخروج من المقصورة عدة مرات، لكنني لم أجد طريقة، إذ إنه لم تكن هناك نافذة كبيرة بما يكفي لأن يمر منها كلب، ولم أستطع تسلق المدخنة لأنها كانت ضيقة جدًّا، وكان الباب سميكًا ومصنوعًا من ألوح بلوط صلبة. وكان والدي حريصًا جدًّا ألَّا يترك سكينًا أو أي شيء في المقصورة طالما لم يكن موجودًا. أظن أنني فتشت هذا المكان نحو مئة مرة، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتمرير الوقت. لكنني أخيرًا عثرت على شيء هذه المرة، إذ وجدت منشار خشب صدئًا، ليس له مقبض، بين أحد ألواح السقيفة الخشبية وأحد الأعمدة الداعمة، ومن ثم قمت بتزييته وشرعت في العمل. كانت هناك بطانية حصان مثبتة بمسامير في الألواح الخشبية المتواجدة عند نهاية المقصورة البعيدة خلف الطاولة، لمنع الهواء من أن يمر عبر الفتحات ويطفئ الشمع. زحفت تحت الطاولة ورفعت الغطاء، وبدأت في نشر جزء من اللوح السفلي الكبير حتى يتسع بما

يكفي لأن أمر عبره، وقد كانت هذه مهمة طويلة وصعبة، لكنني كنت قد أوشكت على إتمامها عندما سمعت صوت بندقية والدي قادمًا من الغابة. وما لبثت أن محوت آثار عملي، وأسدلت الغطاء، وغطيت منشاري، حتى دخل والدي.

لم يكن والدي في مزاج جيد، ومن ثم كان يتصرف على سجيته. حكى لي أنه كان في وسط البلدة، وأن الأمور لا تسير على ما يرام، إذ إن المحامي أخبره أن بإمكانه الفوز بالقضية والحصول على النقود إذا ما بدأت المحاكمة، إلَّا أن هناك طرقًا لتأجيلها مدة طويلة، كان القاضي ثاتشر على علم بها، وأخبرني أن الناس تتحدث عن قضية أخرى من شأنها أن تبعدني عن والدي وأكون تحت وصاية الأرملة، وأن هناك توقعات بأن يربحوها هذه المرة، وقد أفزعني هذا بدرجة كبيرة، لأنني لم أكن أرغب في العودة إلى الأرملة مرة أخرى وأُصبح ملتزمًا ومتحضرًا، مثلما يقولون. أخذ والدي يسب كل شيء وكل شخص استطاع أن يفكر فيه، وأعاد سبهم حتى يتأكد أنه لم ينسَ أحدًا، وبعد ذلك سب الجميع سبابًا عامًّا، بما في ذلك مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين لم يكن يعرف أسماءهم، ويشير إليهم بـ«أيًّا كان اسمه» عندما كان يتطرق إليهم، واستمر في سبابه.

قال إنه يتحدى أن تصبح الأرملة وصية عليَّ، وقال إنه سيراقب الوضع، وإذا حاولوا أن يُقدِموا على مثل هذه الفَعلة، فإنه سيأخذني إلى مكان على بعد ستة أو سبعة أميال ويخبئني فيه، وحينها سيبحثون عني حتى ينهكهم التعب ولن يتمكنوا من العثور عليَّ،

وقد جعلني هذا أقلق من جديد، إلَّا أن القلق لم يدم طويلًا، إذ إنني قررت أنني لن أبقى حتى تسنح له الفرصة.

جعلني والدي أذهب إلى القارب وأجلب الأغراض التي أحضرها؛ كان هناك جوال ذرة يزن خمسين باوندًا، وشريحة من لحم الخنزير، وذخيرة، وأربعة جالونات من قناني الويسكي، وكتاب قديم، وورقتان من أجل حفظ البارود، وبعض الحبال. بعد أن حملت الأغراض، عدت وجلست فوق حافة القارب لأستريح، ثم فكرت في الأمر كله وقررت أنني سأرحل ومعي السلاح وبعض الصنارات، ثم أهرب إلى الغابة، وقررت أنني لن أبقى في مكان واحد وأن أكون مشردًا في البلاد، خصوصًا في أوقات الليل، وأن أصطاد السمك وغيره لأقتات عليه، وأن أظل بعيدًا جدًّا حتى لا يتسنى لوالدي أو للأرملة العثور عليَّ أبدًا من جديد، وقررت أن أرحل تلك الليلة إذا ثمل والدي بما فيه الكفاية، ورأيت أنه سيثمل. استغرقتني الفكرة جدًّا، حتى أنني لم ألحظ كم مضى على جلوسي قبل أن يأتي والدي وهو يصيح ويسألني إن كنت قد نعست أو غرقت.

وعندما حملت كل الأغراض إلى المقصورة، كان الظلام قد حل. تناول والدي كأسًا أو اثنين، بينما كنت أطهو العشاء، فجعله الشراب يتحمس نوعًا ما وأخذ يحدث جلبة من جديد. ذهب إلى البلدة مخمورًا، وقضى الليلة كلها في المجاري، وكان منظره رهيبًا، ولشدة ما كان ملطخًا بالطين، كان المرء ليحسبه «آدم». كلما كان يحدث الخمر تأثيره، كان دومًا تقريبًا ما يتحدث عن الحكومة، وفي حديثه هذه المرة قال:

«أتسمون هذه حكومة! انظروا إليها وانظروا كيف تبدو. ها هو القانون مستعد لأن يبعد ابنًا عن والده؛ ابنًا من صلبه. الأب الذي تكبد كل العناء وتحمل كل قلق ونفقات تربيته. نعم، بمجرد أن يربي الرجل ابنه، ويصبح هذا الابن أخيرًا مستعدًّا لأن يعمل ويفعل شيئًا من أجل أن يرتاح والده، يصبح القانون في صالحه، ويسمون هذه حكومة! إن هذه ليست حكومة. إن هذا القانون يدعم ذلك القاضي العجوز ثاتشر ويعينه على سلب حقوقي مني. يأخذ القانون رجلًا يملك ما لا يقل عن ستة آلاف دولار، ويتركه محشورًا في مقصورة قديمة حقيرة مثل هذه، ويدعه يسير بملابس لا تصلح لخنزير، ويسمون هذه حكومة! لا يمكن للمرء أن يحصل على حقوقه تحت كنف حكومة مثل هذه. تتملكني أحيانًا فكرة أنه من الأفضل أن أترك البلد وحسب. نعم، وقد أخبرتهم بهذا، لقد أخبرت العجوز ثاتشر بهذا في وجهه. وسمعني أناس كثر، ويمكنهم أن يؤكدوا كلامي. قلت له: أراهنك مقابل سنتين أنني سأترك هذا البلد الملعون ولا أقترب ناحيته من جديد. كانت هذه هي كلماتي بالضبط. قلت له: انظر إلى قبعتي، إن كنت تسمي هذه قبعة، إذ إن جزءًا منها يرتفع إلى أعلى وتهبط بقيتها إلى أسفل حتى تصل إلى أسفل ذقني، ومن ثم فهي لا تكاد تكون قبعة على الإطلاق، بل على الأحرى فإن الأمر يبدو كما لو أنني حشرت رأسي داخل مدخنة الموقد. قلت له: انظر إليها، هذه هي القبعة التي أرتديها، وأنا أحد أثرى رجال البلدة إن كان باستطاعتي أن أحصل على حقوقي».

«أوه، نعم، هذه حكومة رائعة، رائعة. كان هناك زنجي حر

من أوهايو؛ كان خلاسيًّا مثله مثل رجل أبيض تقريبًا، وكان يرتدي أبيض سترة يمكنك أن تراها على الإطلاق أيضًا، وأكثر القبعات نصاعة، ولم يكن رجل آخر في البلدة لديه ما يمتلكه ذلك الرجل من ملابس، وكان عنده قلادة وساعة من الذهب وعصًا رأسها من الفضة، وكان أكثر الرجال الشيب تفاخرًا في الولاية. وتوقع ماذا؟ كانوا يقولون إنه كان أستاذًا بالجامعة، وكان بإمكانه أن يتحدث بكل أنواع اللغات، وكان يعرف كل شيء. ولم يكن هذا أسوأ شيء، إذ كانوا يقولون إن باستطاعته التصويت في بلدته، وقد أزعجني هذا. إلى أين يسير هذا البلد؟ وعندما جاء يوم الانتخابات، كنت على وشك أن أذهب وأصوت بنفسي لولا أنني كنت ثملًا بدرجة لا تسمح لي بالذهاب، ودهشت عندما أخبروني أن ثمة ولاية في هذا البلد تسمح للزنوج بالتصويت، وقلت إنني لن أصوت مجددًا. كانت هذه بالضبط هي الكلمات التي قلتها، وقد سمعوني جميعًا. ليتعفن البلد، لن أصوت مجددًا ما حييت. إذا رأيت طريقة هذا الزنجي الباردة؛ لم يكن يتزحزح من مكانه إلَّا عندما أبعده عن طريقي. قلت للناس لماذا لا يوضع هذا الزنجي في مزاد ويُباع؟ هذا هو ما أريد معرفته. تخيل ماذا قالوا؟ قالوا إنه لا يمكن بيعه حتى يقضي ستة أشهر داخل الولاية، وأن هذه الفترة لم تنقضِ بعد. كان هذا الرجل مثالًا. ويسمون هذه حكومة، تلك التي لا تستطيع بيع زنجي حر قبل أن تنقضي ستة أشهر على بقائه داخل الولاية. إنها حكومة تطلق على نفسها حكومة، وتتظاهر بأنها حكومة، وتظن أنها حكومة، ومع ذلك يتحتم عليها البقاء ساكنة طوال ستة أشهر

قبل أن يتسنى لها الإمساك بزنجي حر؛ جهنمي سارق جوال يرتدي سترة بيضاء، و...».

ظل والدي يتحدث دون أن يلحظ إلى أين كانت قدماه الواهنتان العجوزتان تأخذانه، فانقلب فوق وعاء به لحم خنزير مملح وغرز فيه قدمه. أخذ باقي الحديث، الذي كان ضد السود والحكومة، نبرة حادة، وكان الوعاء ينال حظه من الحديث أيضًا، من حين إلى آخر. ظل يقفز كثيرًا داخل المقصورة، على إحدى ساقيه أولًا ثم على ساقه الأخرى، ممسكًا بإحدى قدميه أولًا ثم بالأخرى، حتى أفلت قدمه اليسرى فجأة وركل الوعاء محدثًا قعقعة، إلَّا أنه لم يكن تصرفًا حكيمًا، لأن إصبعيه كانا يتدليان من الطرف الأمامي للحذاء، ومن ثم أطلق صيحة تجعل شعر الإنسان يَقَفُّ، قبل أن يسقط على الأرض ويتدحرج وهو يرفع إصبعيه، إلَّا أن السباب الذي أطلقه في تلك اللحظة قد تفوق على أي شيء كان قد فعله من قبل، وقد أقر هو بذلك فيما بعد، قائلًا إنه تفوق على «سوبيري هاجان» وهو في أفضل حالاته، لكنني أعتقد أن هذا ربما كان نوعًا من المبالغة.

بعد العشاء، أمسك والدي القنينة، وقال إنه تناول من الويسكي ما يكفي شخصين ثملين وشخصًا يعاني أعراض انسحاب الإقلاع عن الكحول؛ كان دائمًا يقول هذه الجملة. شعرت أنه خلال ساعة سيكون ثملًا إلى أقصى درجة، وقررت أنه عندما يحدث ذلك سأسرق المفتاح أو أنشر الخشب لأفر، واحدة من الاثنتين. أخذ يشرب ويشرب حتى سقط على الأغطية بعد وقت قليل، إلَّا أن

الحظ لم يكن في صالحي لأنه لم يستغرق في النوم وظل قلقًا، وأخذ يئن ويتأوه ويتململ كثيرًا على هذا النحو فترة طويلة. في النهاية، شعرت بنعاس شديد ولم أستطع أن أبقي عينيَّ مفتوحتين، وهكذا دون أن أدرك غرقت في النوم بينما لا تزال الشمعة مشتعلة.

لم أدرك كم مر من الوقت وأنا نائم، لكنني استيقظت فجأة على صرخة مريعة؛ كان أبي يقفز مثل المجنون في كل مكان، ويصرخ من ثعابين كان يقول إنها تتسلق على ساقيه، ثم أخذ يقفز ويصرخ ويقول إن ثعبانًا لدغه في وجنته، لكنني لم أرَ أي ثعابين. كان مفزوعًا، وأخذ يركض في كل مكان داخل المقصورة وهو يصيح: «أبعده! أبعده! إنه يلدغني في رقبتي!» لم أرَ جنونًا في عينيْ رجل مثلما رأيت في عينيه. سرعان ما استُنزفت قواه، وسقط يلهث، ثم أخذ يتقلب ويتقلب بسرعة شديدة، ويرتطم بالأشياء في كل اتجاه، ويركل، ويمسك الهواء بيديه، ويصيح قائلًا إن الشياطين قد تملكت منه. ثم ما لبث أن تملك التعب منه واستلقى ساكنًا لفترة وهو يتأوه، ثم ازداد سكونًا ولم يطلق صوتًا، حتى كان باستطاعتي أن أسمع البوم والذئاب بعيدًا في الغابة وسط السكون الرهيب. ظل مستلقيًا في أحد الأركان لفترة، ثم نهض بجزء من جسده وأسند رأسه إلى أحد جانبيه وأرهف السمع، ثم قال بصوت خفيض جدًّا:

«صعلوك -صعلوك- صعلوك، إنه ميت، صعلوك، صعلوك، صعلوك، إنهم يلاحقونني، لكنني لن أذهب. أوه، إنهم هنا! لا تلمسني -لا! أبعد يديك- إنهما باردتان، اتركني. أوه، دعوا الشيطان المسكين وشأنه!».

ثم انبطح على أطرافه الأربعة، وأخذ يزحف متوسلًا إليهم أن يتركوه وشأنه، ثم تقلب في غطائه وتمرغ تحت طاولة البلوط القديمة وهو يتوسل، ثم بدأ يبكي. كنت أستطيع سماعه من تحت الغطاء.

بعد قليل، تدحرج إلى الخارج وقفز على قدميه والجنون بادٍ عليه، ثم نظر إليَّ وتقدم ناحيتي، وطاردني في كل ركن في المكان بمطواة جيب وهو يناديني بـ«ملك الموت» ويقول إنه سيقتلني حتى لا أمسه، فتوسلت إليه وأخبرته أنني هاك، لكنه ضحك ضحكة قوية وصاح عليَّ وسبني واستمر في مطاردتي. وفي إحدى المرات التي انبطحتُ فيها هاربًا من تحت ذراعه، أمسك بسترتي من بين كتفيَّ، فظننت أنني هالك، لكنني تركت السترة تنخلع بسرعة البرق وأنقذت نفسي. سرعان ما أُنهكت قواه، وسقط على ظهره قرب الباب، وأخبرني أنه سيرتاح دقيقة وبعد ذلك يقتلني، ثم خبأ السكين تحته، وقال إنه سينام ويسترد عافيته وسيعرف حينها التمييز بين الأشخاص.

استغرق في النوم سريعًا جدًّا، فأحضرت الكرسي ذا الظهر المصنوع من ألواح الخشب، وتسلقته برفق قدر استطاعتي حتى لا أُحدث أي ضوضاء، وأنزلت البندقية ثم أنزلت المدك إلى أسفل حتى أتأكد أنه محشو، ثم وضعته على برميل اللفت ووجهته ناحية أبي ثم جلست وراءه منتظرًا أن يتحرك، وكم كان الوقت يمر بطيئًا وساكنًا.

(٧)

«استيقظ! ماذا تفعل؟».

فتحتُ عيني ونظرت حولي، محاولًا اكتشاف أين كنت، فأدركت أن الشمس قد أشرقت وأنا نائم ملء جفوني، ووجدت أبي يقف فوق رأسي وقد بدا عليه الاستياء والتعب وهو يقول:

«ماذا تفعل بهذه البندقية؟».

أدركت أنه لا يتذكر أي شيء مما كان يفعله، فقلت:

«حاول أحدهم الدخول، فجلست متأهبًا له».

«لماذا لم توقظني؟».

«حسنًا، لقد حاولت، لكنني لم أستطع، لم أستطع أن أزحزحك».

«حسنًا، لا بأس. لا تبقَ هكذا تثرثر طوال اليوم، اخرج وانظر إن كان هناك سمك على الصنارات من أجل أن نتناول فطورنا، وسألحق بك خلال دقيقة».

ثم فتح الباب، فمضيت نحو ضفة النهر. لاحظت أن بعض فروع الأشجار وشراذم اللحاء وما إلى ذلك طافٍ على سطح الماء، فعرفت أن الموج مرتفع، وفكرت في أنني لو كنت في البلدة لكنت حظيت بوقت رائع، إذ إن ارتفاع الموج في يونيو كان دائمًا ما يجلب لي الحظ، لأنه ما إن يرتفع حتى يحمل معه خشبًا وأجزاءً من طوافات خشبية تصل في بعض الأحيان إلى طوافة مكونة من اثني عشر لوحًا معًا، وكل ما عليك فعله هو أن تلتقطهم وتبيعهم إلى ساحات الخشب وورش النجارة.

مضيت نحو الضفة، بعين على أبي وعين تراقب ما يمكن للموج أن يجلبه، ثم اقترب فجأة زورق ضيق صغير جميل؛ طوله حوالي ثلاثة عشر أو أربعة عشر قدمًا، يطوف عاليًا مثل البطة. اندفعت في الماء برأسي أولًا مثل الضفدع، دون أن أخلع ملابسي أو أي شيء، وانطلقت ناحية الزورق متوقعًا وجود شخص بداخله، لأنهم كانوا كثيرًا ما يختبئون بداخله ليعبثوا مع من يسحب القارب ثم يكشفوا عن أنفسهم ويضحكوا منه، إلَّا أن الأمر لم يكن هكذا هذه المرة وكان زورقًا منجرفًا دون شك، فقفزت فيه وسحبته إلى الشاطئ. فكرت في أن أبي سيكون مسرورًا عندما يراه، لأنه يساوي عشرة دولارات، لكنني لم أجده عندما وصلت إلى الشاطئ، وبينما كنت أجر الزورق في جدول صغير أشبه بقناة ضيقة تتدلى فوقها عناقيد العنب وشجر الصفصاف، خطرت إليَّ فكرة أخرى وقررت أن أخبئ الزورق جيدًا وأهرب به مسافة خمسين ميلًا وأخيم في مكان، بدلًا من أن أهرب عبر الغابة وأتكبد عناء المشي على الأقدام.

كنت قريبًا جدًّا من الكوخ، وكنت أتخيل طوال الوقت أنني أسمع والدي قادمًا، لكنني خبأت الزورق وعندما انتهيت نظرت عبر مجموعة من أغصان الصفصاف ورأيت والدي قادمًا يحاول صيد طائر ببندقيته. إذًا، لم يرَ شيئًا.

عندما وصل، كنت أحاول جاهدًا أن أصنع خيط صنارة، فنهرني بسبب بطئي، فأخبرته أنني سقطت في النهر ولهذا استغرقني الأمر طويلًا، لأنني كنت أعرف أنه سيبدأ في طرح الأسئلة عندما يراني مبتلًّا. انتزعنا خمس سمكات سلور من الصنارات وعدنا إلى المنزل.

شعرنا بالتعب بعد الإفطار، فاستلقينا لننام، وأخذتُ أفكر في طريقة لأبعد والدي والأرملة عن محاولات ملاحقتي، لأن ذلك سيكون أضمن من أن أركن إلى حظٍّ يجعلني أبتعد بما فيه الكفاية قبل أن يلحظا غيابي، إذ إن كل شيء وارد، ومع ذلك فلم أتوصل إلى طريقة لبعض الوقت. نهض والدي بعد قليل ليشرب ماءً وقال لي:

«المرة القادمة التي يأتي فيها رجل يحوم هنا، أيقظني.. أتسمعني؟ لم يأتِ ذلك الرجل بخير، وكنت لأطلق عليه النار. أيقظني في المرة القادمة، أتسمعني؟».

ثم سقط وعاد إلى النوم من جديد، إلَّا أن ما قاله أعطاني الفكرة التي أردتها بالضبط. قلت لنفسي: باستطاعتي التكفل بالأمر الآن حتى لا يفكر أحد في ملاحقتي.

نهضنا حوالي الساعة الثانية عشرة، ومضينا نحو الضفة. كان الموج عاليًا جدًّا، وكان الموج يحمل الكثير من الخشب الطافي. وبعد قليل، اقترب جزء من طوافة خشبية مصنوعة من تسعة ألواح مربوطة معًا، فأخذنا القارب وسحبنا الطوافة إلى الشاطئ، ثم تناولنا غداءنا. كان أي شخص آخر سينتظر ويراقب ما يحمله الموج طوال النهار حتى يلتقط المزيد، إلَّا أن هذا لم يكن أسلوب والدي، فقد كانت تسعة ألواح كافية بالنسبة له، ولأنه كان يجب أن يذهب إلى البلدة ويبيع الألواح، حبسني وأخذ القارب وبدأ يسحب الطوافة حوالي الساعة الثالثة والنصف. لم أتوقع أنه سيعود تلك الليلة، فانتظرت حتى أيقنت أنه ابتعد بما يكفي، ثم أخرجت منشاري واستأنفت نشر ذلك اللوح، وقبل أن يصل والدي إلى الجانب الآخر من النهر، كنت قد خرجت من الفتحة ورأيت طوافته بعيدة مثل ذرة على الماء.

حملت جوال الذرة إلى المكان الذي كان الزورق مخبّأً فيه، وأبعدت عناقيد العنب والفروع بعضها عن بعض، ووضعته فيه. فعلت الشيء نفسه مع شريحة لحم الخنزير وقنينة الويسكي، وأخذت كل القهوة والسكر الموجودين، والذخيرة، وحشو البندقية، والوعاء، واليقطين، ومغرفة، وكوبًا مصنوعًا من القصدير، ومنشاري القديم، وبطانيتين، والمقلاة، وإبريق القهوة، وصنارات سمك، وأعواد الثقاب، وغيرها من الأشياء؛ أخذت أي شيء كان يساوي قرشًا وأخليت المكان. كنت بحاجة إلى فأس، لكن لم يكن هناك أي فأس باستثناء ذلك الذي كان بالخارج عند كومة الحطب،

وكنت أعرف لماذا سأتركه. وبعد أن أخرجت البندقية، كنت قد انتهيت.

كنتُ قد أحدثت فتحة كبيرة في الأرض وأنا أزحف خارج الحفرة وأخرج منها كل هذه الأغراض، وعليه فقد ألقيت بعض التراب لأخفيها من الخارج قدر استطاعتي، وبالفعل غطيت آثار النشر والطين، ثم أعدت تثبيت اللوح الخشبي في مكانه، ووضعت صخرتين تحته وواحدة عليه حتى يستقر في مكانه، لأنه كان مثنيًّا ولم يكن واصلًا إلى الأرض. وهكذا بعد أن انتهيت، كنتَ لتقفَ على بعد أربعة أو خمسة أقدام ولا تدرك أنه منشور ولا تلحظ الأمر أبدًا، فضلًا عن أن اللوح كان في ظهر المقصورة، ولم يكن من الوارد أن يذهب شخص ويفتش هناك.

كان الطريق إلى الزورق مغطًى بالحشائش، لذلك لم أترك أثرًا. التفتُّ ورائي، ووقفت على الضفة أنظر إلى النهر، فوجدت كل شيء على ما يرام. أخذت البندقية، ومضيت قليلًا داخل الغابة لأصطاد بعض الطيور، إلَّا أنني وجدت خنزيرًا بريًّا، وكانت الخنازير تتوحش بعد أن تخرج من حقول البراري، فأطلقت عليه النار وأخذته إلى المعسكر.

أخذت الفأس وضربت به الباب، وأحدثت به فتحة كبيرة وأنا أفعل ذلك، ثم حملت الخنزير إلى الداخل، ووضعته تقريبًا عند الطاولة، وذبحته بالفأس وتركته على الأرض لينزف، وأقول الأرض لأن الأرض كانت عبارة عن طبقة صلبة من الطين التي لم

يكن مثبتًا عليها ألواح، ثم أحضرت حقيبة قديمة ووضعت بها كل ما استطعت حمله من صخور كبيرة، ثم سحبتها من جانب الخنزير حتى الباب وعبر الغابة وصولًا إلى النهر حيث ألقيتها، فغرقت واختفت عن الأنظار. كان بإمكانك أن ترى بسهولة أن شيئًا ما قد تم جره على الأرض. تمنيت لو أن توم سوير كان معي، كنت أعرف أنه يتحمس لمثل هذه الأشياء ويضع بعض اللمسات الرائعة، إذ لم يكن هناك من هو أفضل من توم سوير في مثل هذه الأمور.

وأخيرًا، لطخت الفأس جيدًا بالدماء وجذبت بعض خصلات من شعري ولصقتها على ظهر الفأس، ثم وضعت الفأس في أحد الأركان. ومن ثم، رفعت الخنزير وأنا أسنده إلى صدري بسترتي (حتى لا ينزلق)، حتى ابتعدت عن المنزل بمسافة كافية ثم ألقيته في النهر، ثم خطر إليَّ أمر آخر. ذهبت وأخذت جوال الذرة ومنشاري القديم من الزورق، وأحضرتهم إلى المنزل، ثم أخذت الجوال إلى المكان الذي كان موضوعًا فيه، وأحدثت أسفله فتحة بالمنشار، لأنه لم تكن هناك أي سكاكين أو شوك في المكان وكان أبي يستخدم مطواته في الطهي عندما كان يحتاج إلى ذلك، ثم حملت الجوال حوالي مئة ياردة عبر الحشائش والصفصاف، شرق المنزل، إلى بحيرة ضحلة ممتلئة بالأعشاب يبلغ اتساعها خمسة أميال ويعيش فيها البط في موسمه. كان هناك ما يشبه المستنقع أو الجدول على الجانب الآخر الواقع على بعد أميال، لا أعرف أين كان يقع، لكنه لم يكن يؤدي إلى النهر. أخذ الذرة ينسكب ويترك آثارًا طفيفة بطول الطريق المؤدي إلى البحيرة، وأوقعت مِسَّن أبي هناك أيضًا، حتى

يبدو الأمر كما لو أنه سقط عن طريق الخطأ، ثم رتقت القطع في جوال الذرة بخيط، حتى لا يُسرب المزيد، وأخذته هو ومنشاري إلى الزورق من جديد.

عندما حل الظلام، خبأت الزورق عند النهر تحت بعض الصفصاف المتدلي فوق الضفة، وانتظرت بزوغ القمر. تكومت تحت الصفصاف، وأخرجت شيئًا أتناوله، ورويدًا رويدًا استلقيت في الزورق لأدخن غليونًا وأضع خطة. قلت لنفسي إنهم سيتتبعون الآثار التي أحدثها الجوال المملوء بالصخور حتى الشاطئ، ومن ثم سينزلون النهر بحثًا عني، وسيتتبعون أثر الذرة حتى البحيرة ويذهبون للبحث في الجدول التي تؤدي نهايته إلى العثور على اللصوص الذين قتلوني وأخذوا الأشياء. لن يبحثوا عن شيء في النهر سوى جثتي الميتة، وسرعان ما سيسأمون وينسون أمري. حسنًا، يمكنني الآن الذهاب إلى أي مكان أريده؛ جزيرة جاكسون مناسبة لي، أنا أعرف هذه الجزيرة جيدًا، ولا يذهب أحد إلى هناك، ومن ثم يمكنني أن أجدف إلى البلدة ليلًا وأتجول وأخذ الأشياء التي أريدها. جزيرة جاكسون هي المكان.

كنتُ متعبًا جدًّا، وغرقت في النوم، وعندما استيقظت لم أدرك على الفور أين كنت، فوقفت ونظرت حولي في خوف ثم تذكرت، بدا أن النهر يمتد باتساع أميال وأميال، وكان القمر مضيئًا جدًّا حتى كان باستطاعتي أن أعد ألواح الخشب الطافية التي يجرفها التيار؛ كانت سوداء وساكنة تبتعد عن الشاطئ بمئات الياردات، وكان كل شيء هادئًا هدوءًا مميتًا، وبدا الوقت متأخرًا، وكان الإحساس

المسيطر يشي بأن الوقت كان متأخرًا. لا أعرف الكلمات التي تصف الأمر، لكنك تعرف ماذا أقصد.

تثاءبت وتمطيت وكنت على وشك فك رباط الزورق والرحيل، إلَّا أنني سمعت صوتًا قادمًا من بعيد من ناحية الماء. أرهفت سمعي وسرعان ما تبينته؛ كان ذلك الصوت المعتاد الكئيب الذي تحدثه المجاديف داخل الحلقات ليلًا. اختلست نظرة من بين فروع الصفصاف، ورأيت قاربًا بعيدًا عند المياه. لم أستطع تحديد عدد الأشخاص الذين كانوا بداخله، إلَّا أنه أخذ يقترب، وعندما أصبح عن جانبي، رأيتُ أنه لم يكن به سوى شخص واحد، شعرت أنه ربما يكون أبي، رغم أنني كنت أستبعد ذلك، ثم حمل الموج القارب حتى أصبح قريبًا مني، ورويدًا رويدًا وصل إلى الشاطئ بسهولة في منطقة كان فيها الماء هادئًا، ثم مر قريبًا جدًّا من جانبي حتى كان بإمكاني أن ألمسه إذا مددت البندقية.

حسنًا، لقد كان أبي لا محالة، ولم يكن مخمورًا أيضًا، وقد عرفت ذلك من الطريقة التي وضع بها المجاديف.

لم أضيع وقتًا، وجدفت على الفور ضد التيار، بهدوء لكن بسرعة، بمحاذاة الضفة، حتى ابتعدت ميلين ونصف، ثم جدفت ربع ميل أو أكثر نحو منتصف النهر، لأنني كنت أعرف أنني سأمر بجوار مرسى العبارة بعد قليل، ومن الممكن أن يراني البعض وينادونني. تركت نفسي وسط الأخشاب الطافية، وانبطحت في قاع الزورق وتركت الماء يحمله، ثم استلقيت هناك واسترحت

جيدًا ودخنت غليوني وأنا أنظر بعيدًا نحو السماء التي لم يكن بها أي سحب. كانت السماء تبدو شديدة العمق لمن يستلقي على ظهره في ضوء القمر؛ لم أكن أعرف هذا من قبل، ودهشت أيضًا من المسافة التي يمكن للمرء أن يسمع منها وهو في الماء في مثل تلك الليالي! سمعت أصوات أشخاص تتحدث عند مرسى العبارة، وسمعت كل كلمة يقولونها أيضًا. قال أحدهم إنه سرعان ما سيطول النهار ويقصر الليل، فرد آخر إنه يعتقد أن هذه الليلة لم تكن إحدى هذه الليالي القصار، فضحكوا، فقالها مرة أخرى، فضحكوا من جديد، ثم أيقظوا رفيقًا لهم وأخبروه وضحكوا، إلَّا أنه لم يضحك وزجرهم وأمرهم أن يتركوه وشأنه. قال أول شخص إنه سيحكي هذه الحكاية لوالدته، لأنها ستجدها مضحكة جدًّا رغم أنها لا تقارن ببعض الأشياء التي قالها من قبل، ثم سمعت رجلًا يقول إن الساعة اقتربت من الثالثة ويتمنى ألَّا يطول الوقت حتى يسطع ضوء النهار، ثم ابتعدت الأصوات أكثر فأكثر ولم أستطع أن أتبين الكلمات، ومع ذلك فقد تمكنت من سماع الهمهمات والضحكات أيضًا، من حين إلى آخر، لكنها بدت بعيدة جدًّا.

كنت في ذلك الحين قد ابتعدت كثيرًا عن مرسى العبارة، فنهضتُ ووجدت أن جزيرة جاكسون قد أصبحت على بعد ميلين ونصف؛ كانت كتلة ضخمة مظلمة من الأشجار المتكاثفة وسط النهر، وكانت راسخة مثل سفينة بخارية ليس بها أضواء، ولم تكن هناك أية علامة على اقتراب الشاطئ لأنه كان كله تحت الماء الآن.

لم أستغرق وقتًا طويلًا حتى وصلت إلى هناك. كان الموج سريعًا

جدًّا، فوصلت إلى بداية الشاطئ بسرعة كبيرة، ثم وصلت إلى الجزء الذي تهدأ فيه المياه ورسوت على الجانب الذي يقع تجاه شاطئ إلينوي. سحبت الزورق إلى نُقرة عميقة كنت أعلم بوجودها على الضفة، وكان عليَّ أن أفصل فروع الصفصاف من أجل أن يدخل، وعندما أدخلته لم يكن بوسع أحد أن يرى الزورق من الخارج.

مضيت وجلست على فرع شجرة، عند صدر الجزيرة، ونظرت إلى النهر الكبير والخشب الطافي الأسود، وإلى البلدة البعيدة التي تقع على بعد ثلاثة أميال وتتلألأ فيها حوالي ثلاثة أو أربعة أضواء. كانت هناك طوافة خشبية ضخمة في وسطها مصباح تتحرك على بعد ميل، ظللت أراقبها وهي تقترب حتى وصلتْ بالقرب من المكان الذي كنت أقف فيه، ثم سمعت رجلًا يقول: «مجاديف المؤخرة، هناك! إلى الجانب الأيمن!» وكان وقع ذلك واضحًا جدًّا كما لو كان الرجل إلى جانبي.

عندئذ، كانت السماء تميل قليلًا إلى الرمادي، فدخلت إلى الغابة واستلقيت لأغفو قبل الإفطار.

(٨)

كانت الشمس مرتفعة جدًّا عندما استيقظت، حتى أنني شعرت بأن الساعة قد تجاوزت الثامنة. استلقيت على العشب، مسترخيًا تحت الظل البارد، أفكر في بعض الأمور وأنا أشعر بالراحة والرضا. كان الشجر ضخمًا يحيطني من كل مكان تقريبًا، ورغم أن تشابكه أحدث ظلمة، فقد كان باستطاعتي أن أرى الشمس تتسلل من ثغرة أو ثغرتين في تلك التشابكات. وكانت بقع الضوء على الأرض تشبه النمش، كما لو أن أغصان الشجر قد غربلته، وكانت أماكن بقع النمش تتبدل، كاشفة عن نسمة هواء خفيفة. وكان هناك سنجابان جالسان على فرع شجرة يتحدثان معي بود كبير.

كنت أشعر براحة وكسل شديدين، ولم تكن لديَّ رغبة في النهوض وتحضير الإفطار، وعندما أوشكت أن أغفو من جديد، شعرت بأنني سمعت صوتًا عميقًا «بوم!» قادمًا من بعيد من عند النهر، فنهضت واستندت إلى مرفقي وأنصتُّ، وسرعان ما سمعت الصوت من جديد، فوثبت وذهبت لأختلس نظرة من بين ثغرات

الأغصان، فرأيت بعيدًا بالقرب من مرسى العبارة سحبًا من الدخان فوق الماء، ورأيت العبارة وقد تكدست بأشخاص، ففهمت ماذا يجري. «بوم!». رأيت الدخان الأبيض ينبعث من جانب العبارة؛ كانوا يطلقون النار من المدافع، فوق الماء، من أجل أن تطفو جثتي.

كنتُ جائعًا جدًّا لكن لم يكن من الممكن أن أشعل نارًا، إذ إن ذلك من الممكن أن يجعلهم يرون الدخان، ومن ثم جلست أشاهد دخان المدفع وأستمع إلى صوت التفجيرات. وباستثناء رغبتي في تناول شيء، كنتُ مستمتعًا بوقتي وأنا أشاهدهم وهو يبحثون عن رفاتي، إذ إن النهر كان باتساع ميل وكان يبدو دومًا جميلًا في صباحات فصل الصيف. تذكرتُ أنهم دائمًا ما يضعون زئبقًا في أرغفة الخبز، ويتركونها تطفو، إذ إنها دائمًا ما تستقر في مكانها عندما تصل إلى الجثة الغارقة، وهكذا قررت أن أراقب وصول أي من هذه الأرغفة بالقرب مني لألتقطه، وانتقلت إلى حافة إلينوي من الجزيرة لأجرب حظي، ولم يخب ظني. اقترب رغيف مزدوج كبير، وكدت أمسكه بعصًا طويلة لولا أن انزلقت قدمي وابتعد الرغيف في الماء. وقد كان لديَّ من المعرفة ما يكفي لأن أقف في المكان الذي يمتد فيه الموج قريبًا جدًّا من الشاطئ، وسرعان ما اقترب رغيف آخر وأمسكت به هذه المرة. نزعت السدادة، وتخلصت من قطرات الزئبق القليلة، وقضمته. كان «عيش خباز»، ما تأكله الصفوة، ليس خبز الذرة الوضيع.

وجدت مكانًا جيدًا وسط الأغصان، وجلست فوق جذع شجرة أمضغ الخبز وأشاهد العبارة في رضًا بالغ، ثم خطر إليَّ أمر؛

أعتقد أن الأرملة أو القس أو شخص ما قد دعا أن يعثر عليَّ هذا الخبز، وقد تحقق ذلك الأمر ووصل إليَّ، إذًا فهناك شيء يجعل الأمر ينجح عندما يدعو شخص مثل الأرملة أو القس، ولا ينجح معي، أعتقد أن هذا الأمر لا ينجح إلَّا مع الصالحين.

أشعلت غليونًا واستمتعت بالتدخين طويلًا ومكثت أشاهد. كانت العبارة تسير مع الموج، وشعرت بأنني سأحظى بفرصة لرؤية من كان على متنها عندما تأتي، إذ إنها ستقترب حيث يتواجد الخبز. وعندما ازداد اقترابها مني بدرجة كبيرة، أطفأت غليوني وذهبت إلى المكان الذي كنت أبحث فيه عن الخبز، واستلقيت في مكان مفتوح نوعًا ما، على الضفة، وراء جذع شجرة متفرع سمح بالرؤية من خلاله.

سرعان ما أصبحت العبارة قريبة، وأخذت تقترب أكثر فأكثر حتى أصبح بإمكانهم أن يضعوا لوحًا خشبيًّا يصل بهم إلى الشاطئ. كان الجميع تقريبًا في العبارة؛ أبي والقاضي ثاتشر وبيسي ثاتشر وجو هاربر وتوم سوير وخالته العجوز بولي وسِد وماري وغيرهم الكثيرين.

كان الجميع يتحدث عن جريمة القتل، حتى قاطعهم القبطان قائلًا:

«انتبهوا جيدًا، إن الموج يقترب جدًّا من الشاطئ في هذه البقعة، وربما يكون قد جرفه على الشاطئ وعلق بين الأغصان عند حافة الماء، هذا ما آمله على أي حال».

لكني لم آمل ذلك. احتشدوا جميعًا وانحنوا فوق حافة العبارة، في مواجهتي تقريبًا، وبقوا ساكنين يراقبون بانتباه شديد. كان بإمكاني أن أراهم بوضوح شديد، إلَّا أنهم لم يستطيعوا رؤيتي. صاح القبطان: «ابتعدوا!»، ثم انطلق من المدفع، أمامي بالضبط، انفجار هائل كاد أن يصيبني بالصمم من شدة صوته، وأعماني الدخان، وحسبت أنني قد مُت. أعتقد أنهم كانوا سيحصلون على الجثة التي كانوا يبحثون عنها، إذا كان معهم بعض الرصاص، لكن حمدًا لله لم يصبني أذى. تحركت العبارة ومضت بعيدًا عن مجال الرؤية، عند طرف الجزيرة. كان باستطاعتي سماع صوت التفجيرات يبتعد أكثر فأكثر من حين إلى آخر، حتى اختفى رويدًا رويدًا بعد ساعة. كان طول الجزيرة ثلاثة أميال، وظننت أنهم وصلوا إلى نهايتها ويئسوا من الأمر، لكنهم لم يتوقفوا عن عملية البحث إلَّا بعد فترة، وقاموا بالدوران حول نهاية الجزيرة، وتوجهوا ناحية القناة المتواجدة على جانب ميزوري، تحت البخار، والتفجيرات مستمرة من حين إلى آخر طوال مسيرتهم. انتقلت إلى ذلك الجانب وراقبتهم؛ توقفوا عن إطلاق النار عندما اقتربوا من بداية الجزيرة، ونزلوا إلى شاطئ ميزوري وعادوا إلى البلدة.

شعرت حينئذ بأنني أصبحت في مأمن، وأن أحدًا لن يأتي للبحث عني من جديد، ثم أخرجت أغراضي من الزورق وبنيت لنفسي مخيمًا لطيفًا في الغابة الكثيفة، وصنعت ما يشبه الخيمة باستخدام بطاطيني، حتى أضع أغراضي داخلها فلا تصل إليها مياه الأمطار، واصطدت سمكة قرموط وقطعتها بمنشاري، وأشعلت

نار المخيم وقمت بتحضير العشاء قرب غروب الشمس، وجهزت صنارة لصيد بعض الأسماك من أجل الإفطار.

عندما أظلم الليل، جلست بالقرب من نار المخيم أدخن وقد تملكني شعور غامر بالرضا، إلَّا أنني سرعان ما شعرت بالوحشة فذهبت أجلس على الضفة أستمع إلى صوت الموج وهو يتلاطم، وأخذت أحصي النجوم وجذوع الشجر والطوافات التي تقترب عائمة، ثم خلدت إلى النوم، إذ لا توجد طريقة أفضل لتمضية الوقت عندما تكون بمفردك؛ لا يمكنك أن تظل هكذا وسرعان ما ستتغلب على الأمر.

وهكذا ظل الوضع كما هو عليه، دون اختلاف، طوال ثلاثة أيام بلياليهن. ثم ذهبت في اليوم التالي لأستكشف الجزيرة؛ كنت سيد الجزيرة وكانت كلها ملكي، إن جاز التعبير، وأردت أن أعرف كل شيء عنها، لكنني أردت أن أملأ الوقت في المقام الأول. وجدت الكثير من الفراولة الناضجة والممتازة، وعنبًا صيفيًّا أخضر، وتوت عليق أخضر، وكان التوت الأسود لا يزال أخضر في بدايته، ورأيت أنهم سرعان ما سينضجون ويصبحون في متناول يدي.

أخذت أتجول في أعماق الغابة حتى شعرت بأنني قد اقتربت من نهاية الجزيرة، كانت بندقيتي معي لكنني لم أكن قد أطلقت شيئًا بعد، كنت أحملها من باب الحماية، وفكرت في أن أستخدمها في الصيد وأنا في طريق العودة إلى المنزل. كدت أدعس ثعبانًا ضخمًا، فظل يزحف متلويًا بين الحشائش والزهور، فمضيت وراءه، محاولًا

ضربه بالنار. وفجأة وأنا أركض، تعثرت برماد نار مخيم كان دخانها لا يزال متصاعدًا.

قفز قلبي بين أضلعي، لم أتمهل حتى أطيل النظر، وحملت بندقيتي في وضع استعداد وعدت متسللًا إلى الوراء على أطراف أصابعي بأقصى سرعة، وكنت أقف بين الحين والآخر وسط الأغصان الكثيفة لأنصت، إلَّا أن نفسي كان يخرج ثقيلًا جدًّا على نحو لا يسمح لي بأن أستمع إلى أي شيء آخر. تسللت مبتعدًا إلى مسافة أكبر، ثم أرهفت السمع مجددًا، وهكذا دواليك. كنت أحسب جذور الشجر المقطوعة رجالًا، عندما أراها، وكنت أشعر بأن شخصًا قد شق أنفاسي إلى نصفين، ولم يتبقَ لي سوى نصف واحد، بل النصف الأقصر أيضًا، عندما كنت أدعس على عصًا وأكسرها.

عندما عدت إلى المخيم، لم أكن أشعر بارتياح كبير، ورغم أنني لم أكن أشعر بالخوف لم أرَ داعيًا إلى المخاطرة. ومن ثم، حملت كل أغراضي إلى الزورق من جديد، حتى تصبح بعيدة عن مجال الرؤية، وأطفأت النار ونثرت رمادها في كل مكان، حتى يبدو كأنه أثر قديم من مخيم كان قد نُصِب العام الماضي، ثم تسلقت شجرة.

أعتقد أنني مكثت فوق الشجرة ساعتين دون أن أرى أو أسمع أي شيء، رغم أنني تخيلت أنني سمعت ورأيت ألف شيء، ولأنه لم يكن بإمكاني المكوث فوق الشجرة إلى الأبد، فقد هبطت في النهاية، لكنني بقيت داخل الغابة العميقة، في ترقب دائم، وكان كل ما استطعت تناوله هو التوت وما تبقى من طعام الإفطار.

بحلول الليل، كنت قد بدأت أشعر بجوع شديد، وعندما أظلم الليل وأصبح الوقت ملائمًا، تسللت خارج الشاطئ قبل بزوغ القمر، وجدفت نحو ربع ميل حتى وصلت إلى شاطئ إلينوي، ثم دخلت إلى الغابة وقمت بتحضير العشاء، وبينما كنت على وشك اتخاذ قرار بقضاء الليلة في مكاني، سمعت: «بلانكيتي -بلانك، بلانكيتي- بلانك»، فخمنت أن بعض الأحصنة تقترب، ثم سمعت أصواتًا بشرية، فأعدت كل شيء إلى الزورق، بأقصى سرعة، وتسللت عائدًا إلى الغابة لأفهم ماذا يجري قدر استطاعتي. لم أكن قد ابتعدت عندما سمعت رجلًا يقول:

«إذا كان باستطاعتنا العثور على مكان جيد، فمن الأفضل أن نخيم هنا، لأن الأحصنة على وشك الانهيار، لنبحث عن مكان في الجوار».

لم أتهمل؛ خرجت وجدفت بهدوء، وربطت الزورق في مكانه القديم وقررت أن أنام فيه.

لم أستطع النوم كثيرًا بسبب التفكير، وكنت أتخيل أن شخصًا ما يمسكني برقبتي في كل مرة أستيقظ فيها، ولذلك لم يعد النوم بفائدة كبيرة عليَّ، وقلت لنفسي إنني لا يمكنني البقاء هكذا وأنني سأذهب لأرى من معي على الجزيرة وأكتشف من هو وأحسم الأمر، وقد شعرت أنني أفضل بعد هذا القرار على الفور.

أخذت مجدافي، وتسللت خارج الشاطئ خطوة أو خطوتين، وجعلت الزورق تحت الظلال، إذ إن القمر كان مضيئًا وجعل كل

ما هو خارج الظلال مضيئًا كالنهار. ظللت أتفقد المكان جيدًا إلى ما يقرب من ساعة، إلَّا أن كل شيء كان ساكنًا كالحجر ونائمًا في سبات عميق. وحينئذ كنت قد وصلت تقريبًا إلى نهاية الجزيرة. بدأت نسمة هواء باردة خفاقة تهل، مبشرة بانتهاء الليلة. جدفت حول الجزيرة حتى وصلت إلى طرفها، وأمسكت بندقيتي، وتسللت خارج الزورق عند حافة الغابة. جلست على جذع هناك، ونظرت إلى الخارج عبر الأغصان، ورأيت القمر يختفي والظلمة تغشي النهر. وبعد قليل، رأيت ضوءًا خافتًا فوق قمم الأشجار، فعرفت أنه نهار اليوم التالي. أخذت بندقيتي وتسللت إلى حيث وجدت نار المخيم في المرة الأولى، متوقفًا بين الفينة والأخرى أرهف السمع. لم يكن الحظ حليفي نوعًا ما، ولم يبدُ أن باستطاعتي العثور على المكان. لكن رويدًا رويدًا، وبيقين، لمحت خيط نار بعيدًا من بين الأشجار، فمضيت نحوه بحذر وبطء، وسرعان ما أصبحت قريبًا بما يكفي لأن أرى من هناك؛ وجدت رجلًا مستلقيًا على الأرض، وقد أشعرني ذلك بالتوتر. كانت رأسه مغطاة ببطانية، وكانت مستندة تقريبًا إلى النار. جلست على بعد ستة أقدام منه، وراء كتلة من الأشجار، وأبقيت عينيَّ عليه طوال الوقت، حتى استحال ضوء النهار إلى الرمادي. بعد قليل، تثاءب الرجل وتمطَّى وخرج من تحت البطانية. كان جيم، خادم الآنسة واتسون! أقسم أنني كنت مسرورًا برؤيته، وقلت:

«مرحبًا يا جيم!»، ثم خرجت من حيث كنت أختبئ.

انتفض، وحدق إليَّ بشدة. ثم سقط على ركبتيه، وضم يديه معًا، وقال:

«لا تؤذني، لا تؤذني! أنا لم أؤذِ أي أشباح أبدًا. لقد أحببت الموتى دائمًا، وفعلت كل ما بوسعي من أجلهم. اذهب وعد إلى البحر من جديد، إلى حيث تنتمي، ولا تفعل شيئًا بجيم العجوز، الذي كان دائمًا صديقك».

لم أستغرق طويلًا حتى أقنعته بأنني لست ميتًا. كانت سعادتي غامرة لرؤية جيم، إذ إنني لم أعد وحيدًا، وأخبرته أنني لا أخشى أن يخبر الناس عن مكاني. أخذت أتحدث، إلَّا أنه جلس هناك ينظر إليَّ فقط دون أن يقول شيئًا، فقلت:

«لقد سطع النهار، دعنا نحضر الإفطار ونعيد إشعال نار المخيم جيدًا».

«ما الفائدة من إشغال نار المخيم لطهي الفراولة وما على شاكلتها؟ لكن أنت معك بندقية، أليس كذلك؟ يمكننا أن نحصل على شيء أفضل من الفراولة، إذًا».

«الفراولة وما على شاكلتها، أهذا هو ما تقتات به؟».

قال: «لم أستطع الحصول على شيء آخر».

«كم مضى على مكوثك في الجزيرة يا جيم؟».

«أتيت في الليلة التي تلت قتلك».

«ماذا، كل هذه المدة؟».

«نعم، هذا حقيقي».

«ولم يكن لديك ما تأكله سوى هذه الحثالة؟».

«لا يا سيدي، لا شيء آخر».

«حسنًا، لا بد من أنك تتضور جوعًا، أليس كذلك؟».

«أعتقد أن بإمكاني تناول حصانًا، أعتقد أني أستطيع ذلك، كم مضى على مكوثك في الجزيرة؟».

«منذ الليلة التي قُتِلتُ فيها».

«لا! يا إلهي، بماذا تقتات؟ لكن أنت معك بندقية. أوه، نعم، معك بندقية. هذا جيد. فلتصطد شيئًا الآن وسأشغل أنا النار».

وعليه، ذهبتُ إلى المكان الذي كان فيه الزورق، وريثما أشعل هو النار في مكان مفتوح معشوشب، وسط الأشجار، كنت قد أحضرت الذرة واللحم المقدد والقهوة، وإبريق القهوة ومقلاة التحمير، والسكر وأكواب قصدير. كان جيم مذهولًا إلى درجة كبيرة، لأنه ظن أنني قد لجأت إلى السحر من أجل الحصول على كل هذه الأشياء. اصطدتُ سمكة قرموط كبيرة ممتازة، أيضًا، ونظفها جيم بالسكين وقام بقليها.

عندما كان الإفطار جاهزًا، استلقينا على العشب وتناولنا الطعام ساخنًا والبخار يتصاعد منه. أكل جيم بنهم شديد، لأنه كان متضورًا من الجوع.

وعندما امتلأنا شبعًا، استلقينا في كسل.

بعد قليل، قال جيم:

«لكن، من ذلك الذي قُتِل في الكوخ يا هاك، إن لم تكن أنت من قُتِلت؟».

حكيتُ له كل شيء، فوجده ذكيًّا. وقال إن توم سوير لم يكن ليأتي بأفضل مما فعلت، فقلت:

«ما الذي جاء بك إلى هنا يا جيم، وكيف أتيت؟».

بدا عليه الاضطراب الشديد، وظل صامتًا إلى ما يقرب من دقيقة، ثم قال:

«من الأفضل ألَّا أقول».

«لماذا يا جيم؟».

«حسنًا، هناك أسباب عديدة، لكنك لن تشي بي إذا أخبرتك، أليس كذلك يا هاك؟».

«اللعنة عليَّ إن فعلت ذلك يا جيم».

«حسنًا، أنا أصدقك يا هاك؛ لقد هربت».

«جيم!».

«حذار، لقد قلت إنك لن تشي بي، أنت تعلم أنك قلت إنك لن تشي بي يا هاك».

«لقد فعلت ذلك؛ لقد قلت إنني لن أشي بك، وأنا ملتزم بما قلت؛ أقسم أنني سألتزم، ورغم أن الناس ستقول إنني وضيع مؤيد لإبطال الاسترقاق ويحتقرونني لأنني صمتُّ، فلن يغير هذا

من الأمر شيئًا؛ لن أشي بك. على أية حال، لن أعود إلى هناك مجددًا، فأخبرني إذًا عنِ الأمر برمته».

«حسنًا، هكذا حدث الأمر: دائمًا ما تنتقدني السيدة العجوز، أقصد الآنسة واتسون، وتعاملني بقسوة شديدة، لكنها كانت دائمًا تقول إنها لن تبيعني إلى أورلينز. في الآونة الأخيرة، لاحظت أن تاجر رقيق يتجول كثيرًا في المكان، وبدأت أشعر بالقلق. وذات ليلة، تسللت في وقت متأخر، ولم يكن الباب مغلقًا بإحكام، وسمعت السيدة العجوز تقول للأرملة إنها ستبيعني إلى أورلينز رغم أنها لا ترغب في ذلك، إلَّا أنها كانت ستحصل على ثمان مئة دولار مقابلًا لي، وهو قدر كبير من المال لم يكن باستطاعتها مقاومته. حاولت الأرملة إقناعها بالعدول عن الأمر، لكنني لم أتمهل لأستمع إلى بقية الحديث، وهربت بسرعة شديدة.

تسللت إلى أسفل التل من أجل أن أسرق قاربًا، من على الشاطئ في البلدة، إلَّا أنني وجدت أشخاصًا هناك، فاختبأت في مصنع البراميل المتهدم على الضفة أنتظر مغادرة الجميع، وقد بقيت هناك طوال الليل لأن المكان ظل مأهولًا. بدأت القوارب تتحرك حوالي الساعة السادسة صباحًا، وكانت القوارب التي تحركت حوالي الساعة الثامنة أو التاسعة تتحدث عن عودة والدك إلى البلدة وحكاية قتلك، وكانت هذه القوارب الأخيرة ممتلئة بالنساء والرجال الذين خرجوا لرؤية المكان. كانوا أحيانًا يتوقفون عند الشاطئ ويستريحون قليلًا، قبل عبورهم، فعرفت من حديثهم ما جرى، وشعرت بأسف شديد أنك قُتِلت يا هاك، لكنني لم أعد أشعر بذلك الآن.

استلقيت تحت نشارة الخشب طوال النهار. ورغم أنني كنت جائعًا، فلم أكن خائفًا، لأنني كنت أعلم أن السيدة العجوز والأرملة ستذهبان إلى اجتماع الإنجيلية مباشرة بعد الإفطار وستكونان بالخارج طوال النهار، وكانتا تعرفان أنني سأخرج بالماشية مع سطوع النهار، ولذلك لن تتوقعا رؤيتي في المكان، ولن تشعران بغيابي حتى حلول الظلام، ولن يشعر الخدم الآخرون بغيابي لأنهم يأخذون اليوم الذي لا تتواجد فيه السيدتان بالمنزل إجازة.

وعندما حل الظلام، سرت نحو ميلين أو أكثر في طريق النهر حتى وصلت إلى مكان لم تكن به منازل، وقررت ماذا سأفعل. مثلما ترى، إذا استكملت هربي سيرًا على الأقدام، كانت الكلاب ستلاحقني، وإذا سرقت قاربًا لعبور النهر، سيلحظون اختفاءه وسيعرفون أنني عبرت إلى الجانب الآخر وسيصبح بإمكانهم اقتفاء أثري، وعليه قلت لنفسي إن العوامة هي الحل، لأنها لن تترك أثرًا.

رأيت ضوءًا يقترب، فاندفعت في الماء ممسكًا بجذع شجرة يتقدمني، وسبحت نصف المسافة تقريبًا حتى أصبحت وسط الطوافات الخشبية. أبقيت رأسي منخفضًا، وسبحت ضد التيار بعض الشيء حتى اقتربت العوامة، واستأنفت السباحة حتى وصلت إلى نهايتها وتشبثت بها. كان الظلام حالكًا والسحاب كثيفًا، لفترة من الوقت، فتسلقت واستلقيت على الألواح الخشبية. كان الرجال يتوسطون العوامة، عند المصباح، وكان البحر مرتفعًا والموج عاليًا، وشعرت أنني سأكون قد ابتعدت خمسة وعشرين ميلًا في عمق النهر، بحلول الرابعة صباحًا، ومن ثم سيصبح بإمكاني أن

أتسلل قبل ضوء النهار وأسبح نحو الشاطئ وأدخل إلى الغابة عند جانب إلينوي.

لم يكن الحظ حليفي، إذ أخذ أحد الرجال يقترب مني عندما أوشكنا أن نصل إلى بداية الجزيرة، ومعه مصباح، فلم أرَ داعيًا إلى الانتظار وتسللت إلى خارج السفينة متوجهًا نحو الجزيرة. ظننت أن بإمكاني أن أدخل الجزيرة من أي مكان تقريبًا لكنني لم أستطع، إذ كانت الضفة شديدة الانحدار، وكنت تقريبًا قد وصلت إلى نهاية الجزيرة قبل أن أجد بقعة جيدة، ثم دخلت إلى الغابة وقررت ألَّا أقترب من الطوافات مجددًا، على الأقل عندما يحركون المصابيح داخلها هكذا. كان غليوني وتبغي معي، وكانت أعواد الثقاب في قبعتي، ولم يكونوا قد تعرضوا للبلل، فكنت على ما يرام».

«ولم يكن معك أي لحم أو خبز تأكلهم طوال هذه المدة؟ لماذا لم تصطد سلاحف الطين؟».

«كيف يمكن للمرء اصطيادها؟ لا يمكنك أن تخدعها وتمسك بها، وكيف يمكنك أن تضربها بحجر؟ وكيف يمكن القيام بذلك ليلًا؟ ولم أكن لأكشف عن نفسي نهارًا على الضفة».

«هذا صحيح؛ كان يجب أن تبقى في الغابة طوال الوقت، بالطبع. هل سمعتهم وهم يضربون المدافع؟».

«أوه، نعم، كنت أعلم أنهم يبحثون عن جثتك، ورأيتهم وهم يمرون من هنا؛ شاهدتهم عبر الأجمة».

اقتربت بعض الطيور، وحلقت ياردة أو ياردتين قبل أن تهبط،

فقال جيم إنها علامة على المطر؛ قال إن طيران صغار الدواجن على هذا النحو علامة على ذلك، وقال إنه يعتقد أن الأمر نفسه يحدث عندما تفعل الطيور الصغيرة ذلك. كنت سأمسك بعضًا منها، إلَّا أن جيم منعني، وقال إن ذلك فيه موت، وحكى لي أن والده كان مريضًا جدًّا في أحد المرات، ثم أمسك أحدهم بطائر، وقالت جدته العجوز إن والده سيموت، ومات.

قال جيم إنه لا يجب أن يحصي المرء الأشياء التي سيطهوها من أجل الغداء، لأن ذلك يجلب الحظ السيئ. والأمر نفسه مع تحريك مفرش الطاولة بعد غروب الشمس. وقال لي إنه إذا مات رجل يمتلك خلية نحل، يجب إعلام النحل بالأمر قبل شروق شمس اليوم التالي، وإلَّا فسيضعف النحل ويتوقف عن العمل ويموت، وقال جيم إن النحل لا يقرص البُلهاء، لكنني لم أصدق ذلك، لأنني حاولت معهم مرات كثيرًا بنفسي، ولم يقرصوني.

كنت قد سمعت بعض هذه الأمور من قبل، لكن ليس جميعها، أما جيم فقد كان على دراية بكل هذه العلامات، وقال إنه يعرف كل شيء تقريبًا. قلت له: يبدو لي أن كل العلامات تدور حول الحظ السيئ، وسألته إن لم تكن هناك أي علامات على الحظ الجيد. فقال:

«قليلة جدًّا، وليس لها أي فائدة لأي شخص، إذ ما الذي سيود المرء معرفته إذا كان الحظ الجيد قادمًا؟ سيريد إبعاده؟ وقال: «إذا كان الشعر كثيفًا بذراعيك وصدرك، فإنها علامة على أنك ستصبح ثريًّا. حسنًا، هناك فائدة من وراء علامة كهذه، لأنها دلالة على

المستقبل البعيد، إذ ربما تظل فقيرًا لفترة طويلة في البداية، ومن الممكن أن يصيبك الإحباط وتقتل نفسك، إن لم يكن لديك علم بفضل هذه العلامة أنك ستصبح ثريًّا»».

«هل ذراعاك وصدرك كثيفو الشعر يا جيم؟».

«ما الداعي لطرح هذا السؤال؟ ألا ترى ذلك؟».

«حسنًا، هل أنت ثري؟».

«لا، لكنني كنت ثريًّا من قبل، وسأصبح ثريًّا من جديد؛ كان معي أربعة عشر دولارًا، لكنني خسرتهم في استثمار».

«في أي شيء استثمرت نقودك يا جيم؟».

«حسنًا، اشتريت بعض السندات».

«أي نوع من السندات؟».

«سندات حية؛ مواشي. اشتريتُ بقرة بعشرة دولارات، لكنني لن أخاطر بأموالي مرة ثانية، إذ نفقت البقرة على يدي».

«إذًا فقد خسرت العشرة دولارات».

«لا، لم أخسرها كلها، خسرت تسعة منها فقط، وبعت الجلد والذيل مقابل دولار وعشرة سنتات».

«تبقى معك خمسة دولارات وعشرة سنتات، فهل استثمرت مجددًا؟».

«نعم، هل تعرف ذلك الزنجي ذي الساق الواحدة الذي

يمتلكه السيد العجوز براديش؟ حسنًا، لقد أنشأ مصرفًا، وقال إن أي شخص سيودع فيه دولارًا سيحصل على أربعة دولارات بنهاية العام، وبالفعل أودع كل الزنوج أموالهم، لكن لم يكن لديهم الكثير، كنت أنا الشخص الوحيد الذي يمتلك الكثير، ولذلك طمحت في أن أحصل على أكثر من أربعة دولارات وقررت أنني إن لم أحصل على ذلك، فسأفتح مصرفي الخاص، وبالطبع أراد ذلك الزنجي أن يقطع عيشي، لأنه كان يقول إنه لم يكن هناك عمل كافٍ لمصرفين، فاقترح أن أودع الخمسة دولارات التي أمتلكها، على وعد أنه سيعطيني خمسة وثلاثين دولارًا بنهاية العام.

وهكذا أودعت النقود، وقررت أن أستثمر الخمسة وثلاثين دولارًا على الفور حتى يبقى المال دائرًا، وقد كان هناك زنجي اسمه بوب، قد حصل على قطعة خشب من تلك التي تستخدم في بناء السفن، دون علم سيده، فابتعتها منه وأخبرته أن يأخذ الخمسة والثلاثين دولارًا بنهاية العام، إلَّا أن شخصًا ما سرقها في تلك الليلة، وفي اليوم التالي قال الزنجي ذو الساق الواحدة إن البنك قد أفلس، ولم يحصل أي منا على النقود».

«ماذا فعلت بالعشرة سنتات يا جيم؟».

«حسنًا، كنت سأنفقهم، لكنني رأيت حلمًا يوحي إليَّ بأن أعطي العشرة سنتات إلى زنجي اسمه بالوم، وينادونه بلقب مؤخرة بالوم، لأنه غبي كما تعرف. لكنهم يقولون إنه محظوظ، ومثلما ترى فأنا لست محظوظًا. أوحى إليَّ الحلم بأن أدع بالوم يستثمر العشرة

سنتات ويحقق أرباحًا تعود لصالحي. حسنًا، أخذ بالوم النقود وعندما كان في الكنيسة، سمع القس يقول إن أي شخص يتصدق للفقراء، فإنه يقرض الله، وحق على الله أن يعيد إليه النقود مئات مضاعفة. ومن ثم، تصدق بالوم بالنقود وانتظر ليرى ما سيحدث».

«حسنًا، ماذا حدث يا جيم؟».

«لم يحدث شيء. لم أتمكن، لا أنا ولا بالوم، من الحصول على ذلك المال بأي طريقة، ولن أقرض نقودًا بعد ذلك، دون أن أرى الضمانات. وذلك القس يقول: حق أن تعود إليك النقود مئات مضاعفة. إذا كان فقط بمقدوري أن أستعيد العشرة سنتات، سينتهي الأمر وسأكون سعيدًا».

«حسنًا، لا بأس على أي حال، يا جيم، طالما أنك ستصير ثريًا من جديد، عاجلًا أو آجلًا».

«عندما أفكر في الأمر الآن، أجد نفسي ثريًا؛ أنا أملك نفسي وقيمتي ثمان مئة دولار. أتمنى لو كنت أملك النقود، ما كنت لأحتاج إلى أكثر من ذلك».

(٩)

أردت أن أذهب إلى مكان ما، في منتصف الجزيرة، كنت قد عثرت عليه عندما كنت أستكشف. تحركنا، وسرعان ما وصلنا إليه، إذ إن طول الجزيرة كان ثلاثة أميال وعرضها كان ربع ميل.

كان المكان عبارة عن تلة، أو مرتفع منحدر وشاهق جدًّا، وكان ارتفاعه يصل إلى أربعين قدمًا تقريبًا. وصلنا إلى قمته بشق الأنفس، إذ كانت الجوانب شديدة الانحدار والأجمة شديدة الكثافة. تجولنا في المكان كله حتى وجدنا كهفًا كبيرًا وسط الصخور، في الناحية المواجهة لإلينوي أعلى التلة. كان الكهف باتساع غرفتين أو ثلاث غرف مجتمعة، وكان ارتفاعه يسمح لجيم بأن يقف معتدلًا بداخله، وكان الجو باردًا داخله. أراد جيم أن يضع أغراضنا هناك على الفور، لكنني أخبرته أنه لا حاجة إلى أن نستمر في الصعود والهبوط.

قال جيم إن بإمكاننا أن نخبئ الزورق في مكان جيد، وأن نضع جميع الأغراض داخل الكهف، ومن ثم يصبح بإمكاننا الهروب إلى هناك حال جاء أحدهم إلى الجزيرة، وهكذا لن يعثروا علينا، ما

لم يكن بحوزتهم كلاب. وأضاف: لقد تنبأت العصافير الصغيرة بهطول المطر، هل تريد أن تبتل الأغراض؟

وهكذا، عدنا وأخذنا الزورق، وجدفنا حتى اقتربنا من الكهف، ثم نقلنا جميع الأغراض إلى هناك وبحثنا عن مكان قريب، وسط الصفصاف الكثيف، نخبئ الزورق بداخله. نزعنا بعض السمك من الصنارات، واستبدلنا به طعومًا جديدة، وبدأنا الاستعداد للغداء.

كان مدخل الكهف كبيرًا بما يكفي لدحرجة برميل من خلاله، أما الأرض فقد برزت قليلًا إلى الخارج، على أحد جانبي المدخل، وكانت مستوية مناسبة لإشعال النار عليها، ومن ثم أشعلنا النار هناك وطهونا العشاء.

فرشنا البطاطين على الأرض، كأنها سجاجيد، وتناولنا غداءنا بالداخل، ووضعنا بقية الأغراض الأخرى في مكان يسهل الوصول إليه في مؤخرة الكهف، وفور أن أظلم الليل، هبت عاصفة رعدية؛ إذًا فقد كانت الطيور على حق. سرعان ما بدأ المطر ينهمر قويًّا، حتى أنني لم أكن قد رأيت ريحًا تهب بهذه القوة من قبل. كانت عاصفة صيفية نموذجية، وكان الظلام حالكًا جدًّا حتى أن لون السماء بالخارج بدا أزرق قاتمًا، كانت السماء جميلة، وأخذ المطر يهطل كثيفًا، حتى أن الشجر بدا معتمًا وشبيهًا ببيت العنكبوت، من بعيد، وكانت الرياح تأتي فتحني الشجر إلى أسفل وتكشف عن الجزء السفلي الشاحب من الأغصان، ثم تأتي ريح عاصفة تحرك فروع الأشجار بعنف، وعندما تصل السماء إلى أقصى درجات زرقتها وسوادها؛

فِست! كانت تضيء براقة كالمجد ويصبح بإمكانك أن ترى قمم الأشجار وهي تسقط بعيدًا في الأفق، وسط العاصفة، على بعد مئات الياردات؛ أكثر مما كان بإمكانك أن ترى من قبل، ثم تعود سوداء كالخطيئة في ثانية، قبل أن تسمع هزيم الرعد وهو يحدث صوت ارتطام مريع، ثم يزمجر ويتذمر ويتدرج من السماء إلى العالم أسفله، كبراميل فارغة تسقط من فوق سلم كثير الدرج.

قلت: «إن هذا جميل يا جيم، لم أكن لأريد أن أتواجد في مكان آخر غير هنا. ناولني قطعة أخرى من السمك وبعض خبز الذرة الساخن».

«حسنًا، لولا جيم ما كان هذا ليصبح مكانك، وكنت لتصبح هناك في الغابات بدون غداء، وبالتأكيد كنت لتصبح غارقًا أيضًا يا عزيزي. إن الدواجن تتنبأ بالمطر، وكذلك الطيور يا طفلي».

أخذت مياه النهر في الارتفاع، طوال عشرة أو اثني عشر يومًا، حتى غمرت الضفة في النهاية، ووصلت المياه على الجزيرة إلى عمق ثلاثة أو أربعة أقدام في المناطق المنخفضة وأسفل إلينوي، وقد كان اتساع ذلك الجانب يمتد إلى أميال كثيرة، أما ناحية ميزوري فقد كانت نفس مسافة النصف ميل المعتادة، إذ إن شاطئ ميزوري كان مجرد حائط من الجروف المرتفعة.

كنا نجدف نهارًا حول الجزيرة، بالزورق، وكانت الغابة العميقة ظليلة وباردة جدًّا مهما ارتفعت حرارة الشمس خارجها، كنا ندور داخلًا وخارجًا وسط الأشجار، وكانت عناقيد العنب شديدة

الكثافة، أحيانًا ما تتدلى فنضطر إلى أن نعود أدراجنا ونغير مسارنا، وكنا نرى الأرانب والثعابين وما إلى ذلك فوق الشجر القديم المحطم وقد أصبحت أليفة بعد أن غمر الماء الجزيرة، يومًا أو يومين، وأصابها الجوع، حتى أنه يكون باستطاعك أن تجدف ناحيتهم مباشرة وتضع يدك عليهم إذا أردت ذلك، باستثناء الثعابين والسلاحف، لأنها كانت تنزلق تحت الماء، وقد كان المرتفع الذي يتواجد بداخله كهفنا مليئًا بهم؛ إن أردنا، لأصبح لدينا ما يكفي من الحيوانات الأليفة.

ذات ليلة، التقطنا جزءًا صغيرًا من طوافة خشبية مصنوعة من ألوح صنوبرية جميلة؛ كان عرضها اثني عشر قدمًا وطولها خمسة عشر أو ستة عشر قدمًا تقريبًا. كان طرفها طافيًا فوق الماء بمقدر ست أو سبع بوصات تقريبًا؛ كأنها أرض صلبة مستوية. في بعض الأحيان نهارًا، كنا نرى ألواحًا خشبية مقطوعة بالمنشار، تطفو على سطح الماء، إلَّا أننا كنا نتركها تمر، لأننا لم نكن نكشف عن نفسينا نهارًا.

وفي ليلة أخرى، كنا عند بداية الجزيرة قبل شروق الشمس بقليل، ورأينا منزلًا ريفيًّا طافيًا على الجانب الغربي؛ كان المنزل من طابقين، وكان مائلًا بدرجة كبيرة، فجدفنا وصعدنا عليه وتسلقته عبر نافذة بالطابق العلوي، إلَّا أن الظلام كان حالكًا فلم أتمكن من رؤية شيء. ربطنا الزورق وجلسنا داخله ننتظر سطوع النهار.

قبل أن نصل إلى نهاية الجزيرة، كان النهار قد بدأ يسطع، فنظرنا إلى الداخل عبر النافذة، وكان باستطاعتنا أن نرى فِراشًا وطاولة

ومقعدين قديمين وأشياء عديدة ملقاة على الأرض وملابس معلقة على الحائط. وكان ما يشبه رجلًا ملقًى على الأرض في ركن بعيد، فقال جيم:

«أهلًا، أنت!».

إلَّا أنه لم يتزحزح. فصحت مجددًا، ثم قال جيم:

«الرجل ليس نائمًا، إنه ميت. لا تتحرك، سأذهب وأرى».

ذهب وانحنى ليلقي عليه نظرة، ثم قال:

«إنه ميت. نعم، بالفعل، إنه عارٍ أيضًا. إنه مضروب بالرصاص من الخلف. أعتقد أنه ميت منذ يومين أو ثلاثة أيام. ادخل يا هاك، لكن لا تنظر إلى وجهه، إنه مريع».

ثم ألقى عليه بعض الأسمال القديمة، رغم أنه لم يكن بحاجة إلى ذلك، إذ إنني لم أنظر إليه أبدًا ولم أكن أرغب في رؤيته. كانت هناك أكوام من أوراق اللعب القديمة المشحمة المبعثرة في كل مكان على الأرض، وزجاجات ويسكي قديمة، وزوج من الأقنعة المصنوعة من قماش أسود، وكانت هناك كلمات ورسومات، تنم عن جهل شديد، منقوشة على الحوائط بالفحم، وكان هناك فستانان قطنيان قديمان قذران، وغطاء رأس للوقاية من الشمس، وبعض الملابس الداخلية النسائية المعلقة على الحائط، وبعض الملابس الرجالي أيضًا. وضعنا جميع ذلك في الزورق عسى أن ينفعنا. وكانت هناك قبعة أطفال مرقطة مصنوعة من القش قد تُرِكت على الأرض، فأخذتها هي الأخرى. وكانت هناك زجاجة لبن مغلقة بسدادة من القماش

حتى يتسنى للرُّضع مصها. كنا سنأخذ الزجاجة، إلَّا أنها كانت مكسورة. كانت هناك علبة قديمة مهترئة، وصندوق مصنوع من جلد الحيوانات قد انكسرت مفصلاته. كانا مفتوحين، لكن لم يتبق داخلهما أي شيء له قيمة. جعلتنا الطريقة التي تبعثرت بها الأغراض نفكر في أن الأشخاص قد رحلوا على عجل وأنهم لم يكونوا في الوضع الذي يسمح لهم بأن يحملوا معظم أغراضهم إلى الخارج.

وجدنا مصباحًا قديمًا من القصدير، وسكين جزار ليس له مقبض، ومطواة بارلو جديدة يبلغ ثمنها في أي متجر خمسًا وعشرين سنتًا، والكثير من الشموع المصنوعة من الشحم، وشمعدانًا من القصدير، وقرعة، وكوبًا من القصدير، ولحاف سرير قديمًا متعفنًا، وحقيبة تحتوي على إبر ودبابيس وشمع عسل وأزرار وخيط وأشياء من هذا القبيل، وفأسًا وبعض المسامير، وصنارة سُمكها من سُمك إصبعي الصغير قد ثُبتت فيها بعض الخطاطيف الهائلة، ولفافة من جلد الغزال، وطوق كلب مصنوع من الجلد، وحدوة حصان، وبعض زجاجات الدواء التي لم يكن عليها أي وصف. وعندما كنا على وشك المغادرة، وجدت مشط حصان جيدًا، ووجد جيم قوس كمان قديمًا متعفنًا وساقًا خشبية أربطتها مقطوعة. لكن بخلاف ذلك، كانت بحالة جيدة رغم أنها كانت طويلة جدًّا بالنسبة إليَّ وغير طويلة بما يكفي بالنسبة إلى جيم، ولم نتمكن من العثور على الساق الأخرى، رغم أننا بحثنا في كل مكان.

وهكذا، حصدنا غنيمة جيدة. كنا على بعد ربع ميل من الجزيرة، عندما كنا نستعد للرحيل. ولأن النهار كان ساطعًا جدًّا، فقد جعلت

جيم يستلقي داخل الزورق ويغطي نفسه باللحاف، لأن الناس كانت ستعرف أنه أسود من بعيد جدًّا إن جلس، بينما جدفت أنا حتى شاطئ إلينوي، ثم استكملت نصف ميل تقريبًا، وجدفت ببطء داخل الماء الساكن تحت الضفة، ولم تقع أية حوادث ولم أرَ أحدًا، ووصلنا إلى المنزل بأمان.

(١٠)

بعد الإفطار، وددت أن أتحدث عن الرجل المقتول وأخمن كيف قُتِل، إلَّا أن جيم لم يرغب في ذلك، وقال إن ذلك سيجلب الحظ السيئ، بالإضافة إلى أنه -حسبما قال- من الممكن أن يأتي ويطاردنا، وأخبرني أن احتمالية مطاردتنا من قِبل رجل غير مدفون أكبر من احتمالية مطاردتنا من قِبل رجل مزروع في الأرض مرتاح، ولأن ما قاله بدا معقولًا جدًّا، فلم أستطرد في الحديث، لكنني لم أستطع التوقف عن التفكير في الأمر متمنيًا أن أعرف من أطلق النار على الرجل ولماذا فعلوا به هذا.

فتشنا الملابس التي أخذناها، وعثرنا على ثمانية دولارات من الفضة كانت قد خيطت داخل بطانة بطانية فراش؛ قال جيم إنه يعتقد أن سكان هذا المنزل سرقوا البطانية، إذ إنهم ما كانوا ليتركوا النقود لو كانوا يعلمون بوجودها، فأضفت أنني أعتقد أنهم قتلوه أيضًا، إلَّا أن جيم لم يكن يرغب في الحديث عن الأمر، فقلت:

«أنت تعتقد أن الحديث عن هذا الأمر يجلب الحظ السيئ، لكن

أتتذكر ما قلت عندما أحضرت جلد الثعبان الذي وجدته عند قمة التلة أول أمس؟ لقد قلت إن ملامسة جلد ثعبان بيدي هو أكثر شيء يجلب الحظ السيئ في العالم، وها هو ذا الحظ السيئ الذي تتحدث عنه! لقد حصلنا على كل هذه الغنيمة، إضافة إلى ثمانية دولارات. يا ليتنا نحظى بمثل هذا الحظ العاثر كل يوم يا جيم».

«لا تقلق يا عزيزي، لا تقلق ولا تتحمس كثيرًا. إنه آتٍ. أقول لك إنه قادم».

وقد أتى فعلًا؛ كان حديثنا هذا يوم الثلاثاء. وبعد أن تناولنا غداءنا يوم الجمعة، استلقينا على العشب في الجانب العلوي من التلة، ثم نفد ما لدينا من تبغ، فذهبت إلى الكهف لآتي بالمزيد، فوجدت حية جرس بداخله، فقتلتها وكورتها عند طرف بطانية جيم، بشكل طبيعي جدًّا، ظنًّا مني بأن ذلك سيكون مضحكًا عندما يجدها جيم هناك. وبحلول الليل، كنت قد نسيت كل شيء عن الثعبان، وعندما كان جيم يجلس فوق البطانية بينما أشعل أنا الضوء، كان زوج الحية هناك وعضه.

قفز صائحًا، وكان أول شيء كشفه الضوء هو ذلك المخلوق وقد لف جسده استعدادًا لهجوم آخر. أسقطته أرضًا في ثانية بضربة عصا، وأمسك جيم بقنينة الويسكي الخاصة بأبي وبدأ يسكبها.

كان حافيًا، فعضته الحية في كعبه بالضبط. لقد حدث كل هذا بسبب حماقتي أنني لم أتذكر أنه أينما تترك ثعبانًا ميتًا، دائمًا ما يلحق به زوجه إلى ذلك المكان ويتكور حوله. طلب مني جيم أن أقطع

رأس الثعبان وألقي به، ثم أسلخ جلده وأحرق قطعة منه ليأكلها، ففعلت ذلك، وقال لي إن ذلك سيساعد في شفائه، ثم جعلني أنزع أجراسها وأربطها حول رسغه، وقال إن ذلك من شأنه أن يكون مفيدًا. تسللت بهدوء إلى الخارج وألقيت الثعبانين بعيدًا جدًّا وسط الأجمة، لأنني لم أكن لأدع جيم يكتشف أن الأمر كله كان خطئي، طالما كان بمقدوري تجنب ذلك.

أخذ جيم يشرب ويشرب من القنينة، ومن حين إلى آخر كان يجن جنونه ويضرب الأرض ذهابًا وإيابًا ويصيح، إلَّا أنه كان يفيق إلى نفسه ثم يعود ويشرب من القنينة مرة أخرى. كانت قدمه قد تورمت جدًّا، وكذلك ساقه، إلَّا أن الشراب سرعان ما بدأ يحدث مفعوله، وشعرتُ بأنه أصبح على ما يرام، رغم أنني أُفضل أن يعضني ثعبان على أن أشرب من ويسكي والدي.

ظل جيم طريح الفراش أربعة أيام بلياليهن، حتى اختفى التورم تمامًا وتحرك من جديد، وكنت أنا قد حسمت أمري بأنني لن أمسك جلد ثعبان بيدي مرة ثانية أبدًا، ليس بعد أن رأيت ما جلبه ذلك. قال جيم إنه يشعر بأنني سأصدقه المرة القادمة، وقال إن التعامل مع جلد الثعبان كان نذيرًا شديد السوء من المحتمل ألَّا نكون قد تخلصنا منه بعد، وقال إنه يفضل أن يرى هلال الشهر الجديد من فوق كتفه الأيسر ألف مرة على أن يمسك جلد ثعبان بيده. أنا نفسي كنت قد بدأت أشعر بذلك، رغم أنني كنت أرى دائمًا أن النظر إلى هلال الشهر الجديد من فوق كتفك الأيسر أحد أكثر الأشياء، التي يمكن للمرء القيام بها، حماقة وتهورًا. لقد فعل

هانك بانكار العجوز هذا الأمر مرة، وتفاخر به، وبعد أقل من عامين ثمل وسقط من فوق برج سبك الرصاص، وتسطح جسده حتى أصبح كالشريحة، إن جاز القول، وأدخلوه من الجانبين بين بوابتي حظيرة، وأصبح هذا نعشه، ودفنوه هكذا، مثلما يحكون، لكنني لم أرَ شيئًا، لقد أخبرني والدي بالحكاية. على أي حال، لقد حدث هذا كله بسبب النظر إلى القمر بهذه الطريقة، مثل الأحمق.

مرت الأيام، وانحسر الماء بين ضفتيه من جديد، وكان أول شيء فعلناه تقريبًا هو أننا وضعنا أرنبًا مسلوخًا كطعم في أحد الخطاطيف الكبيرة وتركناه فاصطدنا سمكة قرموط بحجم رجل، إذ بلغ طولها ستة أقدام وبوصتين، وكان وزنها أكثر من مئتي باوند. لم نستطع التعامل معها بالطبع؛ كانت لتطيح بنا إلى إلينوي، فجلسنا نشاهدها فقط وهي تنازع حتى ماتت. وجدنا في معدتها زرارًا من النحاس وكرة مستديرة والكثير من القمامة. شققنا الكرة بالفأس فانفتحت ووجدنا داخلها بكرة. قال جيم إن البكرة حتمًا قد استقرت داخل السمكة منذ فترة طويلة، حتى اكتست هكذا وتحولت إلى كرة. أعتقد أنها كانت أكبر سمكة تم اصطيادها في المسيسيبي؛ قال جيم إنه لم يرَ سمكة أكبر منها من قبل. كانت قيمتها لتكون كبيرة في القرية، إذ إنهم يبيعون مثل هذا السمك في السوق بالجنيه، وكان الجميع يبتاع جزءًا منه، إذ إن لحمه أبيض مثل الثلج جيد عند القلي.

في الصباح التالي، شعرت بأن الأمر أصبح مملًّا ووتيرته بطيئة، وأردت أن أنشطه بطريقة ما، فاقترحت أن أعبر النهر وأرى ما يحدث. أعجب جيم بالفكرة، لكنه نصحني بالحرص والذهاب بعد

حلول الظلام، ثم قلب الأمر في رأسه وسألني إن كان باستطاعتي أن أستخدم بعض الملابس القديمة التي عثرنا عليها وأرتدي ملابس فتاة؟ وقد كانت هذه فكرة جيدة أيضًا. وهكذا، قمنا بتقصير أحد الفساتين القطنية، وثنيت بنطالي حتى وصل إلى ركبتي وارتديته، ثم ربطه جيم من الخلف بالخطاطيف، فأصبح مقاسه مناسبًا، ثم ارتديت قبعة الشمس وربطتها تحت ذقني، حتى أصبح النظر إليَّ ورؤية وجهي أشبه بالنظر من ماسورة مدخنة. قال جيم إن أحدًا لن يعرفني، حتى في النهار. تمرنت طوال النهار حتى أعتاد الأمر، وسرعان ما ألفته، باستثناء أن جيم قال إنني لم أكن أسير مثل الفتيات، وقال إنني يجب أن أتوقف عن رفع فستاني لأضع يدي في جيب سروالي، وهكذا انتبهت إلى الأمر وحسنت من أدائي.

وبعد حلول الظلام مباشرة، مضيت نحو شاطئ إلينوي في الزورق.

عبرت النهر متجهًا نحو البلدة التي تقع أسفل مرسى العبارة بقليل، ثم حملني التيار إلى جنوب البلدة. ربطت الزورق وسرت بطول الضفة. كان هناك ضوء مشتعل في كوخ صغير ظل مهجورًا لفترة طويلة، فتساءلتُ من يا ترى قد انتقل إلى العيش به. تسللتُ واختلست نظرة عبر النافذة، فرأيت سيدة تبلغ من العمر نحو أربعين عامًا تغزل على ضوء شمعة كانت قد وضِعت فوق طاولة مصنوعة من الصنوبر. لم أتعرف على وجهها؛ كانت غريبة، إذ إنك ما كنت لتجد وجهًا في هذه البلدة لم أكن أعرفه، وقد كان هذا من حسن الحظ، لأنني كنت قد بدأت أتردد وأندم أنني أتيت، خوفًا

من احتمالية أن يتعرف الناس على صوتي ويكشفوا أمري. إلَّا أنه في بلدة صغيرة كهذه، بإمكان هذه السيدة، إن كانت قد قضت يومين بالبلدة، أن تخبرني كل ما أريد معرفته. وهكذا طرقت الباب منتبهًا ألَّا أنسى أنني فتاة.

(١١)

قالت المرأة: «ادخلي»، فدخلت. ثم قالت:

«اجلسي».

فجلست. تفحصت كياني كله بعينيها الصغيرتين اللامعتين، وقالت:

«ما عسى اسمك أن يكون؟».

«سارة ويليامز».

«أين تعيشين؟ في هذا الحي؟».

«لا يا سيدتي. في هوكرفيل؛ إنها تبعد سبعة أميال جنوبًا، وقد سرت كل هذه المسافة وأنهكني التعب».

«أتوقع أنك جائعة أيضًا، سأحضر لك شيئًا».

«لا يا سيدتي، لست جائعة، لقد كنت جائعة جدًّا، ولكنني لم أعد كذلك، إذ إنني توقفت عند مزرعة تقع على بعد ميلين جنوبًا،

وهذا هو ما جعلني أصل إلى هنا في هذا الوقت المتأخر. إن والدتي مريضة، وليس معها نقود أو أي شيء، وقد أتيت من أجل أن أُعلِم خالي آبنر مور بالأمر. لقد أخبرتني أنه يعيش في الجزء الجنوبي من البلدة، ولكنني لم آتِ إلى هنا من قبل، فهل تعرفينه؟».

«لا، ولكنني لم أتعرف إلى أي أحد حتى الآن، إذ إنني أتيت إلى هنا منذ أسبوعين فقط، ولكن الجزء الجنوبي من البلدة بعيد عن هنا؛ من الأفضل أن تقضي الليل هنا، اخلعي قبعتك».

قلت: «لا، أعتقد أنني سأستريح قليلًا ثم أستكمل طريقي. أنا لا أخشى الظلام».

فقالت إنها لن تتركني أذهب بمفردي، وأن زوجها سيعود بعد قليل، ربما خلال ساعة ونصف، وحينئذ سترسله معي، ثم أخذت تتحدث عن زوجها، وعن معارفها شمال النهر، ومعارفها جنوب النهر، وكيف أن أوضاعهم كانت أفضل بكثير، وكيف أنهم ارتكبوا خطأً بقدومهم إلى بلدتنا، عن غير علم، بدلًا من بقائهم هناك، وما إلى ذلك، حتى شعرت بأنني قد ارتكبتُ خطأً بلجوئي إليها من أجل معرفة ما يجري في البلدة، إلَّا أنها بعد قليل تطرقت في حديثها إلى والدي وواقعة القتل، فأصبحت على استعداد كبير أن أدعها تستمر في ثرثرتها، فحكت لي عن عثوري أنا وتوم سوير على الستة آلاف دولار (باستثناء أنها قالت عشرة) وكل شيء عن والدي وكم كان صعبًا، وكم كنت أنا صعبًا، وفي النهاية تطرقت إلى حيث قتلت. فقلت:

«من قتله؟ لقد سمعنا كثيرًا عن هذه الوقائع في هوكرفيل، لكننا لا نعرف من ذا الذي قتل هاك فِن».

«حسنًا، أعتقد أن الكثيرين هنا يودون معرفة قاتله، ويظن البعض أن فِن الأب نفسه هو من قتله».

«لا، حقًّا؟».

«لقد ظن الجميع هذا في بداية الأمر، لن يعرف أبدًا كم كان قريبًا من الشنق، لكن قبل حلول الليل، كانوا قد عدلوا عن رأيهم وخلصوا إلى أن زنجيًّا هاربًا اسمه جيم هو من قتله».

«لماذا هو..».

توقفت، إذ رأيت من الأفضل أن أبقى ساكنًا، واستطردتْ هي دون أن تلحظ أنني قاطعتها من الأساس:

«لقد هرب الزنجي في نفس اليوم الذي قُتِل فيه هاك فِن، لذلك فإن هناك مكافئة ثلاث مئة دولار لمن يعثر عليه، وهناك مكافئة مئتا دولار أيضًا لمن يعثر على فِن الأب، إذ إنه أتى إلى البلدة في صباح اليوم الذي تلا جريمة القتل، وحكى ما حدث، وخرج معهم للبحث عن جثته بالعبَارة، ثم رحل بعد ذلك على الفور. وقبل حلول الليل، أرادوا أن يشنقوه، لكنه كان قد رحل مثلما ترين. وفي اليوم التالي، اكتشفوا أن الزنجي قد رحل، واكتشفوا أن أحدًا لم يره منذ الساعة العاشرة في الليلة التي وقعت فيها جريمة القتل، فاتهموه بالجريمة مثلما ترين، وعندما كانوا على وشك الاستقرار

على أنه هو من فعلها، عاد فِن الأب في اليوم التالي، وذهب يبكي إلى القاضي ثاتشر من أجل أن يحصل على نقود يستعين بها في البحث عن الزنجي في إلينوي، فأعطاه القاضي بعض النقود، إلَّا أنه ثمل تلك الليلة، وظل يتجول حتى بعد منتصف الليل مع غريبين حاديِّ الملامح رحلا معه بعد ذلك، ولم يعد منذ ذلك الحين، ولا يبدو أنه سيعود حتى تهدأ الأمور قليلًا، لا سيما وأن الناس تعتقد الآن أنه قتل ابنه ولفق الأمر حتى يظن الناس أن اللصوص هم من فعلوا ذلك، وبذلك يحصل على نقود هاك دون حاجة إلى انتظار المحاكمة وقتًا طويلًا. يقول الناس إنه من النوع الذي يمكنه أن يفعل ذلك. أوه، أعتقد أنه ماكر. سيكون في أمان إن لم يعد لمدة عام، إذ لا يمكنك إثبات أي شيء عليه، مثلما تعرفين، وسيكون كل شيء قد هدأ حينها، وسيحصل على نقود هاك بسهولة متناهية».

«نعم، أعتقد هذا يا سيدتي. لا أرى ما يمنع هذا. هل توقف الجميع عن التفكير في أن الزنجي هو من فعل ذلك؟».

«أوه، لا، ليس الجميع. لا يزال هناك العديد ممن يظنون أنه هو من فعلها، لكنهم سيصلون إلى الزنجي قريبًا جدًّا، وربما سيخيفونه حتى يعترف».

«لماذا، هل بدأوا في البحث عنه؟».

«يا لك من بريئة، ألست كذلك! هل يُعرض على الناس مكافئة ثلاث مئة دولار كل يوم؟ يظن البعض أن الزنجي ليس بعيدًا عن هنا. وأنا واحدة من هؤلاء، لكنني لم أتحدث في الأمر. منذ بضعة

أيام، كنت أتحدث مع زوجين عجوزين يعيشان في الكوخ الخشبي المجاور، وتصادف أن أخبروني أنه نادرًا ما يذهب أي شخص إلى تلك الجزيرة التي يطلقون عليها جزيرة جاكسون، فسألتهم: ألا يعيش أحد هناك؟ فقالوا: لا، لا أحد. لم أستطرد في الحديث، لكنني فكرت قليلًا، إذ إنني شبه متأكدة من أنني رأيت دخانًا هناك عند مقدمة الجزيرة تقريبًا، قبل حديثي معهما بيوم أو يومين، فقلت لنفسي إن من المرجح أن يكون ذلك الزنجي مختبئًا هناك، وعلى أية حال فإن الأمر يستحق عناء تفتيش المكان، ولكنني لم أرَ أي دخان منذ ذلك الحين، لذلك أعتقد أنه رحل، هذا إن كان هو الشخص الذي كان على الجزيرة من الأساس، إلَّا أن زوجي ورجلًا آخر ذهبا ليستكشفا الأمر، إذ إنني أخبرته بالأمر فور أن عاد منذ ساعتين من شمال النهر».

أصابني هذا باضطراب شديد، فلم أستطع أن أبقى ساكنًا. كان عليَّ أن أفعل شيئًا بيدي، فأخذت إبرة من على المنضدة وبدأت أغزل. كانت يداي ترتعشان وكنت أغزل على نحو سيئ. عندما توقفت المرأة عن الحديث، رفعت عينيَّ، فوجدتها تنظر إليَّ بفضول شديد وتبتسم قليلًا. أنزلتُ الإبرة والخيط، وتظاهرت بأنني مهتم بما تقوله، وقد كنت مهتمًا بالفعل، وقلت:

«إن ثلاث مئة دولار مبلغ كبير. أتمنى لو كان باستطاعة أمي أن تحصل على مثل هذا المبلغ. هل سيذهب زوجك إلى هناك الليلة؟».

«أوه، نعم. لقد ذهب شمال البلدة مع الرجل الذي كنت أحكي

لك عنه، من أجل أن يأتيا بقارب ويريا إن كان بإمكانهما استعارة بندقية أخرى؛ سيذهبان إلى هناك بعد منتصف الليل».

«ألن تصبح الرؤية أفضل إذا انتظرا النهار؟».

«نعم، ولكن ألن تصبح الرؤية أفضل للزنجي أيضًا؟ على الأرجح، سيكون نائمًا بعد منتصف الليل، وسيكون بإمكانهما أن يتسللا إلى الغابة ويبحثا عن نار مخيمه بشكل أفضل في الظلام، إن لم يكن قد رحل».

«لم أفكر في ذلك».

ظلت المرأة تنظر إليَّ بفضول شديد، ولم أكن أشعر بالارتياح على الإطلاق. ثم قالت بعد قليل:

«ماذا كان اسمك يا عزيزتي؟».

«م.. ماري ويليامز».

لم يبدُ لي نوعًا ما أن الاسم الذي قلته من قبل كان ماري، بدا لي أنني قلت سارة، وشعرت بأنني محاصر نوعًا ما، وخشيت أن يكون شعوري قد ظهر عليَّ أيضًا. تمنيتُ لو أن تقول المرأة شيئًا آخر، إذ إنها كلما ازدادت صمتًا، ازددتُ قلقًا. ثم قالت أخيرًا:

«عزيزتي، أعتقد أنك قلتِ إن اسمك سارة في المرة الأول عندما دخلتِ؟».

«نعم يا سيدتي، لقد قلت ذلك. سارة ماري ويليامز. سارة هو اسمي الأول. يناديني البعض بسارة، ويناديني البعض بماري».

«أوه، أحقًا هذا؟».

«نعم يا سيدتي».

تحسن شعوري حينئذ، لكنني تمنيت لو كان بإمكاني الخروج من هناك، في كل الأحوال، ولم أتمكن من أن أرفع نظري.

أخذت المرأة تتحدث عن كيف تمر بأيام عصيبة، وكيف أنهما مضطران إلى العيش في الفقر، وكيف أن الفئران طليقة كما لو كان المكان مكانها، وما إلى ذلك، فهدأتُ من جديد. لقد كانت محقة بخصوص الفئران، إذ إنك كنت لترى فأرًا يُخرِج أنفه من فتحة في أحد الأركان كل حين. أخبرتني أنها يتعين عليها أن تبقي أشياء في متناول يدها حتى تلقيها عليهم عندما تكون بمفردها، وإلَّا فلن يتركوها في سلام، ثم أرتني سبيكة رصاص ملتوية على شكل عقدة، وأخبرتني أنها جيدة في التنشين بشكل عام ولكنها لوت ذراعها منذ يوم أو يومين ولذلك فلم تكن تدري إن كان لا يزال بإمكانها إلقائها على نحو جيد، ومع ذلك ظلت تنتظر حتى سنحت الفرصة، ثم ألقت بالسبيكة بعيدًا تجاه فأر، إلَّا أن السبيكة وقعت بعيدًا جدًّا عنه، وتأوهت هي كثيرًا من ألم ذراعها، واقترحت أن أسدد أنا الضربة التالية. كنت أرغب في الرحيل قبل أن يعود الرجل العجوز، لكني بالطبع لم أقل ذلك. أمسكتُ بالسبيكة، وألقيتها تجاه أول فأر كشف عن أنفه. لو بقي مكانه، لأصابه أذًى كبير. قالت إنها ضربة ممتازة، ورأت أن أسدد الضربة التالية، ثم نهضتْ وأمسكتْ بسبيكة الرصاص وأعادتها، وأحضرت معها شلة خيط أرادتني أن أساعدها

فيها، فرفعتُ يديَّ الاثنتين فوضعتْ الشلة عليهما واستمرت في الحديث عن شؤونها وشؤون زوجها، لكنها توقفت لتقول:

«أبقِ عينيكِ على الفئران، ومن الأفضل أن تضعي سبيكة الرصاص على حجرك، في متناول يدك».

ثم ألقتها في حجري على الفور، فضممت ساقيَّ معًا لتستقر بينهما، واستمرتْ هي في حديثها دقيقة واحدة فقط، قبل أن تمسك الشلة وتنظر إلى وجهي مباشرة وتقول في سرور كبير:

«هلم الآن، أخبرني اسمك الحقيقي؟».

«ما.. ماذا، يا سيدتي؟».

«ما هو اسمك الحقيقي؟ هل هو بيل أم توم أم بوب؟ أم ماذا؟».

أعتقد أنني ارتعشت مثل غصن شجرة، ولم أدرِ ماذا أفعل. لكني قلت:

«من فضلك لا تهزئي بفتاة مسكينة مثلي، يا سيدتي. إذا كنت أتسبب في إزعاج هنا، سأ..».

«لا، لن تذهب. اجلس هنا وابقَ مكانك. لن أؤذيك، ولن أشي بك أيضًا. أخبرني فقط بسرك وثق بي، وسأحتفظ به، بل وسأساعدك أيضًا. وكذلك زوجي إن أردتَ ذلك. أنا أعرف أنك هارب مبتدئ، هذا كل ما في الأمر. لا شيء آخر. لا ضرر في ذلك. لقد أسيئت معاملتك، وقررت أن تضع حدًّا. ليباركك الله يا طفلي، لن أشي بك. أخبرني كل شيء الآن، كن فتًى مطيعًا».

وهكذا رأيت أنه لا فائدة من الاستمرار في لعبتي، وقررت أن أفضي إليها بما يعتمل في صدري وأخبرها بكل شيء، بشرط ألَّا تخلف وعدها، ثم أخبرتها أن والدي ووالدتي كانا ميتين، وأجبرني القانون على أن أعمل في الريف، على بعد ثلاثين ميلًا من النهر، لصالح مُزارع عجوز شرير كان يعاملني معاملة سيئة جدًّا لم أستطع أن أتحملها، وعندما رحل لمدة يومين انتزهت الفرصة وسرقت بعضًا من ملابس ابنته القديمة وهربت، وأنني استغرقت ثلاث ليال حتى قطعت الثلاثين ميلًا، لأنني كنت أسافر ليلًا وأختبئ وأنام نهارًا، وكانت حقيبة الخبز واللحم التي حملتها من المنزل بها الكثير وكفتني طوال الطريق، وقلت إن خالي آبنر مور من الممكن أن يرعاني، ولهذا السبب كنت متوجهًا إلى تلك البلدة التي تدعى جوشين.

«جوشين، يا صغيري؟ هذه ليست جوشين. هذه سانت بطرسبرج. إن جوشين فوق النهر بعشرة أميال من قال لك إن هذه جوشين؟».

«رجل التقيته عندما كنت على وشك الدخول إلى الغابة لأخذ قسطي المعتاد من النوم، فجر اليوم، قال لي أن أتجه يمينًا عندما أصل إلى مفترق الطريق، وأن جوشين تقع على بعد خمسة أميال».

«لقد كان ثملًا على ما أعتقد، إذ أخطأ فيما قاله تمامًا».

«حسنًا، لقد كان يتصرف كما لو كان ثملًا، لكن هذا لا يهم الآن. يجب أن أستكمل رحلتي. سأصل إلى جوشين قبل شروق الشمس».

«انتظر دقيقة. سأحضر لك وجبة خفيفة لتأكلها، فربما تحتاج إليها».

وهكذا حضَّرت لي وجبة خفيفة، وقالت:

«قل لي، عندما تكون البقرة مستلقية ثم تنهض، أي من أطرافها ينهض أولًا؟ أجبني على الفور الآن ولا تطل التفكير؛ أي من أطرافها ينهض أولًا؟».

«طرفها الخلفي يا سيدتي».

«حسنًا، والحصان؟».

«طرفه الأمامي يا سيدتي».

«وأي جانب من الشجرة تنمو عليه الطحالب؟».

«الجانب العلوي».

«وإذا كانت هناك خمس عشرة بقرة تُرعى على جانب التلة، كم بقرة من الخمس عشرة بقرة تأكل ورأسها موجهة في نفس الناحية؟».

«الخمس عشرة كلهم يا سيدتي».

«حسنًا، أعتقد أنك عشت في الريف، لقد أعتقدتُ أنك ربما تحاول خداعي مجددًا. ما اسمك الحقيقي الآن؟».

«جورج بيترز، يا سيدتي».

«حسنًا، حاول أن تتذكر الاسم يا جورج. لا تنسَ وتقول لي إن

اسمك ألكسندر قبل أن ترحل، ثم تنقذ نفسك بأن تقول إنه جورج ألكسندر عندما أكشف أمرك. ولا تسِر بين النساء في هذه الملابس القطنية القديمة، فأنت تقلد الفتيات على نحو سيئ جدًّا، ومع ذلك فربما تستطيع خداع الرجال. بارك الله فيك يا صغيري؛ عندما تلضم إبرة، لا تثبت الخيط وترفع إليه الإبرة، بل اجعل الإبرة ثابتة وأدخل فيها الخيط، هذه هي الطريقة التي دائمًا ما تستخدمها النساء تقريبًا، أما الرجال فدائمًا ما يلضمونها بالطريقة الأخرى. وعندما تلقي شيئًا على فأر أو على أي شيء، قف على أطراف أصابعك وارفع يدك فوق رأسك بأكبر قدر ممكن من الغرابة، وأخطئ الفأر بنحو ستة أو سبعة أقدام. أبعد ذراعك عن كتفك وأنت تلقي كما لو أن هناك منعطفًا من المفترض أن تدور من حوله، مثل الفتيات، ليس من الرسغ والكوع وأنت تضع ذراعك إلى أحد جانبيك، مثل الفتيان. وإذا سمحت، عندما تحاول فتاة أن تلتقط شيئًا في حجرها فإنها تباعد بين ركبتيها، لا تضمهما مثلما فعلت وأنت تلتقط سبيكة الرصاص. حسنًا، لقد لاحظت أنك صبي عندما كنت تضع الخيط في الإبرة، واختلقت الأشياء الأخرى حتى أتأكد فقط. والآن، اذهب إلى خالك يا سارة ماري ويليامز جورج ألكسندر بيترز، وإذا وقعت في المشاكل ابعث إلى السيدة جوديث لوفتاس، التي هي أنا، وسأبذل ما في وسعي لأساعدك. ابقَ على طريق النهر، وفي المرة القادمة التي تتجول فيها خذ معك حذاء وجوربًا، لأن طريق النهر مملوء بالأحجار، وستكون قدماك بحالة سيئة عندما تصل إلى جوشين، على ما أعتقد».

مشيت على الضفة خمسين ياردة تقريبًا، ثم عدت المسافة التي سرتها، وتسللت إلى المكان الذي كان فيه الزورق، إذ كان في مكان بعيد أسفل المنزل، ثم قفزت داخله ورحلت سريعًا. جدفت بعيدًا ضد التيار، حتى وصلت إلى مكان يكفي أن يوصلني إلى بداية الجزيرة، ثم عبرت النهر، ونزعت قلنسوة الشمس، لأنني لم أكن أريد أي غمامات ذلك الحين، وعندما كنت قد تجاوزت منتصف المسافة تقريبًا، سمعت الساعة وهي تدق، فتوقفت لأنصت، ورغم أن الصوت جاء واهنًا من فوق المكان فقد كان واضحًا؛ كانت الساعة الحادية عشرة. عندما وصلت إلى بداية الجزيرة، لم أقف لألتقط أنفاسي، رغم أنني كنت مقطوع الأنفاس تقريبًا، وتوجهت مباشرة نحو المكان الذي اعتدت أن أنصب فيه مخيمي القديم داخل الغابة، وأشعلت نارًا قوية هناك فوق بقعة جافة ومرتفعة.

ثم قفزت داخل الزورق وأخذت أجدف بكل ما أوتيت من قوة، ناحية مكاننا، الذي كان يقع على بعد ميل ونصف. وعندما رسوت، تسللت عبر الغابة إلى أعلى التلة ثم دخلت الكهف. كان جيم مستلقيًا هناك على الأرض؛ غارقًا في النوم، فأيقظته قائلًا:

«استيقظ وتحرك يا جيم! ليس أمامنا دقيقة واحدة لنضيعها. إنهم يبحثون عنا!».

لم يطرح جيم أي أسئلة، ولم يقل كلمة واحدة، إلَّا أن الطريقة التي عمل بها خلال النصف ساعة التالية أظهرت كم كان خائفًا، وبحلول ذلك الوقت، كان كل شيء نملكه في العالم على طوافتنا،

وكنا مستعدين أن نجرها إلى خارج خليج الصفصاف الذي كانت مخبأة داخله. أطفأنا نار المخيم التي كانت في الكهف أولًا، ولم نشعل أي شمعة خارجه بعد ذلك.

سحبتُ الزورق قليلًا إلى خارج الشاطئ وألقيت نظرة؛ لو كان هناك قارب حولنا ما كنت لأتمكن من رؤيته، إذ إن ضوء النجوم والظلال لم يكن كافيًا، وهكذا أخرجنا الطوافة وتسللنا نحو نهاية الجزيرة، تحت الظلال، في هدوء مميت، دون أن نقول كلمة.

(١٢)

لا بد من أن الساعة كانت تقترب من الواحدة عندما وصلنا أخيرًا إلى جنوب الجزيرة، إذ بدا لنا أن الطوافة تسير ببطء شديد، وكنا قد قررنا أنه إذا دنا منا قارب فسنصعد إلى الزورق ونهرب إلى شاطئ إلينوي، وكان من حسن الحظ أنه لم تدنُ أي قوارب، لأنه لم يخطر إلينا أن نضع البندقية أو الصنارة أو أي شيء نأكله في الزورق، إذ منعنا اضطرابنا الشديد أن نفكر في أمور عديدة، ولم يكن قرارًا حكيمًا أن نضع كل شيء في الطوافة.

إذا كان الرجلان قد ذهبا إلى الجزيرة، فأتوقع أن يكونا قد وجدا نار المخيم التي أشعلتها وانتظرا جيم طوال الليل. على أية حال، ظلوا بعيدين عنا، وإن لم تكن النار التي أشعلتها قد خدعتهما، فإن ذلك لم يكن خطئي، إذ إنني فعلت ما في وسعي لأضللهما.

ومع أول شعاع بدأ يظهر من ضوء النهار، قمنا بتثبيت الزورق عند جرف رملي -وهو امتداد رملي مرتفع ينمو عليه شجر حور سُمكه من سمك أسنان الميكنة التي تستخدم في الأرض بعد

حرثها- ضمن منحدر كبير ناحية إلينوي، وقطعنا فروع شجر الحور بالفأس، وخبأنا الطوافة بالفروع حتى يبدو كما لو أن انهيارًا قد وقع هناك على الضفة.

أحاطتنا الجبال، من شاطئ ميزوري، والأشجار الكثيفة، من ناحية إلينوي، ولم نكن نخشى أن يمر بنا أحد في ذلك المكان لأن القناة كانت تقع جنوب شاطئ ميزوري، وهكذا استلقينا هناك طوال الليل نشاهد الطوافات والبواخر، وهي تدور حول شاطئ ميزوري، ونراقب الأخيرة وهي تتجه نحو الشمال وتصارع وسط النهر الكبير. سردت لجيم كل ما حدث في الفترة التي قضيتها وأنا أثرثر مع تلك المرأة، ورأى جيم أنها ذكية وأنها ما كانت لتجلس وتراقب نار المخيم لو كانت لاحقتنا بنفسها، وقال: لا يا سيدي، كانت لتحضر كلبًا، فقلت: حسنًا إذًا لماذا لم تقترح على زوجها أن يحضر كلبًا؟ فرد جيم بأنه يراهن أنها فكرت في الأمر عندما أوشك الرجلان على الرحيل وأنهما من المحتم قد ذهبا إلى شمال البلدة من أجل إحضار كلب وأن ذلك هو ما ضيع عليهما الوقت وسمح لنا في نفس الوقت أن نصل إلى هذا الجرف الرملي الذي يقع على بعد ستة عشر أو سبعة عشر ميلًا جنوب القرية، وقال: بالطبع لا، كنا لنصبح في بلدتنا القديمة من جديد، فأجبته بأنني لا أهتم لِمَ لم يصلوا إلينا طالما لم يصلوا إلينا.

وعندما أوشك الظلام أن يحل، أخرجنا رأسينا من أجمة الحور ونظرنا حولنا في كل اتجاه، فلم نجد شيئًا، فأخذ جيم بعضًا من الألواح الخشبية التي كانت موجودة في الجزء العلوي من الطوافة،

وبنى بها كوخًا مستديرًا مريحًا نحتمي به من الطقس الحار والمطر ونحافظ على أغراضنا جافة. صنع جيم أرضية للكوخ، وجعلها بارتفاع قدم أو أكثر فوق مستوى الطوافة، حتى تصبح البطاطين وجميع الأغراض بعيدة عن الموجات الناتجة عن مرور البواخر. وفي منتصف الكوخ بالضبط، صنعنا طبقة من الطين بعمق خمس أو ست بوصات تقريبًا، ووضعنا حولها إطارًا لتثبيتها في مكانها، من أجل إشعال النار عليها عندما يكون الطقس ممطرًا أو باردًا؛ إذ كان الكوخ حاجبًا من أن يرانا أحد، وصنعنا أيضًا مجدافًا إضافيًّا، تحسبًا لأن تصطدم المجاديف الأخرى بجذع شجرة تحت الماء أو غصن أو ما شابه، وشققنا عصًا قصيرة من طرفها لنعلق عليها المصباح، إذ كان يتحتم علينا إشعال المصباح دائمًا متى رأينا باخرة قادمة، تجنبًا للتصادمات. أما القوارب، فلم نكن بحاجة إلى إشعال المصباح من أجل تحذيرها، إلَّا إذا كنا فيما يطلقون عليه «مفترق»، ذلك أن الموج كان لا يزال عاليًا جدًّا والشواطئ شديدة الانخفاض كانت لا تزال تحت مستوى الماء قليلًا، وهكذا فلم تكن القوارب المتجهة نحو الشمال تمر دائمًا بالقناة، وإنما كانت تسير في المياه الهادئة.

في الليلة الثانية، سرنا في الماء نحو سبع أو ثمان ساعات بسرعة تزيد على أربعة أميال في الساعة، واصطدنا سمكًا وتحادثنا، وكنا نسبح من حين إلى آخر لنمنع أنفسنا من النوم، وكان الاستلقاء على ظهورنا وسط النهر الهادئ الواسع، داخل الزورق، نتطلع إلى النجوم، به نوع من القدسية. لم نشعر أبدًا برغبة في التحدث بصوت عالٍ، ولم نضحك بالمعنى المفهوم للضحكة؛ كنا نضحك ضحكات

خافتة مكتومة نوعًا ما. استمتعنا بطقس جيد جدًّا بشكل عام، ولم يحدث لنا أي شيء على الإطلاق في تلك الليلة، ولا في الليلة التي تلتها، ولا التي تلتها.

كنا نطوف كل ليلة بجوار بلدان؛ بعضها مرتفع فوق تلال مظلمة، لا يتجاوز أن يكون فراشًا مضيئًا من المصابيح المشتعلة، لا يسعنا أن نرى بيوته. وفي الليلة الخامسة، مررنا بسانت لويس، وقد جعلتني أشعر كما لو أن العالم قد أضيء بأكمله؛ كانوا دائمًا في سانت بطرسبرج ما يقولون إن سانت لويس بها عشرون أو ثلاثون ألف شخص، لكنني لم أصدق هذا الأمر أبدًا حتى رأيت هذه المساحة الشاسعة من الأضواء في الثانية صباحًا من تلك الليلة الساكنة؛ لم يكن هناك صوت وكان الجميع نائمين.

صرت معتادًا الآن أن أتسلل كل ليلة في العاشرة مساء إلى إحدى القرى الصغيرة وأشتري بقيمة عشرة سنتات أو خمسة عشر سنتًا ذرة أو لحمًا مقددًا أو أي شيء آخر أتناوله، وفي بعض الأحيان كنت أسرق دجاجة لا تجلس في عشها بارتياح وآخذها معي؛ كان أبي دائمًا يقول: خذ دجاجة عندما تكون لديك فرصة، لأنك إن لم تكن تريدها لنفسك، فيمكنك بسهولة أن تجد شخصًا يريدها، والمعروف لا يُنسى أبدًا، ورغم أنني لم أرَ أبي غير راغب أبدًا في الدجاج، فإن هذا هو ما اعتاد أن يقوله على أي حال.

وكنت أتسلل في الصباح، قبل شروق الشمس، إلى حقول الذرة وأستعير بطيخة أو شمامة أو قرعة أو بعض الذرة الجديدة

أو أشياء من هذا القبيل؛ كان والدي يقول إنه لا ضير أن تستعير أشياء إن كنت تنوي دفع ثمنها في وقت ما، إلّا أن الأرملة كانت تقول إن هذا لا يعدُّ أن يكون تخفيفًا لكلمة السرقة، وأن أي شخص محترم لا يلجأ إلى ذلك، أما جيم فقال إنه يعتقد أن الأرملة محقة في جزء وأن والدي محق في جزء، وأن أفضل ما نفعله هو أن نختار شيئين أو ثلاثة أشياء من القائمة نقرر ألَّا نستعيرهم مجددًا وأنه لا ضير أن نستعير الأشياء الأخرى، وهكذا تناقشنا في الأمر كله ذات ليلة ونحن على القارب، من أجل أن نقرر عن ماذا نتخلى؛ البطيخ أم الكانتالوب أم الشمام أم ماذا، وكنا قد حسمنا الأمر برمته على نحو مرضٍ قرب شروق الشمس وقررنا أن نتخلى عن التفاح البري الزهري والكاكي، وقد كنا مرتاحين تمامًا لقرارنا الأخير على خلاف المرات السابقة، وقد كنت مسرورًا لأن التفاح البري لا يكون جيدًا أبدًا والكاكي لن ينضج إلَّا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر.

كنا، من حين إلى آخر، نصطاد من الطيور المائية ما يستيفظ مبكرًا جدًّا في الصباح أو ما لا يخلد إلى النوم مبكرًا بما يكفي في المساء، وقد كنا نعيش على نحو جيد جدًّا إجمالًا.

في الليلة الخامسة التي مررنا فيها بسانت لويس، هبت عاصفة قوية بعد منتصف الليل واشتد البرق والرعد وانهمر المطر بغزارة، فبقينا في الكوخ وتركنا الطوافة تتكفل بالباقي. كان باستطاعتنا أن نرى النهر كبيرًا أمامنا والموج عاليًا مع وميض البرق والجروف الصخرية على كلا الجانبين. بعد قليل، قلت: «جيم، انظر هناك!»؛

كان الماء يجرفنا مباشرة نحو باخرة قد تحطمت فوق صخرة، وكان باستطاعتنا أن نراها بوضوح شديد مع وميض البرق. كانت مائلة وكان جزء من سطحها العلوي فوق الماء، وكان بإمكان المرء أن يرى بوضوح شديد كرسيًّا بجانب الجرس الكبير وقبعة قديمة من الجوخ تتدلى على ظهره وكل المداخن مهما كانت صغيرة، مع وميض البرق.

جعلني غموضها ووجودها في هذا الجو العاصف ليلًا بهذا الشكل أشعر بنفس ما كان ليشعر به أي فتًى آخر عندما يرى حطام سفينة في وسط النهر حزينة ووحيدة هكذا؛ أردت أن أصعد عليها وأجّول بها قليلًا لأرى ماذا يوجد بداخلها، فقلت:

«دعنا نصعد عليها يا جيم».

عارض جيم الأمر تمامًا في البداية، وقال:

«لا أريد أن أذهب وأجّول داخل حطام هذه الباخرة، نحن على ما يرام هكذا، ومن الأفضل أن ندعها وشأنها مثلما يأمرنا الكتاب المقدس، فضلًا عن أنه غالبًا سيكون هناك حراس بداخلها».

قلت: «عن أي حراس تتحدث، ليس هناك ما يحتاج إلى حراسة بخلاف الحجرات وغرفة الملاحة، هل تعتقد أن هناك من سيغامر بحياته في ليلة كهذه من أجل الحجرات وغرفة الملاحة في حين أن الباخرة من المحتمل أن تتحطم في أي لحظة ويجرفها التيار؟». لم يستطع جيم أن يجد ردًّا، فلم يحاول. قلت: «بالإضافة إلى أنه ربما يكون بإمكاننا أن نستعير شيئًا ذا قيمة من جناح القائد؛ سيجار.

أراهنك أن ثمن الواحد منه خمسة سنتات نقدًا. ومثلما تعرف، فإن قادة البواخر دائمًا ما يكونون أثرياء، ويتقاضون ستين دولارًا في الشهر، ولا يلقون بالًا إلى تكلفة الشيء طالما رغبوا فيه. ضع شمعة في جيبك؛ لن أرتاح حتى نفتشها يا جيم. هل تعتقد أن توم سوير كان ليمر من جوارها دون أن يفعل هذا؟ لم يكن ليفعل ذلك مهما كان، كان ليقول إنها مغامرة، هكذا كان سيصفها، وكان ليصعد على حطام تلك الباخرة حتى لو كان ذلك آخر شيء يفعله. ألم يكن ليضع بصمته؟ ألم يكن ليفرد نفسه وإلَا فلا؟ كنت لتظن أن كريستوفر كولومبوس قد أتى ليستكشف العالم الجديد؛ أتمنى لو أن توم سوير كان هنا».

تذمر جيم قليلًا ثم أذعن وقال إنه يجب ألَّا نتحدث إلَا للضرورة، وإذا تحدثنا أن نتحدث بصوت منخفض. كشف وميض البرق عن حطام الباخرة في الوقت المناسب تمامًا، فأمسكنا برافعة ميمنة الباخرة وتشبثنا بها.

كان ظهر السفينة عاليًا في تلك البقعة، فتسللنا إلى أسفل ناحية ميسرة السفينة، في الظلام، متجهين ناحية الحجرات ونحن نتحسس طريقنا على أقدامنا باسطين أيدينا لنبعد الرجال الذين لم نستطع أن نرى لهم أي أثر من شدة الظلام، وسرعان ما وصلنا إلى مكان انتهى عنده الضوء القادم من السماء، فقفزنا وأوصلتنا خطوتنا التالية أمام باب غرفة القبطان، الذي كان مفتوحًا. أقسم أننا رأينا ضوءًا في القاعة الملحقة بالغرفة! وفي نفس الثانية، بدا لنا أننا سمعنا أصواتًا منخفضة قادمة من هناك!

همس جيم قائلًا إنه يشعر بإعياء شديد، وطلب مني أن أذهب معه، فوافقت. وعندما كنت على وشك العودة إلى الطوافة، سمعت صوتًا يصيح قائلًا:

«من فضلكما لا، يا رجلان. أقسم أنني لن أقول شيئًا!».

فرد آخر بصوت عالٍ جدًّا:

«إن هذه كذبة يا جيم ترنر، لقد تصرفت بهذه الطريقة من قبل؛ دائمًا ما تطمع في أكثر من نصيبك في الغنيمة، ودائمًا ما نعطيك إياها، لأنك إن تحصل عليها تقسم أنك ستشي بنا، إلَّا أنك تجاوزت الأمر هذه المرة كثيرًا؛ إنك أكبر وغد خائن حقير في هذا البلد».

في الوقت الذي كان جيم قد وصل فيه إلى الطوافة، كنت أنا أغلي من الفضول، وقلت لنفسي إن توم سوير ما كان ليتراجع الآن، ولذلك فلن أتراجع أنا أيضًا وسأذهب لأرى ماذا يجري هنا، وهكذا جثوت على يدي وركبتي في الممر الصغير، وزحفت إلى مؤخرة الباخرة في الظلام حتى لم يفصل بيني وبين ممر الغرف سوى قاعة مناسبات واحدة، ومن ثم رأيت رجلًا مربوطة يداه وقدماه ممددًا على الأرض، ورجلين يقفان فوقه؛ أحدهما يمسك بمصباح خافت الإضاءة في يده، والآخر يمسك مسدسًا ظل يوجهه نحو رأس الرجل الممدد على الأرض، ويقول:

«أود أن أطلق النار عليك! ويجب عليَّ أن أفعل ذلك أيضًا أيها الظرب الحقير!».

انكمش الرجل الممدد على الأرض حول نفسه وقال: «أوه، من فضلك لا يا بيل، لن أشي بكما أبدًا».

وفي كل مرة كان يقول فيها ذلك، كان الرجل الذي يمسك بالمصباح يضحك ويقول:

«بالطبع لن تفعل! أراهن أنك لم تقل شيئًا أصدق من هذا أبدًا». وفي إحدى المرات، قال: «اسمعه وهو يتوسل! لولا أن ضربناه وقيدناه، لكان قتلنا نحن الاثنين، ولماذا؟ لا شيء، لمجرد أننا دافعنا عن حقوقنا، هذا هو السبب. لكنني أتعهد بأنك لن تهدد أحدًا آخر بعد الآن يا جيم ترنر. أبعد هذا المسدس يا بيل».

قال بيل:

«لا أريد يا جاك باكارد. أنا أؤيد قتله؛ ألم يقتل هاتفيلد العجوز بنفس الطريقة بالضبط، ألا يستحق القتل؟».

«لكنني لا أود قتله، ولديَّ أسبابي».

قال الرجل الممدد على الأرض، وهو يبكي: «بارك الله قلبك على هذه الكلمات يا جاك باكارد! لن أنساك طالما حييت!».

لم يكن باكارد منتبهًا إليه، وعلق مصباحه على مسمار وتوجه، في الظلام، نحو المكان الذي كنت فيه، وأشار إلى بيل أن يتبعه. ابتعدتُ عنهما نحو ياردتين، بأقصى سرعة، ورغم ذلك فقد استغرقت وقتًا أكثر من المتوقع لأن الباخرة كانت مائلة. زحفت إلى الجزء العلوي داخل إحدى الغرف، حتى لا يصطدمون بي ويكشفون أمري.

مضى الرجل وسط العتمة، وعندما وصل باكارد إلى الغرفة التي كنتُ فيها، قال:

«هنا، تعالَ هنا».

ثم دخل، ووراءه بيل.

قبل أن يدخلا، كنت قد أصبحت في الجانب العلوي من الفراش محاصرًا ونادمًا أنني أتيت، ووقفا يتحادثان واضعين أيديهما على إفريز الفراش، ورغم أنني لم أكن أراهما، فقد كان بإمكاني أن أعرف مكانيهما من رائحة الويسكي الذي كانا يشربانه، وكنت ممتنًا أنني لم أشرب ويسكي، رغم أن ذلك ما كان ليحدث فارقًا كبيرًا على أية حال، لأنهما ما كانا ليستطيعا أن يحددا مكاني، إذ إني كتمت نفسي معظم الوقت من شدة الخوف، بالإضافة إلى أن المرء لا يمكنه أن يتنفس وهو يسمع مثل هذا الحديث. كانا يتحادثان بصوت خفيض وبجدية؛ أراد بيل أن يقتل ترنر، وقال:

«لقد قال إنه سيشي بنا وسيفعلها، وبعد الشجار والطريقة التي عاملناه به، فإننا حتى لو أعطيناه حصتينا نحن الاثنين، لن يشكل هذا فارقًا، وبالطبع سيعترف علينا في سبيل أن يأخذ حكمًا مخففًا، وعليه فأنا مؤيد لفكرة أن نرحمه من مأساته».

قال باكارد بهدوء شديد: «وأنا أيضًا».

«اللعنة، كنت قد بدأت أفكر في أنك لا تريد ذلك. حسنًا إذًا، هذا جيد. لنذهب ونقتله».

«تمهل، لم أنتهِ بعد؛ أنصت إليَّ، إن القتل بالرصاص جيد، لكن إن كان يتعين علينا قتله فهناك وسيلة أكثر هدوءًا، ما أريد قوله هو أنه ليس من المنطقي أن نُعرض أنفسنا للشنق إن كان بإمكاننا تنفيذ ما نرغب فيه بطريقة جيدة وبدون مخاطرة، أليس كذلك؟».

«معك حق. لكن كيف سنفعل ذلك؟».

«حسنًا، فكرتي هي أن نفتش المكان كله ونجمع أي أغراض نسيناها في الحجرات ونذهب إلى الشاطئ ونخبئ الغنيمة ثم ننتظر، وأعتقد أن الأمر لن يستغرق أكثر من ساعتين حتى تتحطم هذه الباخرة ويجرفها النهر، أتفهمني؟ سيغرق، ولن يُلام أحد غيره على موته. أعتقد أن هذه الطريقة أفضل من قتله، إذ إنني لا أؤيد قتل رجل طالما كان باستطاعتك التحايل على الأمر، لأنه أمر غير منطقي وغير محمود، ألستُ على حق؟».

«نعم، أعتقد أنك محق. لكن ماذا لو لم تتحطم وتنجرف؟».

«يمكننا الانتظار ساعتين ونرى ماذا سيحدث، أليس كذلك؟».

«حسنًا إذًا، هلمَّ».

وهكذا تحرك الاثنان، وأسرعت أنا إلى الخارج أتصبب عرقًا باردًا؛ كان الظلام دامسًا، لكنني ناديت هامسًا بصوت خشن: «جيم!»، فأجابني، من مكان ما عند كوعي بالضبط، وهو يتأوه نوعًا ما، فقلت:

«أسرع يا جيم، هذا ليس وقت العبث والتأوه، هناك عصابة

من القتلى إن لم نهجم على باخرتهم ونجعلها تطفو على النهر، حتى لا يهربوا منها، سيقع أحدهم في مأزق. لكن إذا عثرنا على باخرتهم، فستتمكن من أن نضعهم جميعًا في مأزق بعد أن نسلمهم للمأمور. بسرعة، أسرع! سأهجم أنا على الميسرة، واهجم أنت على الميمنة. قم بتجهيز الطوافة، و..».

«أوه، يا إلهي، يا إلهي! الطوافة؟ لم تعد هناك طوافة، لقد انفصلت وابتعدت، وقد علقنا هنا!».

(١٣)

انحبست أنفاسي وكدتُ أفقد وعيي؛ عالقينِ على حطام باخرة مع مثل هذه العصابة! لكن لم يكن هناك وقت لمثل هذه الانفعالات؛ يجب أن نعثر على هذا القارب حالًا، يجب أن نستولي عليه. وهكذا، ذهبنا إلى ميمنة الباخرة ونحن نرتجف من الخوف، وقد استغرق ذلك وقتًا طويلًا وبدا أننا استغرقنا أسبوعًا حتى وصلنا إلى مؤخرة الباخرة، ومع ذلك لم يكن هناك أثر لأي قارب. قال جيم إنه لا يعتقد أن بوسعه المضي أكثر من ذلك وأنه يشعر بأن قواه على وشك الانهيار من شدة الخوف، لكنني شجعته قائلًا بأننا حتمًا سنقع في مأزق إذا بقينا على حطام هذه الباخرة، وهكذا استكملنا ووجدنا القارب عندما وصلنا إلى نهاية الحجرات. توجهنا ناحية الجزء المضاء بالنور القادم من السماء؛ نستند إلى نافذة بعد أخرى، إذ كانت حافة النافذة التي تُدخِل ضوء السماء في المياه. ومع اقترابنا من باب الرواق، وجدنا القارب! كنت بالكاد أستطيع رؤيته، وشعرت بامتنان بالغ، وكنت على وشك الصعود على متنه لولا أن

انفتح الباب، وظهر رأس أحد الرجلين على بعد قدمين فقط مني، وظننت أنني هالك، إلَّا أنه عاد برأسه للداخل مرة ثانية، وقال:

«أطفئ المصباح اللعين يا بيل!».

وضع باكارد حقيبة ما داخل القارب وصعد على متنه وجلس، وتبعه بيل. قال باكارد بصوت خفيض:

«استعد، انطلق!».

كنت أشعر بوهن شديد وأستطيع بالكاد التشبث بالنوافذ، عندما قال بيل:

«تمهل، هل انتهيت من أمره؟».

«لا، ألم تُنهِ أنت الأمر؟».

«لا. إذًا لا تزال معه حصته من النقود».

«حسنًا إذًا، هلم، لا فائدة من أن نأخذ الأغراض ونترك النقود».

«ألا تظن أنه سيشك فيما نخطط له؟».

«من الممكن ألا يشك في شيء. لكن يجب أن نحصل عليه على أية حال. هلم».

وهكذا، تركا القارب وعادا إلى الداخل.

انغلق الباب، لأنه كان في الجانب المائل إلى أعلى، وصعدت إلى القارب في نصف ثانية، ولحقني جيم. أخرجت السكين وقطعت الحبل وهربنا!

لم نلمس أي مجداف، ولم نتحدث أو نهمس، وكنا بالكاد نتنفس. في صمت مميت، حملنا الماء سريعًا فتجاوزنا حافة صندوق علبة التجديف ونهاية الباخرة. وخلال ثانية أو ثانيتين، كنا قد ابتعدنا مئات الياردات عن حطام الباخرة، التي ابتلعها الظلام وابتلع كل أثر لوجودها، فعرفنا أننا أصبحنا في أمان.

عندما أصبحنا على بعد ثلاث مئة أو أربع مئة ياردة تقريبًا في عرض النهر، رأينا المصباح مثل ومضة صغيرة عند باب الحجرات للحظة، وعرفنا من ذلك أن الوغدين قد اكتشفا اختفاء قاربهما، وبدءا يفهمان أنهما قد أصبحا الآن في نفس المأزق الذي كان فيه جيم ترنر.

بدأ جيم يجدف، ومضينا نبحث عن طوافتنا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي بدأت أشعر فيها بالقلق تجاه الرجلين؛ أعتقد أنني لم أكن أمتلك الوقت من قبل. بدأت أفكر في كم هو مخيف، حتى لقاتلين، أن يكونا في مأزق مثل هذا. قلت لنفسي إنني من الممكن أن أصير قاتلًا يومًا ما، رغم أنه لا توجد مؤشرات على ذلك، كيف سيكون شعوري حينئذ؟ فقلت لجيم:

«مع أول ضوء نراه، سنرسو عند أحد الجانبين على مسافة مئة ياردة، حيث يمكنك الاختباء أنت والقارب، ثم سأذهب وأخترع قصة وأجعل شخصًا يذهب إلى العصابة ويعيدهم ليشنقوا».

إلَّا أن الفكرة باءت بالفشل، إذ سرعان ما هبت عاصفة أخرى أقوى من سابقتها، وانهمر الماء، ولم يكن باستطاعتنا رؤية أي ضوء؛

كان الجميع نائمًا على ما أعتقد، وهكذا بقينا في النهر نبحث عن ضوء وعن طوافتنا. بعد فترة طويلة، توقف المطر وبقيت السحب ووميض البرق. وبعد قليل، أتاحت لنا ومضة برق أن نرى شيئًا أسود يطفو أمامنا، فمضينا نحوه.

كان ذلك الشيء هو الطوافة؛ كم كنا سعيدين أن نصعد عليها من جديد. رأينا حينئذ ضوءًا يمين الشاطئ، فاقترحت أن أذهب ناحيته. كان نصف القارب مملوءًا بالغنيمة التي سرقتها العصابة من حطام الباخرة، فجمعناها في كومة ووضعناها في الطوافة، وطلبت إلى جيم أن يتحرك ويشعل ضوءًا عندما يشعر بأنه ابتعد ميلين ويتركه مشتعلًا حتى أعود، وهكذا أمسكتُ بالمجدافين ومضيت ناحية الضوء. عندما بدأت في الاقتراب من الضوء، رأيت ثلاثة أو أربعة أضواء أخرى على أحد جوانب التلة؛ كانت قرية. اقتربت من الضوء الذي كان على الشاطئ وأمسكت بمجدافي وتقدمت، وفي أثناء ذلك رأيت مصباحًا يتدلى على رافعة عبارة ذات طابقين، فبدأت أبحث عن حارس العبارة، متسائلًا أين من الممكن أن يكون قد نام، وسرعان ما وجدته مستلقيًا في المقدمة عند مربط حبال مزدوج الأعمدة، وقد وضع رأسه بين ركبتيه. دفعته مرتين أو ثلاث مرات في كتفه، ثم بدأت أصيح.

هبَّ فزعًا نوعًا ما، ثم ما لبث أن تثاءب وتمطى عندما رآني، وقال:

«مرحبًا، ما الأمر؟ لا تبكِ يا صغيري. ما المشكلة؟».

قلت:

«أبي وأمي وأختي و..».

ثم انهرت. فقال:

«أوه، لا عليك، لا تبكِ هكذا، جميعنا يواجه المشاكل، وستمر هذه المشكلة على خير. ما خطبهم؟».

«إنهم، إنهم، هل أنت حارس العبارة؟».

أجاب بنوع من الفخر: «نعم؛ أنا القبطان والمالك ووكيل الربان والمرشد والحارس والعامل، وفي بعض الأحيان أكون الحمولة والركاب، ومع ذلك فأنا لست ثريًّا مثل العجوز جيم هورنباك، وليس بوسعي أن أكون على قدر كرمه وطيبته مع توم وديكِ وهاري وأبعثر النقود مثلما يفعل، وقد أخبرته أكثر من مرة أنني لا أود أن أكون مكانه، لأن حياة البحار، مثلما قلت، هي حياتي، ولن أستطيع الحياة إذا اضطررت إلى العيش ميلين بعيدًا عن البلدة، حيث لا تقع أحداث أبدًا، ولو حتى مقابل ثروته كلها وفوقها مثلها. قلت..».

قاطعته وقلت:

«إنهم في مشكلة، و..».

«من؟».

«والدي ووالدتي وأختي والآنسة هوكر. إذا أخذت عبارتك وذهبت إلى هناك..».

«هناك؟ أين هم؟».

«على حطام الباخرة».

«أي حطام؟».

«لا يوجد سوى حطام واحد».

«ماذا، أنت لا تعني حطام الباخرة والتر سكوت؟».

«نعم».

«يا إلهي! ماذا يفعلون هناك بحق الإله؟».

«حسنًا، إنهم لم يذهبوا إلى هناك عن عمد».

«أراهن على ذلك! يا إلهي، إنهم هالكون ما لم يخرجوا منها بسرعة شديدة! كيف بحق السماء وقعوا في هذه الورطة؟».

«ببساطة، كانت الآنسة هوكر في زيارة إلى البلدة..».

«نعم، مرسى بووث، أكمل».

«كانت في زيارة إلى مرسى بووث، ومع اقتراب المساء تحركت مع خادمتها الزنجية في عبارة مزودة بالأحصنة، من أجل أن تقضي الليلة كلها في منزل صديقتها الآنسة.. سمها ما تشاء لأنني لا أتذكر اسمها، ثم فقدوا مجدافهم واستدارت بهم العبارة وانجرفت بظهرها ميلين تقريبًا ناحية الحطام، وفُقِد قائد العبارة والمرأة الزنجية والأحصنة، إلَّا أن الآنسة هوكر تشبثت بالحطام وصعدت على متنه. وبعد ساعة من حلول الظلام، مررنا نحن بقاربنا المخصص للنقل، ولأن الظلام كان حالكًا فلم نلحظ الحطام إلَّا عندما أصبحنا فوقه،

وهكذا اصطدمنا به. نجونا جميعًا، باستثناء «بين ويبل» -أوه، لقد كان من أفضل الرجال!- أتمنى لو أنني أنا من كنت مكانه، أتمنى ذلك».

«يا إلهي! إن هذا أكثر شيء غريب شهدته في حياتي. ماذا فعلتم جميعًا بعد ذلك؟».

«أخذنا نصيح، إلَّا أن النهر كان واسعًا جدًّا هناك فلم يسمعنا أحد، وهكذا رأى أبي ضرورة أن يذهب أحد ما إلى الشاطئ ويطلب المساعدة بطريقة ما، ولأنني الوحيد الذي يستطيع السباحة تطوعت بالذهاب، وأخبرتني الآنسة هووكر أن آتي إلى هنا، إن لم أستطع إيجاد مساعدة سريعًا، وأذهب إلى عمها وسيتدبر هو الأمر. وصلت إلى البر، على بعد ميل من هنا، ومنذ ذلك الحين وأنا أحاول العثور على أحد يساعدني، لكنهم يردون: «ماذا، في مثل هذه العاطفة ووسط مثل هذا الموج؟ لا منطق في الذهاب إلى الباخرة» والآن إذا ذهبت و..».

«أقسم أنني أود ذلك. لكن يا إلهي؛ لا أدري، لكنني سأفعل ذلك، لكن من سيدفع مقابل ذلك بحق السماء؟ هل تعتقد أن والدك..».

«لا تقلق. لقد أخبرتني الآنسة هووكر بشكل محدد أن عمها هورنباك...».

«يا إلهي! هل هورنباك عمها؟ انظر، اذهب إلى ذلك الضوء الموجود هناك، ثم انعطف غربًا وستصل إلى الحانة بعد ربع ميل

تقريبًا، اطلب إليهم أن يوصلوك إلى منزل جيم هورنباك، وسيدفع هو الفاتورة. ولا تتسكع، لأنه سيرغب في معرفة الأخبار. قل له إنني سأعيد إليه ابنة شقيقه بأمان قبل أن يصل إلى البلدة. أسرع الآن، سأذهب أنا من هذا المنعطف وأوقظ المهندس».

ركضتُّ نحو الضوء، لكنني عدتُّ وصعدت في قاربي فور أن انعطف، وحللت وثاقه وتحركت في المياه الساكنة بعيدًا عن الشاطئ بحوالي ست مئة ياردة، ثم حشرت نفسي وسط مجموعة من القوارب الخشبية، لأنني ما كنت لأهدأ إلّا عندما أرى العبارة تتحرك، ومع ذلك فقد كنت أشعر بارتياح كبير عمومًا، لأنني تكبدت كل هذا العناء من أجل تلك العصابة؛ ما كان كثيرون ليفعلوا ذلك. يا ليت الأرملة تعلم بالأمر، أعتقد أنها كانت لتفخر بي لأنني ساعدت هؤلاء الأوغاد، إذ إن الأوغاد والحثالة هم نوعية الأشخاص الذين يزداد اهتمام الأرملة والأشخاص الطيبين بهم.

لم يمر وقت طويل حتى كان حطام الباخرة، القاتم والمعتم، قد غرق في الماء! سَرَت في جسدي رعشة، وذهبت لأراها. غرقت الباخرة بعمق كبير، وأدركت خلال دقيقة أنه لم تكن هناك فرصة كبيرة لأن يكون من بها أحياء. جدفت حولها وصحت قليلًا، لكني لم أتلقَ جوابًا. كان السكوت مميتًا، وشعرت بثقل في قلبي تجاه العصابة، وإن لم يكن كبيرًا، إذ إنني شعرت أن باستطاعتي تحمل الأمر إن كان باستطاعتهم أن يتحملوا القيام بنفس الشيء.

عندما جاءت العبارة، مضيت نحو منتصف النهر في خط مائل،

وعندما شعرت بأنني أصبحت بعيدًا عن مجال الرؤية أمسكت بمجدافيَّ ونظرت خلفي لأراها وهي تبحث عن رفات الآنسة هووكر حول الحطام، إذ إن القبطان كان يعرف أن عمها هورنباك سيريده، إلَّا أن العبارة سرعان ما يئست من الأمر وعادت إلى الشاطئ، وعدتُّ أنا إلى عملي ومضيتُ أجدف في النهر.

بدا أن وقتًا طويلًا قد مر قبل أن يظهر الضوء الذي طلبت إلى جيم أن يشعله، وعندما ظهر بدا كأنه يبعد ألف ميل، وعندما وصلت إلى هناك، كان لون السماء قد بدأ يتحول إلى الرمادي شرقًا، وعليه توجهنا إلى جزيرة وخبأنا الطوافة وأغرقنا القارب وخلدنا إلى الفراش ونمنا كالميتين.

(١٤)

بعد أن استيقظنا بوقت قليل، قلَّبنا الغنيمة التي كانت العصابة قد سرقتها من حطام الباخرة، ووجدنا فيها أحذية طويلة الرقبة وبطاطين وملابس وأشياء من كل لون، إذ كان فيها كتب كثيرة ومنظار وثلاث علب سيجار أصلي؛ لم يحدث أن كنا أثرياء هكذا من قبل طوال حياتنا. استلقينا العصر كله نتحدث في الغابة، وشرعت أنا في قراءة الكتب والاستمتاع بوقتي جيدًا. أخبرت جيم بكل ما حدث داخل الحطام وما حدث عند العبارة، وشرحت له أن هذه الأشياء ضرب من المغامرات، لكنه ردَّ بأنه لا يرغب في المزيد من المغامرات، وأخبرني أنه كان على وشك أن يموت عندما دخلت أنا إلى الحجرات وزحف هو عائدًا إلى الطوافة ليكتشف أنها لم تعد موجودة، إذ شعر أنه سيصبح في مأزق كيفما حُلت الأزمة: إن لم يُنقذ سيغرق، وإن أُنقِذ فسيعيده من ينقذه إلى البلدة من أجل أن يحصل على المكافأة لتبيعه الآنسة واتسون حتمًا بعد ذلك جنوبًا. حسنًا، لقد كان محقًّا، لقد كان محقًّا تقريبًا، لقد كان يحظى بمستوى ذكاء غير معتاد بالنظر إلى كونه زنجيًّا.

قرأت لجيم كثيرًا عن الملوك والديقان والإيرلات، ومن شابههم، وحكيت له عن ملابسهم المبهرجة وكيف كانوا يرتدون على الموضة ويهتمون بالمظاهر، وكيف أنهم يتخاطبون بلقب جلالتك وسموك وسيادتك، وما إلى ذلك، بدلًا من سيدي. وقد كان جيم متشوقًا جدًّا، حتى أن عينيه كانتا جاحظتين، وقال:

«لم أكن أعلم أنهم كثيرون، إذ إنني لم أسمع عنهم إطلاقًا باستثناء الملك سليمان، هذا إن استثنيت ملوك أوراق اللعب. كم يجني الملوك؟».

قلت: «كم يجنون؟ إن بإمكانهم الحصول على ألف دولار في الشهر إن أرادوا، بإمكانهم أن يأخذوا قدر ما يشاءون؛ إنهم يمتلكون كل شيء».

«أليس هذا رائعًا؟ وما الذي يتوجب عليهم فعله يا هاك؟».

«إنهم لا يفعلون شيئًا! كيف تتحدث! إنهم يجلسون وحسب».

«لا، أحقًا هذا؟».

«حقًّا بالطبع، إنهم يجلسون وحسب. باستثناء، ربما، عندما تكون هناك حرب، حينئذ يذهبون إلى الحرب، ثم يجلسون في كسل باقي الوقت، أو يذهبون للصيد، للصيد فقط وششش! هل تسمع ضوضاء؟».

خرجنا من المكان الذي كنا نختبئ فيه، إلَّا أن الصوت لم يكن سوى رفرفة عجلة باخرة بعيدة تعتدل في مسارها، فعدنا.

قلت: «نعم، وفي أوقات أخرى، عندما يشعرون بالملل، يذهبون لمضايقة البرلمان، وإذا لم يوافقهم الجميع على ما يقولون، يدقون أعناقهم. لكنهم غالبًا ما يقضون وقتهم في التسكع حول الحريم».

«حول ماذا؟».

«الحريم».

«ما هو الحريم؟».

«المكان الذي يبقون فيه زوجاتهم. ألم تسمع عن الحريم؟ كان عند سليمان منهن، كان عنده نحو مليون زوجة».

«نعم، هذا صحيح، لقد نسيت هذا الأمر. الحريم هو بيت للإقامة على ما أعتقد. على الأغلب، فإن الأطفال يتسببون في إزعاج هناك، وأعتقد أن الزوجات يتشاجرن كثيرًا، ما يتسبب في زيادة الإزعاج. ورغم ذلك، يقولون إن سليمان كان أكثر الرجال حكمة. أنا لا أثق بهذا الرأي، إذ لماذا يرغب رجل في أن يعيش وسط هذا الإزعاج طوال الوقت؟ لا، بالطبع لم يكن حكيمًا، لأن الرجل الحكيم هو من يبني مصنع مراجل، ثم يذهب ويجلس في المصنع عندما يرغب في الراحة».

«لكنه كان أكثر الرجال حكمة، على أية حال، لأن الأرملة أخبرتني هذا بنفسها».

«لا يهمني رأي الأرملة؛ لم يكن رجلًا حكيمًا. لقد كان يتصرف

بأكثر الطرق، التي رأيتها، غرابة على الإطلاق. هل سمعت عن الطفل الذي كان سيقطعه إلى نصفين؟».

«نعم، لقد حكت لي الأرملة كل شيء عن هذه القصة».

«حسنًا إذًا! ألم يكن هذا الأمر الأكثر جنونًا في العالم؟ فكر في الأمر قليلًا. لنفترض أن ذلك الجذع المتواجد هناك هو إحدى السيدتين، وأنت السيدة الأخرى، وأنا سليمان، وهذا الدولار هو الطفل، وكلاكما يدَّعي أن الطفل طفله، فماذا أفعل؟ ألا أذهب إلى الجيران لأعرف من فيكما والدة الطفل وأعيده سالمًا وآمنًا إلى الشخص الصحيح، أليس هذا ما كان ليفعله أي شخص عاقل؟ لا، بل أقطع الدولار إلى نصفين وأعطيك نصفه وأعطي السيدة الأخرى النصف الآخر؛ هذا هو ما كان سيفعله سليمان مع الطفل، والآن أريد أن أسألك: ما الفائدة من نصف دولار؟ لا يمكنك أن تشتري به شيئًا. وما فائدة نصف طفل؟ لا يهمني مليون منهم».

«لكن تمهل يا جيم، هذا ليس المغزى تمامًا، يا إلهي، هذا بعيد تمام البعد عن المغزى».

«من؟ أنا؟ اصمت. لا تحدثني عن مغزاك. أعتقد أنني أميز التفكير السليم عندما أراه، ولا يوجد منطق فيما فعله، لأن الخلاف كان حول طفل كامل، وليس نصف طفل، والرجل الذي يظن أن باستطاعته حل خلاف حول طفل كامل، بنصف طفل، لا يعرف ما يكفي لأن يحتمي من المطر عندما يهطل، لا تحدثني عن سليمان يا هاك، أنا أعرفه بما يكفي».

«لكنني أقول لك إنك لا تفهم المغزى».

«اللعنة على المغزى! هذا هو ما أعلمه. وإذا سمحت لي، فإن المغزى الحقيقي أعمق من ذلك، أعمق بكثير. إنه يكمن في الطريقة التي تربى بها سليمان؛ إذا كان هناك رجل لديه طفل أو طفلان، هل سيفرط هذا الرجل في الأطفال؟ لا، لن يفرط فيهم، لا يمكنه تحمل الأمر، لأنه يعرف قيمتهم. لكن إذا كان هناك رجل عنده نحو خمسة ملايين طفل يركضون حوله في المنزل، فإن الأمر مختلف؛ سيقطع طفلًا إلى نصفين بسهولة، كأنه قطة، لأن هناك المزيد كثيرًا. أما طفل أو طفلان، فلا يشكلون أهمية لدى سليمان، اللعنة!».

لم أرَ زنجيًّا مثله أبدًا؛ إن كانت هناك فكرة في رأسه فلا يمكن تغييرها أبدًا؛ لقد كان ناقمًا على سليمان أكثر من أي زنجي آخر رأيته في حياتي، وعليه فقد استكملت حديثي عن ملوك آخرين، وتركت الملك سليمان، فحكيت له عن لويس السادس عشر الذي قُطِعت رأسه في فرنسا منذ أمد بعيد، وعن ابنه الصغير الدولفين، الذي كان سيصبح ملكًا لولا أن أخذوه وحبسوه في السجن؛ يقول البعض إنه مات هناك.

«الفتى المسكين».

«لكن البعض يقول إنه خرج وهرب وجاء إلى أمريكا».

«هذا جيد! لكنه كان سيصبح وحيدًا، لا يوجد ملوك هنا، أليس كذلك يا هاك؟».

«لا».

«إذًا فلا يمكنه فعل شيء، ماذا كان سيفعل؟».

«حسنًا، لا أدري. بعضهم يلتحق بالشرطة، وبعضهم يُعلِّم الناس كيف يتحدثون الفرنسية».

«لماذا يا هاك، ألا يتحدث الفرنسيون مثلما نتحدث؟».

«لا، يا جيم، لا يمكنك فهم أي كلمة مما يقولونها، ولا كلمة واحدة».

«اللعنة! كيف هذا؟».

«لا أدري، لكن هذه هي الحقيقة. التقطتُّ بعضًا من حديثهم من أحد الكتب؛ اِفترض أن أحدًا أتى إليك وقال لك: بولي - فو - فرانزي، ماذا سيخطر إلى بالك؟».

«لن يخطر إلى بالي شيء، سأضربه على رأسه إن لم يكن أبيض؛ لن أسمح لزنجي أن يسبني هكذا».

«اللعنة، إن هذا ليس سبًّا. إنه يعني فقط: هل تستطيع التحدث بالفرنسية؟».

«حسنًا إذًا، ولماذا لم يستطع أن يقول ذلك؟».

«ماذا، إنه يقولها؛ هذه هي الطريقة التي يقول بها الفرنسيون هذا السؤال».

«حسنًا، إنها طريقة سخيفة لعينة، ولا أريد أن أسمع المزيد عنها؛ ليس بها أي منطق».

«انظر يا جيم، أتتحدث القطط مثلنا؟».

«لا، لا تتحدث مثلنا».

«حسنًا، هل يتحدث البقر مثلنا؟».

«لا، ولا البقر أيضًا».

«هل تتحدث القطط مثل البقر، أو تتحدث البقر مثل القطط؟».

«لا، لا يفعلون ذلك».

«ومن الطبيعي والصائب أنهم يتحدثون بطرق مختلفة بعضهم عن البعض، أليس كذلك؟».

«بالطبع».

«أليس من الطبيعي والصائب إذًا أن تتحدث القطط والبقر بطريقة مختلفة عنا؟».

«بالطبع أمر طبيعي».

«حسنًا إذًا، فلماذا ليس من الطبيعي لرجل فرنسي أن يتحدث بطريقة مختلفة عنا؟ أجبني على هذا».

«هل القطة رجل يا هاك؟».

«لا».

«حسنًا، فإذًا ليس من المنطقي أن تتحدث القطط مثل الإنسان. هل البقرة رجل؟ هل البقرة قطة؟».

«لا، ليست هذا ولا ذاك».

«حسنًا إذًا، فإن لا شأن لها أن تتحدث مثل أي منهما. هل الفرنسيون بشر؟».

«نعم».

«حسنًا إذًا! اللعنة، لماذا لا يتحدثون مثل البشر؟ أجبني على هذا!».

وجدت أن لا فائدة من الكلام؛ لا يمكنك أن تعلم زنجيًّا النقاش. وهكذا توقفت.

(١٥)

توقعنا أن نقضي ثلاث ليالٍ قبل أن نصل إلى القاهرة، الواقعة عند مصب نهر أوهايو، جنوب إلينوي، وهذا هو ما كنا نسعى إليه، إذ كنا نخطط لأن نبيع الطوافة ونصعد على متن باخرة ونتوجه شمالًا إلى أوهايو، وسط الولايات التي تحررت من الاسترقاق، وبذلك نكون تخلصنا من المشاكل.

بدأ الضباب يتكاثف، في الليلة الثانية، فمضينا نحو أحد الشواطئ لنرسو، إذ لم تكن هناك فائدة من محاولة السير وسط الضباب، إلَّا أنني عندما جدفت بالزورق إلى الأمام، لأربطه بالحبل، لم أجد سوى شجيرات صغيرة. قمت بلف الحبل حول واحدة من تلك الشجيرات، عند حافة الضفة بالضبط، إلَّا أن الموج كان شديدًا، فانجرفت الطوافة بسرعة شديدة واقتلعت الشجيرة من جذورها، وابتعدت. شعرت بخوف وإعياء شديدين، عندما رأيت أن الضباب يتزايد، حتى أنني لم أستطع الحراك لما بدا لي أنه نصف دقيقة تقريبًا، ولأنني لم أستطع أن أرى على بعد عشرين ياردة،

فقد غابت الطوافة عن ناظري، فقفزت داخل الزورق وركضت نحو نهايته وأمسكت بالمجداف وعدت به إلى الوراء مقدار ضربة واحدة، إلَّا أنه لم يتحرك، إذ إنني كنت في عجلة شديدة من أمري فلم أفك الحبل، فنهضت وحاولت فكه، إلَّا أن يديَّ كانتا ترتعشان من شدة التوتر، ولم يكن باستطاعتي التحكم فيهما تقريبًا.

بمجرد أن فككت الحبل، استدرت حول الشاطئ وراء الطوافة، بعزم وحيوية، وكان الدوران في هذا الجزء جيدًا، إلَّا أن طول الشاطئ لم يبلغ ستين ياردة، وفي اللحظة التي وصلت فيها إلى نهايته كنت قد أصبحت في معركة مع الضباب الأبيض الراسخ ولم يكن لرجل ميت أن تكون لديه فكرة أفضل عن الاتجاه الذي كنت ذاهبًا فيه أكثر مني.

استقر رأيي على أنه لا فائدة من التجديف، لأن الأمر سينتهي بي إلى ضفة أو شاطئ أو شيء ما، ومن ثم يجب أن أجلس ساكنًا وأترك الماء يحملني، رغم أن البقاء مكتوف اليدين في مثل هذه الظروف أمر مقلق جدًّا. أطلقت صيحة وأرهفت السمع، فسمعت صيحة خافتة تأتي من مكان بعيد، فارتفعت معنوياتي، مضيت أبحث عنها مرهِفًا سمعي حتى أتمكن من سماعها مجددًا، وعندما سمعته في المرة التالية وجدت أنني لم أكن متجهًا ناحيته وإنما يمينه، وفي المرة التالية كنت متجهًا يساره. لم أكن أقترب منه، بل كنت أجدف في هذا الاتجاه وذاك وذلك دون أن أتوجه ناحيته مباشرة.

تمنيت أن يخطر إلى بال ذلك الغبي أن يطرق على مقلاة من

القصدير، ويظل يطرقها طوال الوقت لأن فترات السكون بين الصيحات هي التي كانت تتسبب في المشكلة، لكنه لم يفعل ذلك أبدًا، وهكذا ظللت أحاول، وفجأة سمعت الصيحة تأتي من ورائي، وأصبحت في حيرة من أمري؛ إما أن هذه صيحة شخص آخر وإما أنني استدرت.

أنزلت المجداف وسمعت الصيحة تأتي من ورائي مجددًا، لكن من مكان مختلف. ظلت تتكرر ويتغير مكانها، وظللت أصيح مجيبًا عليها حتى عادت أمامي مجددًا بعد وقت قصير، وهكذا أدركت أن الموج قد أدار الزورق، وكنت لأصبح على ما يرام لو أن هذه كانت صيحات جيم وليست صيحات بحار آخر، ولكنني لم أستطع تمييز الأصوات في الضباب؛ إذ لا الأشكال ولا الأصوات تبدو طبيعية في الضباب.

ظلت الصيحات مستمرة حتى جرفني الماء، خلال دقيقة تقريبًا، نحو ضفة شديدة الانحدار أشجارها ضخمة تشبه أشباحًا مخيفة. دفعني الموج يسارًا وظل يتلاطم، وسط العديد من الجذوع القوية التي كانت متواجدة تحت المياه، وكان الموج يتحرك بينها بنعومة شديد.

عاد الضباب أبيض كثيفًا، بعد ذلك بثانية أو ثانيتين، وساد السكون من جديد، فبقيت ساكنًا أستمع إلى قلبي يدق. وبينما ظل قلبي يدق مئة دقة، ظننت أنني لم أُخرِج نفسًا.

حينئذ فهمت ما يحدث، وتخليت عن الأمر؛ لقد كانت الضفة

المنحدرة عبارة عن جزيرة، وكان جيم على الجانب الآخر منها، إلَّا أن الدوران حول شاطئها خلال عشر دقائق لم يكن أمرًا ممكنًا، لأن غابتها كانت كبيرة مثل الغابات المعتادة للجُزر، ربما بلغ طولها خمسة أو ستة أميال وعرضها أكبر من نصف ميل.

ظللت صامتًا وأبقيت أذنيَّ مطرقتين، نحو خمس عشرة دقيقة، على ما أعتقد. كان الماء لا يزال يحملني بالطبع، بسرعة أربعة أو خمسة أميال في الساعة، لكن لا عليك من هذا، لا، إنك تشعر بأنك ساكن كالموتى على المياه، وإذا لمحت جذع شجرة إلى جانبك في الماء، فإنك لا تفكر في سرعتك أنت، بل تلتقط أنفاسك وتفكر: يا إلهي! يا لسرعة ذلك الجذع؟ إذا كنت تظن أن الأمر ليس كئيبًا وموحشًا أن تكون بمفردك وسط الضباب ليلًا هكذا، جرب الأمر مرة واحدة وسترى.

ظللت بعد ذلك، أصيح من حين إلى آخر، لمدة نصف ساعة تقريبًا، حتى سمعت أخيرًا ردًّا قادمًا من مسافة بعيدة جدًّا. حاولت أن أمضي ناحية الصوت، لكنني لم أستطع، وعلى الفور شعرت بأنني قد دخلت وسط عش للشواطئ، لأنني كنت ألمحهم على جانبي بشكل طفيف، وألمح في بعض الأحيان قناة ضيقة بينهم، وكنت أدرك وجود بعض الشواطئ، التي لم أرها، من صوت الموج وهو يصطدم بالأغصان الميتة الذابلة والقمامة التي علقت على الضفاف. لم يمر وقت طويل حتى فقدت أثر الصيحات وسط الشواطئ، حاولت أن أتبعها فترة قصيرة فقط، على أي حال، لكن الأمر كان

أسوأ من مطاردة قرعة مضيئة. ليس لديك فكرة؛ ظل يراوغ هكذا ويغير مكانه بسرعة كثيرًا هكذا.

جاهدت أربع أو خمس مرات لأبتعد عن الضفة بقوة شديدة، حتى لا أتعرض للاصطدام بالشواطئ، وهكذا توقعت أن اصطدام الطوافة من حين إلى الآخر، وإلّا كانت لتبتعد كثيرًا وتخرج عن نطاق سماعنا لأنها كانت تتحرك بسرعة أكبر قليلًا من زورقي.

بعد قليل، شعرت بأنني أصبحت في عرض البحر من جديد، لكنني لم أستطع أن أسمع صيحات في أي مكان، واعتقدت أن جيم ربما يكون قد اصطدم بجذع شجرة تحت الماء وانتهى أمره تمامًا، ولأنني كنت متعبًا جدًّا، فقد استلقيت داخل الزورق وقلت إنني لن ألقي بالًا للأمر بعد الآن، ورغم أنني لم أرغب في النوم، بالطبع، فقد كنت أشعر بنعاس شديد إلى درجة لم أستطع مقاومتها، وهكذا رأيت أن أغفو قليلًا فقط.

لكنني أعتقد أنها كانت أكثر من غفوة، لأن النجوم كانت تلمع مضيئة في السماء عندما استيقظت، وكان الضباب قد تلاشى تمامًا، وكنت ألف منعطفًا كبيرًا بظهري، لم أكن أعرف أين أنا في بداية الأمر، وظننت أنني كنت أحلم، وعندما بدأت أتذكر، كانت الذكريات ضعيفة كما لو أنها قد حدثت الأسبوع الماضي.

كان النهر كبيرًا ومهولًا في هذه المنطقة، وشكلت الأشجار الشاهقة الكثيفة على كلتا الضفتين حائطًا مصمتًا كان بإمكاني رؤيته مجاورًا للنجوم. نظرت بعيدًا في النهر، فرأيت بقعة سوداء على الماء،

فمضيت نحوها، إلَّا أنني عندما وصلت إليها وجدت أنها لم تكن سوى لوحين خشبيين منشورين قد تم ربطهما معًا، ثم رأيت بقعة أخرى فطاردتها، ثم أخرى كنت محقًّا بشأنها هذه المرة وكانت الطوافة.

عندما وصلت إليها، كان جيم قد غفا وهو جالس هناك واضعًا رأسه بين ركبتيه بينما تتدلى ذراعه اليمنى فوق المجداف. كان المجداف الآخر قد تحطم، وكانت الطوافة قد امتلأت بالأغصان والفروع والقاذورات؛ إذًا فقد مرت بوقت عصيب.

ربطت الزورق، واستلقيت داخل الطوافة تحت أنف جيم، وبدأت أتثاءب وأبسط ذراعي ناحية جيم، وأقول:

«أهلًا يا جيم، هل كنتُ نائمًا؟ لماذا لم توقظني؟».

«يا إلهي، هل هذا أنت يا هاك؟ أنت لم تمت، أنت لم تغرق، لقد عدت من جديد؟ هذا أجمل من أن يكون حقيقة، يا عزيزي، أجمل من أن يكون حقيقة. دعني أنظر إليك يا صغيري، دعني أشعر بوجودك. لا، إنك لم تمت! لقد عدت من جديد، حيًّا سالمًا، هاك القديم بالضبط، هاك القديم بالضبط، حمدًا لله!».

«ما خطبك يا جيم؟ هل كنت تشرب؟».

«أشرب؟ هل كنت أشرب؟ وهل كانت هناك أمامي فرصة للشرب؟».

«حسنًا إذًا، ما الذي يجعلك تتحدث بهذا العنفوان؟».

«كيف أتحدث بعنفوان؟».

«كيف؟ ألم تكن تتحدث عن عودتي وعن كل هذه الأمور كما لو أنني قد اختفيت؟».

«هاك، هاك فِن، انظر إليَّ في عيني، انظر إليَّ في عيني، ألم تختفي؟».

«أختفي؟ ماذا تعني بحق الأمة؟ أنا لم أذهب إلى أي مكان، إلى أين سأذهب؟».

«حسنًا، انظر هنا يا سيدي، هناك خطب ما. هل أنا أنا، أم من أنا؟ هل أنا هنا، أم أين أنا؟ هذا هو ما أريد معرفته الآن».

«حسنًا، مما يتضح لي بشكل كافٍ، أعتقد أنك هنا، لكنني أعتقد أنك أحمق عجوز مضطرب يا جيم».

«أنا، حقًّا؟ حسنًا، أجبني على هذا: ألم تُخرِج الحبل من الزورق لتربطه في الشاطئ؟».

«لا، لم أفعل. أي شاطئ؟ أنا لم أرَ أي شاطئ».

«لم ترَ أي شاطئ؟ انظر هنا، ألم ينفك الحبل قبل أن تنجرف الطوافة في النهر وتُرِكت أنت في الزورق وسط الضباب؟».

«أي ضباب؟».

«الضباب! الضباب الذي كان كاسيًا طوال الليل؛ ألم نصحُ أنا وأنت قبل أن نتوه وسط الجزر؛ تاه أحدنا وكان الآخر تائهًا أيضًا

لأنه لم يكن يعرف أين هو؟ ألم أصطدم بالجزر كثيرًا وعانيت وكدت أغرق؟ أليس هذا صحيحًا يا سيدي، أليس صحيحًا؟ أجبني على هذا».

«حسنًا، هذا كثير عليَّ يا جيم، فأنا لم أرَ ضبابًا ولا جزرًا ولا مصاعب ولا شيء، لقد كنتُ جالسًا هنا أتحدث معك طوال الليل حتى نمت أنت منذ عشر دقائق تقريبًا، وأعتقد أنني فعلت الشيء نفسه، ولأنه لا يمكن أن تكون قد شربت في هذه المدة، فبالتأكيد كنت تحلم».

«يا إلهي، كيف لي أن أحلم بكل هذا في عشر دقائق؟».

«حسنًا، دعك من الأمر، لقد كنت تحلم، لأن لا شيء من ذلك حدث».

«لكن، يا هاك، إن كل شيء واضح لي مثل..».

«لا يهم كم كان الأمر واضحًا، لم يحدث شيء من هذا. أنا أعرف، لأنني كنت هنا طوال الوقت».

لم يقل جيم شيئًا لمدة خمس دقائق، وظل جالسًا يفكر في الأمر. ثم قال:

«حسنًا إذًا، أظن أنه كان حلمًا يا هاك، لكن يا إلهي إن هذا أقوى حلم رأيته على الإطلاق، ولم يرهقني حلم بهذا الشكل من قبل».

«أوه، حسنًا، لا بأس، لأن الأحلام أحيانًا ما ترهق المرء مثل كل شيء، إلَّا أن هذا الحلم يبدو مميزًا. أخبرني كل شيء عنه يا جيم».

بدأ جيم يعمل وهو يحكي لي كل ما حدث مثلما حدث بالضبط، بيد أنه أضاف إليه كثيرًا من الزخارف، ثم أخبرني أن عليه أن يشرع في «تفسيره»، لأنه بمثابة تحذير، وقال إن الشاطئ الأول إشارة إلى رجل يحاول أن يسدي إلينا معروفًا، أما الموج فكان رجلًا آخر يود إبعادنا عنه، أما الصيحات فكانت تحذيرات، تأتي إلينا كل حين، وما لم نبذل قصارى جهدنا لأن نفهمها فستتحول إلى حظ عاثر بدلًا من أن تحفظنا منه، أما الشواطئ الكثيرة فهي مشاكل سنواجهها مع أشخاص مثيرين للقلاقل وأشرار من كل صنف، ومع ذلك فإننا إن اهتممنا بشؤوننا ولم نرد عليهم ونزيد الأمور سوءًا، فسننجو ونخرج من الضباب إلى النهر الواسع الكبير، وهي الولايات التي تحررت من تجارة الرقيق، ولن نواجه المزيد من المشاكل.

كانت السحب قد تكاثفت بشدة بعد أن صعدتُ إلى الطوافة على الفور، إلَّا أنها بدأت في الانقشاع مجددًا الآن.

قلت: «أوه، حسنًا، لقد تم تفسير كل هذه الأمور على نحو جيد يا جيم، لكن كيف تفسر هذه الأشياء؟».

كنت أشير إلى الأغصان والقمامة، التي كان باستطاعة المرء أن يراها بوضوح الآن، على الطوافة والمجداف المحطم.

نظر جيم إلى القمامة، ثم نظر إليَّ، ثم نظر إلى القمامة مرة ثانية. كان الحلم قد علق جدًّا برأسه، حتى بدا أنه لا يستطيع التخلص منه وإعادة الحقائق إلى مكانها من جديد، على الفور، إلَّا أنه عندما وضع الأمور في نصابها، نظر إليَّ بثبات دون أن يبتسم حتى، وقال:

«كيف أفسرها؟ سأخبرك. عندما أنهكتُ من التعب ومن مناداتي عليك وخلدت إلى النوم، كاد قلبي أن ينفطر لأنك اختفيت، وما عدت ألقي بالًا إلى ماذا سيحدث لي على الطوافة، وعندما استيقظت ووجدت أنك عدت من جديد، آمنًا سالمًا، بكيت وكنت على وشك أن أجثو على ركبتي وأقبل قدمك، لأنني كنت شاكرًا جدًّا، بينما كان كل ما تفكر فيه أنت هو كيف تخدع العجوز جيم بكذبة. هذه الأغراض الموجودة هناك هي قمامة، والقمامة هم الأشخاص الذين يخدعون أصدقاءهم ويحرجونهم».

ثم نهض ببطء، وسار ناحية الكوخ، ودخل إليه دون أن يقول شيئًا آخر، إلَّا أن ذلك كان كافيًا لأن يشعرني بأنني شرير جدًّا، حتى كدت أقبل قدمه من أجل أن يسحب ما قاله.

استغرقني الأمر خمس عشرة دقيقة قبل أن أحمل نفسي على الاعتذار من زنجي، لكنني اعتذرت ولم أندم على ذلك فيما بعد، ولم أخدعه خدعًا شريرة بعد ذلك، وما كنت لأفعل تلك الخدعة إن كنت أعلم أنها ستجعله يشعر على هذا النحو.

(١٦)

قضينا النهار كله تقريبًا في النوم، ثم سرنا ليلًا وراء طوافة ضخمة طويلة طولها كطول موكب، وكانت هناك أربعة مجاديف طويلة عند كل طرف من أطرافها، فخمَّنًا أن يكون على متنها نحو ثلاثين رجلًا، على الأرجح، وكان يوجد على سطحها خمسة أكواخ كبيرة تفصل بينهم مساحات واسعة، وأوقدت نار مخيم مفتوح في منتصفها، وكانت ساريات الأعلام الطويلة عند كل طرف. كان ذوقها رفيعًا جدًّا، ومن المؤكد أن العمل بحارًا على مثل هذه الطوافة كان مدعاة للفخر.

استدرنا في منعطف كبير؛ كان الجو حارًّا وملبدًا بالغيوم والنهر واسعًا جدًّا ومسيجًا بالأشجار الصلبة على الجانبين حتى لم يعد باستطاعتك أن ترى ثغرة يتسلل عبرها الضوء، وتحدثنا عن القاهرة وتساءلنا إن كنا سنتمكن من التعرف عليها عندما نصل إليها، ورأيت إن ذلك أمر غير مرجح، إذ كنت قد سمعت أن ليس بها سوى عشرات المنازل تقريبًا، وبالتالي كيف سنعرف أننا نمر ببلدة إن لم تكن المصابيح مضاءة؟ وقال جيم إننا سنعرف من التقاء

النهرين الكبيرين هناك، لكنني فكرت في أننا من الممكن أن نظن أننا نمر بنهاية جزيرة ونتوه، فأقلقه هذا وأقلقني أنا أيضًا، وهكذا كان السؤال: ماذا نفعل؟ اقترحت أن نجدف ناحية شاطئ نرى عليه ضوءًا، وأخبرهم أن والدي قادم ورائي بقارب نقل، ولكنه جديد من هذا المجال، ولذلك يريد أن يعرف كم نبتعد عن القاهرة، فرآها جيم فكرة جيدة، ثم أخذنا ندخن وننتظر.

لم يكن هناك ما نفعله سوى أن نبحث عن بلدة بانتباه، وألَّا نمر من جانبها دون أن نلحظها، لكنه قال إنه سيحرص على أن يلحظ وجودها، لأنه سيصبح حرًّا في الدقيقة التي يراها فيها، لكنه إن تجاوزها فسيكون في بلد عبيد مرة أخرى ولن يكون هناك ملمح من ملامح الحرية. كان كل فترة قصيرة يقفز ويقول:

«ها هي؟».

لكنها لم تكن البلدة، وكانت قرعات مضيئة أو يراعات، وهكذا كان يجلس من جديد ويعاود البحث مثلما سبق. قال جيم إن الاقتراب من الحرية هكذا يجعله محمومًا ومرتعشًا كليًّا. حسنًا، يمكنني القول إنني كنت مرتعشًا ومحمومًا كليًّا أيضًا لأن أسمعه يقول هذا، إذ بدأت أستوعب أنه أصبح تقريبًا حرًّا، ومن يُلام على هذا؟ أنا؛ وهكذا لم أستطع أن أجعل ضميري يرتاح بأي طريقة وظل يؤرقني كثيرًا بدرجة لم أستطع أن أرتاح معها أو أبقى ساكنًا في مكان واحد، إذ لم يخطر إليَّ أبدًا ما كنت أفعله، لكنني أدركت الأمر ورسخ الأمر بداخلي وأخذ يحرقني أكثر فأكثر. حاولت

أن أقنع نفسي بأنني لم أكن لألام، لأنني لم أهرب جيم من مالكه الشرعي، لكن لم تكن هناك جدوى، إذ ظل ضميري يستيقظ كل مرة ويقول:

«لكنك كنت تعلم أنه كان يهرب سعيًا وراء حريته، وكان بإمكانك أن تجدف نحو الشاطئ وتخبر أحدًا». كان هذا صحيحًا، لم أستطع التحايل على ذلك الأمر بأية طريقة، وقد كان هذا هو ما يؤلمني؛ كان ضميري يقول لي: «ماذا فعلت لك الآنسة واتسون حتى قدرت على رؤية عبدها الزنجي يهرب تحت عينيك دون أن تقول كلمة واحدة أبدًا؟ ماذا فعلت لك تلك السيدة العجوز المسكينة حتى يصبح بمقدورك أن تعاملها بهذا السوء؟ لقد حاولت أن تعلمك الكتاب المقدس، وحاولت أن تهذبك، وكانت تحاول أن تكون جيدة معك بكل طريقة كانت تعرفها؛ هذا هو ما فعلته».

كنت أشعر بالشر والبؤس بداخلي، حتى أنني تقريبًا تمنيت أن أكون ميتًا، وظللت أنهض وأجلس في تململ، على الطوافة، وأؤنب نفسي بنفسي، وكان جيم ينهض ويجلس أمامي، إذ لم يستطع أي منا البقاء ساكنًا، وكان يرقص كل مرة في المكان ويقول: «ها هي القاهرة!»، وكانت تلك الجملة تمر بداخلي مثل الطلقة، وظننت أنني سأموت من البؤس لو أنها كانت القاهرة.

كنت أتحدث إلى نفسي، وكان جيم يتحدث بصوت عالٍ، فأخبرني أن أول ما سيفعله عندما يصل إلى الولاية التي أبطلت الاسترقاق، سيشرع في ادخار النقود دون أن ينفق سنتًا واحدًا،

وعندما يحصل على ما يكفي، سيشتري زوجته التي كانت مملوكة لمزرعة قريبة من المكان الذي تعيش فيه الآنسة واتسون، ومن ثم سيعمل كلاهما من أجل تحرير طفليهما، وإذا رفض سيدهما بيعهما، فإنهما سيحصلان على مؤيد لاستبطال الاسترقاق ليذهب ويسرقهما.

كدت أتجمد وأنا أسمع مثل هذا الحديث؛ ما كان ليجرؤ أن يقول مثل هذا الكلام في حياته من قبل، انظر الاختلاف الذي حدث داخله دقيقةَ رأى فيها أنه على وشك أن يكون حرًّا، مثلما يقول المثل: «سكتناله دخل بحماره». كنت أفكر في أن هذه نتيجة عدم تفكيري؛ هذا هو الزنجي الذي ساعدته على الهرب قدر استطاعتي يكشف حقيقته ويقول بكل صراحة إنه سيسرق طفليه؛ طفلين ينتميان إلى رجل لم أكن حتى أعرفه، رجل لم يؤذني أبدًا.

شعرت بالأسف وأنا أسمع جيم يقول ذلك؛ لقد كان ذلك خسة منه، وظل ضميري يؤرقني أكثر من ذي قبل، حتى قلت لنفسي في النهاية: «اهدأ، لم يأزف الوقت، سأجدف نحو الشاطئ مع أول ضوء وأبلغ عنه»، وهكذا شعرت على الفور براحة وسعادة وخفة مثل الريشة، واختفت كل متاعبي، وأخذت أبحث عن ضوء بانتباه وأنا تقريبًا أغني إلى نفسي. رويدًا رويدًا ظهر ضوء، فصاح جيم:

«لقد أصبحنا في أمان يا هاك، لقد أصبحنا في أمان! اقفز وارقص! ها هي القاهرة القديمة الجميلة أخيرًا، أنا أعلم ذلك وحسب».

قلت:

«سآخذ الزورق وأذهب لأرى يا جيم، فمثلما تعلم من الممكن ألا تكون هي».

وهكذا، قفز وجهز الزورق، ووضع معطفه القديم في أرضيته من أجل أن أجلس فوقه، وأعطاني المجداف، وبينما كنت أتحرك، قال:

«سرعان ما سأصيح من الفرحة وأقول إنني أصبحت رجلًا حرًّا بفضل هاك، وأنني لم أكن لأصبح حرًّا لولا هاك، هاك هو من فعلها. لن ينساك جيم أبدًا يا هاك، أنت أفضل صديق حظي به جيم على الإطلاق؛ أنت أفضل صديق لدى جيم الآن».

كنتَ أبتعد مجدفًا وأنا أتعرق من أجل أن أشي به، إلَّا أن كلامه هذا بدا وكأنه قد جردني من قدرتي على فعل ذلك، فمضيت بعده ببطء، ولم أعد متأكدًا ما إذا كنت سعيدًا لأنني تحركت أم لا، وعندما ابتعدت خمسين ياردة، قال جيم:

«هأنت ذا، هاك الأمين، السيد الأبيض الوحيد الذي أوفى بوعده لجيم العجوز».

كنت أشعر بالإعياء، لكنني رأيت أن من الواجب عليَّ أن أفعل ذلك وأنه لا يمكنني الإفلات من الأمر، وفي تلك اللحظة بالضبط جاء قارب على متنه رجلان معهما بنادق. توقفا فتوقفت، فقال أحدهما:

«ما هذا الذي هناك؟».

قلت: «جزء من طوافة».

«هل أنت قادم منها؟».

«نعم يا سيدي».

«هل عليها رجال؟».

«رجل واحد فقط يا سيدي».

«لقد هرب خمسة زنوج الليلة على رأس المنعطف، هل هذا الرجل أبيض أم أسود؟».

لم أجب على الفور، ورغم أنني حاولت، فلم تخرج الكلمات، حاولت لمدة ثانية أو ثانيتين أن أستجمع قواي وأتحدث، لكنني لم أتحلَ بالشجاعة الكافية؛ لم أكن أمتلك شجاعة أرنب، وعندما لاحظت أنني كنت مترددًا، تخليت عن المحاولة، وقلت: «أبيض».

«أعتقد أننا سنذهب ونتأكد بأنفسنا».

قلت: «أتمنى ذلك لأن أبي هناك، ومن الممكن أن تساعداني على جر الطوافة نحو الشاطئ، إلى مكان يكون فيه ضوء، لأنه مريض، وكذلك أمي وماري آن».

«أوه، بئسًا! نحن في عجلة يا فتى، لكن أظن أن علينا القيام بذلك. تعالَ، أمسك بمجدافك ودعنا نمضي».

أمسكت بمجدافي، وبدأا هما أيضًا يجدفان. بعد ضربة أو ضربتين، قلت:

«أؤكد لكما أن أبي سيكون ممتنًّا لكما، لأن الجميع يهرب عندما

أطلب مساعدتهم في جر الطوافة إلى الشاطئ، ولا يمكنني القيام بذلك بمفردي».

«حسنًا، هذه نذالة كبيرة، ولكنه أمر غريب أيضًا. قل لي يا فتى، ما خطب والدك؟».

«إنه الـ.. آ.. الـ.. حسنًا، ليس بالأمر الجلل».

توقف الاثنان عن التجديف بعد أن أصبحنا على مسافة قريبة من الطوافة، وقال أحدهما:

«إنك تكذب يا فتى. ما خطب والدك؟ من الأفضل لك أن تجيب الآن بصراحة».

«سأجيب يا سيدي، سأجيب بصراحة، لكن لا تتركاني من فضلكما. إنه الـ الـ سادة، إذا اقتربتما فقط، وسمحتما لي بأن ألقي الحبل، لن يكون عليكما الاقتراب من الطوافة، من فضلكما».

قال أحدهما: «إلى الوراء يا جون، إلى الوراء!». ودفعا الماء إلى الخلف. «ابقَ بعيدًا يا فتى، ابقَ بعيدًا عن الريح. اللعنة، أتوقع أن تكون الرياح قد نقلته إلينا. والدك عنده الجدري، وأنت تعرف ذلك جيدًا جدًّا. لماذا لم تكن صريحًا وتخبرنا بذلك؟ هل تريد أن تنشره في جميع الأرجاء؟».

قلت وأنا أبكي: «حسنًا، لقد أخبرت الجميع قبلكما، ورحلوا وتركونا».

«اللعنة، هناك منطق في ذلك. نحن نشعر بالأسف لأجلك،

لكن، حسنًا، اللعنة، نحن لا نريد أن نصاب بالجدري، مثلما ترى. انظر، سأخبرك ماذا تفعل: لا تحاول أن ترسو بنفسك وإلا حطمت كل شيء إلى أجزاء. سر عشرين ميلًا تقريبًا، وستصل إلى بلدة تقع على الجانب الأيسر من النهر، سيكون وقت طويل قد مضى على شروق الشمس حينئذ، وعندما تطلب المساعدة قل إن والديك مصابان بالبرد والحمى، ولا تكن غبيًّا مرة أخرى وتسمح للناس بتخمين الأمر. نحن نحاول أن نسديك معروفًا الآن، ولذلك كن فتًى مطيعًا واجعل المسافة بيننا عشرين ميلًا. لا فائدة من أن ترسو هناك عند الضوء، لأنها مجرد ساحة خشب. أعتقد أن والدك فقير، ويتحتم عليَّ القول بأن حظه عاثر جدًّا. خذ، سأضع قطعة ذهبية قيمتها عشرون دولارًا على هذا اللوح، خذها عندما يحمله الماء إليك. أنا أشعر باستياء شديد لتركك لكن يا إلهي! ليس هناك مزاح مع الجدري، ألا ترى؟».

قال الرجل الآخر: «انتظر يا باركر، هذه عشرون لتضعها على اللوح من أجلي. مع السلامة يا فتى، افعل مثلما أخبرك السيد باركر، وستكون على ما يرام».

«أحسنت يا فتى، مع السلامة، مع السلامة. إذا رأيت أي زنوج هاربين، اطلب المساعدة واقبض عليهم، ويمكنك أن تحصل على النقود مكافئة على ذلك».

قلت: «مع السلامة يا سيدي، لن أدع أي زنوج هاربين يفلتون مني إن استطعت».

عندما ذهبا، صعدت إلى الطوافة وأنا أشعر بالاستياء والخسة، إذ كنت أعلم جيدًا أنني أخطأت، ولم أرَ فائدة من محاولة تعلم القيام بالأمر الصائب، لأن المرء ما لم يبدأ في تعلم الصواب وهو صغير، لن يفلح في القيام بذلك، إذ لن يكون هناك من يدعمه ويحمله على ما يفعله عندما يؤنبه ضميره، ويكون بهذا قد فشل. فكرت دقيقة وقلت لنفسي: تمهل، افترض أنك فعلت الصواب وتخليت عن جيم، هل كان شعورك سيصبح أفضل مما هو الآن؟ قلت: لا، سأشعر باستياء، كنت سأشعر بنفس ما أشعر به الآن. حسنًا إذًا، ما فائدة أن تكون النتيجة واحدة عندما تتعلم القيام بالأمر الصائب على صعوبته وعندما تفعل الخطأ على عدم وجود مشكلة فيه؟ كنت عالقًا، ولم أستطع أن أجد إجابة على ذلك، لذلك قررت أنني لن أتعب نفسي بالتفكير في الأمر مجددًا وأن أفعل دائمًا ما هو أيسر في حينه بعد ذلك.

ذهبت إلى الكوخ، إلَّا أن جيم لم يكن هناك. بحثت في كل مكان، لكنه لم يكن في أي مكان، فناديت:

«جيم!».

«أنا هنا يا هاك. هل رحلا؟ لا تتحدث بصوت عالٍ».

كان تحت مجداف المؤخرة، في النهر، ولم يكن يظهر منه سوى أنفه، فأخبرته أنهما ابتعدا وأن يصعد، فقال:

«استمعت إلى الحديث كله فتسللت إلى النهر وكنت سأتجه إلى الشاطئ إذا صعدا وأعود إلى الطوافة سابحًا مجددًا عند رحيلهما. لكن يا إلهي، كيف تمكنت من خداعهما يا هاك! كان هذا ذكاءً

كبيرًا! أقول لك يا صغيري، إن ما فعلته أنقذ العجوز جيم، ولن ينسى لك جيم العجوز هذا المعروف يا عزيزي».

ثم تحدثنا عن النقود؛ لقد كان عشرون دولارًا لكل واحد منا تبرعًا جيدًا، وقال جيم إن الآن أصبح بمقدورنا شراء تذاكر على باخرة، وأن النقود ستكفي لأن نذهب إلى أي مكان نريده في الولايات التي أبطلت الاسترقاق، ورغم أنه تمنى لو كان وصلنا إلى هناك بالفعل، فقد قال إن عشرين ميلًا أخرى ليست بعيدة أن نقطعها بالطوافة.

ربطنا الزورق قرب سطوع النهار، وكان جيم حريصًا جدًّا بشأن إخفاء الطوافة جيدًا، وهكذا ظل يعمل طوال النهار على حزم الأغراض استعدادًا للانتهاء من السير بالطوافة.

ونحو الساعة العاشرة من تلك الليلة، مضينا تجاه أضواء بلدة تتواجد بعيدًا عند منعطف على الناحية اليسرى.

ذهبت لأستفسر عن البلدة بالزورق، وسرعان ما وجدت رجلًا معه قارب ويجهز صنارة في النهر، فاقتربت وقلت:

«سيدي، هل هذه البلدة هي القاهرة؟».

«القاهرة؟ لا. لا بد من أنك أحمق».

«ما هي هذه البلدة يا سيدي؟».

«إذا أردت أن تعرف، اذهب واكتشف. إذا بقيت هنا تزعجني لأكثر من نصف دقيقة، ستلقى ما لا ترضى».

فعدت مجدفًا إلى الطوافة، وكان جيم محبطًا جدًّا، لكنني أخبرته ألَّا يتضايق وأن القاهرة ستكون المحطة التالية على ما أعتقد.

مررنا ببلدة أخرى قبل سطوع النهار، وكنت سأخرج مجددًا، إلَّا أن سطحها كان مرتفعًا، فلم أخرج، إذ قال جيم إن القاهرة لا تتمتع بسطح مرتفع، إلَّا أنني كنت قد نسيت الأمر، وهكذا استرحنا هذا اليوم على شاطئ قريب جدًّا من الضفة المتواجدة على الناحية اليسرى، وبدأت أنا وجيم نشك في أمر، فقلت:

«ربما مررنا بالقاهرة في تلك الليلة الضبابية».

قال:

«دعنا لا نتحدث عن الأمر يا هاك. الزنوج المساكين ليس لهم حظ. لقد توقعت أن نَحْسَ جلد حية الجرس تلك لم ينفك بعد».

«يا ليتني لم أرَ جلد ذلك الثعبان يا جيم، يا ليت عينيَّ لم تقعا عليه».

«إنه ليس خطأك يا هاك، لم تكن تعرف. لا تلم نفسك على ذلك».

عندما سطع النهار، كانت مياه أوهايو الصافية، بدون شك، تضرب الشاطئ، وخارجًا وجدنا المياه الموحلة المعتادة القديمة! وهكذا انتهت مسألة القاهرة.

تحدثنا عن الأمر برمته، ووجدنا أن الذهاب إلى الشاطئ لم يكن مجديًا، إذ لم يكن باستطاعتنا حمل الطوافة على الماء طبعًا، وهكذا لم

يكن هناك بد من انتظار حلول الظلام والعودة بالزورق لنجرب حظنا، ومن ثم قضينا النهار كله نائمينِ وسط غابة شجر الحور الكثيفة، حتى نكون نشيطين من أجل العمل، وعندما عدنا إلى الطوافة بحلول الظلام كان الزورق قد اختفى!

لم ننطق بكلمة لوهلة؛ لم يكن هناك ما نقوله، علم كلانا جيدًا أن هذا مزيد من نحس جلد حية الجرس، وعليه فما الفائدة من الحديث عن الأمر؟ كان الكلام سيبدو بحثًا عن المخطئ، وقد كان ذلك حتمًا سيجلب المزيد من سوء الحظ، ويظل يجلبه حتى ندرك في النهاية أن علينا البقاء ساكنين.

بعد قليل، تحدثنا عن أفضل الحلول، ووجدنا أنه لم تكن هناك طريقة سوى أن نسير بالطوافة حتى تتاح لنا الفرصة أن نشتري زورقًا نعود به، إذ إننا ما كنا لنستعيره خلسة، مثلما كان أبي يفعل، لأن ذلك من الممكن أن يتسبب في ملاحقتنا.

وهكذا تحركنا بعد الظلام على الطوافة.

أي شخص لا يزال غير مصدق أن من الحماقة الإمساك بجلد ثعبان، بعد كل ما فعله جلد الثعبان بنا، سيصدق الأمر الآن إذا استمر في القراءة ورأى ماذا فعل بنا أيضًا.

كان مكان شراء الزوارق عند الطوافات المتواجدة على الشاطئ، لكننا لم نرَ أية طوافات هناك، ومن ثم قضينا ثلاث ساعات أو أكثر في المياه، حتى تحولت سماء الليل إلى الرمادي وأمست السحب كثيفة، وهو ثاني أسوأ شيء بعد الضباب، إذ لم يكن بإمكانك تحديد

شكل النهر أو تحديد المسافة، وكان السكون شديدًا والوقت متأخرًا جدًّا. جاءت باخرة تسير في النهر، فأضأنا المصباح، واعتقدنا أنهم سيرونا، ولم تكن القوارب تقترب ناحيتنا بشكل عام، لأنها كانت تخرج وتسير بمحاذاة الشاطئ بحثًا عن منطقة مياه راكدة عند الشعاب المرجانية، لكن في ليالٍ مثل هذه كانت تتحرك ببطء في الوسط ضد التيار.

كان باستطاعتنا أن نسمعها وهي تدق، إلَّا أننا لم نستطع أن نراها جيدًا حتى اقتربت؛ كانت متجهة ناحيتنا مباشرة، وكانوا كثيرًا ما يفعلون ذلك محاولين معرفة كم يستطيعون الاقتراب دون اصطدام، وكان العجل أحيانًا ما يقطم أحد المجاديف، ثم يُخرج المرشد رأسه ويضحك معتبرًا نفسه شديد الذكاء. حسنًا، ها هي تأتي، وقلنا إنهم سيحاولون كشطنا، لكن لم يبدُ أنها كانت تستدير ولو حتى قليلًا. كانت كبيرة، وكانت مسرعة أيضًا. كانت تبدو مثل سحابة سوداء، حولها مجاديف مصنوعة من ديدان متوهجة برزت عيناها الكبيرتان المخيفتان فجأة، ولها مجداف طويل بأبواب جهنمية مفتوحة على مصراعيها تضيء مثل أسنان حمراء ملتهبة، وحراسها ومقدمتها الهائلة فوقنا بالضبط. كان هناك من يصيح بنا، وكان هناك صوت أجراس من أجل وقف المحرك، والكثير من اللعنات، وصافرة البخار، وبينما صعد جيم على أحد الجانبين وصعدت أنا على الجانب الآخر، كانت هي تسحق الطوافة.

غطست، وتمنيت أن أصل إلى القاع أيضًا، لأن عجلة ذات ثلاثين قدمًا كانت ستدهسني، وأردت أن تكون هناك مساحة.

أستطيع دائمًا أن أبقى تحت الماء دقيقة كاملة، هذه المرة ظننت أنني بقيت دقيقة ونصف. ثم صعدت إلى سطح الماء بسرعة، لأنني كنت على وشك الانفجار. خرجت من الماء حتى إبطي وأخرجت الماء من أنفي، ونفخت قليلًا. بالطبع كان الموج عاليًا، وبالطبع قامت تلك الباخرة بتشغيل المحرك من جديد بعد مرور عشر ثوانٍ على توقفه، لأنهم لم يهتموا كثيرًا بالبحارة، وهكذا كانت الآن تتحرك في النهر، وتبتعد عن مرمى البصر في هذا الجو الملبد، ورغم ذلك كان باستطاعتي سماعها.

ناديت على جيم عشرات المرات، لكنني لم ألقَ جوابًا، فأمسكت بلوح خشب اصطدم بي بينما كنت «أصارع المياه»، ومضيت نحو الشاطئ واللوح يسبقني. لكنني أستطعت أن أرى أن التيار كان باتجاه الشاطئ على الناحية اليسرى، ما كان يعني أنني كنت في مفترقٍ، وهكذا غيرت مساري وذهبت إلى ذلك الاتجاه.

وقد كان واحدًا من تلك المفترقات المنحدرة التي يصل طولها إلى ميلين، وهكذا استغرقت وقتًا طويلًا حتى وصلت. رسوت بأمان، وتسلقت الضفة. لم أستطع أن أرى أمامي جيدًا، لكنني مضيت أتعثر فوق الأرض الصلبة نحو ربع ميل أو أكثر، ثم تعثرت بمنزل خشبي كبير قديم الطراز، مكون من طابقين، قبل أن ألحظه. كنت سأسرع وأهرب، إلَّا أن كلابًا كثيرة قفزت وظلت تعوي وتنبحني، وقد كنت أذكى من أن أتحرك خطوة واحدة.

(١٧)

خلال نصف دقيقة تقريبًا، تحدث شخص من نافذة دون أن يخرج رأسه، قائلًا:

«توقفوا عن النباح! من هناك؟».

قلت:

«أنا».

«من أنت؟».

«جورج جاكسون يا سيدي».

«ماذا تريد؟».

«لا أريد شيئًا يا سيدي. أنا فقط أريد المرور من هنا، إلَّا أن الكلاب لا تسمح لي».

«لماذا تجّول في هذا الوقت من الليل، ها؟».

«لم أكن أجّول يا سيدي، لقد سقطت من الباخرة».

«أوه، سقطت، أحقًّا هذا؟ فليشعل أحد ضوءًا. ماذا كان اسمك؟».

«جورج جاكسون يا سيدي، أنا مجرد صبي».

«انظر، إذا كنت صادقًا فلا داعي للخوف، لن يؤذيك أحد. لكن لا تحاول أن تتحرك، قف مكانك. فليذهب أحدكم ويوقظ بوب وتوم وأحضروا البنادق. هل معك أحد يا جورج جاكسون؟».

«لا يا سيدي، ليس معي أحد».

في تلك اللحظة، سمعت سكان المنزل يتحركون في الداخل. وعندما رأيت ضوءًا، صاح الرجل:

«أطفئي هذا الضوء يا بيتسي، أيتها العجوز الحمقاء، ألا تفهمين؟ ضعيه على الأرض وراء الباب الأمامي. بوب، إذا كنت مستعدًّا أنت وتوم، اتخذا مكانيكما».

«مستعدان».

«والآن يا جورج جاكسون، هل سمعت عن شيباردسانز؟».

«لا يا سيدي، لم أسمع عنهم أبدًا».

«حسنًا، من الممكن أن يكون هذا صحيحًا، ومن الممكن أن يكون غير ذلك. الجميع مستعد الآن؛ تقدم يا جورج جاكسون، وانتبه: لا تسرع، تقدم ببطء شديد، وإذا كان معك أحد فليبقَ بعيدًا، لأنه إن كشف عن نفسه سيُضرب بالرصاص. تعالَ الآن. تعالَ ببطء، ادفع الباب بنفسك ليُفتح بالمقدار الذي يكفي لدخولك، هل تسمع؟».

لم أسرع؛ لم أستطع حتى وإن أردت، كنت أسير خطوة ببطء، ولم يكن هناك صوت باستثناء أنني ظننت أن باستطاعتي سماع قلبي. كانت الكلاب ساكنة تمامًا مثل البشر، لكنهم تبعوني قليلًا. عندما وصلت إلى درجات السلم الخشبية الثلاث، سمعتهم في الداخل وهم يفتحون القفل والترباس ويزيلون الحاجز. وضعت يدي على الباب ودفعته رويدًا رويدًا حتى قال أحد: «توقف، هذا يكفي، أدخل رأسك». ففعلت ذلك، رغم أنني كنت أظن أنهم سيقطعونها.

كانت هناك شمعة على الأرض، وكانوا جميعًا ينظرون إليَّ وأنظر إليهم لمدة ربع دقيقة تقريبًا؛ كان هناك ثلاثة رجال ضخام معهم بنادق موجهة ناحيتي، وقد جعلني هذا أجفل. كان الأكبر ذا شعر رمادي وكان عمره يناهز الستين عامًا، وكان عمر الاثنين الآخرين ثلاثين أو أكثر، وكانوا جميعًا مهندمين ووسيمين، وكانت هناك سيدة عجوز ذات شعر رمادي هي الأكثر لطفًا، وكانت هناك امرأتان شابتان وراءها لم أستطع رؤيتهما جيدًا. قال السيد العجوز:

«لا بأس على ما أعتقد، تعالَ».

فور أن دخلت، أغلق السيد العجوز الباب ووضع الحاجز وأغلق الترباس، وأمر الشابين أن يدخلا ببنادقهما، ودخلوا جميعًا صالة استقبال كبيرة كان على أرضيتها سجادة جديدة، وتجمعوا كلهم في ركن خارج نطاق النوافذ الأمامية –ولم تكن هناك أية نوافذ جانبية– ورفعوا الشمعة ونظروا إليَّ بتمعن وقالوا جميعًا: «إنه ليس

شيباردسان، لا، ليس به أي ملامح من شيباردسان». ثم قال الرجل العجوز إنه يأمل ألَّا أمانع الخضوع للتفتيش بحثًا عن أسلحة، لأنه لم ينوِ بذلك سوءًا، وإنما فقط من أجل أن يتأكد. وهكذا لم يفتش جيوبي، وإنما تحسس ملابسي من الخارج فقط، وقال إن كل شيء على ما يرام، وأخبرني أن أكون على راحتي وأتصرف كأن البيت بيتي وأخبرَهم كل شيء عن نفسي، إلَّا أن السيدة العجوز قالت:

«بارك الله لك يا سول، المسكين مبتل تمامًا، ألا تعتقد أنه ربما يكون جائعًا؟».

«معك حق يا رايتشل، لقد سهوت».

وهكذا قالت السيدة العجوز:

«بيتسي» (كانت هذه امرأة زنجية)، «انطلقي وأحضري له شيئًا يتناوله بأقصى سرعة، المسكين، ولتذهب واحدة منكما يا فتيات وتوقظ باك وتخبره، أوه، ها هو قد أتى بنفسه. باك، خذ هذا الغريب الصغير واجعله يخلع ملابسه المبتلة وأعطه بعضًا من ملابسك الجافة».

بدا باك في مثل عمري؛ ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا أو في هذا المتوسط، رغم أنه كان أضخم مني بقليل. لم يكن يرتدي سوى سترة، وكان شعره منكوشًا جدًّا. دخل متثائبًا وهو يضع قبضة يده على إحدى عينيه بينما يجر باليد الأخرى بندقية، ثم قال:

«ألا يوجد شيباردسانز؟».

قالوا: لا، لقد كان إنذارًا خاطئًا.

قال: «حسنًا، لو كان هناك بعض منهم، لكنت قتلت واحدًا».

ضحكوا جميعًا، وقال بوب:

«كان من الممكن أن يكونوا قد سلخونا جميعًا يا باك، لقد كنت بطيئًا جدًّا في القدوم».

«حسنًا، لم يأتِ أحد ليوقظني، وليس من الصواب أن يتم إبقائي بعيدًا دائمًا، فأنا لا أشاهد أي إثارة».

قال الرجل العجوز: «لا عليك يا باك يا ولدي، ستشهد ما يكفي من الإثارة، كل في حينه، لا تقلق حيال هذا الشأن، واذهب الآن وافعل ما طلبته منك والدتك».

عندما صعدنا إلى الطابق العلوي ودخلنا غرفته، أحضر لي سترة خشنة وجاكيت وبنطالًا من ملابسه، فارتديتهم. وفي أثناء ذلك، سألني عن اسمي، لكن قبل أن يسمح لي بالإجابة، أخذ يحكي لي عن قيق أزرق وأرنب صغير اصطادهما في الغابة، أول أمس، وسألني أين كان موسى عندما انطفأت الشمعة. قلت له إنني لا أعرف ولم أسمع بالأمر من قبل.

قال: «حسنًا، خمن».

قلت: «كيف سأخمن ما دمت لم أسمع عن الأمر من قبل؟».

«لكن يمكنك التخمين، أليس كذلك؟ إن الأمر سهل جدًّا».

قلت: «أي شمعة؟».

قال: «أي شمعة».

قلت: «لا أعلم أين كان، أين كان؟».

«كان في الظلام! هذا هو مكانه!».

«حسنًا، إذا كنت تعرف أين كان، لماذا سألتني؟».

«اللعنة، ألا ترى أنها أحجية؟ قل لي كم ستمكث هنا؟ يجب أن تبقى هنا دائمًا. يمكننا أن نحظى بأوقات رائعة، لا توجد مدرسة الآن. هل عندك كلب؟ أنا أمتلك كلبًا، ويذهب إلى النهر ويلتقط الرقاقات التي ترميها إليه. هل تحب تمشيط شعرك أيام الآحاد، وكل ضروب السخافة هذه؟ أنا لا أحبها، لكن أمي ترغمني عليها. اللعنة على هذه السراويل! أعتقد أن من الأفضل أن أرتديها، لكنني لا أحب ارتداءها، إنها تجعلني أحترُّ. هل أصبحت جاهزًا؟ حسنًا. تعالَ، أيها الحصان العجوز».

ذرة باردة ولحم بقري بارد وزبدة وحليب ممخوض؛ هذا هو ما حضروه لي بالطابق السفلي. لم أكن قد تناولت شيئًا أفضل من هذا أبدًا. دخن باك هو ووالدته وجميعهم من غلايين الذرة، باستثناء المرأة الزنجية، التي اختفت، والسيدتين الشابتين. دخنوا جميعًا وتحدثوا، بينما أكلت أنا وتحدثت. تلحفت السيدتان بغطاء، وكان شعرهما مسدلًا على ظهريهما. طرح جميعهم أسئلة عليَّ، وأخبرتهم كيف أنني كنت أعيش مع أبي والعائلة كلها في مزرعة صغيرة جنوب أركنسو، وأن شقيقتي ماري آن هربت وتزوجت ولم نسمع عنها شيئًا منذ ذلك الحين، وأن بيل ذهب بحثًا عنهما ولم نسمع عنه

شيئًا من جديد، وأن توم ومورت ماتا، ولم يتبقَ سواي أنا وأبي، الذي أصبح جلدًا على عظم، بسبب مشاكله، وهكذا عندما مات أخذت ما تبقى، لأن المزرعة لم تكن ملكنا، ومضيت في النهر، على أرضية باخرة، وسقطت من على متنها، وهكذا انتهى بي المطاف إلى هنا. أخبروني أن باستطاعتي المكوث هناك قدر ما شئت، وعندما أوشك النهار على السطوع خلد الجميع إلى النوم، وذهبت أنا إلى الفراش مع باك. وسحقًا، عندما استيقظت في الصباح كنت قد نسيت اسمي. استلقيت هناك نحو ساعة محاولًا التفكير، وعندما استيقظ باك قلت:

«هل يمكنك أن تتهجى يا باك؟».

قال: «نعم».

قلت: «أراهن أنك لا تستطيع تهجية اسمي».

قال: «أراهن أنني أستطيع».

قلت: «حسنًا، تفضل».

قال: «ج و ر ج ج ك س و ن، ها قد تهجيته».

قلت: «حسنًا، لقد فعلتها، لكنني لم أظن أن باستطاعتك القيام بذلك. إنه ليس اسمًا تسهل تهجيته فورًا دون تفكير».

كتبته سرًّا حتى يكون سهلًا عليَّ إذا طلب مني أحد أن أتهجاه، كما لو كنت معتادًا عليه.

كانت عائلة لطيفة جدًّا، وكان منزلهم لطيفًا جدًّا أيضًا. لم أرَ

منزلًا لطيفًا وذا ذوق رفيع هكذا في الريف من قبل. لم يكن هناك قفل حديدي أو خشبي بسلسلة جلد غزال على الباب الأمامي، بل مقبض نحاس تلفه مثل المنازل الموجودة في المدن، ولم يكن هناك فراش في صالة الاستقبال أو علامة على وجود سرير، لكن العديد من صالات الاستقبال في المدن كانت تحتوي على فرش داخلها، وكانت هناك مدفأة كبيرة بُني الجزء السفلي منها بالطوب، الذي تم الحفاظ عليه أحمر نظيفًا بسكب الماء عليه ودعكه بطوبة أخرى وفي بعض الأحيان بغسله بطلاء مائي أحمر يسمونه بني إسباني، مثلما هو الحال في المدن، وكانت لديهم أعمدة نحاسية كبيرة تُستخدم في رفع الألواح الخشبية المنشورة، وكانت هناك ساعة على منتصف رف الموقد؛ رُسِم على النصف السفلي من زجاجها الأمامي صورة لبلدة، وخصص جزء دائري في منتصفها من أجل الشمس، وكان بإمكانك أن ترى البندول يتأرجح خلفها. كان سماع تلك الساعة وهي تدق شيئًا جميلًا، وعندما كان يمر أحد هؤلاء الباعة الجائلين في بعض الأحيان، ينظفها ويصلحها دون مقابل، وكانت تدق في ذلك الحين مئة وخمسين دقة قبل أن تتوقف.

حسنًا، كان هناك ببغاوان كبيران غريبان على كلا جانبي الساعة، وكانا مصنوعين من شيء يشبه الطباشير وملونين على نحو مبهرج. وإلى جانب أحد الببغاوين، كانت هناك قطة مصنوعة من الفخار، وإلى الجانب الآخر، كان هناك كلب مصنوع من الفخار، وكانا يحدثان صريرًا بالضغط عليهما، دون أن يفتحا فميهما أو يبدو عليهما الاختلاف أو الاهتمام، وكان الصوت يصدر من أسفلهما، وكانت

هناك مروحتان كبيرتان تشبهان أجنحة الديك الرومي البري، قد بُسطتا وراء تلك الأشياء، وكانت هناك سلة فخارية جميلة، على الطاولة في منتصف الحجرة، داخلها تفاح وبرتقال وخوخ وعنب أكثر حمرة وصفرة وأجمل من الفاكهة الحقيقية، لكنه لم يكن حقيقيًّا، إذ كان بإمكانك أن ترى الأجزاء التي تكسرت وكشفت عن الطباشير الأبيض، أو أيًّا كان ذلك الذي تحتها.

وضِع على الطاولة غطاء مصنوع من المشمع، قالوا إنه من فلاديلفيا، قد رُسِم عليه نسر ناشر أزرق في أحمر، وكانت جميع الحواف قد تحددت بألوان. كانت هناك أيضًا بعض الكتب، التي تم رصها بدقة تامة على كل ركن من أركان الطاولة. كان من بينها كتاب مقدس كبير للعائلة كان مملوءًا بالصور، وكتاب رحلة الحاج عن رجل ترك عائلته، لم يوضح السبب، وقد كنت أقرأ فيه كثيرًا من حين إلى آخر، ورغم أنه كان مشوقًا فقد كانت لغته صعبة، وكان هناك كتاب آخر اسمه هدية الصداقة؛ كان مليئًا بشعر وأشياء جميلة، لكنني لم أقرأ الشعر. وكان هناك كتاب آخر اسمه خطب هنري كلاي، وآخر اسمه دواء عائلة الدكتور جان، الذي كان يشرح لك كل شيء عن الإجراءات التي تفعلها إذا كان هناك شخص مريض أو ميت. وكان هناك كتاب ترانيم، والعديد من الكتب الأخرى. وكانت هناك كراسي لطيفة صُنِع مقعدها من ألواح خشبية متشابكة، وكانت متينة جدًّا أيضًا، ولم تكن مكسورة ومتدلية من منتصفها إلى أسفل مثل سلة قديمة.

كانت هناك صور معلقة على الحوائط، أغلبها لواشنطن ولافاييت

والمعارك وماري كيمبل، وكانت إحدى الصور تحمل اسم «التوقيع على الإعلان»، وكانت هناك بعض اللوحات التي كانوا يطلقون عليها الأقلام الملونة، التي كانت ابنتهم المتوفاة قد صنعتها بنفسها عندما كان عمرها خمسة عشر عامًا. كانت مختلفة عن أي لوحات رأيتها من قبل، كانت في الأغلب أكثر سوداوية عن المعتاد. كانت إحداها لسيدة نحيفة، ترتدي فستانًا أسود به حزام صغير تحت الإبطين وانتفاخات مثل الكرنب في منتصف الأكمام، وغطاء رأس أسود كبير يشبه مجرفة فحم كبيرة، به خمار أسود، وتربط على كعبيها الأبيضين النحيفين أشرطة سوداء متقاطعة، وتضع حذاءً أسود صغيرًا جدًّا أشبه بالإزميل، وكانت تنحني تحت صفصافة حزينة، متأملة شاهد قبر ناحية مرفقها الأيمن، بينما تتدلى يدها الأخرى إلى جانبها وقد أمسكت بمنديل أبيض وحقيبة يد صغيرة، وكتب تحت اللوحة «وا أسفاه، ألن أراك بعد الآن». كانت هناك واحدة أخرى لسيدة شابة شعرها كله ممشط بشكل مستقيم ومعقود أعلى رأسها أمام مشط يشبه ظهر الكرسي، وكانت تبكي في منديل، بينما يرقد طائر ميت على ظهره في يدها الأخرى وقد ارتفع كعبه إلى أعلى، وكُتِب تحت اللوحة «وا أسفاه، لن أسمع الزقزقة العذبة بعد الآن». وكانت هناك واحدة لسيدة شابة تتطلع إلى القمر من النافذة والدموع تنهمر على خديها، وقد أمسكت في إحدى يديها خطابًا مفتوحًا يظهر على إحدى حوافه شمع ختم أسود، بينما تضغط على فمها بدلاية لها سلسلة، وكتب تحت الصورة «وا أسفاه، الفن أنت ذهبت نعم أنت الفن ذهبت». كانت جميعها لوحات لطيفة، على

ما أعتقد، لكنني لم يبدُ أنني قد اعتدت عليها، لأنها كانت تصيبني بالعصبية كلما شعرت بقليل من الحزن. كان الجميع يشعر بالأسف لموتها، لأنها كانت تخطط لرسم المزيد من هذه اللوحات، وكان بإمكان المرء أن يرى من أعمالها ما فقدوه. لكنني خمنت من نزعتها أنها كانت تقضي وقتًا أفضل في المقبرة. كانت تعمل على ما يقولون أعظم لوحاتها عندما مرضت، وكانت دعوتها كل يوم وكل ليلة أن تتاح لها الفرصة أن تعيش حتى تنتهي منها، لكن لم تسنح لها الفرصة أبدًا. كانت اللوحة عبارة عن سيدة شابة ترتدي فستانًا أبيض طويلًا، تقف على سور جسر وهي في أتم الاستعداد أن تقفز، بينما ينسدل شعرها كله على ظهرها، وتتطلع إلى القمر، والدموع تسيل على وجهها، وقد طوت ذراعين على صدرها، وبسطت ذراعين أمامها، ووجهت ذراعين أخريين ناحية القمر، وكانت الفكرة من ذلك أن ترى أي نسخة ستبدو أفضل، ثم تمحي جميع الأذرعة الأخرى، لكن مثلما كنت أحكي، فقد ماتت قبل أن تحسم أمرها، وهكذا فقد احتفظوا الآن بهذه الصورة فوق رأس الفراش بغرفتها، وفي كل مرة يحين عيد ميلادها يعلقون عليها زهورًا، وكانوا يغطونها في أوقات أخرى بستارة صغيرة. كان للسيدة الشابة التي تظهر في الصورة وجه عذب لطيف، إلَّا أن الأذرع الكثيرة جعلتها تبدو لي مثل العنكبوت.

كانت هذه الفتاة الشابة تحتفظ بدفتر قصاصات عندما كانت لا تزال على قيد الحياة، واعتادت أن تلصق به نعايا وحوادث وحالات مرضى يعانون، تحصل عليها من الـ«بريزبيتيران أوبزرفر»، وكانت

تكتب شعرًا من تأليفها رثاءً لهم؛ كان شعرًا جيدًا جدًّا، وهذا ما كتبته عن صبي اسمه ستيفن دولينج بوتس كان قد سقط في بئر وغرق:

قصيدة غنائية لستيفن دولينج بوتس المتوفى
وهل مرض ستيفن الصغير،
وهل مات ستيفن الصغير؟
وهل أُثقِلت القلوب الحزينة،
وهل بكى الحزانى؟

لا، لم يكن هذا مصير
الصغير ستيفن دولينج بوتس،
ومع ذلك فقد أُثقلت القلوب الحزينة حوله،
لم يكن هذا بسبب المرض.

لم يهدم بنيته السعال الديكي،
ولا الحصبة الكئيبة ببقعها،
لم تمس هذه الأشياء الاسم المقدس
لستيفن دولينج بوتس.

لم يضرب الحب الحقير بويلاته
ذلك الرأس ذا العقد المجعدة،
ولم تطرحه آلام المعدة أرضًا،

الصغير ستيفن دولينج بوتس.

أوه لا. ثم دون بعين دامعة،
بينما أحكي عن مصيره.
حلقت روحه من هذا العالم البارد
بسقوطها في بئر.

أخرجوه وأفرغوه،
وا أسفاه كان الوقت قد أزف،
كانت روحه قد ذهبت لتلهو في الأعالي
في عوالم الخير والعظمة.

إذا كان بإمكان إيميلاين جراينجرفورد تأليف شعرًا مثل هذا قبل أن تبلغ الرابعة عشرة، لم يكن أحد ليتوقع ماذا كان بإمكانها أن تفعل بعد ذلك. أخبرني باك أنها كانت تستطيع إلقاء الشعر على نحو لا مثيل له، وأنها لم تحتجْ أبدًا إلى التوقف والتفكير؛ قال إنها كانت تستطيع أن تكتب سطرًا، وإذا لم تستطع أن تجد ما يتناغم معه كانت تشطبه وتكتب سطرًا آخر، وتستكمل. لم تكن محددة، كان باستطاعتها أن تكتب عن أي شيء يطلب منها أن تكتب عنه طالما كان حزينًا. وفي كل مرة كان رجل يموت، أو سيدة تموت، أو طفل يموت، تكون مستعدة بـ«تأبينها» قبل أن يبرد جسده. كانت تطلق على ما تكتبه تأبينات، وقال الجيران إن الطبيب يكون صاحب أول رد فعل، ثم إيميلاين، ثم الحانوتي، ولم يسبق الحانوتي إيميلاين إلا

مرة واحدة. وتكبدت إيميلاين، في هذه المرة، العناء من أجل أن تجد قافية على اسم الشخص المتوفى «ويسلر»، ولم تعد إلى سابق عهدها بعد ذلك الحادث أبدًا، فلم تكن تشتكي مطلقًا وأمست مغتربة نوعًا ما ولم تعش طويلًا. المسكينة، كنت أصعد مرات كثيرة إلى غرفتها الصغيرة وأخرج كتاب القصاصات الكئيب الخاص بها وأقرأ فيه، كلما زادت صورها حالتي سوءًا، وكنت أشعر بالمرارة تجاهها قليلًا. أحببت كل تلك العائلة، بما في ذلك الميتين، وما كنت لأدع أي شيء يحول بيننا. لقد كتبت المسكينة إيميلاين الشعر عن كل الميتين عندما كانت على قيد الحياة، ولم يبدُ من الصواب ألا يكون هناك شخص يكتب قليلًا عنها الآن وقد رحلت، لذلك حاولت جاهدًا أن أكتب مقطوعة أو مقطوعتين بنفسي، لكن لم يبدُ أن باستطاعتي القيام بذلك بطريقة ما. لقد أبقوا غرفة إيميلين مرتبة ولطيفة، وظل كل شيء في مكانه على نفس النحو الذي أحبته عندما كانت على قيد الحياة، ولم يكن أحد ينام هناك أبدًا، وكانت السيدة العجوز تعتني بالغرفة بنفسها، رغم وجود العديد من الزنوج، وكانت تخيط هناك كثيرًا وتقرأ من الكتاب المقدس هناك غالبًا.

حسنًا، مثلما كنت أقول عن صالة الاستقبال، كانت هناك ستائر جميلة على النوافذ: بيضاء، مرسوم عليها صور لقلاع وعناقيد عنب متدلية على الحوائط، وماشية في طريقها لشرب الماء، وكان هناك بيانو قديم أيضًا أعتقد أنه كان بداخله أواني قصدير، ولم يكن هناك ما هو ألطف من سماع السيدات الشابات وهن يشدون «كُسر آخر رابط» ويعزفن عليه «معركة براج». كانت حوائط جميع الغرف

مجصصة، وكانت هناك سجاجيد على معظم أرضياته، وكان المنزل كله مطليًّا بالأبيض من الخارج.

كان المنزل من طابقين، وكان هناك سقف وأرضية في المكان المفتوح الكبير بينهما، وفي بعض الأحيان كانت توضع الطاولة هناك في وسط النهار، وقد كان مكانًا مريحًا رطبًا. لم يكن من الممكن أن يكون هناك شيء أفضل ولا طعام أجود بهذه الوفرة أيضًا.

(١٨)

كان الكولونيل جراينجرفورد رجلًا نبيلًا بكل المقاييس، وكذلك كانت عائلته، إذ كان مثلما يقولون: من أصل طيب. والأصل الطيب مهم في الرجال مثلما هو مهم في الخيول، هكذا كانت تقول الأرملة دوجلاس التي لا يختلف أحد على أنها كانت من كبار الأرستقراطيين في بلدتنا. كان أبي يقول هذا أيضًا دائمًا، إلَّا أنه ليس أفضل من سمكة قرموط. كان الكولونيل جراينجرفورد فارع الطول وشديد النحافة، وكانت له بشرة داكنة شاحبة، لا تجد أثرًا لحُمرة الدم فيها. كان يحلق وجهه النحيف كل صباح، وكانت شفتاه وفتحتا أنفه هم الأنحف على الإطلاق. كان له أنف مرتفع وحاجبان كثيفان وعينان شديدتا السواد من شدة عمقمها تظن أنهما ينظران إليك من كهفين، إن جاز التعبير. كانت جبهته مرتفعة وشعره أسود مستقيمًا يتدلى فوق كتفيه، بينما كانت يداه طويلتين ونحيفتين. اعتاد طوال حياته أن يرتدي قمصانًا نظيفة وبذلات كاملة مصنوعة من كتان يؤلم عينيك من شدة بياضه عند النظر إليه، وكان يرتدي معطفًا

ذا ذيل أزرق بأزرار نحاسية في أيام الآحاد ويحمل عصًا من خشب الماهوجني لها مقبض فضي. لم يكن في مظهره ما يشي بعدم الجدية ولو حتى بقدر ضئيل، ولم يكن صاخبًا على الإطلاق، وكان طيبًا إلى أقصى درجة حتى أن هذه الطيبة كانت تصل إليك وتُشعرك بالثقة. كان يبتسم في بعض الأحيان، وكان رؤيته يبتسم أمرًا جيدًا. ومع ذلك، كانت رؤيته مستقيم الظهر مثل سارية العلم والبرق يومض من تحت حاجبيه تولِّد بداخلك الرغبة في تسلق شجرة قبل معرفة ما خطبه. لم يكن بحاجة إلى حث الناس على الانتباه إلى تصرفاتهم، لأن الجميع كان يحسن التصرف أينما كان متواجدًا. ورغم ذلك، كان الجميع يحب تواجده بالقرب منهم، كان وجوده يجعل الشمس مشرقة طوال الوقت تقريبًا، وأقصد بذلك أنه كان يجعل الطقس يبدو جيدًا، إلَّا أن الظلمة كانت تشتد لنصف دقيقة تقريبًا عندما يتحول إلى ضفة ملبدة بالغيوم، وقد كانت هذه المدة كافية لأن لا يحدث شيء سيئ آخر لمدة أسبوع.

عندما كان ينزل هو والسيدة العجوز صباحًا، كانت العائلة كلها تنهض من على كراسيها وتلقي عليهما تحية الصباح ولا يجلسون حتى يجلسا، ومن ثم يذهب توم وبوب إلى البوفيه حيث وضِع الدورق ويمزجان مشروبات مستخلصة من جذور أو أعشاب ويقدما إليه المزيج، فيمسكه بيده وينتظر حتى يمتزج شرابي توم وبوب، اللذين ينحنيان إلى أقصى درجة قائلين في امتنان: «واجبنا تجاهكما»، ثم يشرب ثلاثتهم. بعد ذلك، كان بوب وتوم يخلطان قدرًا ضئيلًا جدًّا من الويسكي أو براندي التفاح بسكر وملعقة

ماء، في كأسيهما، ويقدمان الخليط إليَّ أنا وباك، وكنا نشرب نخب العجوزين أيضًا.

كان بوب هو الأكبر، يليه توم. كانا شابين طويلين جميلين، لهما أكتاف عريضة ووجهان بنيان وشعر أسود طويل وعينان سوداوان، وكانا يرتديان الكتان الأبيض من رأسيهما إلى قدميهما، مثل العجوز النبيل، وقبعات عريضة خفيفة مصنوعة من الألياف المجدولة.

أما الآنسة شارلوت، فكانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وكانت جميلة وطويلة ووقورة ومعتزة بنفسها، وكانت لطيفة إلى أقصى حد ما لم تُستَفز. وكانت مثل والدها حينما يحدث ذلك؛ تخرج من عينيها نظرة تجعلك تذبل في مكانك.

أما شقيقتها، الآنسة صوفيا، فكانت ذات طبيعة مختلفة؛ لطيفة ورقيقة كيمامة، وكانت تبلغ من العمر عشرين عامًا فقط.

كان لكل منا زنجي يخدمه، بما في ذلك باك. أما خادمي، فكانت مهمته يسيرة جدًّا لأنني لم أكن معتادًا أن يفعل لي شخص أي شيء، وأما خادم باك، فكان منشغلًا معظم الوقت.

كان هؤلاء هم من تبقوا من العائلة، إلَّا أنهم كانوا أكثر من ذلك قبل أن يُقتل ثلاثة من أولادهم وتُتوفى إيميلاين.

كان العجوز النبيل يمتلك مزارع كثيرة وما يزيد على مئة زنجي، وكان أقارب العائلة يأتون على ظهور الجياد، من مناطق تبعد عشرة أميال أو خمسة عشر ميلًا عن هنا أحيانًا، ويمكثون خمسة أو ستة

أيام، وكانوا يستمتعون بوقتهم في المكان وقرب النهر؛ يرقصون ويخرجون في نزهات خلوية إلى الغابة نهارًا، ويقيمون حفلات منزلية ليلًا. وكان الرجال يحضرون بنادقهم معهم؛ لقد كانوا حقًّا أناسًا مرموقين.

كانت هناك عشيرة أرستقراطية أخرى تتكون من خمس أو ست عائلات؛ يحمل أغلبهم لقب شيبردسون. وقد كانوا أيضًا مثل عشيرة جراينجرفورد؛ أثرياء مرموقين ذوي شأن رفيع وأصل طيب. وقد كانت العشيرتان تستخدمان نفس مرسى البواخر، الذي كان يبعد عن منزلنا بميلين تقريبًا، ولأنني كنت أذهب إلى هناك أحيانًا مع العديد من أفراد عائلة جراينجرفورد، فقد اعتدت أن أرى العديد من أفراد عائلة شيبردسون هناك على جيادهم الجميلة.

وفي أحد الأيام التي كنت أصطاد فيها أنا وباك في الغابة، سمعنا حصانًا قادمًا بينما كنا نعبر الطريق، فقال باك:

«أسرع! اختبئ في الغابة!».

وهكذا اختبأنا في الغابة واختلسنا الأنظار من بين الأغصان، حتى ظهر بعد قليل شاب بهي الطلعة على الطريق؛ كان يمتطي جواده بخفة ويبدو مثل الجنود، وقد وضع سلاحه في سرج جواده. كنتُ قد رأيته من قبل، لقد كان الشاب هارني شيبردسون. سمعت صوت بندقية باك والرصاص ينطلق منها إلى جانب أذني ويُسقِط قبعة هارني من فوق رأسه، فأمسك هارني ببندقيته وانطلق مباشرة إلى حيث كنا نختبئ، إلَّا أننا لم نُمهله وركضنا داخل الغابة. ولأن

الغابة لم تكن كثيفة، فقد كنت ألتفت ورائي حتى أتفادى الطلقات، وقد شاهدت هارني مرتين وهو يصوب بندقيته نحو باك قبل أن يعود من حيث أتى ليأخذ قبعته (على ما أعتقد، لم أستطع أن أرى). أما أنا وباك، فلم نتوقف حتى وصلنا إلى المنزل. لمعت عينا العجوز النبيل، من السعادة على ما أعتقد، قليلًا قبل أن يهدأ وجهه ويقول بلطف:

«لا أحب القنص من وراء الأجمة، لِمَ لم تخرج إلى الطريق يا بني؟».

«إن آل شيبردسون لا يفعلون ذلك يا أبي، إنهم ينتهزون الفرصة دائمًا».

بينما كان باك يروي حكايته، اشرأبت الآنسة شارلوت برأسها كما لو كانت ملكة واتسعت فتحتا أنفها وأخذت ترمش بسرعة، واكفهر وجه الفتيان رغم أنهما بقيا صامتين، أما وجه الآنسة صوفيا فقد شحب حتى عرفت أن الرجل لم يتعرض إلى أذًى فعاد الدم إلى عروقها.

فور أن استطعت الانفراد بباك تحت الشجر في مخزن تجفيف الذرة، قلت:

«هل كنت تريد قتله يا باك؟».

«بالطبع كنت أريد ذلك».

«ماذا فعل لك؟».

«هو؟ لم يفعل لي شيئًا أبدًا».

«حسنًا، إذًا لماذا أردت قتله؟».

«لا شيء، بدافع الخصومة فقط».

«ما هي الخصومة؟».

«أين نشأت؟ ألا تعلم ما هي الخصومة؟».

«لم أسمع بها من قبل، حدثني عنها».

قال باك: «حسنًا، تكون الخصومة على هذا النحو: يتعارك رجل مع رجل آخر ويقتله، ثم يقتله شقيق ذلك الرجل الآخر، ثم يستهدف إخوة الرجلين من كلا الجانبين رجلًا آخر، ثم ينضم أبناء العمومة إلى الخصومة، ورويدًا رويدًا يُقتل الجميع وتنتهي الخصومة. إلا أنها عملية بطيئة نوعًا ما، وتستغرق وقتًا طويلًا».

«هل مضى على هذه الخصومة وقت طويل يا باك؟».

«على ما أعتقد! لقد بدأت منذ ثلاثين عامًا، أو في وقت ما من تلك الآونة، إذ كان هناك خلاف حول أمر ما ورُفعِت قضية لتسوية الأمر، وانتهت القضية بالحكم ضد أحد الرجلين، فقُتِل الرجل الفائز في القضية وهو أمر طبيعي جدًّا. كان أي شخص سيفعل ذلك».

«حول ماذا كان الخلاف يا باك؟ أرض؟».

«ربما، لا أعرف».

«ومن أي عائلة بدأ إطلاق النار؟ جراينجرفورد أم شيبردسون؟».

«يا إلهي، كيف لي أن أعرف؟ لقد كان ذلك منذ وقت طويل».

«ألا يعرف أحد؟».

«أوه، نعم، أعتقد أن والدي يعرف وغيره من الكبار، إلَّا أنهم لا يعرفون حول ماذا كان الخلاف في المقام الأول».

«هل قُتِل كثيرون يا باك؟».

«نعم، لقد أقيمت العديد من الجنائز، لكنهم لا يموتون في كل مرة، فأبي لا يزال يحمل في جسده بضع طلقات، لكنه لا يكترث لأمرهم على أي حال لأن وزنه ليس كبيرًا. كذلك، فقد طُعِن بوب بمطواة بواي، وجُرِح توم مرة أو مرتين».

«هل قُتِل أحد هذه السنة يا باك؟».

«لقد قتلنا واحدًا منهم وقتلوا واحدًا منَّا؛ كان ابن عمي باد البالغ من العمر أربعة عشر عامًا يمتطي حصانه عند الجانب الآخر من النهر، في الغابة، منذ حوالي ثلاثة أشهر، ومن شدة الحماقة لم يكن معه سلاح. وفي مكان خالٍ من الغابة، سمع صوت حصان قادم من خلفه ورأى العجوز بالدي شيبردسون يركض وراءه شاهرًا سلاحه في يده وشعره الأبيض يتطاير مع الريح. وبدلًا من أن يقفز من فوق جواده ويختبئ في الغابة، ظن باد أن بإمكانه الفرار منه، وهكذا امتد السجال خمسة أميال أخرى أو أكثر حتى رأى باد أن العجوز يتفوق عليه وأنه لم تعد هناك فائدة، فتوقف واستدار حتى يتلقى الضربات وهو يواجهها، فتقدم العجوز بجواده هو الآخر وأطلق عليه النار،

لكنه لم يفرح بانتصاره كثيرًا، لأن عائلتنا كانت قد أردته قتيلًا خلال أسبوع».

«أعتقد أن ذلك العجوز كان جبانًا يا باك».

«لا أعتقد أنه كان جبانًا، ولا حتى بنسبة ضئيلة. لا يوجد جبان واحد في عائلة شيبردسون، ولا يوجد جبناء في عائلة جراينجرفورد أيضًا. في أحد الأيام، تعارك الرجل العجوز مع ثلاثة من عائلة جراينجرفورد نصف ساعة وانتصر عليهم. ورغم أنهم جميعًا كانوا على ظهور جيادهم، ترجل الرجل العجوز واختبأ وراء كومة صغيرة من الخشب وجعل من حصانه درعًا يحتمي به من طلقات الرصاص، وهكذا ظل هؤلاء الرجال الثلاثة من عائلة جراينجرفورد يتقافزون حول الرجل من فوق جيادهم وهم يتبادلون إطلاق النار. وفي النهاية، عاد الرجل العجوز مع جواده إلى المنزل يعرجان وقد أصابتهما طلقات الرصاص، أما رجال جراينجرفورد فقد حُمِلوا إلى المنزل بعد أن مات أحدهم، ولقي آخر مصرعه في اليوم التالي. لا يا سيدي، إن كان هناك من يبحث عن جبناء فلن يود العبث مع شيبردسون، لأن الجبن لا يسري في سلالتهم بأي شكل».

في يوم الأحد الذي تلا حديثنا، ذهبنا جميعًا فوق ظهور الجياد إلى كنيسة كانت على بعد ثلاثة أميال، وأخذ الرجال بنادقهم معهم، بما في ذلك باك. وضع بعضهم البنادق بين ركبهم وأسندتها البقية إلى الحائط في مكان يسهُل الوصول إليه، وكذلك فعل آل شيبردسون نفس الشيء. كانت الخطبة رهيبة؛ كلها عن الحب الأخوي وما

شابهها من هذه الأمور المملة، إلَّا أن الجميع قال إنها كانت خطبة جيدة، وظلوا يتناقشون فيها جميعًا طوال طريق العودة إلى المنزل. كان لديهم الكثير مما يتحدثون عنه حول الإيمان والأعمال الصالحة وعطايا الله التي تأتي بغير حساب والمصير المحتوم، وغيرها من الأمور التي لا أتذكرها، حتى بدا لي أنه أحد أصعب أيام الآحاد التي مرت عليَّ.

بعد الغداء بساعة تقريبًا، أصبحت الأجواء مملة جدًّا، إذ أخذ الجميع قيلولة إما على مقاعدهم وإما على فراشهم، حتى أن باك قد استغرق هو وأحد الكلاب في نوم عميق فوق العشب، وهكذا صعدت إلى غرفتي وقررت أن أغفو قليلًا أنا أيضًا، وحينئذ وجدتُ الآنسة الرقيقة صوفيا تقف عند عتبة بابها المجاور لباب غرفتنا. أخذتني إلى غرفتها وأغلقت الباب برفق شديد وسألتني إن كنتُ أحبها، فأجبتها أنْ نعم، فسألتني إن كان بإمكاني أن أسدي إليها خدمة دون أن أخبر أحدًا، فوافقت. قالت إنها نسيت كتابها المقدس وتركته بين كتابين آخرين فوق المقعد بالكنيسة، وسألتني إن كان بإمكاني أن أتسلل بهدوء وأذهب إلى هناك وأحضره إليها دون أن أقول شيئًا لأحد، فوافقت. وهكذا، تسللتُ إلى الخارج ومضيت في طريقي. لم يكن هناك أحد في الكنيسة باستثناء خنزير أو اثنين. لم تكن هناك أقفال على الباب، والخنازير تحب الأرضيات الخشبية في الصيف لأنها تكون باردة. لو انتبهت، فستجد أن معظم العائلات لا تذهب إلى الكنيسة إلَّا إذا كانت مضطرة إلى ذلك. أما الخنازير، فالأمر مختلف معها.

كنت أرى أن هناك خطبًا ما، إذ ليس من الطبيعي أن تقلق فتاة كل هذا القلق بسبب كتاب مقدس. وعليه، نفضت الكتاب فسقطت منه ورقة صغيرة كُتِب عليها بالقلم الرصاص «الثانية والنصف». فتشته، لكنني لم أستطع أن أجد شيئًا آخر ولم أستطع أن أفهم إلى ماذا تشير الورقة، فأعدتها إلى الكتاب مرة أخرى. عندما وصلت إلى المنزل وصعدت إلى الطابق العلوي، وجدت الآنسة صوفيا تنتظرني عند باب غرفتها. جذبتني إلى الداخل وأغلقت الباب وفتشت الكتاب حتى عثرت على الورقة، وبمجرد أن قرأتها بدت عليها السعادة وأمسكتني وضمتني إليها قبل أن يطرف جفني، وقالت لي إنني أفضل فتًى في العالم، وطلبت مني ألَّا أخبر أحدًا بالأمر. احمرَّ وجهها جدًّا لوهلة والتمعت عيناها، وقد جعلها ذلك شديدة الجمال. أصابتني دهشة كبيرة، لكنني سألتها عن الورقة عندما التقطتُ أنفاسي، فسألتني إن كنتُ قد قرأتها، فأجبت أنْ لا، فسألتني إن كنت أستطيع القراءة، فقلت: «لا، أقرأ الخط المطبوع فقط»، فقالت إن الورقة لم تكن سوى فاصل كتاب يحفظ المكان الذي توقفت عنده، ثم طلبت مني أن أذهب وألعب.

مضيت نحو النهر وأنا أفكر في الأمر، ثم لاحظت أن خادمي الزنجي يلحق بي. وعندما أصبحنا بعيدًا عن مرمى البصر، أخذ يتلفت حوله بسرعة، ثم جاء راكضًا وهو يقول:

«سيد جورج، إذا أتيت معي إلى المستنقع، سأريك مجموعة كاملة من الأفاعي المائية السامة».

كان قد قال الشيء نفسه بالأمس، ولهذا رأيت أن الأمر مثير للفضول لأنه يجب أن يعرف أن الناس لا تحب الأفاعي المائية السامة إلى هذا الحد الذي يجعلهم يذهبون بحثًا عنها، وهكذا وددت أن أعرف ما الذي يخطط له، فقلت:

«حسنًا، هيا بنا».

تقدمنا نصف ميل، ثم توغلنا في المستنقع مسافة نصف ميل آخر حتى وصل إلى كعوبنا، ومنه خرجنا إلى قطعة أرض صغيرة مسطحة وجافة ذات أشجار وأجمة وأغصان شديدة الكثافة. وحينئذ قال:

«إنهم على بعد خطوات قليلة، تقدم أنت يا سيد جورج لأنني رأيتهم من قبل ولست مهتمًا برؤيتهم مجددًا».

وهكذا، عاد إلى المستنقع ومضى بعيدًا حتى اختفى وراء الأشجار بعد قليل. أما أنا، فمضيت إلى ذلك المكان الذي أشار إليه حتى وصلت إلى بقعة مفتوحة نوعًا ما؛ حجمها مثل حجم حجرة نوم. كانت العناقيد تتدلى من كل مكان، وكان هناك رجل نائم.. يا إلهي؛ لقد كان جيم!

أيقظته معتقدًا أن رؤيته لي من جديد ستكون مفاجأة كبيرة له إلَّا أنها لم تكن كذلك. ورغم أنه كاد يبكي من شدة الفرح فلم يكن متفاجئًا، إذ أخبرني أنه لحق بي في تلك الليلة سابحًا وسمعني وأنا أصيح في كل مرة، لكنه لم يُجب لأنه لم يرغب في أن يكشف أحد أمره ويعيده عبدًا من جديد. قال:

«تعرضت لجرح بسيط لكنه منعني من السباحة بسرعة، ولهذا

تخلفت وراءك كثيرًا. عندما وصلت إلى الشاطئ، ظننت أنني سألحق بك دون حاجة إلى أن أصيح، لكنني أبطأت عندما رأيت ذلك المنزل. ولأنني كنت بعيدًا جدًّا، لم أستطع أن أسمع ما يقولونه لك، وكذلك فقد كنت خائفًا من الكلاب. وعندما هدأ كل شيء من جديد، عرفت أنك كنت في المنزل، ومن ثم قررت أن أنتظرك في الغابة يومًا، إلَّا أن بعض الزنوج المتوجهين إلى الحقول مروا بي في الصباح الباكر، وأخذوني وعرَّفوني إلى هذا المكان الذي لا يمكن للكلاب أن تصل إليَّ فيه بسبب المياه، وكانوا يحضرون لي ما أتناوله كل ليلة ويخبرونني كيف أتعايش».

«لماذا لم تطلب من جاك، خادمي الشخصي، أن يأتي بي إلى هنا في وقت أبكر من هذا يا جيم؟».

«لم تكن هناك فائدة من إزعاجك دون أن يكون باستطاعتنا فعل شيء. أما الآن، فكل شيء أصبح مُعدًّا. كنت أذهب لشراء الأواني والمقالي والأطعمة، كلما سنحت لي الفرصة، وأرمم الطوافة ليلًا عندما..».

«أية طوافة يا جيم؟».

«طوافتنا».

«تقصد أن طوافتنا لم تصبح حطامًا؟».

«لا، لم تتحطم. تضرر أحد أطرافها، إلَّا أن التلف لم يكن كبيرًا. لكننا فقدنا كل أغراضنا تقريبًا. كنا لنتمكن من رؤية الطوافة لو لم يجعلنا الخوف نغطس بهذا العمق الكبير ونسبح هذه المسافة الكبيرة

مثل قرعتين تحت الماء، مثلما يُقال، فضلًا عن أن تلك الليلة كانت شديدة الظلمة. ومع ذلك، كانت عدم رؤيتها في صالحنا، لأنها الآن قد رُمِمَت تمامًا كأنها جديدة، وأصبح لدينا الكثير من الأشياء الجديدة التي تعوضنا ما خسرناه».

«كيف استعدت الطوافة يا جيم، هل قمت بجرها؟».

«كيف لي أن أجرها وأنا هنا في الغابة؟ لا، لقد كانت عالقة في جذعٍ عند منعطف مائي ووجدها بعض الزنوج وخبئوها في جدول يغطيه الصفصاف. ولأنهم كانوا يتحدثون كثيرًا عمن يُفترض أن يكون صاحبها من بينهم، وصل الأمر إلى مسامعي سريعًا، فأنهيت الخلاف بأن قلت لهم إنها لم تكن ملك أحد منهم، وأنها ملكنا نحن الاثنين، وسألتهم إن كانوا يريدون اغتصاب ملكية فتًى أبيض ويتلقون العقاب على هذه الفعلة؟ ثم أعطيت كل واحد منهم عشرة سنتات رضوا بها أشد الرضا، متمنين أن يحمل النهر المزيد من الطوافات التي تجعلهم أثرياء من جديد. إن هؤلاء الزنوج طيبون جدًّا معي يا عزيزي، وعندما أطلب منهم شيئًا لا أكون بحاجة إلى أن أكرر طلبي مرتين. إن جاك زنجي طيب، وذكي جدًّا».

«هذا حقيقي؛ إنه لم يخبرني أنك هنا تمامًا. طلب مني القدوم لرؤية الأفاعي المائية السامة فقط، وبهذا لن يكون متورطًا إذا حدث شيء. سيقول إنه لم يرنا معًا وستكون هذه هي الحقيقة».

لا أريد التحدث كثيرًا عمَّا حدث في اليوم التالي، ولذلك سأختصر الأمر قدر المستطاع. استيقظت قرب الفجر، تقلبت وكنت

سأعاود النوم من جديد لولا أنني لاحظت هدوءًا شديدًا غير مألوف؛ لم تكن هناك أي حركة ولم يكن باك في الغرفة. نهضت في دهشة متوجهًا إلى الطابق السفلي، فلم أجد أحدًا. كان كل شيء ساكنًا بالداخل والخارج، مثل الفئران. ماذا يعني هذا؟ وجدت جاك إلى جانب كومة خشب، فسألته:

«ما الأمر؟».

فقال:

«ألم تعلم يا سيد جورج؟».

قلت: «لا، لم أعلم».

«لقد هربت الآنسة صوفيا! هربت حقًّا! هربت ليلًا، لكن لا أحد يعرف الوقت الذي هربت فيه بالضبط. إنهم يعتقدون أنها هربت حتى تتزوج بذلك الشاب هارني شيبردسون. لقد اكتشفوا الأمر منذ نصف ساعة أو أكثر قليلًا، ولم يضيعوا وقتًا. خرجوا مسرعين بأسلحة وجياد لم ترها أبدًا! ذهبت النساء لاستدعاء أقاربهن، وأخذ السيد العجوز والشباب بنادقهم ومضوا في الطريق المؤدي إلى النهر، في محاولة للإمساك بالشاب وقتله قبل أن يتمكن من عبور النهر مع الآنسة صوفيا. أعتقد أن الأوضاع ستكون صعبة جدًّا».

«لقد ذهب باك دون أن يوقظني».

«بالتأكيد! ما كانوا ليورطوك في هذا الأمر. لقد عمَّر السيد باك

سلاحه، وقال إنه لن يعود إلى المنزل إلّا وهو يحمل أحد أفراد عائلة شيبردسون. سيكون الكثير منهم هناك على ما أعتقد وأُراهن أنه سيقتل أحدهم إذا سنحت له الفرصة».

خرجت إلى الطريق المؤدية إلى النهر بأقصى ما أوتيت من قوة، وسرعان ما سمعت أصوات أسلحة قادمة من بعيد. عندما أصبحت بالقرب من متجر الأخشاب وكومة الأخشاب، التي ترسو عندها البواخر، تسللت تحت الأشجار والأجمة حتى وجدت مكانًا جيدًا للاختباء، ومن ثم تسلقت شجرة حور يصعب الوصول إليها وراقبت ما يحدث. كنت سأختبئ في بداية الأمر بالقرب من الشجرة؛ وراء كومة من الألواح الخشبية التي يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام، لكن من حسن الحظ أنني لم أفعل ذلك.

كان هناك أربعة أو خمسة رجال يمتطون أحصنتهم في المكان المفتوح المتواجد قبل متجر الأخشاب، وكانوا يسبون ويصيحون لأنهم كانوا يحاولون الوصول إلى شابين يافعين مختبئين وراء كومة الألواح المجاورة لمرسى البواخر، دون جدوى. كان أي شخص يكشف نفسه بالخروج من وراء كومة الألواح إلى الجانب المجاور للنهر يتعرض لطلقات الرصاص. كان الشابان يتحركان ظهرًا لظهر وراء الكومة، حتى يتمكنا من مراقبة الناحيتين.

بعد قليل، توقف الرجال وهدأ صياحهم وانطلقوا ناحية المتجر. ومن ثم صوَّب أحد الفتيان بندقيته نحو كومة الألواح بثبات، وأطلق النار فأسقط أحد الرجال من على سرجه، فهبت البقية وقفزوا من

فوق جيادهم وحملوا الرجل المصاب إلى المتجر، فانطلق الفتيان راكضين. وقبل أن ينتبه الرجال إليهما، كانوا قد قطعوا نصف المسافة المؤدية إلى الشجرة، إلَّا أنهما امتطوا أحصنتهم فور أن لاحظوا وجودهما ولاحقوهما. ولأن الفتيان كانا قد بدأا بالفعل في الهرب قبل أن يتحرك الرجال، فقد تمكنا من الوصول إلى كومة الأخشاب المتواجدة أمام الشجرة التي تسلقتها، وتسللا خلفها. كان الفتى الأول هو باك، أما الثاني فقد كان فتًى شابًّا نحيفًا يبلغ من العمر نحو تسعة عشر عامًا.

استمر الرجال في حركتهم قليلًا قبل أن يبتعدوا. وبمجرد أن أصبحوا خارج نطاق الرؤية، صحتُ مناديًا باك. لم يفهم في بداية الأمر ما هذا الصوت القادم من فوق الشجرة، وكان متفاجئًا جدًّا، ثم ما لبث أن طلب مني أن أراقب الوضع بانتباه وأخطره عندما يعاود الرجال الظهور، ثم أخبرني أنه سيذهب ليفعل أمرًا ما ولن يغيب طويلًا. تمنيت لو لم أكن فوق الشجرة، لكنني لم أنزل. عاد باك يسب ويبكي ويقول إنه هو وابن عمه جو (الفتى الشاب الآخر) سينتقمان، ثم أخبرني أن والده وشقيقيه وثلاثة من الخصوم قد قُتِلوا. وأن آل شيبردسون نصبوا لهم فخًّا، واسترسل قائلًا إن والده وشقيقيه كان عليهما انتظار أقاربهم، لأن آل شيبردسون كانوا أشداء عليهم جدًّا. سألتهم عن مصير الشاب هارني والآنسة صوفيا، فقالا إنهما عبرا النهر وأصبحا في أمان، وقد سرني هذا الأمر. ظل باك يتحدث بطريقة لم أعهدها من قبل عن عدم تمكنه من قتل هارني ذلك اليوم الذي أطلق عليه الرصاص فيه.

فجأة، بانج! بانج! بانج! انطلقت ثلاث أو أربع بنادق. كان الرجال قد تسللوا وأتوا بدون جيادهم من الخلف! قفز الشابان في النهر بعد أن أصيب كلاهما، إلَّا أن الرجال ظلوا يركضون على الضفة وهم يطلقون النار، صائحين: «اقتلوهما، اقتلوهما!»، وقد جعلني هذا أشعر بغثيان شديد حتى كدت أسقط من فوق الشجرة. لن أحكي كل ما حدث، لأنني لو فعلت سأشعر بالغثيان من جديد. تمنيت لو أنني لم أذهب إلى الشاطئ في تلك الليلة ولم أرَ هذه الأشياء. لن أنسى هذه الأشياء أبدًا؛ لقد كنت أحلم بها كثيرًا.

كنت خائفًا أن أنزل من فوق الشجرة، فبقيت عليها حتى حلول الظلام. كانت تتناهى إلى سمعي من حين إلى آخر أصوات بنادق قادمة من عمق بعيد في الغابة، ورأيت حفنة صغيرة من الرجال المسلحين يتجولون أمام متجر الأخشاب مرتين، فشعرت بأن الخطر لا يزال مستمرًّا. قررت ألَّا أعود إلى المنزل من جديد، لأن قلبي كان يُعتصر من الحزن وكنت أشعر بأنني أُلام على ما حدث بشكل ما، إذِ استنتجت أن تلك الورقة كانت تعني أن الآنسة صوفيا ستلتقي هارني في مكان ما عند الثانية والنصف ليهربا معًا، وكنت أعرف أنه كان ينبغي عليَّ أن أخبر والدها بشأن هذه الورقة وبالطريقة المريبة التي كانت تتصرف بها، وبالتالي كان سيحبسها وما كان لهذه الفوضى أن تحدث أبدًا.

عندما نزلت من فوق الشجرة، مضيت نحو ضفة النهر متسللًا ووجدت الجثتين راقدتين عند حافة الماء، سحبتهما حتى وصلت بهما

إلى الشاطئ وغطيت وجهيهما، ثم رحلت بأقصى سرعتي. بكيت قليلًا وأنا أغطي وجه باك، لأنه كان طيبًا جدًّا معي.

عندما حل الظلام، لم أمضِ ناحية المنزل على الإطلاق، بل تسللت إلى الغابة باتجاه المستنقع. لم أجد جيم على الجزيرة، فمضيت مسرعًا ناحية الجدول تحت الصفصاف وأنا أتلهف إلى الصعود على متن الطوافة وأخرج من هذا البلد الرهيب، لكنني لم أجد الطوافة! يا إلهي، كم كنت خائفًا! كنت بالكاد أستطيع التقاط أنفاسي، لكنني صحت؛ جاءني صوت من مسافة لا تزيد على خمسة وعشرين قدمًا، يقول:

«يا إلهي! هل أنت هذا يا عزيزي؟ لا تُحدث جلبة».

كان صوت جيم. لم أشعر بأن هناك ما هو أجمل من هذا على الإطلاق. ركضت قليلًا على الضفة، وعندما صعدت إلى متن الطوافة جذبني جيم وضمني. كان سعيدًا جدًّا برؤيتي، وقال:

«فليباركك الرب يا صغيري، كدت أظن أنك مُت مرة ثانية. كان جاك هنا وأخبرني أنه يعتقد أنك تعرضت لإطلاق النار لأنك لم تعد إلى المنزل، وهكذا كنت متجهًا إلى فم الجدول حتى إذا عاد جاك وأكد لي موتك أكون مستعدًّا للرحيل. يا إلهي، أنا سعيد جدًّا أنني استعدتك مرة ثانية يا عزيزي».

قلت:

«هذا عظيم، لن يعثروا عليَّ وسيظنون أن النهر قد جرفني بعد

أن قُتِلت، وهناك ما سيساعدهم على تصديق ذلك، لذلك لا تضيع وقتًا يا جيم. انطلق في المياه الواسعة بأقصى سرعة».

لم أشعر بالراحة حتى ابتعدنا بالطوافة ميلين وأصبحنا في منتصف المسيسيبي. علقنا المصباح الذي نستخدمه من أجل التنويه عن مكاننا، وشعرنا بالحرية والأمان من جديد. لم أكن قد أكلت شيئًا منذ الأمس، وعليه أخرج جيم بعض الذرة المجففة والحليب الممخوض ولحم الخنزير والكرنب والخضراوات. لا يمكن لأي شيء في العالم أن يضاهي جمال طعام يُطهى جيدًا. أخذنا نتحدث وأنا أتناول عشائي، وقضينا وقتًا طيبًا. كنت في غاية السرور أنني هربت من تلك الخصومة، وكان جيم مسرورًا أنه هرب من المستنقع. اتفقنا في نهاية المطاف على أن الطوافة هي أفضل سكن، وأن الأماكن الأخرى تبدو ضيقة وخانقة على عكس الطوافة، التي تشعرك بحرية واطمئنان وراحة كبيرة على متنها.

(١٩)

مرَّ يومان أو ثلاثة أيام بلياليهم بهدوء وسلاسة ويسر، أو ربما يكونوا قد تبخروا إن جاز التعبير. كان النهر واسعًا وكبيرًا، وكان عرضه يصل في بعض الأحيان إلى ميل ونصف. كنا نتحرك ليلًا ونختبئ وننام نهارًا، وكنا نتوقف عن السير قرب انتهاء الليل ونربط الطوافة في بقعة تركد فيها المياه، قرب شاطئ، ونخفيها بما نقطعه من صغار شجر الحور والصفصاف. ومن ثم، كنا نجهز الصنارات وننطلق إلى النهر؛ نسبح ونغتسل وننتعش ونترك الماء يصل إلى ركبنا بينما نشاهد شروق الشمس. كان الصمت مطبقًا والسكون يعم كل مكان، كأن العالم كله نائم باستثناء بعض الضفادع التي تحدث ضوضاء من حين إلى آخر. كان أول ما تقع عليه عيناك بالنظر إلى الأفق هو خط داكن. كان هذا الخط هو الغابات المتواجدة عند الجانب الآخر. إلَّا أن هذا كان كل ما كان باستطاعتك أن تراه؛ فقد كانت السماء باهتة، وكان هذا البهوت يتزايد وينتشر حتى يشمل المكان قبل أن يظهر ضوء النهار خافتًا بعيدًا ويتحول السواد إلى رمادي. كنا نرى قوارب نقل تجارية وطوافات سوداء طويلة تعلو سطح الماء، وكنا

نسمع صيحات عابرة أو أصوات مختلطة قادمة من بعيد وسط هذا السكون الشديد، ثم تجد طوافة تعرف أنها انكسرت وأصبحت بهذا الشكل بعد أن اصطدمت بجذع متواجد تحت المياه السريعة، ثم ترى الضباب وقد تجمع فوق الماء والجانب الشرقي والنهر وقد تخضبا، ثم تلمح كوخًا خشبيًّا على الضفة المتواجدة عند الجانب الآخر من النهر على الأرجح هو ساحة خشب، مكوم إلى جانبها ألواح بها تجويفات تتسع أن يمر بها كلب، ثم تهب نسمة هواء عليلة باردة منعشة تصلك برائحة عذبة بعد أن عبرت الغابات ومرت بالزهور. وأحيانًا أخرى، تصلك النسمة برائحة على غير هذا القدر من الجمال بعد أن تمر بسمك ميت، على شاكلة أسماك الرمح وما شابهها، تركه البعض حتى تعفن. وبعد ذلك، يصبح النهار كله ملكك ويبتسم كل شيء تحت ضوء الشمس وتغرد الطيور الصداحة!

ما كان لدخان قليل أن يلفت الانتباه في مثل هذه الساعة، ولذلك كنا ننزع بعض السمك من الصنارات ونجهِّز إفطارًا ساخنًا ثم نتطلع إلى النهر في كسل حتى يغلبنا النعاس. ثم يوقظنا بعد قليل صوت باخرة متجهة بعيدًا ناحية الجانب الآخر؛ باخرة لا نستطيع أن نعرف عنها شيئًا باستثناء ما إذا كانت عجلتها خلفية أم جانبية. ومن ثم تعاود الوحشة الراسخة، فلا نسمع أو نرى شيئًا. ثم ما تلبث أن تمر طوافة إلى جانبنا ونسمع أحد الحمقى يقطع الخشب على متنها. كنا نرى انعكاس الشمس على الفأس وهو ينزل دون أن نسمع شيئًا حتى يرتفع من جديد ويصبح فوق رأس الرجل مرة أخرى، وفي هذه اللحظة فقط كنا نسمع صوت كتشانك، إذ إن الصوت

يستغرق وقتًا حتى يصل إلينا عبر الماء! وهكذا كنا نقضي أيامنا في كسل ننصت إلى السكون. كان كل ما يمر إلى جانبنا، بما في ذلك الطوافات، يقرع أواني من القصدير تنويهًا إلى مكانه حتى لا تصطدم به البواخر عندما يتكاثف الضباب. وفي إحدى هذه المرات، مر إلى جانبنا قارب نقل أو ربما طوافة، واقتربت بدرجة كبيرة حتى كان باستطاعتنا أن نسمع راكبيها وهم يتحدثون ويسبون ويضحكون. ورغم أننا كنا نسمعهم بوضوح، فلم نرَ لهم أثرًا، وقد ولَّد هذا لدينا شعورًا بالخوف، إذ شعرنا كما لو أنهم أرواح تسبح في الهواء، حتى أن جيم قال إنه يعتقد أنها أرواح، لكنني قلت:

«لا، لأن الأرواح لن تقول اللعنة على الضباب اللعين».

كنا نتحرك بمجرد أن يحل الليل حتى نصل إلى منتصف النهر تقريبًا ثم نترك الطوافة وندعها تمضي إلى حيث يريد الموج أن يحملها، ثم نشعل غليوننا ونترك أقدامنا تتدلى في الماء ونتحدث في كل شيء. كنا عاريين ليل نهار، متى سمح لنا الناموس بذلك، إذ إن الملابس الجديدة التي صنعتها عائلة باك من أجلي كانت مهندمة بدرجة لا تجعلها مريحة، إلى جانب أنني لم أكن أحب الملابس كثيرًا، على أية حال.

في بعض الأحيان، نحظى بهذا النهر كله لأنفسنا لفترة طويلة ونرى فيها وراء المياه ضفافًا وجُزرًا وربما ضوء شمعة في نافذة أحد الأكواخ أحيانًا، وكان باستطاعتنا أن نرى ضوءًا أو اثنين على طوافة أو قارب نقل في أحيان أخرى، ونسمع عزفًا أو غناءً قادمًا

من أحد العاملين. الحياة على طوافة أمر جميل؛ كانت السماء فوقنا مرصعة بالنجوم، وكنا نستلقي على ظهورنا ننظر إليهم ونتساءل إن كانوا قد صُنِعوا أم نشأوا بمفردهم. كان جيم يرى أنهم مصنوعون، أما أنا فكنت أرى أنهم نشأوا بمفردهم لأنني رأيت أن تصنيع هذا العدد الهائل من النجوم سيستغرق وقتًا طويلًا، ثم تحدث جيم عن احتمالية أن يكون القمر قد وضع بيضًا، وأن هذا البيض هو النجوم، وقد بدا هذا منطقيًّا نوعًا ما، لأنني رأيت ضفدعة تضع بيضًا بهذه الكمية من قبل، ومن ثم لم أعترض لأن هذا أمر ممكن الحدوث بكل تأكيد. كذلك، كنا نشاهد الشهب المتساقطة ونراقبها وهي تقع، وكان جيم يرى أنها طُرِدت من العش بسبب «دلعها».

مرة أو مرتين من تلك الليالي، رأينا باخرة تطلق شررًا كثيرًا من مدخنتها وسط الظلام. كان الشرر شديد الجمال ويتساقط في النهر مثل الأمطار. ثم ما تلبث الباخرة أن تنعطف وتنطفئ أضواؤها وتخفت أصواتها، ويعود النهر إلى سكونه من جديد. كانت الأمواج التي تنتج عن حركة الباخرة تستمر في الوصول إلينا بعد وقت طويل من رحيل الباخرة، وكانت تهز الطوافة قليلًا. ومن ثم نبقى وقتًا طويلًا لا يمكن حسابه دون أن نسمع صوتًا باستثناء الضفادع أو ما شابهها.

كان الناس يخلدون إلى النوم بعد منتصف الليل وتبقى الشواطئ معتمة ساعتين أو ثلاث ساعات دون ضوء واحد قادم من نوافذ الأكواخ. كانت الأضواء هي ساعتنا، وكان ظهور أول

ضوء يعني قدوم الصباح، وبالتالي بداية بحثنا عن مكان للاختباء وربط الطوافة.

قبل شروق شمس أحد الأيام، ركبت زورقًا وعبرت شلالًا يؤدي إلى شاطئ رئيسي عرضه لا يتجاوز مئتي ياردة، ثم جدفت مسافة ميل تجاه جدول موجود وسط غابة سرو لأرى إن كان بإمكاني الحصول على بعض التوت. كان هناك جدول يقطعه ممشًى في مكان ما، وعندما مررت بهذا المكان رأيت رجلين يقطعان هذا الممشى بكل ما أوتيا من سرعة فظننت أنني هالك، إذ متى طارد أحدٌ أحدًا كنت أظن أنه يطاردني أنا أو جيم. كنت على وشك الهرب من هذا المكان بسرعة لولا أنهما أصبحا قريبين جدًّا مني في تلك اللحظة، ثم أخذ الاثنان يصيحان ويتوسلان من أجل أن أنقذ روحيهما، مفسرين أنهما لم يقترفا شيئًا وأنهما مطاردان وأن رجالًا وكلابًا قادمون وراءهم. كانا يرغبان في صعود الزورق على الفور، إلَّا أنني قلت لهما:

«لا تصعدا. لم أسمع صوت الكلاب أو الجياد حتى الآن، ولا يزال هناك وقت أن تعبرا الأجمة وتذهبا إلى الجدول ثم تعودان بسرعة، وحينئذ يمكنكما الصعود إلى متن الزورق، لأن ذلك سيبعد الرائحة عن الكلاب».

وهكذا، نفذا ما قلت وصعدا على متن الزورق ومضيت بنا نحو الشاطئ، وما إن مرت خمس أو ست دقائق حتى سمعنا أصوات الكلاب والرجال قادمة من بعيد. كانت أصواتهم تشير إلى أنهم

متجهون ناحية الجدول وبدا أنهم توقفوا وتجولوا قليلًا، إلَّا أننا لم نتمكن من رؤيتهم. كان الصوت يخفت تدريجيًّا مع ابتعادنا حتى عم السكون كل شيء بحلول الوقت الذي ابتعدنا فيه عن الغابة بمقدار ميل ومضينا في النهر، وهكذا جدفنا حتى وصلنا إلى الشاطئ واختبأنا وسط أشجار الحور وأصبحنا في أمان.

كان أحد هذين الرجلين يبلغ من العمر حوالي سبعين عامًا أو أكثر، وكان له رأس أصلع وشوارب رمادية جدًّا، وكان يرتدي قبعة قديمة مدقوقة ومتهدلة، وقميصًا أزرق مشجرًا مصنوعًا من الصوف، وبنطالًا قديمًا من الجينز الأزرق دُس طرفه داخل حذاء الرقبة الذي كان يرتديه، وكان يربط البنطال بحمَّالتين محاكتين منزليًّا. لا؛ حمَّالة واحدة فقط، ويحمل معطفًا قديمًا من الجينز الأزرق ذا ذيل طويل بأزرار نحاسية ملساء على الذراعين، وكان مع كليهما حقائب سفر كبيرة ممتلئة بالية المظهر.

أما الرجل الآخر، فكان يبلغ من العمر ثلاثين عامًا تقريبًا وكان يرتدي ملابس تنم عن البلطجة. بعد الإفطار، استلقينا جميعًا وأخذنا نتحدث، وأول ما اكتشفناه أن هذين الرجلين لا يعرف أحدهما الآخر.

سأل الرجلُ الأصلع الآخرَ: «ما الذي أوقعك في المشاكل؟».

«كنت أبيع جهازًا لنزع قلاح الأسنان والمينا، لكنني مكثت ليلة زائدة عن عدد الليالي التي كان من المفترض أن أمكثها، وكنت على وشك التسلل إلى الخارج عندما التقيتك على الطريق

في ذلك الجانب من البلدة وأخبرتني أنهم يلاحقونك وتوسلت إليَّ أن أساعدك على الهرب، وكان ذلك حين أخبرتك أنني أيضًا قد تورطت في المشاكل وأنني سأهرب معك. هذه هي كل القصة، ماذا عنك؟».

«نظمت لقاءات لمناهضة تجارة الكحوليات لمدة أسبوع تقريبًا، وكنت معشوق السيدات؛ الكبيرات منهن والصغيرات، إذ كنت أصعِّب الموقف على شاربي الكحوليات، وكنت أكسب ما يعادل خمسة أو ستة دولارات في الليلة، إذ كانت الرسوم عشرة سنتات للشخص، بما في ذلك الأطفال والزنوج الأحرار، وكان العمل آخذًا في الازدهار حتى انتشرت إشاعة صغيرة ليلة أمس تقول إنني أشرب الخمر سرًّا. استيقظت هذا الصباح على زنجي يقول لي إن أناسًا وكلابًا وجيادًا يحتشدون بهدوء، وأنهم سيأتون بعد نصف ساعة ويلاحقونني ويكسونني بالقطران والريش ويضعونني على القضبان إن استطاعوا الإمساك بي، وهكذا لم أتمهل حتى أتناول الإفطار؛ لم أكن جائعًا».

قال الشاب: «يمكننا أن نتحد معًا أيها العجوز، ما رأيك؟».

«لا أمانع، ما هو اختصاصك؟».

«أنا تاجر متجول؛ أعمل بالتمثيل المسرحي والتراجيديا، وأعمل قليلًا بالعقاقير المسجلة والتنويم المغناطيسي، وعندما تتاح لي الفرصة أعمل بالفراسة، وأُدَرِّس الغناء والجغرافيا في المدارس على سبيل التغيير، وألقي محاضرات أحيانًا. أنا أقوم بالكثير من

الأمور، أي شيء تقريبًا طالما كان القيام به سهلًا لأنه في تلك الحالة لا يكون عملًا. ماذا عنك؟».

«عملت كثيرًا بالطب عندما كنت صغيرًا؛ إن ما أبرع فيه هو استخدام يدي في علاج السرطان والشلل وما إلى ذلك، ويمكنني أن أرى الطالع على نحو جيد جدًّا طالما كان هناك من يكشف لي عن الحقائق، وأيضًا أعمل بالوعظ وأقدم الخدمات الدينية في أسفاري والأعمال التبشيرية».

صمت الجميع لوهلة، ثم أخرج الرجل الشاب تنهيدة وقال:

«وا أسفاه!».

قال الأصلع: «على ماذا تأسف؟».

«على هذه الحياة التي أعيشها وعلى الصحبة المهينة التي حظيت بها»، ثم أخذ يمسح طرف عينه بخرقة.

قال الأصلع بوقاحة وتكبر شديدين: «عليك اللعنة، ألا تليق بك صحبتنا؟».

«بلى تليق، إن هذه الصحبة هي ما أستحق، إذ من جعلني أنحدر هكذا من علٍ؟ أنا من فعلت هذا بنفسي، أنا لا ألقي باللوم عليكم يا سادة، بل أكثر من ذلك؛ أنا لا ألقي باللوم على أحد، فأنا أستحق كل هذا، فليأتِ العالم البارد بأسوأ ما في جعبته. هناك أمر واحد أعرفه وهو أن هناك مقبرة لي في مكان ما، ويمكن للعالم أن يستمر في ما يفعله بي ويحرمني من كل شيء؛ الأحباب والأملاك

وكل شيء، لكنه لن يستطيع أن يحرمني من هذا، لأنني سأرقد يومًا ما وأنسى كل شيء، وحينئذ سيحظى قلبي المسكين بالراحة»، وهكذا استمر في البكاء.

قال الأصلع: «اللعنة على قلبك المكسور المسكين، لماذا تشكي لنا هم قلبك المكسور المسكين؟ نحن لم نفعل شيئًا».

«أنا أعلم أنكم لم تفعلوا شيئًا، أنا لا ألقي باللوم عليكم يا سادة. لقد أهنت نفسي، نعم، أنا من فعلت هذا بنفسي، وحق عليَّ أن أعاني، عين الحق، أنا لا أشتكي».

«أهنت نفسك؟ كيف؟».

«لن تصدقني، لن يصدقني أحد أبدًا، فلتنسَ الأمر، لا يهم. سر مولدي..».

«سر ولادتك! هل تقصد أن تقول..».

قال الشاب بوقار شديد: «سأحكي لكم، فأنا أشعر أن بإمكاني الوثوق بكم.. الحقيقة هي أنني دوق!».

جحظت عينا جيم، وأعتقد أن عينيَّ أنا أيضًا قد جحظتا لسماع هذا الأمر. ثم قال الأصلع:

«لا! لا يمكن».

«بلى، إن جدي الأكبر هو الابن الأكبر لدوق بردج ووتر، وقد هرب إلى هذا البلد نهاية القرن الماضي تقريبًا ليستنشق نسيم الحرية الصافي، ثم تزوج وأنجب ومات هنا. ولأن والده قد توفي

في نفس الوقت تقريبًا، فقد استحوذ الابن الثاني للدوق الفقيد على الألقاب والأملاك وتجاهل الدوق الرضيع، وأنا السليل المباشر لذلك الرضيع؛ الدوق الشرعي لبريدج ووتر، البائس، المحروم من أملاكه، المُطارد من الرجال، المكروه من العالم البارد، الرث المنهك مكسور القلب، الذي تدهور به الحال حتى أصبح في صحبة مجرمين على طوافة!».

أشفقت عليه أنا وجيم كثيرًا وحاولنا تهدئته، إلَّا أنه ظل يقول إنه لا فائدة من الأمر وأنه لن يرتاح. ثم أخبرنا أن اعترافنا به من الممكن أن يُحسن من حالته أكثر من أي شيء آخر تقريبًا، وهكذا سألناه عما ينبغي علينا القيام به، فأخبرنا أن علينا الانحناء عند التحدث إليه ومخاطبته بلقب «سموك» أو «مولاي» أو «سيادتك» وأنه لا يمانع إذا ناديناه «بردج ووتر»، الذي قال إنه لقب وليس اسمًا، وأن على أي واحد منا أن يقدم إليه الغداء ويقوم بأي شيء صغير يطلبه.

ولأن جميع ذلك كان يسيرًا، فقد فعلناه. كان جيم يقف لخدمته طوال الغداء ويقول: «هل يرغب سموك في بعض من هذا أو بعض من ذلك؟» وما إلى ذلك. وكان بوسع المرء أن يرى كم كان يسعده هذا الأمر.

إلَّا أن الرجل العجوز لزم الصمت، وأخذ صمته يتزايد تدريجيًّا، ولم يتحدث كثيرًا، ولم يبدُ مرتاحًا لكل هذا التدليل الذي أغدقناه على الدوق، وبدا أن أمرًا ما يشغل تفكيره. وعند حلول العصر، تحدث قائلًا:

«اسمع يا بردج ووتر، أنا آسف جدًّا من أجلك، لكنك لست الشخص الوحيد الذي واجه مثل هذه المصاعب».

«فعلًا؟».

«نعم، لست الشخص الوحيد الذي جُرد من مكانته العالية خطأً».

«وا أسفاه!».

«لست الشخص الوحيد الذي يتعلق مولده بسر»، ويا إلهي، بدأ يبكي.

«مهلًا! ماذا تقصد؟».

قال الرجل العجوز وقد استمر قليلًا في البكاء: «هل يمكنك أن تحفظ السر يا بردج ووتر؟».

«حتى الموت المرير!»، ثم أمسك الرجل العجوز من يده وضغط عليها، وقال: «قل لي هذا السر المتعلق بمولدك!».

«أنا ولي عهد فرنسا السابق يا بردج ووتر!».

حدقت أنا وجيم، وقال الدوق:

«أنت ماذا؟».

«نعم، يا صديقي، هذا صحيح، أنت تنظر الآن إلى لوي السابع عشر، ولدي العهد المسكين الذي اختفى، ابن لويس السادس عشر وماري أنطوانيت».

«أنت! في مثل سنك هذه! لا! تقصد أنك شارلمان، إن مظهرك يوحي بأن عمرك ست مئة أو سبع مئة عام على الأقل».

«المشاكل هي السبب يا بردج ووتر، المشاكل هي ما فعلت بي ذلك، المشاكل هي ما أنبتت هذا الشعر الرمادي وهذه الصلعة السابقة لأوانها. إن الأمر حقيقي يا سادة، إن البائس المتجول المنفي المدهوس المُعذَب الذي ترونه أمامكم مرتديًا الجينز الأزرق هو الملك الشرعي لفرنسا».

وهكذا أخذ يبكي وينتحب حتى لم أعد أدري أنا وجيم ما نفعل. وعلى الرغم من أننا كنا نشعر بأسف شديد تجاهه، فقد كنا سعيدين وفخورين جدًّا أنه كان معنا. وعليه، فعلنا نفس ما فعلناه مع الدوق وحاولنا تهدئته، إلَّا أنه أخذ يقول إنه لم تكن هناك فائدة وأن الحل الوحيد هو أن يموت وينتهي من كل هذا، ثم أردف قائلًا إنه غالبًا ما يشعر بتحسن وراحة كبيرين إذا عامله الناس بحقيقته، ذلك بأن ينحنوا على ركبة واحدة عند التحدث إليه وأن يخاطبوه دائمًا بلقب «جلالتك» وأن يكون أول من يُقدم إليه الطعام وألَّا يجلس أحد في حضرته إلَّا بعد أن يؤذن له. وهكذا، عاملته أنا وجيم بإجلال وكنا ننفذ كل ما يطلب ونظل واقفين حتى يأذن لنا بالجلوس، وقد ساعد ذلك كثيرًا في تحسن حالته وأمسى مبتهجًا ومرتاحًا. إلَّا أن الدوق كان حاقدًا عليه نوعًا ما، ولم يُبدِ أدنى درجة من الرضا على الطريقة التي كانت تسير بها الأمور. ومع ذلك، كان الملك ودودًا جدًّا معه، وأخبره أنه كان يُكن كل احترام لجده الكبير

وكافة ديقان بردج ووتر، وأنه كان يُدعى إلى القصر كثيرًا، إلَّا أن الدوق ظل غاضبًا لفترة طويلة، حتى قال الملك بعد فترة قصيرة:

«إننا نقضي وقتًا طويلًا على هذه الطوافة يا بردج ووتر، وليست هناك فائدة من أن تكون حاقدًا هكذا، لن ينتج عن هذا إلَّا شعور بعدم الراحة وحسب. ليست غلطتي أنني لم أولد دوقًا وليس خطأك أنك لم تولد ملكًا، فما فائدة التوتر إذًا؟ تقبل الأمور مثلما هي وانظر إلى أفضل ما فيها، هذا هو شعاري. إن وجودنا هنا ليس أمرًا سيئًا، لدينا طعام كثير ونعيش حياة سهلة، تعالَ أيها الدوق، مُد إليَّ يدك ولنكن جميعًا أصدقاء».

فعل الدوق ما طلبه الملك، وسررت أنا وجيم بذلك، إذ إن الشعور بعدم الأريحية قد اختفى وحل مكانه شعور جيد جدًّا. كان الأمر ليصبح مأساويًّا لو لم يكن هناك ود على الطوافة، إذ إن أهم ما تحتاج إليه فوق طوافة هو أن يكون الجميع راضيًا وأن يكون بداخل كل فرد شعور طيب تجاه الآخرين.

لم أستغرق وقتًا طويلًا حتى تأكدت من أن هذين الكاذبين لم يكونا ملوكًا أو ديقانًا على الإطلاق وأنهما مجرد محتالين حقيرين ومخادعين، لكنني لم أقل شيئًا على الإطلاق ولم أُظهر أنني كشفت الأمر، وأبقيت الأمر بداخلي لأن هذا كان الحل الأفضل منعًا للعراك والمشاكل. إن كانوا يرغبون في أن نخاطبهم باعتبارهم ملوكًا وديقانًا، فلم يكن لدي اعتراض طالما كان هذا سيحافظ على السلام بيننا. ولأنه لم تكن هناك فائدة من إخبار جيم، فلم أخبره.

إذا لم أكن قد تعلمت شيئًا من أبي، فقد تعلمت أن الطريقة الأفضل للتعايش مع هذا النوع من البشر هو أن تتركهم يتصرفون على طريقتهم الخاصة.

(٢٠)

انهال علينا الرجلان بالأسئلة؛ أرادا أن يعرفا لماذا نغطي الطوافة على هذا النحو، ولماذا نقضي النهار في النوم بدلًا من التجديف، وما إذا كان جيم زنجيًّا هاربًا، وقد أجبت على هذا السؤال قائلًا:

«يا إلهي! هل سيجّول زنجي هارب في الولايات الجنوبية؟».

فاقتنعا بأنه ما كان ليفعل ذلك، إلَّا أنني أردت تفسير الأمر بطريقة ما، فقلت:

«كانت عائلتي تعيش حيث ولدت؛ في مقاطعة بايك الواقعة في ولاية ميزوري، وقد ماتت العائلة كلها باستثنائي أنا ووالدي وشقيقي أيك. ولأن والدي كان فقيرًا جدًّا ومديونًا، فقد قرر الذهاب إلى العم بِن ليعيش معه، وكان العم بن يمتلك مكانًا صغيرًا بالقرب من النهر، وكان يبعد عن أورلينز مسافة أربعة وأربعين ميلًا. عندما تيسر الحال، لم يكن مع والدي سوى ستة عشر دولارًا، إلى جانب خادمنا جيم، ولم يكن هذا المبلغ كافيًا أن يؤمِّن لنا مواصلة تقلنا مسافة أربع مئة ميل، سواء على متن باخرة أو بأي طريقة أخرى. ثم

في أحد الأيام التي كان فيها الموج عاليًا، حالف الحظ والدي والتقط هذه الطوافة وقررنا أن نذهب بها إلى أورلينز، إلَّا أن حظ والدي ما لبث أن تعثر وارتطمت باخرة بالجانب الأمامي من الطوافة وسقطنا جميعًا من على متنها حتى أصبحنا تحت العجلات. نجوت أنا وجيم، إلَّا أن والدي وأيك توفيا لأن والدي كان سكرانًا ولم يكن أيك قد تجاوز الأربع سنوات بعد. واجهنا الكثير من المشاكل خلال اليوم أو اليومين التاليين، لأن الناس كانت دائمًا ما تحاول أن تأخذ جيم بعيدًا عني ظنًّا منهم أنه زنجي هارب، ولهذا توقفنا عن التجديف نهارًا تجنبًا للمضايقات».

قال الدوق:

«دعوني أفكر في طريقة تمكننا من التجديف نهارًا إذا أردنا، سأفكر في الأمر وأضع خطة مناسبة، إذ ربما لا يكون المرور بالمدن نهارًا أمرًا صائبًا».

قرب حلول الليل، تكاثفت السحب وبدا أن المطر على وشك الهطول، ثم ما لبث أن بدأ البرق يضيء السماء وأخذت الأغصان في الاهتزاز، وكان من السهل رؤية أن الوضع سيصبح في غاية السوء. دخل الدوق والملك الكوخ لمعاينة الأسرة. كان القش المصنوع منه سريري أفضل من قشر الذرة الذي صُنِع منه سرير جيم، إذ كانت هذه المراتب المحشية من الذرة تحتوي بداخلها على كيزان توخزك وتؤلمك، بالإضافة إلى أنك عندما تتقلب فوق قشور الذرة تشعر كما لو أنك تتقلب في كومة من الأغصان الجافة، بل إنها تحدث حفيفًا

شديدًا يجعلك تستيقظ من النوم. وهكذا، قرر الدوق أن ينام على فراشي، إلَّا أن الملك عارضه قائلًا:

«كنت أعتقد أن اختلاف الرتب سيجعلك تدرك أن السرير المحشو بقشر الذرة لن يكون مناسبًا لأن أنام عليه، يمكن أن ينام سموك على السرير المصنوع من قشر الذرة».

شعرت أنا وجيم بالقلق من جديد، خوفًا من أن تقع بينهما المزيد من المشاكل، وعليه فشعرنا بسرور كبير عندما قال الدوق:

«لقد كُتب عليَّ أن أبقى دائمًا تحت وطأة القمع، لقد كسرت المحنة نفسي العزيزة من جديد، أنا أستسلم، أنا أخضع، هذا هو قدري، أنا وحدي في العالم، دعوني أعاني، يمكنني أن أتحمل الأمر».

بمجرد أن حل الظلام وأصبح الوقت مناسبًا، تحركنا. طلب الملك أن نمضي إلى منتصف النهر، وألَّا نشعل أي ضوء حتى نبتعد بما فيه الكفاية عن إحدى البلدات المجاورة. وهكذا، تحركنا بجانبها حوالي نصف ميل تقريبًا بسلام، وبعد أن تجاوزناها بثلاثة أرباع ميل علقنا المصباح الذي نستخدمه في التنويه عن مكاننا. ونحو الساعة العاشرة، بدأ المطر في الهطول والرياح في الهبوب والرعد في الهزيم والبرق في إنارة كل شيء، فطلب الملك أن نبقى خارجًا للحراسة حتى يتحسن الجو، ودخل هو والدوق إلى الكوخ ليناما. كانت مناوبتي تنتهي في الثانية عشرة، إلَّا أنني ما كنت لأنام حتى لو كان باستطاعتي النوم على الفراش، لأن المرء لا يشهد عاصفة مثل هذه كل يوم لأنها لا تتكرر إلَّا بعد فترة طويلة. يا إلهي! كم كان

صرير الريح عاليًا! كل ثانية أو اثنتين، كان البرق ينشر سنا ضوئه على المياه بمسافة نصف ميل، فترى الجزر التربة عبر مياه الأمطار والأشجار وهي تتحرك وسط الرياح، ثم تسمع صوت الرعد وهو يهزم هادرًا ومزمجرًا: هــ واك! بم! بم! بمبل - امبل - ام - بام - بام - بام - بام، وما إن يتوقف حتى يأتي بريق آخر وتأتي هبَّة أخرى. كان الموج يرفعني تمامًا من فوق الطوافة من حين إلى آخر. لكنني لم أكن أرتدي أي ملابس، ولذلك لم ألقِ بالًا. لم نصطدم بأي جذوع لأن البرق ظل يضيء لنا باستمرار، فاستطعنا أن نراها من مسافة كافية لتحويل مسار الطوافة وتفاديها.

كان من المفترض أن أعاود المناوبة من جديد، وسط الليل، لكنني كنت أشعر بنعاس شديد في ذلك الوقت، فعرض جيم بطيبته المعهودة أن يحمل عني النصف الأول من المناوبة. حاولت أن أنام داخل الكوخ، إلَّا أن سيقان الدوق والملك كانت ممددة فابتلعت كل المساحة وانتهى بي الأمر أن استلقيت خارجًا. لم يزعجني المطر لأن الجو كان حارًّا ولم يكن الموج عاليًا. ومع ذلك، فقد اشتدت العاصفة حوالي الساعة الثانية، ففكر جيم أن يوقظني إلَّا أنه عدل عن رأيه ظنًّا منه أن الموج ليس شديدًا بالدرجة التي تجعله يتسبب في أي أذًى، لكنه كان مخطئًا وسرعان ما ألقت بي موجة عالية خارج الطوافة على حين غرة، وكاد جيم أن يموت من الضحك، إذ كان أسرع الزنوج في الوقوع ضحكًا.

استلمتُ مناوبتي وما لبث جيم أن أخذ يغط في نومه. هدأت

العاصفة بعد قليل، وأيقظت جيم فور أن لمحت بلدة في الأفق، وتحركنا بالطوافة حتى وصلنا إلى مكان نخبئها فيه نهارًا.

بعد الإفطار، أخرج الملك مجموعة قديمة وبالية من أوراق اللعب، وأخذ يلعب هو والدوق لعبة اسمها سفن أب برهان خمسة سنتات في الدور الواحد، إلَّا أنهما سرعان ما شعرا بالضجر وقررا «تدشين حملة»، على حد تعبيرهما. مضى الدوق نحو حقيبته، وأخرج عددًا من الإعلانات الصغيرة المطبوعة وقرأها بصوت مسموع. كان أحدها يعلن عن «الدكتور الباريسي الشهير، أرموند دو مونالبون»، الذي يلقي «محاضرات في علم الفراسة»، برسم دخول عشرة سنتات، في مكان ما في اليوم الفلاني من الشهر العلاني، وأنه «يرى الطالع مقابل خمسة وعشرين سنتًا للشخص الواحد». ثم أخبرنا الدوق أنه هو ذلك الشخص المذكور في الإعلان. كان هناك إعلان آخر يروِّج لـ«جاريك الأصغر، الممثل العالمي المشهور بتقديم تراجيديات شكسبير والقادم من دروري لين الواقعة في لندن». كانت هناك إعلانات أخرى تحمل أسماء أخرى كثيرة لأشخاص يقومون بأشياء رائعة مثل التنقيب عن المياه والذهب باستخدام «عصا الاستنباء» و«إبطال تعويذات الساحرات» وغيرها. ثم قال الدوق:

«التمثيل المسرحي هو أفضل شيء، هل مثَّل جلالتك على المسرح من قبل؟».

أجاب الملك: «لا».

فقال الدوق: «إذًا لن تمر ثلاثة أيام قبل أن يكون فخامتك المسلوب من عرشك إلَّا وقد مثلت، وسنؤجر صالة عرض في أول بلدة نصل إليها ونؤدي مشهد منازلة السيوف في ريتشارد الثالث ومشهد الشرفة في روميو وجولييت. ما رأيك؟».

«أنا موافق على أي شيء يُدر علينا نقودًا يا بردج ووتر، لكن مثلما ترى فأنا لا أعرف شيئًا عن التمثيل المسرحي، ولم أشاهد الكثير من المسرحيات عندما كنت لا أزال في قصر والدي، هل تظن أن بإمكانك تعليمي؟».

«بسهولة!».

«عظيم، فأنا أتشوق لمشروع جديد على أي حال. لنبدأ على الفور».

حكى له الدوق كل شيء عن روميو وجولييت، وقال إنه كان دائمًا ما يؤدي دور روميو، وعليه يمكن للملك أن يؤدي دور جولييت.

«إن جولييت فتاة شابة أيها الدوق، ومن الممكن أن يبدو رأسي الأصلع وشاربي الأبيض غريبين جدًّا على مثل هذا الدور».

«لا. لا تقلق، لن يلحظ بلهاء هذه البلدة شيئًا على الإطلاق، بالإضافة إلى أنك سترتدي زيًّا وسيتغير شكلك تمامًا، لأن جولييت تخرج إلى الشرفة قبل أن تخلد إلى النوم من أجل الاستمتاع بضوء القمر، وترتدي في هذا المشهد ملابس الدور التي هي رداء نوم وغطاء رأس منفوش».

أخرج الدوق بذلتين أو ثلاث بذلات مصنوعة من ذلك القطن المستخدم في صنع الستائر، وقال إنه درع مصنوع على طراز القرون الوسطى ليرتديه من يؤديان دوري ريتشارد الثالث والرجل الآخر. ثم أخرج رداء نوم أبيض طويل وغطاء رأس منفوش يليق به، فرضي بهم الملك. وهكذا أخرج الدوق كتابه وقرأ المشاهد بطريقة رائعة، وبدا مثل النسر وهو يتبختر في المكان مبينًا للملك كيف يؤدي الدور. وبعد أن انتهى، أعطاه الكتاب وطلب إليه أن يحفظ الدور عن ظهر قلب.

كانت هناك بلدة صغيرة هادئة على بعد ثلاثة أميال تقريبًا. بعد الغداء، أخبرنا الدوق أنه توصل إلى حل بشأن مسألة التحرك نهارًا دون وجود خطورة على جيم، وقال إنه سيذهب إلى البلدة ويدبر هذا الأمر. كذلك، قال الملك إنه سيذهب إلى البلدة ليرى إن كان باستطاعته أن يجد فرصة متاحة. كانت القهوة قد نفدت، وهكذا طلب مني جيم أن أذهب معهم في الزورق لإحضار المزيد.

عندما وصلنا إلى البلدة، لم تكن هناك أي حركة وكانت الشوارع خالية وساكنة وهادئة تمامًا مثل أيام الآحاد. التقينا زنجيًّا مريضًا جالسًا تحت الشمس بإحدى الباحات الخلفية لأحد المنازل، وقال إن الجميع باستثناء صغار الأطفال والمرضى والعجائز قد ذهبوا إلى مخيم يقع على بعد ميلين تقريبًا من الغابة. عرف منه الملك وصفًا لطريقة الذهاب إلى المخيم، وقال إن بإمكاني الذهاب معه وهو يمارس عليهم احتياله.

قال الدوق إنه يبحث عن مطبعة. وجدنا واحدة أعلى محل نجارة في حالة شديدة من الفوضى، وكان النجارون والطباعون قد تركوا محالهم مفتوحة وذهبوا إلى المخيم. كان المكان قذرًا ومملوءًا بالمهملات، وكانت هناك بقع حبر، وعلقت على الحوائط إعلانات مطبوع عليها صور جياد وزنوج هاربون. خلع الدوق معطفه، وقال إنه حصل على مراده، وعليه ذهبت أنا والملك إلى المخيم.

كان يومًا شديد الحرارة، وعليه فكنا نتصبب عرقًا عندما وصلنا إلى المخيم بعد نصف ساعة تقريبًا. كان هناك حوالي ألف شخص قادم من على بعد عشرين ميلًا. كانت الغابة ممتلئة بالعربات والجياد المربوطة في كل مكان، وكانت الجياد تأكل من أحواض العربات وتهتاج لإبعاد الحشرات الطائرة، وكانت هناك سقائف مبنية على أعمدة ومغطاة من أعلى بفروع أشجار، وكانوا يبيعون تحت هذه السقائف ليمونادة ومعجنات زنجبيل وأكوام من البطيخ والذرة الخضراء وما شابهها من الأطعمة.

كان المكان الذي تُلقى فيه الخطب هو واحد من هذه السقائف، إلَّا أن السقيفة المخصصة للخطب كانت أكبر وضمت عددًا أكبر من الحضور. كانت المقاعد مصنوعة من ألواح خشبية منشورة مجوفة من الجوانب المستديرة لوضع عصي للأقدام، ولم يكن لها ظهر. كانت هناك منصات عالية في طرف السقيفة من أجل أن يقف عليها الوعاظ. كانت النساء ترتدي قلنسوات مضادة للشمس، وكان بعضهم يرتدي فساتين من الصوف، بينما ارتدى البعض الآخر ملابس قطنية، وكذلك كانت الفتيات الصغيرة

ترتدي ملابس قطنية. كان بعض الشباب حافيًا، ولم يكن الأطفال يرتدون أي ملابس سوى قمصان صوفية رخيصة، وكانت بعض النساء العجائز تغزل، وكان بعض الشباب والشابات يتغازلون سرًّا.

كان هناك واعظ يردد ترنيمة في أول سقيفة دخلناها. ردد أول سطرين منها، وغنى الجميع وراءه. كان وقعها عظيمًا، إذ جعلتها الأصوات الجماعية محركة للوجدان. ثم ردد سطرين آخرين منها، وغنوا وراءه.. وهكذا دواليك. أخذ حماس الناس يزداد أكثر فأكثر، وعلا صوت غنائهم أكثر فأكثر. وقبل أن ينتهي الغناء، أخذ بعضهم يئن وأخذ البعض الآخر يصيح، ثم بدأ الواعظ خطبته. كانت بداية خطبته جادة جدًّا، وأخذ يتحرك إلى هذا الجانب من المنصة ثم إلى ذلك الجانب الآخر ثم نحو المنتصف، وكان جسده وذراعاه في حركة دائمة، وخرجت كلماته مفعمة بالقوة. كان بين الحين والآخر، يُخرِج إنجيله ويفتحه ويحركه في كل الاتجاهات، صائحًا: «إنه أفعى البرية الرقطاء! انظروا إليه وعيشوا!»، فترد عليه الحشود، صائحة: «المجد! آآمين!» واستمر الوضع هكذا والحشود تتأوه وتبكي وتقول آمين، بينما هو يستكمل خطبته قائلًا:

«أوه، تعالوا إلى مقاعد الرحمة، أيها المدنسين بالخطايا! (آمين!) تعالوا أيها المرضى والمتألمون! (آمين!) تعالوا أيها المعاقون والعاجزون والمكفوفون! (آمين!) تعالوا أيها الفقراء والمحتاجون الشاعرون بالخزي! (آآمين!) تعالوا أيها المراهقون المتعبون المعانون! تعالوا بروح مكسورة! تعالوا بقلب تائب! تعالوا بأسمالكم وخطاياكم

وقذراتكم! المياه المُطهِرة مجانية وباب الجنة مفتوح، أوه، ادخلوا وكونوا في راحة!» (آمين! المجد، المجد والشكر للرب!).

لم نعد نتبين ما يقوله الواعظ بسبب الصياح والبكاء، وسرعان ما ترك الناس أماكنهم وسط الحشود وشقوا طريقهم بالقوة ليصلوا إلى المقاعد الأمامية والدموع تنسال على وجوههم. ما لبث أن وصل الحشد إلى المقاعد الأمامية حتى شرعوا في الغناء والصياح، ملقين بأنفسهم فوق القش بجنون وعنف.

في لمح البصر، تحرك الملك وصعد إلى المنصة وتوسل إلى الواعظ أن يسمح له بالقاء كلمة. وقد فعل. علا صوته فوق صوت الجميع وهو يحكي لهم أنه عمل قرصانًا في المحيط الهندي لمدة ثلاثين عامًا، وأنه فقد عددًا كبيرًا من طاقمه في مشاجرة وقعت في الربيع الماضي، ومن ثم عاد إلى بلده ليعين عاملين جددًا، إلَّا أنه تعرض للسرقة وألقي به خارج باخرته على الشاطئ دون سنت واحد. رغم ذلك، كان شاكرًا ومسرورًا بالأمر، إذ رأى أن ذلك كان أفضل ما رُزِق من نعم، لأن ما حدث له جعله رجلًا آخر، رجلًا يشعر بالسعادة لأول مرة في حياته رغم فقره. قال إنه سيشق طريقه عائدًا إلى المحيط الهندي على الفور، وأنه سيقضي ما تبقى من عمره محاولًا هداية القراصنة إلى الطريق القويم، وأنه أفضل من يقوم بهذه المهمة لكونه على معرفة بكافة طواقم القراصنة بالمحيط، وأنه سيصل إلى هناك حتى لو استغرقه الأمر وقتًا طويلًا بسبب قلة النقود، وأنه سيخبر كل من استطاع أن يهدي من القراصنة: «لا تشكرني، لا تنسب الفضل إليَّ، إن كل ذلك يعود إلى الناس الأعزاء في مخيم بايكسفيل،

إلى أولئك الأشقاء الطيبين المحسنين، وإلى أفضل صديق حظي به قرصان: الواعظ العزيز!».

ثم أجهش بالبكاء وبكى معه الجميع. ثم صاح شخص، قائلًا: «تبرعوا، تبرعوا له!». وهكذا هرع عشرات الأشخاص للتبرع، فصاح أحدهم: «دعوه يمرر القبعة بيننا!»، وكررها الجميع وراءه بما في ذلك الواعظ.

وهكذا مر الملك وسط الحشد وهو يمسك بقبعته ويمسح عينيه؛ داعيًا للناس، شاكرًا إياهم، مادحًا طيبتهم الغامرة للقراصنة المساكين. وكانت فتيات شديدة الجمال تذهب إليه بين الحين والآخر، ويسألنه والدموع تفيض من أعينهن إن كان بإمكانهن تقبيله حتى يتذكرهن بتلك القبل، وكان يوافق في كل مرة، حتى أن بعضهن ضمه وقبله نحو خمس أو ست مرات، ودعاه الجميع أن يبقى أسبوعًا ويعيش في منازلهم، فقال إنه كان ليتشرف بذلك لو لم يكن هذا آخر أيام المخيم ولو لم يكن بقاؤه غير ذي نفع، مردفًا أنه يتشوق إلى الذهاب إلى المحيط الهندي على الفور من أجل القراصنة.

عندما عدنا إلى الطوافة وبدأ يحصي النقود، وجد أنه قد جمع سبعة وثمانين دولارًا وخمسة وسبعين سنتًا، ثم أخرج قنينة ويسكي كان قد وجدها تحت عربة في طريق العودة من الغابة إلى المنزل، وزنها ثلاثة جالونات، وقال إن هذه أكبر غنيمة تمكن من جمعها طوال سيرته المهنية في الوعظ، وقال إن حديثه كان مجديًا لأن الملحدين لا يُضاهون القراصنة فيما يخص موضوع الحديث في المخيمات.

كان الدوق يظن أنه حقق مكسبًا جيدًا حتى رأى ما جناه الملك، لكنه ما لبث أن تجاهل الأمر. كان الدوق قد جنى أربعة دولارات نظير طباعة إعلانات أحصنة، وأخذ أربعة دولارات مقدمًا لإعلانات صحفية قيمتها عشرة دولارات. أما الصحيفة نفسها، التي كان اشتراكها دولارين فقط في العام، فعرض على ثلاثة أشخاص تخفيض الاشتراك إلى نصف دولار لكل شخص بشرط أن يدفعوا مقدمًا، وعندما عرضوا عليهم حطبًا وبصلًا نظير الاشتراك، كما جرت العادة، أخبرهم بأنه ابتاع هذه الأغراض لتوِّه، وأنه خفض السعر قدر استطاعته وسيأخذ قيمة الاشتراك نقدًا. ثم نظم مقطوعة شعرية صغيرة وعذبة وحزينة، من تأليفه ووحيه الشخصي، وأسماها: «نعم، اطحن هذا القلب المكسور أيها العالم البارد»، وترك كل شيء جاهزًا ومعدًّا للطبع في الصحيفة دون أن يدفع شيئًا، وهكذا أخذ التسعة دولارات ونصف وقال إنه كان يوم عمل مثمر جدًّا.

ثم عرض أمامنا ورقة أخرى صغيرة كان قد طبعها لنا دون دفع مقابل. كان عليها صورة زنجي هارب يحمل فوق كتفه حزمة من العصي، وكُتِب أسفل صورته: جائزة مئتا دولار. لقد طبع إعلانًا عن جيم، وقد كانت صورته المطبوعة طبق الأصل. كانت الورقة تقول إنه هرب الشتاء الماضي من مزرعة سانت جاك، التي تبعد أربعين ميلًا عن نيو أورلينز، ومن المرجح أن يكون قد ذهب شمالًا، وسيحصل من يمسك به ويعيده على المكافأة والنفقات.

قال الدوق: «من الآن فصاعدًا، يمكننا التحرك نهارًا إذا أردنا،

وإذا رأينا شخصًا قادمًا من الممكن أن نقيد جيم من يده وقدمه بحبل وندخله الكوخ ونريهم الورقة ونقول إننا عثرنا عليه، ونوضح لهم أننا استعرنا هذه الطوافة الصغيرة من أصدقائنا لأننا فقراء جدًّا ولا نستطيع تحمل نفقات السفر على باخرة، وأننا في طريقنا للحصول على مكافأة. يمكننا أن نقيد جيم بأصفاد وسلاسل، لكنها أشبه بالجواهر ولن تتسق مع ادعائنا الفقر، ولذلك فإن استخدام الحبال هو الأمر الأصح. يجب أن نحافظ على الاتساق مثلما نقول على المسارح».

اعترفنا جميعًا للدوق بذكائه الحاد واطمئنت قلوبنا إلى أننا لن نواجه مشاكل إذا تحركنا نهارًا، واستقر رأينا على الابتعاد مسافة كافية تلك الليلة حتى نصبح بمنأًى عن المشاكل التي رأينا أنها ستلاحقنا بسبب ما فعله الدوق في المطبعة، ومن الممكن بعد ذلك أن نستريح إن أردنا.

وهكذا توارينا عن الأنظار في سكون، ولم نتحرك حتى دقت الساعة دقتها العاشرة، ومن ثم رحلنا بعيدًا عن البلدة دون أن نشغل مصباحنا حتى ابتعدنا عن الأنظار.

عندما ناداني جيم لأن أستلم مناوبتي في الساعة الرابعة صباحًا، قال:

«هاك، هل تعتقد أننا سنصادف المزيد من الملوك في هذه الرحلة؟».

قلت: «لا، لا أعتقد».

قال: «حسنًا، لا بأس إذًا. لا أمانع ملكًا أو ملكين، لكن هذا يكفي. هذا الملك سكير كبير، والدوق ليس أفضل منه حالًا».

اكتشفت أن جيم حاول أن يجعل الملك يتحدث الفرنسية ليعرف كيف تبدو هذه اللغة، إلَّا أن الملك أخبره أنه عاش في هذا البلد كثيرًا وصادف العديد من المشاكل حتى نسي اللغة.

(٢١)

كانت الشمس قد أشرقت بحلول هذا الوقت إلَّا أننا استكملنا مسيرتنا ولم نوقف الطوافة. وبعد قليل، استيقظ الملك والدوق وكان منظرهما شاحبًا جدًّا فقفزا في المياه ليسبحا، فتحسنت حالتيهما كثيرًا. بعد الإفطار، اتخذ الملك مقعده في ركن ونزع حذائه ذا الرقبة وشمر بنطاله وترك ساقيه تتدليان في المياه حتى يكون مرتاحًا، ثم أشعل غليونه وشرع يحفظ روميو وجولييت. عندما أجاد حفظها، بدأ هو والدوق يتدربان معًا، وتعين على الدوق تعليمه الطريقة التي يؤدي بها الحوار مرارًا وتكرارًا، فأخذ يعلمه كيف يتنهد ويضع يده على قلبه حتى أتقن الأمر بعد قليل. كان يقول له: «لا يجب أن تصيح وأنت تقول روميو بهذه الطريقة مثل الثور، يجب أن تخرج ناعمة وضعيفة كناية عن المعاناة، هكذا: ر-و-و-ميو! هذه هي الفكرة، لأن جولييت مجرد فتاة صغيرة رقيقة محبوبة مثلما تعرف، ولا تنهق مثل الحمار».

ثم أخرجا زوجًا من سيوف طويلة كان الدوق قد صنعها من خشب الصنوبر وبدءا يتدربان على مبارزة سيوف، إذ كان الدوق

يؤدي دور ريتشارد الثالث. كان منظرهما وهما يتمرنان ويتقافزان حول الطوافة رائعًا إلى أن تعثر الملك وسقط من الطوافة، فأخذا استراحة وتحدثا عن كافة أنواع المغامرات التي مرا بها قديمًا، على امتداد النهر.

بعد العشاء، قال الدوق:

«حسنًا أيها الكابيت؛ نحن نريد أن نجعل هذا العرض من الطراز الأول مثلما تعرف، ومن ثم أقترح أن نضيف إليه بعض اللمسات، خصوصًا أننا سنكون بحاجة إلى تفاصيل صغيرة من أجل مناجاة النفس على أية حال».

«ما مناجاة النفس هذه يا بيج ووتر؟».

شرح له الدوق الأمر، ثم قال:

«من الممكن أن نلجأ إلى الرقص الشعبي الاسكتلندي أو مزمار البحارة. حسنًا، دعني أرى، لقد عرفت، يمكنك تأدية مناجاة هاملت».

«منا.. ماذا؟».

«مناجاة هاملت؛ إنها الأشهر من بين أعمال شكبير مثلما تعرف. آه إنها عظيمة؛ عظيمة! دائمًا ما يحبها الجمهور. ليست موجودة في الكتاب الذي أحضرته معي، لأنني لم أجلب سوى جزء واحد فقط من أعماله، لكن أعتقد أن بوسعي استعادتها من الذاكرة. سأتحرك قليلًا فقط وأرى إن كان بإمكاني استعادتها من أقبية الذاكرة».

وهكذا، أخذ يسير ذهابًا وإيابًا؛ مفكرًا حينًا وعابسًا حينًا آخر. كان منظره جميلًا وهو يرفع حاجبيه ويضغط بيده على جبهته ويترنح إلى الخلف ويتأوه ويتنهد ويمسح لدمعة بأن تسقط. رويدًا رويدًا، تذكر المناجاة وطلب منا أن نعيره انتباهنا، ثم تقمص هيئة نبيلة جدًّا ومد إحدى ساقيه أمامه وبسط ذراعيه إلى أعلى وأمال رأسه إلى الوراء ونظر إلى السماء وأخذ يسب ويلعن ويضغط على أسنانه وينتحب طوال المناجاة بينما يتحرك ذراعاه ويعلو صدره؛ لقد تفوق على أي تمثيل رأيته في حياتي من قبل. كانت هذه هي المناجاة[1] التي قالها، إذ إنني حفظتها بسهولة وهو يحاول تحفظيها للملك:

أكون أو لا أكون، هذا هو المسمار الصرف

الذي يصنع آفة الحياة المديدة

من يتحمل حتى يصل بريمان وود إلى دانسينين

سوى ذلك الخوف مما ينتظرنا بعد الموت

الذي يقتل النوم البريء

ثاني أعظم وجبة في وليمة الطبيعة

يجعلنا نفضل رمي سهام الحظ الأنكد

على الذهاب إلى أولئك الذين لا نعرفهم

هذا هو الجانب الذي حتمًا يقلقنا

اهزم دانكان! كنت لأفعل إن استطعت

إذ من يتحمل ضربات الزمن وإهاناته

---

(١) ما يلي هو مزج غير دقيق بين «ماكبث» و«ريتشارد الثالث».

وإساءة من هم أعلى وإهانة المتكبرين
وعدم كفاءة القانون والضربات التي يمكن أن تتسبب في الآلام
عندما تتثاءب باحات الكنائس في الخراب المميت وفي قلب الليل
في البذلات السوداء المعتادة
لكن هذا البلد الذي لم يُكتشف ولا يعود منه مسافر
تتصاعد أنفاسه وتصل إلى العالم،
الجرأة الحقيقة مثل القطة المسكينة ومثل القول المأثور
تضعف من الرعاية
وكل السحب التي تكاثفت فوق أسطح منازلنا
تضل طريقها
وتتوقف صفة الفعل
وهذا إنجاز يستحق التمني، لكن مهلًا أيتها الجميلة
أوفيليا:
لا تفتحي فكيكي الرخامين الثقيلين
واذهبي إلى دير راهبات، اذهبي!

أحب الرجل العجوز هذه المناجاة، فحفظها سريعًا من أجل تأدية الدور على أفضل نحو حتى بدا كأنه قد خُلِق له، إذ إن الطريقة التي كان يصيح بها وينفعل بها ويحرك بها يديه أثناء تأدية الدور كانت لطيفة جدًّا.

عندما سنحت الفرصة، طبع الدوق بعض الإعلانات من أجل العرض ثم مضينا في النهر لمدة يومين أو ثلاثة أيام. كانت الطوافة مفعمة بالحيوية على غير العادة، بفضل مبارزات السيوف

والبروفات (مثلما كان يسميها الدوق) التي استمرت طوال الوقت. وذات صباح، رأينا بلدة صغيرة بالقرب من ولاية أركنسو فربطنا الطوافة بعيدًا عنها بثلاثة أربع ميل، عند فم جدول كان مغلقًا بأشجار السرو فيما يشبه النفق، ومن ثم انطلقنا جميعًا إلى هناك -باستثناء جيم- لنرى إن كانت هناك أي فرصة لتقديم عرضنا في ذلك المكان.

كان الحظ حليفنا، إذ كان هناك سيرك في عصر ذلك اليوم وكان الفلاحون قد بدأوا بالفعل في التوافد على الجياد وعلى عربات قديمة متهالكة من كافة الأشكال والألوان. وكان السيرك من المُقرر أن ينتهي قبل الليل، وعليه فقد كانت أمامنا فرصة جيدة جدًّا لتقديم عرضنا. ومن ثم، قام الدوق بتأجير قاعة المحكمة وتجولنا للصق الإعلانات التي كُتِب عليها:

إحياء شكسبيري!!!

حشد رائع!

ليلة واحدة فقط!

الفنانان التراجيديان المشهوران عالميًّا

ديفيد جاريك الأصغر من مسرح دروري لين بلندن

و

إدموند كين الأكبر

من مسارح هايماركت الملكي ووايت تشابل وبودينج لين وبيكادللي

في لندن

ومن المسارح الأوروبية الملكية

في عرض شكسبيري عظيم

بعنوان

مشهد الشرفة

في

روميو وجولييت!!!

روميو .... السيد جاريك

جولييت .... السيد كين

بمعاونة القوة الكاملة للفرقة!

أزياء جديدة، مشاهد جديدة، مواعيد جديدة!

أيضًا:

مبارزة سيوف مثيرة ومتقنة تُجمد الدم في العروق

في ريتشارد الثالث!!!

ريتشارد الثالث .... السيد جاريك

ريتشموند .... السيد كين

أيضًا:

(بطلب خاص)

مناجاة هاملت الخالدة!!

للفنان المرموق كين!

الذي قام بتأديتها ٣٠٠ ليلة متتالية في باريس!

ليلة واحدة فقط

في إطار ارتباطات أوروبية ملزمة!
سعر الدخول ٢٥ سنتًا
الأطفال والخدم عشرة سنتات

ثم مضينا نتجول في البلدة؛ كانت بنايات معظم المتاجر والمنازل قديمة متهالكة ضعيفة لم تُطلى من قبل، وكانت تستند إلى دعامات خشبية ارتفاعها ثلاثة أو أربعة أقدام فوق سطح الأرض حتى لا تطولها المياه عندما يفيض النهر، وكانت المنازل محاطة بحدائق صغيرة لا ينبت فيها سوى الداتورا الصفراوية وعباد الشمس، وكنت تجد الرماد مكومًا إلى جانب أحذية بالية قديمة وزجاجات مكسورة وأسمال وأواني قصدير منبعجة. أما الأسوار، فكانت عبارة عن تشكيلة متنوعة من ألواح تم دقها في أزمان مختلفة فأصبحت مائلة في كل اتجاه، وقد بدا أن الأسوار قد طليت باللون الأبيض في زمن ما؛ رجح الدوق أن يكون عصر كولمبوس. ولأن أغلب الأبواب قد صُنعت من مفصلة واحدة فكانت الخنازير كثيرًا ما تدخل إلى الحدائق، ثم يطردها الناس.

كانت جميع المتاجر مصطفة في شارع واحد، وعلت واجهاتها مظلات بيضاء يربط الفلاحون جيادهم في دعاماتها، وكان العاطلون من الناس يجلسون تحت هذه المظلات طوال النهار، فوق صناديق البضائع الفارغة، وكانوا يحكون فيها سكاكينهم البارلو ويمضغون التبغ ويتمطون ويتثاءبون ويتمددون. كان التشرد باديًا على هؤلاء المتعطلين، وكان أغلبهم يرتدي قبعات صفراء كبيرة مصنوعة من القش، الواحدة منها بحجم شمسية، ولم يرتدوا أي معاطف

أو صديريات، وكانوا يتنادون بأسماء مثل بيل وباك وهانك وجو وأندي، وكانوا يتحدثون بكسل ويكثرون من استخدام الألفاظ البذيئة، وكان من بينهم واحد ينتقل بين دعامات المظلة ويتكئ عليهم ولا يخرج يده من جيبه إلَّا عند قضم قطعة تبغ أو الحك. وكان هناك حوار دائمًا ما يتكرر بين هذه المجموعة:

«أعطني قطعة تبغ يا هانك».

«لا أستطيع، لم يتبق معي سوى قطعة واحدة، اطلب من بيل».

في بعض الأحيان كان بيل يعطيه قطعة تبغ، وفي أحيان أخرى كان يتعذر بأن ليس معه تبغ. ولأن بعض هؤلاء العاطلين لم يكن بحوزتهم سنت واحد أو قطعة تبغ واحدة، فكانوا يحصلون على التبغ عن طريق الاستعارة؛ يذهبون إلى أحد رفاقهم ويقولون: «أتمنى أن تقرضني قطعة تبغ يا جاك، لقد أعطيت بن طومسون آخر قطعة تبغ كانت معي». ولأن هذه الجملة غالبًا ما تكون كذبًا، فإنها لا تنطلي على أحد سوى الغريب، ولأن جيك ليس غريبًا يقول:

«أعطيته قطعة تبغ؟ لقد أعطته جدة قطة أختك أيضًا تبغًا؛ رد لي قطع التبغ التي اقترضتها مني يا ليف باكنر، وبعدها سأقرضك طنًا أو طنين من التبغ ولن أطلب منك فائدة».

«لقد رددت لك بعضًا منه».

«نعم، هذا صحيح، حوالي ست قطع، إلَّا أن التبغ الذي استعرته كان تبغ متاجر وما رددته لي كان تبغًا أسود».

كان تبغ المتاجر عبارة عن حشوة سوداء مسطحة، أما ما كان يمضغه هؤلاء المتعطلون هو الورقة الطبيعية بعد لفها. وعندما كانوا يقترضون قطعة تبغ، كانوا يضعونها بين أسنانهم ويمضغونها ويشدون الحشوة بإيديهم حتى تنقسم إلى نصفين، إذ لم تكن من عادتهم أن يستخدموا سكينًا. وعندما كانوا يعيدون قطعة التبغ إلى صاحبها، كان ينظر إليها بحزن في بعض الأحيان ويقول بتهكم:

«أعطني التبغ، وخذ الحشو».

كانت كل الشوارع والممرات عبارة عن طين، لم يكن هناك سوى الطين، طينًا أسود سواد القطران بعمق قدم في بعض الأماكن وعمق بوصتين أو ثلاث بوصات في أماكن أخرى. وكانت الخنازير تتسكع وتصدر قُباعها في كل مكان، وكنت تجد خنزيرة كبيرة ملطخة بالطين قد استلقت على الأرض إلى جانب أطفالها، في منتصف الطريق تمامًا بطرقة تُرغم المارة على الالتفاف من حولها ليتمكنوا من السير، ثم تتمدد وتغلق عينيها وتهز أذنيها بينما يرضع أطفالها والسعادة بادية عليها كمن يتقاضى راتبًا. وكان المتعطلون، عند رؤية هذا المنظر، يهمون ويصيح أحدهم: «اركض وراءهم أيها الكلب!»، فتبتعد الخنزيرة الكبيرة، وهي تصيح بصوت بشع، بينما يمسك بأذنيها كلب أو كلبان ويلحق بهم ثلاث أو أربع دزينات كلاب، فينهض المتعطلون، ويراقبون المشهد حتى تختفي الكلاب والخنازير عن الأنظار، ويضحكون في استمتاع، ممتنين للجلبة التي حدثت، ثم يجلسون مجددًا حتى يقع شجار بين مجموعة من الكلاب، ذلك أن شيئًا ما كان ليمتعهم مثل معارك الكلاب،

ويُستثنى من ذلك بالطبع وضع تُرْبَنْتِينَة على كلب ضال وإشعالها أو ربط وعاء قصدير في ذيله ومشاهدته وهو يركض.

كانت هناك منازل خاوية آيلة إلى السقوط على ضفة النهر، وكانت الضفة تنبعج تحت بعض المنازل المأهولة بدرجة تُنذر بالخطر، ذلك أن عمق الانبعاج كان يصل في بعض الأحيان إلى ميل تقريبًا، بل ويمتد حتى تنحدر المنازل في النهر صيفًا، إذ كان النهر دائمًا ما يلتهم هذه البلدان.

مع اقتراب الظهيرة، كانت العربات والأحصنة قد تزايدت وامتلأت بهم الشوارع، وأخذت في التكاثف مع توافد المزيد، وجلبت العائلات القادمة من الأرياف عشاءها معها وتناولته داخل العربات، وكان الويسكي متوافرًا بكثرة، ووقعت ثلاثة عراكات. وفجأة، صاح شخص قائلًا:

«ها قد أتى باجز من الريف ليتناول شرابه الشهري المعتاد، ها قد أتى يا فتيان!».

بدت السعادة على وجوه المتعطلين، إذ أعتقد أنهم كانوا يستمتعون بوجود باجز دائمًا. قال أحدهم:

«يا تُرى من سيقتل هذه المرة؛ كان صيته ليصبح ذائعًا لو كان قد قتل كل هؤلاء الرجال الذين هدد بقتلهم طوال العشرين عامًا الماضية».

قال شخص آخر: «يا ليته يهددني بالقتل، لأنني سأعرف حينئذ أنني لن أموت قبل ألف عام».

جاء باجز جامحًا على جواده مثل هندي أحمر، وهو يصرخ صائحًا: «أخلوا الطريق، أنا على طريق الحرب وسيرتفع سعر التوابيت».

كان عمره يتجاوز خمسين عامًا تقريبًا، وكان وجهه محمرًا جدًّا من شدة السكر، وكان يترنح فوق سرجه، وكان شعاره في الحياة «اللحمة أولًا، ثم باقي الطعام». أخذ الجميع يصيحون به ويضحكون منه ويخاطبونه بوقاحة، وكان يرد عليهم وقاحتهم ويخبرهم أنه كان ليلقنهم درسًا ويعيدهم إلى رشدهم لولا أنه كان بحاجة إلى أن يعود للبلدة ويقتل الكولونيل شيربرن.

فور أن لمحني، أمسك بسرج حصانه وقال:

«من أين أتيت يا فتى؟ هل أنت مستعد للموت؟»، ثم تقدم نحوي.

شعرت بالخوف، إلَّا أن أحد الرجال أخبرني:

«إنه لا يقصد ما يقول، إنه يكون هكذا دائمًا عندما يثمل، بل إنه أكبر أحمق مسالم في أركنسو، إنه لم يؤذ أحدًا أبدًا؛ لا سكرانًا ولا فائقًا».

مضى باجز أمام أكبر متجر في البلدة، ثم حنى رأسه إلى أسفل حتى يتسنى له النظر من تحت ستارة المظلة وصاح:

«أخرج هنا يا شيربرن! أخرج وواجه الرجل الذي احتلت عليه. أنت الكلب الذي أطارده، وسأمسك بك!»،

وأخذ يسب شيربرن بكل الشتائم التي استطاع أن يأتي بها على

لسانه. كان الشارع كله محتشدًا، وكان المارة يستمتعون بالمشهد ويضحكون لرؤيته ثم يمضون في طريقهم. بعد قليل، خرج من المتجر رجل مهيب يبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا تقريبًا، وقد بدا الرجل الأكثر أناقة في البلدة. فور خروجه، تنحت الحشود جانبًا لتسمح له بالمرور، ثم قال لباجز بهدوء وبطء شديدين:

«لقد سئمت تصرفاتك لكنني سأتحملك حتى الساعة الواحدة فقط، وإذا تحدثت عني مرة أخرى فسأعرف كيف أجدك».

ثم التفت وعاد إلى الداخل، وسكن الحشد تمامًا وتوقفت الضحكات وخيم التوتر على الجميع، أما باجز فعاد إلى المحل ووقف أمامه وأخذ يصيح ويسب شيربرن بأعلى صوته، فاحتشد حوله بعض الرجال وحاولوا إسكاته لكنه لم يسكت، فأخبروه أن الساعة ستدق الواحدة خلال خمس عشرة دقيقة تقريبًا وأن عليه الذهاب إلى المنزل حالًا، إلَّا أن الأمر لم يفلح واستمر في سبابه بكل ما أوتي من قوة ثم ألقى قبعته في الطين ودهسها وامتطى جواده وانطلق وشعره الرمادي يتطاير وراءه. حاول كل من سنحت له الفرصة أن يبذل قصارى جهده في إنزاله من فوق جواده حتى يتسنى لهم حبسه وإفاقته، إلَّا أنه لم تكن هناك جدوى من الأمر واستمر في حركته وسبابه. وبعد قليل، قال شخص:

«اذهبوا إلى ابنته! أسرعوا، اذهبوا إلى ابنته، إنه ينصت إليها أحيانًا. إن كان بوسع أحد أن يقنعه، فستكون هي من يقنعه»، فركض أحدهم ليأتي بها.

خلال خمس أو عشر دقائق، عاد باجز مرة أخرى، لكنه لم يكن على ظهر جواده هذه المرة ولم تكن على رأسه قبعة، وكان يتمايل ويستند إلى شخصين يمسك كل منهما بإحدى ذراعيه ويُسرعان به في الطريق دون مقاومة منه. ثم صاح شخص:

«باجز!».

تطلعتُ لأرى من يتحدث فوجدته الكولونيول شيربرن؛ كان يقف في الشارع بثبات شديد، شاهرًا مسدسه بيده اليمنى، مصوبًا ماسورته نحو السماء. وفي نفس اللحظة، جاءت فتاة شابة تركض ومعها رجلان. التفت باجز والرجلان ليريا من نادى عليه ورأوا المسدس، فتنحى الرجلان جانبًا وأنزل شيربرن ماسورة المسدس المُعمَّر ببطء وثبات حتى أصبحت في مستواه. رفع باجز كلتا يديه وقال: «يا إلهي، لا تطلق النار!». بانج! ضُربت الطلقة الأولى، فترنح إلى الوراء متشبثًا بالهواء. بانج! ضُربت الطلقة الثانية، فارتطم بظهره على الأرض بقوة بينما يداه مبسوطتان في الهواء. صرخت الفتاة الشابة، ثم انطلقت نحوه مسرعة وألقت بنفسها فوق والدها وهي تبكي وتقول: «أوه، لقد قتله، لقد قتله!». اقترب الحشد منهما، وتزاحموا واشرأبت أعناقهم محاولين رؤيته، بينما يحاول من هم في الدائرة الأقرب إليه دفع الناس إلى الوراء، صائحين: «تراجعوا، تراجعوا! اسمحوا بدخول الهواء، اسمحوا بدخول الهواء!».

ألقى الكولونيل شيربرن بمسدسه على الأرض، ثم التفت إلى الوراء ومضى في طريقه.

حُمِل باجز إلى صيدلية صغيرة وتبعته البلدة بأكملها. كانت الحشود تتزايد، فأسرعت حتى أحصل على موقع جيد قرب النافذة، وبالفعل تمكنت من خلال موقعي أن أكون قريبًا وأشاهده. وضعوه على الأرض، وأسندوا رأسه إلى إنجيل ضخم، ثم مزقوا قميصه فرأيت المكان الذي دخلت فيه إحدى الطلقتين، ثم فتحوا إنجيلًا آخر ووضعوه فوق صدره. ظل يشهق شهقات طويلة؛ نحو دزينة تقريبًا. وكان الإنجيل يرتفع فوق صدره كلما سحب نفسه ثم ينخفض من جديد عندما يخرج، وظل هكذا حتى سكن تمامًا ومات، وحينئذ جذبوا ابنته وأزاحوها بعيدًا عنه، بينما هي تصرخ وتبكي. كان عمرها حوالي ستة عشر عامًا، وكانت تبدو رقيقة ولطيفة رغم الخوف والشحوب المريعين اللذين بديا عليها.

لم يمر وقت طويل حتى كانت البلدة بأكملها قد وصلت إلى الصيدلية، وكان الجميع يتلوى ويستجدي ويتدافع ويُزاحِم من أجل الوصول إلى النافذة والنظر إلى الداخل، ولأن الأشخاص الذين كانوا قد حصلوا على أماكن بالفعل أبوا أن يتخلوا عن أماكنهم، أخذ الآخرون الذين وصلوا حديثًا يرددون: «لقد شاهدتم بما فيه الكفاية يا رفاق، ليس من العدل ولا من الصواب أن تبقوا في أماكنكم دون أن تعطوا الفرصة لغيركم؛ لدى الآخرين حقوق مثلكم».

وهكذا ظل الجدل يتزايد حتى استشعرت وقوع بعض المشاكل فتسللت خارجًا لأحد الشوارع مكتظة والجميع متقد بالحماس، وكان جميع من شاهدوا إطلاق النار يروون ما حدث، وكان حول كل واحد منهم حشد كبير يُنصت إلى الحكاية بانتباه شديد.

وكان هناك رجل طويل هزيل، شعره طويل ويرتدي قبعة بيضاء مصنوعة من الفرو وتشبه المدخنة، وكان يمسك بعصا لها مقبض معوج ويضع علامات على الأماكن التي مر بها باجز وشيربرن، وكانت الناس تتبعه من مكان إلى آخر ويراقبون ما يفعل ويميلون رؤوسهم دلالة الفهم، ثم ينحنون قليلًا ويميلون رؤوسهم بالقرب من أفخادهم ليشاهدونه وهو يضع العلامات على الأرض بعصاه. وبعد أن انتهى من وضع العلامات، وقف مستقيمًا متخشبًا حيث وقف شيربرن، ثم عبس وأنزل قبعته فوق عينيه وصاح قائلًا: «باجز!»، ثم أنزل عصاه ببطء إلى أسفل حتى وصلت إلى مستوى محدد، ثم قال: «بانج!»، وترنح إلى الوراء، ثم قال مجددًا: «بانج!»، وسقط مسطحًا على ظهره. وقد قال الأشخاص الذين رأوا الواقعة إنه حاكى ما حدث على نحو مثالي، وقالوا إنه كان مثلما حدث بالضبط.

بعد قليل، قال أحد الأشخاص إن شيربيرن يجب أن يُعدم. وخلال دقيقة تقريبًا، كان الجميع يرددون ما قاله ويصيحون في جنون وينتشلون كل حبل ملابس يرونه لينفذوا به حكم الإعدام.

(٢٢)

مضى الجميع ناحية منزل شيربرن في حشود؛ يصيحون بغضب مثل الهنود الحمر، وكان الكل يتنحى جانبًا لإخلاء الطريق تجنبًا أن يدهسهم الحشد. كان المنظر رهيبًا؛ كان الأطفال يركضون أمام الحشد، وهم يصرخون ويحاولون الابتعاد عن الطريق، وكانت رؤوس النساء تُطل من جميع النوافذ المتواجدة بطول الطريق، وكان الفتيان الزنوج يعتلون الأشجار، وكان الشباب والشابات يراقبون المشهد من فوق الأسوار ثم يتفرقون ويتراجعون بمجرد أن يقترب منهم الحشد؛ حتى لا يطولهم، وكانت الكثير من النساء والفتيات يبكين ويشعرن بالاستياء والخوف الشديدين.

احتشد أكبر عدد ممكن من الأشخاص أمام سور شيربرن الخشبي. ولأن الباحة كانت صغيرة بحجم عشرين قدمًا، لم يكن باستطاعة المرء أن يسمع أفكاره من شدة الضوضاء. ومن ثم أخذ البعض يصيح قائلًا: «اهدموا السور! اهدموا السور!»، حتى شرعوا بالفعل في تكسير وتحطيم الحائط الأمامي، وما أن سقط حتى بدأ الحشد في التدافع مثل الأمواج.

حينئذ فقط، خرج شيربرن إلى سطح سقيفته الأمامية الصغيرة، ثم وقف بتأن وهدوء شديدين ممسكًا بندقيته ذات الماسورتين في يده دون أن يقول كلمة، فتوقفت الجلبة وتراجعت الحشود.

كان السكون غير مريح ومخيفًا على نحو مريع، إذ وقف شيربرن ينظر إلى الحشود دون أن ينطق بكلمة، وكان يُمرر عينيه على جميع من في الحشد، بينما يحاولون هم التظاهر بالقوة عند النظر إليه، إلَّا أن ذلك لم يفلح وانتهى بهم الحال أن غضوا أبصارهم كما لو كانوا يخفون أمرًا ما. وبعد قليل، ضحك شيربرن ضحكة من تلك الضحكات التي تجعلك تشعر كما لو أنك تأكل خبزًا به رمل، وليست تلك الضحكة التي تبعث على السرور.

ثم قال ببطء وازدراء:

«فكرة إعدامكم لأي شخص مضحكة! ظنكم بأن لديكم الجرأة الكافية لشنق رجل! أنتم تمتلكون الشجاعة الكافية لتغطية النساء، المنبوذات المسكينات اللاتي يأتين هنا دون أن يكن لهن أصدقاء، بالقطران والريش، لكن هل جعلهم هذا تظنون أنكم تمتلكون الجرأة الكافية للمساس برجل؟ إن الرجل آمن في أيدي عشرة آلاف من أمثالكم، طالما كنا بالنهار وما لم تكونوا وراء ظهره.

هل أعرفكم؟ أنا أعرفكم جيدًا؛ لقد نشأت وترعرعت في الجنوب وعشت في الشمال، ولذلك فأنا أعرف طبيعة الرجال في كل مكان.. إنهم جبناء. ففي الشمال، يسمحون للآخرين بدهسهم طالما رغبوا في ذلك، ثم يعودون إلى المنزل ويدعون لأرواح

متواضعة. وفي الجنوب، يقطعون الطريق نهارًا على عربات تملؤها الرجال ويسرقون ما معهم. إن صحيفتكم تتحدث عن شجاعتكم حتى ظننتم أنكم أشجع من أي مجتمع آخر، بينما أنتم على نفس القدر من الشجاعة بالضبط. لماذا لا تعدم هيئة المحلفين القاتلين؟ إنهم خائفون من أن يقتلهم أصدقاء الرجل من وراء ظهورهم في الظلام، لأن هذا هو بالضبط ما سيفعلونه. ولهذا دائمًا ما يصدرون أحكامًا بالبراءة، ثم يدخل رجل ليلًا، وفي ظهره مئة جبان مقنع ويشنقون النذل. خطؤكم هو أنكم لم تجلبوا معكم رجلًا، والخطأ الثاني هو أنكم لم تأتوا في الظلام وتجلبوا أقنعتكم. لقد أحضرتم شبه رجل، باك هاركنِس، وإن لم يكن موجودًا ليحرككم، لكان رد فعلكم مجرد جعجعة فارغة. أنتم لم ترغبوا في القدوم، لأن الناس العادية لا تحب المشاكل ولا الخطر، وعليه فأنتم لا تحبون المشاكل ولا الخطر. لكن إذا صاح نصف رجل مثل باك هاركنس الواقف هناك، وقال: اشنقوه! اشنقوه! فإنكم تخشون التراجع خوفًا من أن يُكشف جبنكم، وهكذا تصيحون وتتشبثون بذيل معطف نصف الرجل هذا، وتأتون هائجين إلى هنا وتقسمون بالأشياء الكبيرة التي ستفعلونها. إن الغوغائية هي أكثر الأشياء المثيرة للشفقة؛ فالغوغاء لا يقاتلون بدافع شجاعة تولدت بداخلهم، وإنما بدافع شجاعة اكتسبوها من حشودهم وقادتهم. أما الغوغاء التي لا يقودها رجل، فهي أدنى من أن يُرثى لها. والآن؛ أفضل ما تفعلونه هو أن تدبروا وتعودوا إلى منازلكم وتزحفوا إلى حفرة. وإذا كان هناك أي شنق سيتم، فإنه سيتم في الظلمة على طريقة الجنوب،

وعندما يأتون سيجلبون معهم أقنعتهم، ويحضرون رجلًا معهم. والآن ارحلوا، وخذوا نصف رجلكم معكم»، ورفع بندقيته على ذراعه الأيسر وصوبها وهو يقول هذا الكلام.

تراجع الحشد فجأة إلى الوراء، وتفرقوا جميعًا كل في اتجاه وفي عقبهم باك هاركنس وقد بدا عليه الانحطاط بشكل كبير. كان بإمكاني أن أبقى إن أردت ذلك، لكنني لم أرغب.

ذهبت إلى السيرك وتلكأت حول الجانب الخلفي حتى مر الحارس ودخلت من أسفل الخيمة. كانت معي قطعتان ذهبيتان من فئة العشرين دولارًا وبعض النقود الأخرى، لكنني قررت أن أدخرها، لأنك لا تعرف متى قد تحتاجها وأنت بعيد عن منزلك ووسط الأغراب بهذه الطريقة. لا يمكنك أن تكون حريصًا أكثر من اللازم. ليس سيئًا أن تنفق نقودك على السيرك حين لا يكون هناك طريقة أخرى لانفاقها، لكن الآن لا فائدة من إضاعتها عليهم.

كان سيركًا عظيمًا بحق. كان منظرهم عندما دخلوا جميعًا راكبين جيادهم هو الأكثر روعة على الإطلاق، إذ دخلوا اثنين اثنين، كل رجل وسيدة جنبًا إلى جنب معًا؛ الرجال في ملابسهم الداخلية وستراتهم الخفيفة التحتانية بدون أحذية أو سروج، واضعين أيديهم على أفخادهم بأريحية وهدوء، وكانوا عشرين رجلًا تقريبًا. أما السيدات فكنَّ يتمتعن ببشرة جميلة وبجمال فائق وكنَّ أشبه بالملكات الحقيقيات، وكن يرتدين ثيابًا بملايين الدولارات ويكتسين بالألماس. كان منظرًا جميلًا جدًّا، لم أر شيئًا بهذا الجمال أبدًا. ومن ثم

واحدًا بعد الآخر، نهضوا ووقفوا، وأخذوا يتحلقون حول الحلقة بنعومة شديدة وتموج ورشاقة، وكان الرجال طويلين جدًّا وخفيفين ومستقيمين، وكانت رؤوسهم تتمايل بينما يمسحون الناس بأعينهم، بعيدًا هناك تحت سقف الخيمة، وكانت فساتين السيدات تبدو مثل أغصان الورد وكانت تخفق بنعومة وحريرية حول أردافهن، وتبدو مثل ألطف مظلة.

ثم بدأوا يتحركون أسرع فأسرع، وهم جميعًا يرقصون، أولًا بقدم ترتفع في الهواء ثم بالأخرى، والأحصنة تنحني أكثر فأكثر، ومسؤول الحلبة يدور ويدور حول السارية، يضرب بسياطه ويصيح «هاي! هاي!»، والمهرج يلقي النكات وراء ظهره، ورويدًا رويدًا ألقوا جميعًا باللجام، ووضعت كل سيدة يدها على أردافها وطوى كل رجل ذراعيه، وحينئذ انحنت الجياد إلى الأمام وحدبت نفسها! وهكذا واحدًا بعد الآخر، مروا جميعًا عبر الحلقة، وانحنوا أعذب انحناءة رأيتها على الإطلاق، ثم انطلقوا إلى الخارج، وصفق الجميع بأيديهم وتحمسوا حماسًا كبيرًا.

طوال السيرك، قاموا بأشياء مذهلة حقًّا، وطوال الوقت استمر ذلك المهرج فيما يفعله حتى كادت الناس تموت من الضحك. لم يستطع مسؤول الحلبة أن يقول له أي كلمة، إذ كان يرد عليه بسرعة فائقة بأكثر الأشياء طرافة على الإطلاق. ما لم أستطع فهمه أبدًا هو كيف كان باستطاعته أن يفكر في العديد من هذه الأشياء فجأة هكذا وحاضرة في الوقت المناسب هكذا، إذ ما كانت هذه الأشياء لتخطر لي ولو حتى بعد عام. وبعد قليل، حاول رجل سكران أن

يصعد إلى الحلبة، وقال إنه يريد أن يؤدي عرضًا؛ قال إن باستطاعته أن يفعل ذلك مثل أي شخص فحدث جدال وحاولوا إبقاءه بعيدًا لكنه لم يُنصت فتوقف العرض كله. ثم بدأ الحضور يصيحون بوجهه ويسخرون منه فأغضبه الأمر وبدأ يسب ويشتم، وهو ما أثار الناس وجعل الكثير من الرجال يحتشدون خارج المقاعد ويتكدسون ناحية الحلقة، وهم يقولون: «اطرحوه أرضًا! ألقوا به خارجًا!» ثم بدأت سيدة أو سيدتان في الصراخ، فألقى مسؤول الحلبة خطابًا صغيرًا، وقال إنه يأمل ألا يكون هناك اضطراب، وأنه إذا تعهد الرجل بأنه لن يحدث المزيد من المشاكل فسيدعه يركب الحصان إذا كان يعتقد أن بإمكانه البقاء على الحصان دون أن يقع. وهكذا ضحك الجميع ووافقوا وصعد الرجل. وفي اللحظة التي صعد فيها عليه، بدأ الحصان في الهياج والقفز والوثب في المكان، بينما يمسك رجلان من رجال السيرك بلجامه محاولين الإمساك به، والرجل السكران متعلق برقبته وأقدامه تتطاير في الهواء مع كل قفزة، والجمهور يصيح ويبكي من شدة الضحك. وفي النهاية، رغم كل محاولات رجال السيرك، انطلق الحصان، ومضى بعيدًا في هياج، وأخذ يدور ويدور حول الحلقة، وذلك السكير يرقد فوقه ويتعلق برقبته، أولًا بقدم واحدة تتدلى تقريبًا على الأرض من أحد الجانبين، ثم بالأخرى على الجانب الآخر، وكان الناس متحمسين جدًّا. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن الأمر مضحكًا بالنسبة إلي وكنت أرتعد كليًّا وأنا أرى الخطر الذي يواجهه، إلا أنه سرعان ما استطاع أن يمسك اللجام بصعوبة وهو يترنح في هذا الاتجاه وذاك، وفي

اللحظة التالية قفز وألقى اللجام ووقف! ظل الحصان يتحرك كما لو أنه يمشي على جمر، لكن الرجل بقي واقفًا هناك، يتحرك بأريحية وبساطة كما لو لم يكن سكرانًا أبدًا في حياته، ثم بدأ يخلع ملابسه ويلقي بها بعنفوان شديد حتى تطايرات كلها في الهواء؛ لقد خلع سبع عشرة بذلة تقريبًا. ثم، هكذا، ها هو ذا، رشيقًا ووسيمًا ومرتديا أفخر وأجمل ما رأيته، ضرب الرجل الحصان بسياطه وجعله يركض بسرعة أكبر، ثم قفز من فوقه، وأدى انحناءته وانطلق متراقصًا نحو غرفة الملابس، بينما الجميع يهللون فرحة ودهشة.

عندما رأى مسؤول الحلبة كيف تعرض للخداع، بدا عليه الاستياء الشديد، إذ كان هذا الرجل واحدًا من فرقته! لقد أتى بتلك المزحة وحده ولم يخبر أحدًا على الإطلاق؛ لقد شعرت بالحماقة الشديدة أنني خُدعت، لكنني ما كنت لأصبح في مكان مسؤول الحلقة ولا حتى مقابل ألف دولار. لا أدري، ربما كان هناك سيرك أفضل من ذلك، لكنني لم أصادفه بعد. على أية حال، كان جيدًا جدًّا بالنسبة إلي، وأينما مررت به، سيصبح عادة لي أن أزوره كل مرة.

قدمنا عرضنا في تلك الليلة، لكن لم يكن هناك سوى اثني عشر شخصًا تقريبًا، أي ما يكفي لتغطية التكاليف التي أنفقناها. ظل الجمهور يضحك طوال الوقت، وقد جعل ذلك الدوق غاضبًا. على أية حال، رحل الجميع قبل أن ينتهي العرض، باستثناء صبي واحد كان نائمًا. وهكذا قال الدوق إن هؤلاء الحمقى من أركنسو لم يرقوا إلى مستوى شكسبير، وما أرادوه كان الكوميدية الرخيصة، وربما ما هو أسوأ من الكوميديا الرخيصة، حسب اعتقاده. وقال

إنه يعرف كيف يصل إلى ذوقهم. وهكذا في الصباح التالي، أحضر أفراخًا كبيرة من ورق التغليف وبعض الطلاء الأسود، وصنع ملصقات وعلقها في جميع أرجاء القرية، بعد أن كتب عليها:

في قاعة المحكمة!

لمدة ثلاث ليال فقط!

التراجيديات العالمية

ديفيد جاريك الأصغر!

و

إدموند كين الأكبر

من مسارح لندن وأوروبا

في تراجيدتهم المشوقة

زرافة الملك

أو

الفراغ الملكي!!!

رسوم الدخول ٥٠ سنتًا

ثم في الأسفل، كُتب على أكبر سطر فيهم جميعًا:

ممنوع دخول النساء والأطفال

وقال: «إذا لم يجلبهم هذا السطر، فأنا لا أعرف أركنسو!».

(٢٣)

عمل هو والملك بجد طوال النهار، وقاما بتحضير منصة وستارة وصف من الشموع من أجل الإضاءة الأمامية، وفي تلك الليلة امتلأت القاعة عن آخرها بالرجال في وقت قليل. وعندما لم يستطع المكان أن يستوعب المزيد، ترك الدوق موقعه عند الباب والتف حول الطريق الخلفي وصعد على المسرح ووقف أمام الستارة وألقى خطابًا صغيرًا، وامتدح هذه التراجيدية، وقال إنها كانت الأكثر تشويقًا على الإطلاق، وهكذا أخذ يتباهى بالتراجيديا، وبإدموند كين الأكبر، الذي كان من المُقرر أن يلعب الدور الرئيسي فيها، وهكذا عندما رفع توقعات الجميع بما فيه الكفاية، رفع الستار، وخرج الملك في اللحظة التالية يقفز على أطرافه الأربعة، عاريًا، وكان جسمه كله مطليًّا في دوائر وخطوط، بكافة أنواع الألوان الرائعة التي تشبه قوس قزح؛ لا عليك من بقية زيه. وكان جامحًا ومضحكًا بدرجة فظيعة حتى كاد الرجال يموتون ضحكًا. وعندما انتهى الملك من القفز وقفز منزويًا إلى الكواليس، صاحوا وصفقوا

واهتاجوا وضحكوا ملء أفواههم حتى عاد وفعلها مجددًا، وبعد ذلك جعلوه يكررها مرة ثانية، إذ كانت الأشياء التي يفعلها ذلك الأحمق العجوز لتضحك البقرة.

ثم أسدل الدوق الستار، وانحنى إلى الجمهور، وقال إن التراجيديا العظيمة ستُعرض ليلتين أخريين فقط، لما تقتضيه ارتباطات لندن الملحة، حيث أن المقاعد كلها محجوزة بالفعل من أجلها في درووري لين، ثم انحنى مرة أخرى، وقال إنه إن كان قد نجح في إسعادهم وتعليمهم، فسيكون مدفوعًا بنفس الدرجة إذا ذكروه إلى أصدقائهم وجعلوهم يأتون ويشاهدون.

صاح عشرون شخصًا:

«ماذا، هل انتهت؟ هل هذا كل شيء؟».

رد الدوق أن نعم. وهكذا ثار عليهم الجميع صائحين: «غشاشين!» ونهضوا غاضبين، وكانوا متوجهين ناحية المسرح إلى هذين التراجيديين، إلا أن رجلًا ضخمًا حسن المظهر قفز على مقعد وصاح:

«مهلًا! كلمة واحدة فقط يا سادة»، فتوقفوا ليسمعوا. «لقد خُدعنا، خدعنا على نحو سيئ جدًّا. لكننا لا نريد أن نكون أضحوكة البلدة بأكملها، على ما أعتقد، ولن ننتهي من السخرية التي سنتلقاها على هذا الأمر طوال حياتنا. لا. ما نريده هو أن نخرج من هنا بهدوء، ونتحدث عن هذا العرض، ونخدع باقي البلدة! وهكذا نكون جميعًا في نفس القارب. أليس هذا معقولًا؟» (صاح الجميع: «إنه بالفعل

كذلك! القاضي محق!»). «حسنًا إذًا، لا حديث عن أي غش. اذهبوا إلى منازلكم، وانصحوا الجميع بأن يأتوا ويشاهدوا التراجيدية».

في اليوم التالي، لم يكن بوسعك أن تسمع أي شيء حول تلك البلدة سوى كم كان العرض مذهلًا. وكان المسرح مكتظًا من جديد في تلك الليلة، وخدعنا الجمهور بنفس الطريقة. عندما عدت أنا والملك والدوق إلى منزلنا على الطوافة تناولنا عشاءنا، وبعد قليل، قرب منتصف الليل، جعلاني أنا وجيم نسحبها إلى الوراء ونحركها إلى منتصف النهر، ونحضرها ونخبئها على بعد ميلين من البلدة.

في الليلة الثالثة، كان المسرح مكدسًا من جديد، ولم يكونوا حضورًا جددًا هذه المرة، وإنما أشخاصًا كانوا في العرض المرتين الماضيتين. وقفت إلى جانب الدوق عند الباب، ورأيت أن كل رجل دخل كانت جيوبه منتفخة، أو كوم شيئًا تحت معطفه، ورأيت أن هذه الأشياء لم تكن ذات رائحة زكية، إذ شممت بيضًا فاسدًا، وكرنبًا عفنًا، وأشياء من هذا القبيل، وقد كانت هناك دلالات على وجود قطة ميتة في الجوار، وأراهن أنني أعرف هذه الدلالات، فقد كان هنا أربع وستون واحدة منهن بالداخل. دخلت هناك دقيقة، لكن الروائح كانت كثيرة جدًّا عليَّ، فلم أستطع تحملها. وعندما لم يكن للمكان أن يستوعب المزيد من الأشخاص، أعطى الدوق رجلًا ربع دولار وأخبره أن يمسك الباب له لمدة دقيقة، ثم تحرك متجهًا ناحية باب المسرح، وأنا وراءه، لكن في اللحظة التي انعطفنا فيها وأصبحنا في الظلام، قال:

«سر بسرعة الآن حتى تصبح بعيدًا عن المنازل، ثم اركض ناحية الطوافة مثل الريح!».

ففعلنا ذلك نحن الاثنين، ووصلنا إلى الطوافة في الوقت نفسه، وفي أقل من ثانيتين كنا ننزلق مع التيار، وكان كل شيء مظلمًا وساكنًا، وكنا نشق طريقنا نحو منتصف النهر، دون أن يقول أحد كلمة. توقعت أن الملك المسكين واجه وقتًا عصيبًا مع الجمهور، إلا أن شيئًا من ذلك لم يحدث لأنه سرعان ما خرج زاحفًا من تحت الكوخ وقال:

«حسنًا، كيف نجحت الخدعة القديمة هذه المرة أيها الدوق؟».

لم يكن في المدينة من الأساس.

لم نشعل ضوءًا حتى أصبحنا تقريبًا على بعد عشرة أميال من القرية. ثم أشعلنا ضوءًا وتناولنا عشاءً، وضحكوا ملء أفواههم على الطريقة التي خدعوا بها هؤلاء الأشخاص. قال الدوق:

«هؤلاء المبتدئون، السذج! كنت أعرف أن الجمهور الأول سيبقى صامتًا ويترك بقية البلدة تنخدع أيضًا، وكنت أعلم أنهم سيكمنون لنا في الليلة الثالثة، ويعتبرون أن دورهم قد حان. حسنًا إنه دورهم، وكنت سأدفع نقودًا مقابل أن أرى رد فعلهم. كنت لأرغب في معرفة ماذا فعلوا. يمكنهم أن يحولوها إلى نزهة خلوية إذا أرادوا، إذ جلبوا الكثير من طعام النزهات».

لقد حصل هذان المحتالان على أربع مئة وخمسة وستين دولارًا في هذه الليالي الثلاث. لم أرَ نقودًا تملأ حمولة عربة من قبل.

بعد قليل، عندما كانا نائمين يغطان، قال جيم:

«ألا تدهشك الطريقة التي يتصرف بها الملوك يا هاك؟».

قلت: «لا، لا تدهشني».

«لماذا لا تدهشك يا هاك؟».

«حسنًا، إنها لا تدهشني، لأنها في دمهم. أعتقد أن جميعهم كذلك».

«لكن يا هاك، هؤلاء الملوك الذين معنا حقًّا أوغاد، هذا ما هم عليه، إنهم أوغاد حقيقيون».

«حسنًا، هذا هو ما أقوله، كل الملوك غالبًا أوغاد، حسب فهمي».

«هل هذا صحيح؟».

«اقرأ عنهم مرة وستعرف. انظر إلى هنري الثامن[1]، إن الملك الموجود هنا هو ناظر مدرسة دينية مقارنة به. وانظر إلى تشارلز الثاني، ولويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، وجيمس الثاني، وإدوارد الثاني، وريتشارد الثالث، وأربعين زيادة عليهم، إلى جانب كل الممالك السكسونية التي اعتادت أن تطيح في العالم قديمًا وتبعث سيرة قابيل. يا إلهي، يجب أن ترى العجوز هنري الثامن عندما كان في مجده؛ لقد كان متألقًا، إذ اعتاد أن يتزوج سيدة جديدة كل يوم، ويقطع رأسها في الصباح التالي. وكان يفعل ذلك دون مبالاة كما لو

(١) فيما يلي أخطاء تاريخية بالجُملة.

كان يطلب بيضًا. كان يقول: «أحضروالي نيل جوين». فيحضرونها. ثم يقول في الصباح التالي: «اقطعوا رأسها!» فيقطعونها. ثم يقول: «أحضروا جين شور»، فتأتي، فيقول في الصباح التالي: «اقطعوا رأسها»، فيقطعونها. «دقوا الجرس لفير روزامان»، فتجيب فير روزامان على الجرس. وفي الصباح التالي «اقطعوا رأسها». وكان يجعل كل واحدة منهن تحكي له حكاية كل ليلة، وظل يفعل ذلك حتى جمع ألف حكاية وحكاية بهذه الطريقة، ثم وضعهم جميعًا في كتاب، وأطلق عليه كتاب ونشيستر، وهو ما كان اسمًا جيدًا وعبر عن الوضع. أنت لا تعرف الملوك يا جيم، لكنني أعرفهم، وذلك النذل العجوز الذي معنا هو أحد أنظف الملوك الذين التقيتهم في التاريخ. لقد أراد هنري أن يتسبب في بعض المشاكل مع بلده، فكيف فعل ذلك، هل أخبر أحدًا؟ هل نظم عرضًا؟ لا. بل فجأة، ألقى بكل الشاي إلى خارج السفن في ميناء بوسطن، وخرج عن إعلان الاستقلال، وتحدى الناس أن تعترض. كان هذا أسلوبه، لم يعط أحدًا فرصة أبدًا، وعندما كانت لديه شكوك بشأن والده، دوق ويلنجتون، ماذا فعل؟ طلب منه زيارته؟ لا، لقد أغرقه في برميل من الجعة كأنه قطة. افترض أن شخصًا ترك نقودًا في مكان كان متواجدًا فيه، ماذا كان يفعل؟ كان يأخذها. افترض أنه اتفق على فعل شيء، ودفعت له، ولم تجلس هناك حتى ترى أنه قام به، ماذا كان يفعل؟ كان يفعل الشيء المعاكس دائمًا. افترض أنه فتح فمه، ماذا بعد؟ إن لم يغلقه بسرعة شديدة كان سيلقي كذبة كل مرة. هكذا كان هنري، وإذا كان معنا بدلًا من هذين الملكين لكان

خدع تلك البلدة على نحو أسوأ بكثير جدًّا مما فعلا. لا أقول إنهما وديعان، لأنهما ليسا كذلك إذا كنت تتحدث عن حقائق مجردة، إلا أنهما لا يُقارنا بذلك الكبش العجوز على أية حال. كل ما أقوله هو أن الملوك هم الملوك، ويجب أن تسمح لهم بالتجاوزات. إجمالًا، هم جماعة مثيرة للمشاكل جدًّا. هذه هي الطريقة التي تربوا عليها».

«لكن رائحة هذا الملك شديدة العفانة يا هاك».

«حسنًا، هكذا هم جميعًا يا جيم. لا يمكن أن نفعل شيئًا حيال رائحة الملوك، والتاريخ لا يتحدث عن هذا الأمر على أية حال».

«الدوق رجل جيد جدًّا بطريقة أو بأخرى».

«نعم، الدوق مختلف. لكنه ليس مختلفًا جدًّا. إنه شديد بالنظر إلى كونه دوقًا. عندما يكون سكرانًا لا يمكن لرجل قريب النظر أن يفرق بينه وبين ملك».

«حسنًا، على أية حال، أنا لست متحمسًا للمزيد منهم يا هاك. هذا أقصى ما أتحمل».

«هذه هي حقيقة شعوري أنا أيضًا يا جيم. لكننا مكتوفو الأيدي، ويجب أن نتذكر من هم، ونسمح بالتجاوزات. في بعض الأحيان، أتمنى لو بوسعنا أن نسمع عن بلدة قد خلت من الملوك».

ما الفائدة من إخبار جيم أن هذين لم يكونا ملكين أو دوقين حقيقيين؟ ما كان الأمر ليصبح ذا فائدة، فضلًا عن أنه مثلما قلت ما كنت لتفرقهم عن الملوك الحقيقية.

أخلدت إلى النوم، ولم ينادِ عليَّ جيم عندما جاء موعد مناوبتي. لقد كان يفعل ذلك كثيرًا. عندما استيقظت عند شروق الشمس بالضبط، كان جالسًا هناك ويده بين ركبتيه، يتأوه وينعي حاله، فتظاهرت بأنني لم ألاحظ، لأنني كنت أعلم ما الأمر. كان يفكر في زوجته وأطفاله، البعيدين في الشمال، بينما هو في الجنوب يشعر بالحنين إلى الوطن، إذ لم يكن بعيدًا عن موطنه أبدًا طوال حياته، وكنت مؤمنًا بأنه كان يهتم بذويه بنفس القدر الذي كان يهتم به البيض بذويهم. لم يبدُ الأمر طبيعيًّا، لكنني أعتقد أن هذا هو الأمر. كان كثيرًا ما يتأوه ويبكي بهذه الطريقة ليلًا، عندما يظن أنني نائم، ويقول: «المسكينة الصغيرة إليزابيث! المسكين الصغير جوني! إن الأمر صعب جدًّا، أعتقد أنني لن أراكما أبدًا من جديد، أبدًا!» لقد كان جيم زنجيًّا جيدًا جدًّا.

لكن هذه المرة مضيت وتسنى لي التحدث معه عن زوجته وطفليه، ورويدًا رويدًا قال:

«ما يجعلني أشعر باستياء شديد هذه المرة أنني سمعت شيئًا هناك على الضفة مثل ضربة أو ارتطام، منذ فترة، وقد ذكرني ذلك بكيف كنت أسيء معاملة إليزابيث الصغيرة. لم يكن عمرها سوى أربعة أعوام، وأصيبت بالحمى القرمزية، وكانت مريضة جدًّا، إلَّا أنها تعافت، وفي يوم كانت تقف وقلت لها: «أغلقي الباب»».

فلم تغلقه، ووقفت هناك، تبتسم إليَّ، فأغضبني ذلك وقلت مجددًا بصوت عالٍ:

«ألا تسمعينني؟ أغلقي الباب!».

لكنها وقفت بنفس الطريقة بالضبط؛ تبتسم بينما كنت أغلي أنا! فقلت:

«أقسم أنني سأجعلك تستمعين إليَّ!».

«وهكذا أمسكتها وضربتها على جانب رأسها حتى تمددت. ثم ذهبتُ إلى الغرفة الأخرى، واستغرقت نحو عشر دقائق، وعندما عدت كان الباب لا يزال مفتوحًا، وهي واقفة في مدخله تقريبًا، تنظر إلى الأرض وتبكي، ودموعها تسيل. لكن، يا إلهي، لقد كنت غاضبًا! وبينما كنت متوجهًا ناحيتها أتت ريح وأغلقت الباب وراءها بصوت ارتطام كبير - بلام! ويا إلهي، لم تتحرك الفتاة! لم أستطع أن أتنفس، وشعرت مثل.. مثل.. لا أعرف بما كنت أشعر. تسللت إلى الخارج وأنا أرتعش كليًا، وشرعت أفتح الباب بهدوء وتروٍّ، وأخرجت رأسي من وراء الطفلة، بنعومة وسكون، ثم قلت فجأة: بو! بأعلى صوت استطعت أن أصيح، لكنها لم تتحرك أبدًا! فانفجرت في البكاء وأمسكتها بين ذراعي، وقلت: «أوه، أيتها المسكينة الصغيرة! يا إلهي القدير اغفر للعجوز المسكين جيم، لأنه لن يغفر لنفسه طوال حياته! أوه، لقد كانت صماء تمامًا يا هاك، صماء تمامًا، وكنت أعاملها بهذه الطريقة!»».

(٢٤)

في اليوم التالي، قرب الليل، اختبأنا عند شاطئ صغير يتدلى عليه الصفصاف، حيث كانت هناك قرية على جانبي النهر، وبدأ الدوق والملك يرسمان خطة لخداع هاتين البلدتين. تحدث جيم مع الدوق، وأخبره بأنه يأمل لو لم يستغرق الأمر سوى بضع ساعات، لأن الاستلقاء طوال النهار في الكوخ وهو مربوط بالحبل أصبح ثقيلًا ومتعبًا. مثلما ترى، عندما تركناه بمفرده تمامًا كان علينا أن نربطه، لأنه إذا تصادف ومر به أحد وهو وحده تمامًا هكذا غير مربوط فلن يبدو الأمر كما لو كان زنجيًّا هاربًا، فقال الدوق إن الاضطرار إلى البقاء مربوطًا طوال النهار صعب نوعًا ما، وأنه سيجد طريقة للتحايل على الأمر. كان الدوق ذكيًّا على غير الشائع، وسرعان ما توصل إلى حل بأن جعل جيم يرتدي ثياب الملك لير، التي كانت عبارة عن رداء قطني مصنوع من ستارة طويلة، وشعر مستعار وشارب صُنع كلاهما من شعر حصان، ثم أخرج الطلاء الذي يستخدمه في المسرح وطلى وجه جيم ويديه وأذنيه ورقبته بلون أزرق مصمت باهت منطفئ، كما لو كان رجلًا قد غرق لمدة

عشرة أيام، وقد كان ذلك أفظع منظر رأيته في حياتي على الإطلاق.
ثم أحضر الدوق قطعة خشبية وكتب عليها:

عربي مريض لكنه غير مؤذٍ.

ثم دق تلك القطعة الخشبية في لوح، ووضع اللوح أمام الكوخ على مسافة أربعة أو خمسة أقدام، فسُر جيم وقال إن ذلك أفضل من الاستلقاء مربوطًا كل يوم لعدة سنوات يرتعد كليًّا في كل مرة يسمع فيها صوتًا. طمأنه الدوق وأخبره أن يشعر بالحرية والارتياح وأن يقفز خارج الكوخ إذا جاء أي شخص يتطفل ويُحدث بعض الجلبة ويصيح مرة أو مرتين مثل وحش بري، مؤكدًا له أنهم سيرحلون ويتركونه وشأنه عندما يرونه على هذه الحالة، وهو ما بدا رأيًا سليمًا بما فيه الكفاية. وفي الحقيقة، ما كان الرجل العادي لينتظره حتى يصيح، إذ لم يبدُ مظهره كما لو كان ميتًا فحسب، بل أفظع من ذلك.

أراد هذان النذلان أن يجربا تلك الخدعة الفريدة من جديد، لأنهما كانا يكسبان منها كثيرًا، إلا أنهما رأيا أنها لن تكون آمنة، إذ ربما تكون الأخبار قد انتشرت بالفعل. وعليه، لم يتمكنا من التوصل إلى مشروع ملائم، فقال الدوق إنه سيفكر في الأمر ساعة أو ساعتين ويرى إن كان بإمكانه الإتيان بفكرة تضاف إلى خطة أركنسو، وقال الملك إنه سيذهب إلى القرية الأخرى دون خطة سوى الثقة في العناية الإلهية التي ستقوده إلى وسيلة رابحة؛ التي هي في رأيي: الشيطان. وهكذا، اشترينا جميعًا ملابس جاهزة من آخر مكان توقفنا فيه، وارتدى الملك ملابسه، وطلب مني أن أرتدي ملابسي

أنا أيضًا؛ فارتديتها. كانت ملابس الملك كلها سوداء وأنيقة؛ لم أدرك من قبل كم يمكن للملابس أن تغير الشخص، إذ كان يبدو قبل ذلك كأغرب عجوز نذل على الإطلاق، لكن الآن عندما ارتدى فراء القندس الأبيض الجديد وانحنى وابتسم، بدا راقيًا وصالحًا وتقيًّا حتى كنت لتقول إنه خرج لتوه من سفينة نوح أو ربما كان نوحًا نفسه. نظف جيم الزورق، وجهزت أنا مجدافي. كانت هناك باخرة كبيرة تقف عند الشاطئ على بعد ثلاثة أميال من البلدة، وقد بقيت هناك لمدة ساعتين تُحمل البضائع. قال الملك: «أترون الذي أرتديه، أعتقد أنه ربما من الأفضل أن أتظاهر بأنني قادم من سانت لويس أو سينسناتي، أو ربما مكان آخر كبير. توجه ناحية الباخرة يا هكلبري؛ سنذهب إلى القرية».

لم أكن بحاجة إلى تلقي الأمر مرتين، وهكذا مضيت حتى أصبحت على بعد نصف ميل من القرية، ثم جدفت في المياه الساكنة بطول الشاطئ عند الجرف، وسرعان ما رأينا فلاحًا شابًا لطيفًا تبدو عليه البراءة ويجلس فوق جذع شجرة ويمسح العرق من على وجهه، ذلك أن الطقس كان حارًّا جدًّا. كانت إلى جانبه حقيبتان كبيرتان مصنوعتان من نفس المادة التي يصنع منها السجاد.

قال الملك: «وجه الزورق ناحية الشاطئ»، وعندما فعلت ذلك سأل الشاب: «إلى أين تتجه أيها الشاب؟».

«إلى الباخرة، أنا ذاهب إلى أورلينز».

قال الملك: «اصعد على القارب، انتظر لحظة، سيساعدك خادمي

في حمل حقائبك. اقفز وساعد الرجل يا أدولفس»، وفهمت بالطبع أنه يقصدني أنا بهذا الاسم.

فعلت ما قال، ثم تحركنا نحن الثلاثة. كان الشاب ممتنًّا جدًّا، وقال إن حَمل أمتعته كان صعبًا في مثل هذا الطقس، ثم سأله عن وجهته، فأخبره الملك أنه قد وصل إلى النهر ورسا عند القرية الأخرى هذا الصباح، وأنه الآن ذاهب ليرى صديقًا قديمًا في مزرعة على بعد بضعة أميال، فقال الشاب:

«لأول وهلة، قلت لنفسي: «إنه السيد ويلكس بالتأكيد، وقد جاء في الوقت المناسب»، إلَّا أنني ما لبثت أن قلت من جديد: «لا، لا أظن أنه هو، وإلَّا فلن يأتي مجدفًا في النهر» أنت لست هو، أليس كذلك؟».

«لا، اسمي بلودجت، ألكسندر بلودجت، ريفراند ألكسندر بلودجت، عبد الله الفقير. ومع ذلك فأنا أشعر بالأسف تجاه السيد ويلكس إذا كان قد فاته أي شيء بسبب عدم وصوله في الموعد، وهو أمر لا آمل أن يكون قد حدث».

«لن يفقد أيًّا من ممتلكاته بسبب تأخره، لأنه سيحصل عليها في النهاية، إلا أن ما فاته هو رؤية شقيقه بيتر وهو يُحتضر، وهو أمر من الممكن ألا يكون ممانعًا له، رغم أن أحدًا لا يمكنه أن يتوقع. إن شقيقه كان ليدفع أي شيء في العالم مقابل أن يراه قبل أن يموت، إنه لم يتحدث عن أي شيء آخر طوال هذه الأسابيع الثلاثة، ولم يره منذ أن كانا صبيين معًا ولم يرَ شقيقه ويليام على الإطلاق، ذلك الأصم

الأبكم الذي لا يتجاوز أكثر من ثلاثين أو خمسة وثلاثين عامًا. كان بيتر وجورج هما فقط من أتيا إلى هنا، كان جورج الأخ المتزوج، وقد توفي هو وزوجته العام الماضي، ولم يتبقَ سوى هارفي وويليام الآن، ومثلما كنت أقول، لم يصلا إلى هنا في الوقت المناسب».

«هل أرسل إليهما أحد ليخبرهما؟».

«أوه، نعم، منذ شهر أو شهرين، فور أن مرض بيتر، لأن بيتر قال حينئذ إنه شعر كما لو أنه لم يكن سيتحسن هذه المرة. مثلما ترى، كان مسنًّا جدًّا، وفتيات جورج صغيرات جدًّا على الاعتناء به، باستثناء ماري جين ذات الشعر الأحمر، ولهذا فقد كان وحيدًا نوعًا ما بعد أن توفي جورج وزوجته، ولم يبدُ أنه كان يرغب كثيرًا في الحياة. كان يريد أن يرى هارفي بشدة، وكذلك ويليام لنفس الغرض، لأنه لم يكن من النوع الذي يستطيع أن يكتب وصية. لقد ترك خطابًا لهارفي، وذكر فيه أين خبأ نقوده، وكيف أنه أراد لبقية ثروته أن تُقسم حتى تكون فتيات جورج على ما يرام، لأن جورج لم يترك شيئًا. وكان ذلك الخطاب هو كل ما استطاعوا أن يجعلوه يكتبه».

«لماذا في اعتقادك لم يأتِ هارفي؟ أين يعيش؟».

«أوه، إنه يعيش في إنجلترا، في شِفِيلْد، يعمل واعظًا هناك، لم يأتِ إلى هذا البلد أبدًا. لم يكن لديه وقت كثير، إلى جانب أنه ربما لم يصله الجواب من الأساس مثلما تعرف».

«هذا مؤسف، مؤسف جدًّا أنه لم يستطع أن يعيش حتى يرى إخوته، هذا المسكين. تقول إنك ذاهب إلى أورلينز؟».

«نعم، إلّا أن هذا مجرد جزء من رحلتي. أنا ذاهب في سفينة الأربعاء القادم إلى ريو دي جانيرو، حيث يعيش عمي».

«إنها رحلة طويلة جدًّا، لكنها ستكون ممتعة، يا ليتني كنت ذاهبًا. هل ماري جين هي الكبرى؟ كم عمر الأخريات؟».

«ماري جين في التاسعة عشرة من عمرها، وسوزان في الخامسة عشرة، وجوانا تبلغ الرابعة عشرة تقريبًا ولديها شق بشفتها العلوية وتهب نفسها للأعمال الخيرية».

«مساكين! أن يتركوا وحدهم في العالم البارد هكذا».

«حسنًا، كان من الممكن أن يكون وضعهم أسوأ. العجوز بيتر كان لديه أصدقاء، ولن يتركوهم يتعرضوا للأذى. يوجد هوبسون الواعظ، وديكون لوت هوفي، وبِن راكر، وآبنر شاكلفورد، وليفي بيل المحامي، ود. روبنسون، وزوجاتهم، والأرملة بارتلي، وغيرهم الكثير، إلّا أن هؤلاء هم من كان بيتر مقربًا منهم واعتاد أن يكتب عنهم في خطاباته، ومن ثم فسيعرف هارفي من الأصدقاء الذين يبحث عنهم عندما يأتي إلى هنا».

وهكذا ظل العجوز يطرح الأسئلة على ذلك الشاب حتى خرج بكل المعلومات التي يريدها، ولم يترك شخصًا أو شيئًا في تلك البلدة حتى سأل عنه، واستفسر عن كل ما يخص عائلة ويلكس وعن تجارة بيتر، الذي كان يعمل دباغًا، وعن تجارة جورج، الذي كان يعمل نجارًا، وعن تجارة هارفي، الذي كان قسًّا تابعًا للطائفة البروتستانتينية، وغيرها من الأمور. ثم قال:

«لماذا أردت أن تسير كل هذا الطريق حتى تصل إلى الباخرة؟».

«لأن باخرة أورلينز كبيرة، وكنت خائفًا ألا تتوقف هناك، إذ إنهم لا يقفون لأحد عندما يكونون في العمق هكذا، كانت باخرة سينسيناتي لتتوقف، إلا أن تلك الباخرة قادمة من سانت لويس».

«هل كان بيتر ويلكس ثريًّا؟».

«أوه، نعم، لقد كان ثريًّا جدًّا، وكان يمتلك منازل وأرضًا، وعلى الأرجح فقد ترك ثلاثة أو أربعة آلاف نقدًا مخبأين في مكان ما».

«متى قلت إنه تُوفي؟».

«لم أقل، لكنه تُوفي الليلة الماضية».

«هل من المرجح أن تكون الجنازة غدًا؟».

«نعم، منتصف النهار تقريبًا».

«حسنًا، إنه أمر محزن جدًّا، لكننا جميعًا سنموت حتمًا، عاجلًا أم آجلًا. لذا كل ما علينا فعله هو أن نكون مستعدين، وسنصبح على ما يرام».

«نعم، يا سيدي، هذه أفضل طريقة. كانت والدتي تقول نفس الشيء دائمًا».

عندما وصلنا إلى الباخرة، كانت حمولتها قد انتهت تقريبًا، وسرعان ما انطلقت. لم يقل الملك شيئًا عن الصعود إلى متنها، ولهذا

فقد فوتنا الرحلة. عندما ذهبت الباخرة، جعلني الملك أجدف ميلًا آخر إلى مكان خالٍ، ثم صعد على الشاطئ وقال:

«الآن عُدْ فورًا وأحضر الدوق إلى هنا، واجلب معك الأمتعة الجديدة. وإن كان قد ذهب إلى الجانب الآخر، اذهب إلى هناك وأحضره. وأخبره أن يأتي بغض النظر عن أي شيء، والآن اذهب».

كنت أفهم ما كان ينوي فعله، لكنني لم أقل شيئًا أبدًا بالطبع. عندما عدت مع الدوق، خبأت الزورق ثم جلسنا على جذع شجرة، وأخبره الملك بكل شيء، مثلما حكى الشاب بالضبط. وطوال الوقت كان يحاول أن يسرد الكلام بلهجة بريطانية، وقد كان جيدًا جدًّا في تأديتها بالنظر إلى كونه متسولًا. لا يمكنني تقليده، ولذلك لن أحاول، لكنه فعلها جيدًا جدًّا. ثم قال:

«كيف تجد نفسك في دور الأصم الأبكم يا بيج ووتر؟».

أخبره الدوق أن يترك الأمر له، وقال إنه لعب دور شخص أصم وأبكم في المسرحيات الميلودراما. وهكذا انتظرا قدوم باخرة.

قرب منتصف العصر، جاء قاربان صغيران، لكنهما لم يأتيا من مكان بعيد في النهر بما يكفي، ثم أخيرًا جاء قارب كبير، فناديا عليه. كان القارب قادمًا من سينسيناتي فأرسلوا إلينا قاربًا صغيرًا، وعندما صعدنا إليه وعرفوا أننا نريد الذهاب إلى مسافة أربعة أو خمسة أميال فقط، استشاطوا غضبًا وانهالوا علينا سبابًا وقالوا إنهم لن يوصلوننا. إلا أن الملك كان هادئًا، وقال:

«إذا كان الرجل يستطيع أن يدفع دولارًا مقابل كل ميل من

أجل أن يؤخذ ويُنقل في القارب، فيمكن للباخرة أن توصله، أليس كذلك؟».

فأذعنوا وقالوا أن لا بأس، وعندما وصلنا إلى القرية حملونا في القارب حتى وصلنا إلى الشاطئ، وحينئذ تقدم ناحيتنا عشرات الأشخاص فور أن رأوا القارب قادمًا. قال الملك:

«هل يمكن لأحد منكم أيها السادة أن يخبرني أين يقيم السيد بيتر ويلكس؟» فتبادل الناس النظرات، وأومئوا برؤوسهم، كما لو كانوا يقولون: «بماذا نخبرك؟» ثم قال واحد منهم ببعض الرقة والنعومة:

«أنا آسف يا سيدي، لكن أفضل ما نستطيع فعله هو أن نخبرك أين كان يعيش مساء أمس».

في طرفة عين، ترنح ذلك الوغد العجوز إلى الأمام وسقط في مواجهة الرجل ووضع ذقنه على كتفه وبكى على ظهره، ثم قال:

«وا أسفاه، وا أسفاه، أخي المسكين، مات، ولم نستطع رؤيته أبدًا، أوه، إنه أمر مؤسف جدًّا جدًّا!».

ثم التفت وهو ينتحب ويؤدي الكثير من الإشارات الخرقاء إلى الدوق بيديه، فما لبث الدوق أن أسقط حقيبته وانفجر في البكاء. لقد كان هذان المحتالان هما الرجلان الأكثر دهاءً اللذين التقيتهما على الإطلاق.

وهكذا تجمع الرجال حولهما وتعاطفوا معهما، وقالوا كل شيء

لمواساتهما، وحملوا عنهما أمتعتهما فوق التل، وتركوهما يستندان إليهم ويبكيان، وحكوا للملك كل شيء عن لحظات شقيقه الأخيرة، ومن ثم سردها الملك كلها مجددًا بيديه على الدوق، وأخذ كلاهما يبكي على ذلك الدباغ الميت كما لو أنهما قد فقدا الحواريين الاثني عشر. حسنًا، إذا كنت قد رأيت أي شيء شبيهًا بهذا، فقل عني زنجي. لقد كان ما حدث كافيًا أن يجعل المرء خجلانًا من الجنس البشري.

(٢٥)

انتشرت الأخبار في كل شبر من البلدة خلال دقيقتين، وكان بوسعك أن ترى الناس وهي تقطع الطرق ركضًا من كل اتجاه، حتى أن البعض كانوا يرتدون معاطفهم في الطريق. سرعان ما أصبحنا مركز الاهتمام، وتقدمت الحشود التي كان وقع أقدامها يشبه زحف الجنود، وكان الجميع يطلون من النوافذ ويقفون في أفنية المنازل، وكنا نسمع كل دقيقة شخصًا يصيح من فوق أحد الأسوار قائلًا:

«هل هم أولاء؟».

فيجيب أحد السائرين إلى جانبهم ويقول:

«إنهم هم بالفعل».

وعندما وصلنا إلى المنزل، كان الشارع المواجه له مكتظًا، وكانت الثلاث فتيات يقفن عند الباب. كان شعر ماري جين أحمر، إلا أن ذلك لم يشكل فارقًا، إذ كانت آية في الجمال، وكان وجهها وعيناها يشعان نورًا بهيًا، وكانت مسرورة جدًا لقدوم عميها. مد الملك ذراعيه فارتمت ماري جين في حضنه، بينما ارتمت ذات

الشفة المشقوقة في أحضان الدوق! بكى الجميع تقريبًا -النساء على الأقل- لرؤيتهم سعداء بعد أن أصبحوا معًا في نهاية المطاف.

بعد ذلك، رأيت الملك ينفرد بالدوق وينظر حوله حتى رأى التابوت موضوعًا على كرسيين في أحد الأركان، فتكاتف الاثنان بإحدى يديهما ووضعا الأخرى على أعينهما، ثم سارا ببطء ووجوم حتى وصلا إلى هناك بينما تتراجع الحشود مفسحة الطريق. توقفت كل الأحاديث والضوضاء، وأخذ الناس يقولون: «شش!»، ثم خلع جميع الرجال قبعاتهم وطأطأو رؤوسهم حتى كان باستطاعة المرء أن يسمع رنة الإبرة. وعندما وصل الاثنان إلى هناك، انحنيا فوق التابوت ونظرا إليه نظرة واحدة وانفجرا في البكاء حتى أنك كنت لتسمع صوت بكائهم من أورلينز، ثم تعانقا وأسندا كل منهما ذقنه فوق كتف الآخر، وظلا على هذه الحالة ما يقرب من ثلاث أو أربع دقائق. لم أر رجلين يبكيان بهذه الطريقة التي بكيا بها من قبل، وقد كان الجميع يبكي مثلهما حتى أصبح المكان رطبًا بدرجة لم أشهدها من قبل. ومن ثم، وقف أحدهما على أحد جانبي التابوت، بينما وقف الآخر على الجانب المقابل، وجثيا على ركبتيهما وأرخيا جبهتيهما على التابوب، وشرعا يصليان سرًا. وفي هذه اللحظة، خشع الحشد على نحو لا مثيل له، وانهار الجميع وأخذوا يبكون بصوت عال، بما في ذلك الفتيات الثلاث، وذهبت كل النساء تقريبًا إليهن دون أن يقلن كلمة وقبلوهن بكآبة على جباههن، ثم وضعن أيديهن على رؤوسهن ونظرن إلى السماء والدموع تنهمر من أعينهن، ثم علا النحيب وأخذن يبكين ويمسحن دموعهن ويفسحن

المجال للسيدة التالية. لم أر شيئًا مثيرًا للاشمئزاز بهذه الدرجة.

بعد قليل، نهض الملك ومضى قليلًا إلى الأمام ولملم شتات نفسه وألقى خطبة عاطفية تملؤها دموع وترهات عن أن فقد المتوفى اختبار مؤلم له ولشقيقه المسكين، لاسيما وأنهما لم يتمكنا من رؤية الفقيد حيًّا بعد رحلة طويلة امتدت أربعة آلاف ميل، وعن أن هذا الاختبار قد أصبح حلوًا ومقدسًا بهذا التعاطف الغالي وهذه الدموع المقدسة، ثم شكرهم من صميم قلبه وقلب أخيه، لأن الكلمات فاترة وضعيفة ولن توفي شكرهم، وغيرها من هذه الأمور العفنة الطينية التي جعلت الأمر مقززًا، ثم اختتم حديثه بـ«آمين» تنم عن الورع والصلاح قبل أن يترك نفسه للبكاء.

وفي اللحظة التي خرجت الكلمات من فمه، بدأ شخص من الحشد في تلاوة ترنيمة، وانضم إليه الجميع بكل قوتهم، وقد كانت تدفئ القلب وتجعلك تشعر شعورًا جيدًا أشبه بذلك الذي تشعر به في ختام زيارتك للكنيسة. الموسيقى شيء جميل، وقد أنعشت الجو وبدت صادقة جدًّا وجميلة بعد كل هذا الاستعطاف وهذه الترهات التي لم أشهدها من قبل.

ثم بدأ الملك يتحدث مجددًا، وعبر عن السعادة التي سيشعر بها، هو وبنات شقيقه، إذا تناول بعض من أصدقاء العائلة المقربين العشاء معهم هذا المساء، وساعدوا في ترتيب الأمور الخاصة برفات الفقيد. وقال إن شقيقه المسكين الراقد هناك، لو كان باستطاعته الحديث، كان ليؤكد أن الأسماء التي سينادي عليها الآن كانت عزيزة

عليه وكان يكثر من ذكرها في خطاباته، وأن هذه الأسماء هي: القس هوبسون، وديكون لوت هوفي، والسيد بِن راكر، وآبنر شاكلفورد، وليفي بيل، ود. روبنسون، وزوجاتهم، والأرملة بارتلي.

كان القس هوبسون والدكتور روبنسون في طرف البلدة يصطادان معًا، وما أقصده هنا هو أن الطبيب كان يوصل رجلًا مريضًا إلى العالم الآخر بينما الواعظ يرسم له الطريق، وكان المحامي بيل بمهمة عمل في لويفيل شمالًا. أما البقية فكانوا موجودين، وهكذا اقتربوا جميعًا وصافحوا الملك وشكروه وتحدثوا إليه، ثم صافحوا الدوق دون أن يقولوا شيئًا، واستمروا في الابتسام والإيماء برؤوسهم مثل حفنة من البلهاء بينما ظل هو يصنع كل أنواع الإشارات بيديه وقال: «جوو،جوو- جوو - جوو - جوو» مثل طفل لا يستطيع الكلام.

وهكذا ظل الملك يثرثر ويستفسر عن كل شخص وكلب موجود في البلدة بالاسم، وتحدث عن أشياء صغيرة كانت قد حدثت إلى البلدة في وقت أو آخر، أو إلى عائلة جورج، أو إلى بيتر. وكان يتظاهر دائمًا بأن بيتر قد حكى له عن هذه الأشياء في خطاباته، إلا أن ذلك كان كذبًا، لأنه قد حصل على كل هذه المعلومات من ذلك الشاب الأحمق الذي أوصلناه بالزورق إلى الباخرة.

ثم أحضرت ماري جين الخطاب الذي تركه والدها، فقرأه الملك بصوت عال وهو يبكي. لقد منح البيت الذي يسكنون فيه وثلاثة آلاف دولار من الذهب إلى الفتيات، ومنح المدبغة (التي

كانت تجارتها مزدهرة)، مع بعض المنازل الأخرى وأرض (قيمتها نحو سبعة آلاف)، وثلاثة آلاف دولار من الذهب إلى هارفي وويليام، وذكر أين كانت الستة آلاف النقدية مخبأة تحت في القبو. وهكذا قال هذان المحتالان إنهما سيذهبان لإحضارهم من أجل تسوية الأمر على المكشوف، وطلبوا مني أن آتي بشمعة. أغلقنا باب القبو وراءنا، وعندما وجدا الحقيبة سكباها على الأرض. كان منظر كل هذه العملات الصفراء جميلًا. يا إلهي، كانت عينا الملك تلمعان جدًّا، وضرب الدوق على كتفه قائلًا:

«أوه، هل هناك أفضل من هذا! أوه، لا، لا أعتقد ذلك! يا للروعة، إنها تتفوق على أي خدعة، أليس كذلك؟».

وافقه الدوق. وأمسكوا العملات الصفراء وتركوها تسيل عبر أصابعهم وتجلجل بالأسفل على الأرض، وقال الملك:

«لا فائدة من الكلام، أن نكون شقيقين لرجل ثري ميت وممثلين لورثة أجانب لم يتبق سواهما هو السبيل لك ولي يا بيلج. هذه مكافأتنا على الثقة في العناية الإلهية. هذه أفضل طريقة على المدى البعيد. لقد جربت كل شيء، ولا توجد طريقة أفضل».

كان أي أحد تقريبًا ليرضى بالثروة ويأخذها بثقة، لكن لا، كان على هذين الاثنين إحصاؤها. وهكذا أحصوها، وكانت ناقصة أربع مئة وخمسة عشر دولارًا. فقال الملك:

«اللعنة، أتساءل ماذا فعل بهذه الأربع مئة والخمسة عشر دولارًا؟».

فكرا في الأمر لوهلة، وقلبوا المكان بحثًا عنهم. ثم قال الدوق:

«حسنًا، لقد كان رجلًا مريضًا جدًّا، ومن المحتمل أن يكون ارتكب خطأ، أعتقد أن هذا ما حدث. أفضل طريقة هو أن ننسى الأمر ولا نتحدث عنه، يمكننا الاستغناء عنهم».

«أوه، بالتأكيد، نعم، يمكننا الاستغناء عنهم، لا يهمني هذا الأمر في شيء، ما أفكر فيه هو إحصاء النقود، نحن نريد أن نكون أمينين وصريحين وعلى المكشوف هنا، مثلما تعرف؛ نريد أن نجر هذه النقود إلى الطابق العلوي ونحصيها أمام الجميع، حتى لا يكون هناك شيء مشكوك فيه، وإذا كان الرجل المتوفى قد قال إنها ستة آلاف دولار فلا نريد أن..».

قال الدوق: «تمهل، دعنا نضع الفارق»، وبدأ يخرج عملات صفراء من جيبه.

قال الملك: «إن هذه فكرة رائعة جدًّا أيها الدوق، إنك تمتلك عقلًا ذكيًّا، ها هي الخدعة القديمة تفيدنا من جديد»، ثم بدأ يُخرج العملات الصفراء ويرصها.

أوشك الأمر على إفلاسهما، إلَّا أنهما استكملا الستة آلاف بالتمام والكمال.

قال الدوق: «انظر، عندي فكرة أخرى. دعنا نصعد إلى الطابق العلوي ونحصي النقود ثم نأخذها ونعطيها للفتيات».

«يا إلهي، دعني أعانقك! إن هذه أكثر فكرة مذهلة وصل إليها

رجل على الإطلاق. إنك حتمًا تمتلك أكثر العقول إدهاشًا على الإطلاق. أوه، إن هذه الخدعة الأفضل، لا شك في ذلك. دعهم يشكون الآن إن أرادوا، سيفحمهم هذا».

عندما صعدنا إلى الطابق العلوي، احتشد الجميع حول الطاولة، وأحصى الملك النقود ورصها في عشرين كومة صغيرة أنيقة؛ ثلاث مئة دولار في كل كومة، وقد سال لعاب الجميع لهذا المنظر ومسحوا شفاههم. وعندما أعادا النقود إلى الحقيبة مرة أخرى، رأيت الملك يشرع في تهيئة نفسه إلى خطاب آخر ويقول:

«جميع الأصدقاء، لقد كان شقيقي المسكين الراقد هناك كريمًا مع أولئك الذين تركهم وراءه في وادي الأحزان. وقد كان كريمًا مع هذه الفتيات الوديعات اللاتي أواهن وأحبهن. إن هذه الفتيات ليس لهن أب أو أم، ونحن الذين عرفناه نعرف أنه كان ليصبح أكثر كرمًا معهن إن لم يكن خائفًا من إجحاف عزيزه ويليام وأنا، أليس كذلك؟ ليس لدي أي شك في ذلك. ومن ثم، أي نوع من الأشقاء سنكون إذا وقفنا في طريقه في مثل هذا الوقت؟ وأي نوع من الأعمام سنكون إذا سرقنا، نعم، سرقنا هؤلاء الودعاء الذين أحبهن كثيرًا في مثل هذا الوقت؟ إذا كنت أعرف ويليام، وأزعم أنني أعرفه، هو، حسنًا، سأسأله وحسب»، ثم التفت وأخذ يصنع الكثير من الإشارات للدوق بيديه، فنظر إليه الدوق بغباء وبلاهة لوهلة، ثم على حين غرة بدا أنه فهم ماذا يقصد، وقفز ناحية الملك وهو يصدر تلك الأصوات جو - جو بكل ما استطاع أن يظهر من فرحة، وعانقه نحو خمس عشرة مرة قبل أن يتركه. ثم قال الملك:

«كنت متأكدًا، أعتقد أن هذا سيقنع أي شخص بشعورك حيال الأمر. تعالي يا ماري جين ويا سوزان ويا جوانا، خذوا النقود، خذوها كلها، إنها هدية من الذي يرقد هناك. ربما يكون بارد الجسد لكنه مملوء بالفرحة».

مضت ماري جين نحوه، بينما توجهت سوزان وذات الشفة المشقوقة إلى الدوق، ثم كان هناك عناق وتقبيل لم أرهما في حياتي، واغرورقت أعين الجميع بالدموع وصافحوا أيدي هذين المحتالين وهم يرددون:

«أيتها الأرواح الطيبة! يا للجمال! كيف استطعتما!».

وسرعان ما أخذ الجميع يتحدثون عن الفقيد مجددًا، وكم كان رجلًا صالحًا، وكيف أن فقدانه خسارة كبيرة، وكافة هذه الأمور. وقبل أن يمر وقت طويل، جاء رجل تبدو عليه الصرامة وأخذ يراقب ما يحدث، دون أن يقول أي شيء لأي شخص أو أن يقول له أي شخص أي شيء، إذ كان الجميع مشغولًا بالإنصات إلى الملك وهو يتحدث قائلًا:

«.. كونهم أصدقاء مقربون من الفقيد. هذا هو السبب الذي دعيوا من أجله إلى هنا هذا المساء، لكن غدًا نريد من الجميع القدوم، لأنه احترم الجميع وأحب الجميع، وسيكون من الملائم أن تكون مراسم حفلة العربدة[1] الخاصة به شعبية».

---

(١) كان يستخدم كلمة حفلات عربدة بدلاً من كلمة جنازة خطأ.

وهكذا ظل يثرثر ويثرثر، وكأنه سعيد بسماع نفسه وهو يتحدث، وكان يتطرق كثيرًا إلى مراسم حفلة العربدة حتى لم يعد بوسع الدوق أن يتحمل الأمر أكثر من ذلك فكتب على قطعة صغيرة من الورق: «الجنازة أيها العجوز الغبي» ثم طواها وأخذ يصدر هذه الأصوات التي يكرهها «جو - جو»، بينما يرفع الورقة فوق رؤوس الحشود حتى وصلت إليه. وعندما قرأها الملك، وضعها في جيبه وقال:

«المسكين ويليام، إن قلبه دليله على الرغم من عجزه، إنه يطلب مني أن أدعو الجميع لحضور حفلة العربدة ويريدني أن أرحب بكم جميعًا، لكنه لم يكن بحاجة إلى أن يقلق حيال ذلك الأمر، لأن هذا هو ما كنت أقوله».

ثم استكمل حديثه من جديد بهدوء تام، وأخذ يتطرق إلى مراسم حفلة العربدة بين الحين والآخر مثلما كان يفعل من قبل، وعندما فعل ذلك للمرة الثالثة قال:

«أنا أقول حفلات عربدة؛ ليس لأنها المصطلح الشائع، لأنها ليست المصطلح الشائع، إن الجنازة هي المصطلح الشائع، إلا أن حفلات العربدة هي المصطلح الصحيح. إن مصطلح الجنازة لم يعد مستخدمًا في إنجترا الآن، لقد بطل استخدامه وأصبحنا نستخدم مصطلح حفلات عربدة. إن مصطلح حفلات عربدة أفضل لأنه يوضح المعنى الذي تقصده بدقة أكبر. إن المصطلح مشتق من الأصل اليوناني عربد الذي يعني خارجيا ومفتوحًا، ومن الأصل العبري جيسم الذي يعني أن تزرع أو تغطي ومن ثم تدفن. وهكذا،

مثلما ترون، فإن حفلات العربدة الجنائزية هي جنازة شعبية أو مفتوحة».

لقد كان أسوأ من التقيت، وقد ضحك ذلك الرجل الصارم في وجهه مباشرة فتفاجئ الجميع، ثم صاحوا قائلين: «الطبيب!» وقال آبنر شاكلفورد:

«روبنسون، ألم تسمع الأخبار؟ إن هذا هو هارفي ويلكس».

ابتسم الملك، ومد يده في حماس قائلًا:

«هل أنت صديق شقيقي العزيز وطبيبه؟ أنا..».

قال الطبيب: «أبعد يديك عني! إنك تتحدث مثل رجل إنجليزي، أليس كذلك؟ إن هذا أسوأ تقليد لهجة سمعته على الإطلاق. أنت شقيق بيتر ويلكس! أنت محتال، هذا ما أنت عليه!».

تولى الجميع الرد عنه، واحتشدوا حول الطبيب، وحاولوا إسكاته، وحاولوا أن يشرحوا له ويخبرونه كيف أن هارفي قد أظهر بأربعين طريقة أنه كان هارفي، وأنه كان يعرف الجميع بالاسم، بما في ذلك الكلاب، وتوسلوا وتوسلوا له ألا يجرح مشاعر هارفي ومشاعر الفتيات المكسينات، وكل هذه الأمور. إلا أن ذلك لم يجد نفعًا، وظل يهاجمه، وقال إن أي رجل يتظاهر بأنه إنجليزي، دون أن يتمكن من تقليد اللهجة على نحو أفضل من ذلك، محتال وكاذب. فتشبثت الفتيات المسكينات بالملك وهن يبكين، فالتفت الطبيب إليهن وقال:

«لقد كنت صديق والدكم وصديقكم، وأحذركم كصديق أمين يريد حمايتكم وحفظكم من الأذى والمشاكل أن تديروا ظهوركن لهذا النذل وألا تسايروه، ذلك المتسول الجاهل بحديثه الأبله عن اليونانية والعبرية مثلما يسميها، إنه أسوأ نسخة من محتال، لقد أتى إلى هنا بالكثير من الأسماء الفارغة والحقائق التي حصل عليها من مكان ما، وأنتم تتعاملون معها باعتبارها أدلة، وتسمحون له بخداعكم، إن هؤلاء الأصدقاء الحمقى الموجودين هنا يجدر بهم أن يكونوا أكثر وعيًا. ماري جين ويلكس، أنت تعرفين أنني صديقك وأنني صديق غير أناني أيضًا، أنصتي إليَّ؛ اطردي هذا المحتال المثير للشفقة، أتوسل إليك أن تفعلي هذا، هل يمكنك القيام بذلك؟».

استقامت ماري جين، ويا إلهي، لقد كانت جميلة! ثم قالت:

«هذا هو ردي»، ثم رفعت حقيبة النقود ووضعتها بين يدي الملك وقالت: «خذ هذه الستة آلاف، واستثمرهم لي ولشقيقتي بأي طريقة تريدها، ولا تعطنا أي وصل في المقابل».

ثم وضعت ذراعها حول الملك من ناحية، وعلى سوزان وذات الشفة المشقوقة بنفس الطريقة من الناحية الأخرى، فصفق الجميع ودبدبوا على الأرض مثل العاصفة، ورفع الملك رأسه وابتسم بفخر، بينما قال الطبيب:

«حسنًا، أنا أخرج يدي من الأمر، لكني أحذركم جميعًا من أن الوقت سيحين عندما تشعرون بالاشمئزاز في كل مرة تتذكرون فيها هذا اليوم»، ثم رحل بعيدًا.

قال الملك ساخرًا: «حسنًا أيها الطبيب، سنحاول ونجعلهم يرسلون في طلبك»، فضحك الجميع وقالوا إنه أفحمه جيدًا.

(٢٦)

عندما رحل الجميع، سأل الملك ماري جين إن كانت لديهم غرف شاغرة، فقالت إن لديهم غرفة واحدة شاغرة، وأنها ستصلح لأن تكون غرفة العم ويليام، ثم قالت إنها ستعطي غرفتها الخاصة، التي كانت أكبر قليلًا، إلى العم هارفي، وأنها ستنتقل إلى غرفة شقيقتيها وتنام على فراش صغير، وأخبرتهما بوجود حجيرة في العلية تحتوي على فراش، فأخبرها الملك أن الحجيرة ستكون كافية لخادمه؛ أي أنا.

وهكذا أخذتنا ماري جين إلى الطابق العلوي وأوصلتهما إلى غرفتيهما اللتين كانتا بسيطتين ولطيفتين، وعرضت أن تأخذ فساتينها وأغراضها الأخرى إلى خارج الغرفة إن كانت ستتسبب في مضايقة العم هارفي، لكنه أخبرها أنها لن تضايقه. كانت الفساتين معلقة على الحائط، وكانت تتدلى أمامها على الأرض ستارة مصنوعة من القطن، وكانت هناك حقيبة قديمة في أحد الأركان، بالإضافة إلى صندوق جيتار في ركن آخر، وكافة أنواع الحلي والزينة التي تملأ

غرف الفتيات في كل مكان من الغرفة، وقال الملك إن هذه الأشياء تسعده وتجعله يشعر بجو العائلة، وطلب منها ألا تفعل بهم شيئًا. كانت غرفة الدوق صغيرة جدًّا، لكنها كانت جيدة بما يكفي، وكذلك كانت حجيرتي.

قاموا بتحضير عشاء ضخم في تلك الليلة، وكان جميع الرجال والنساء هناك. وقفت وراء مقعدي الملك والدوق من أجل أن أخدمهما، بينما خدم الزنوج البقية. جلست ماري جين على رأس الطاولة، وإلى جانبها سوزان، وأخذت تتحدث عن كم كان البسكويت سيئًا، وكم كانت الأطعمة المحفوظة غير جيدة، وكم كان الدجاج المقلي يابسًا، وكل هذا الهراء الذي تقوله السيدات دائمًا عندما يرغبن في إرغام الآخرين على تقديم الإطراءات، إذ إن الجميع كان يعرف أن كل شيء كان من الطراز الأول، وأخذوا يرددون: «كيف تستطيعون جعل البسكويت بنيًّا هكذا؟» و«من أين أتيتم بحق الأرض بهذه المخللات الرائعة؟» وكافة أنواع الكلام المنمق الذي يقوله الناس دائمًا على العشاء.

وعندما انتهى كل شيء، تناولت أنا وذات الشفة المشقوقة ما تبقى من الطعام في المطبخ، بينما ذهب الآخرون لمساعدة الزنوج في التنظيف، وهكذا أخذت ذات الشفة المشقوقة تسألني عن إنجلترا. سأعترف بأنني كنت أرتجف وأنا أتحدث إليها، إذ سألتني:

«هل رأيت الملك من قبل؟».

«من؟ ويليام الرابع؟ حسنًا، أراهن أنني رأيته، إنه يذهب إلى

كنيستنا». كنت أعرف أنه مات منذ عدة سنوات، لكنني لم أبين هذا. وهكذا عندما قلت إنه يذهب إلى كنيستنا، قالت:

«ماذا، بانتظام؟».

«نعم بانتظام. مقعده مقابلنا بالضبط، على الجانب الآخر من المنبر».

«لقد ظننت أنه يعيش في لندن؟».

«إنه يعيش في لندن. أين سيعيش؟».

«لكنني ظننت أنك كنت تعيش في شيفيلد؟».

لقد وقعت في مأزق! كان علي التظاهر بأن عظمة دجاج غصتني حتى أستغل الوقت في التفكير في طريقة أخرج بها من المأزق، ثم قلت:

«أعني أنه يذهب إلى كنيستنا بانتظام عندما يكون في شيفيلد. وهذا يحدث صيفًا فقط عندما يذهب إلى هناك ليأخذ حمامات بحرية».

«عن ماذا تتحدث، شيفيلد ليست على البحر».

«حسنًا، من قال إنها على البحر؟».

«أنت».

«لم أقل ذلك».

«بلى قلت!».

«لم أقل».

«بلى قلت».

«لم أقل شيئًا من هذا القبيل».

«حسنًا ماذا قلت إذًا؟».

«قلت إنه يأتي ليأخذ حمامات بحرية، هذا هو ما قلته».

«حسنًا، إذًا، كيف سيأخذ الحمامات البحرية إن لم يكن على البحر؟».

قلت: «انظري هنا، هل رأيتِ من قبل أي منبع كونجرس؟».

«نعم».

«هل يتعين عليك الذهاب إلى كونجرس للحصول عليه؟».

«لا».

«حسنًا، وكذلك لا يتعين على ويليام الرابع أن يذهب إلى البحر حتى يحصل على حمام بحري».

«كيف يحصل عليه إذًا؟».

«يحصل عليه بالطريقة التي يحصل بها الناس هنا على مياه كونجرس؛ في براميل. يقومون بتسخينه في الأفران الموجودة في القصر، لأنه يحب الماء ساخنًا، وبالطبع ليس من الممكن أن يسخنوا هذه الكم من الماء في البحر، لأنهم لا يمتلكون الإمكانيات اللازمة لذلك».

«أوه، لقد فهمت الآن. كان بإمكانك أن تقول هذا من البداية وتوفر الوقت».

عرفت أنني خرجت من المأزق عندما قالت هذا، وشعرت بالراحة والسرور. إلا أنها قالت:

«هل تذهب إلى الكنيسة؟».

«نعم بانتظام».

«أين تجلس؟».

«في مقعدنا».

«مقعد من؟».

«مقعدنا، مقعد عمك هارفي».

«مقعده؟ ما حاجته إلى مقعد؟».

«من أجل أن يجلس عليه، في أي شيء سيحتاج المقعد؟».

«لقد اعتقدت أنه يقف على المنبر».

سحقًا، لقد نسيت أنه واعظ وأوقعت نفسي في مأزق من جديد؛ لعبت لعبة عظمة الدجاج مرة أخرى وفكرت من جديد، ثم قلت:

«اللعنة، هل تظنين أنه لا يوجد سوى واعظ واحد في الكنيسة؟».

«ما حاجتهم إلى أكثر من ذلك؟».

«ما حاجتهم! للوعظ أمام الملك؟ أنا لم أر فتاة مثلك من قبل. ليس لديهم أقل من سبعة عشر واعظًا».

«سبعة عشر! يا إلهي! ما كنت لأستطيع الجلوس هناك والاستماع إلى كل هذه الكم، حتى لو كان يعني هذا عدم دخول الجنة، لا بد وأن الأمر يستغرقهم أسبوعًا».

«اللعنة، إنهم لا يعظون كلهم في اليوم نفسه، واحد فقط».

«حسنًا إذًا، وماذا يفعل البقية؟».

«أوه، لا يفعلون الكثير. يجلسون، يمررون طبق جمع التبرعات، وغيرها من الأشياء، لكنهم لا يفعلون شيئًا بشكل عام».

«حسنًا إذًا ما فائدتهم؟».

«من أجل المظاهر؛ ألا تعرفين شيئًا؟».

«حسنًا، أنا لا أريد أن أكون على علم بمثل هذه الحماقات. كيف يُعامل الخدم في إنجلترا؟ هل يعاملونهم بشكل أفضل مما نعامل زنوجنا؟».

«لا! الخادم نكرة هناك ويعاملونه أسوأ من الكلاب».

«ألا يعطونهم إجازات مثلما نفعل في عيد الميلاد المجيد وأسبوع رأس السنة والرابع من يوليو؟».

«أوه، استمعي إليَّ! يمكن للمرء أن يعرف أنك لم تذهبي إلى إنجلترا من قبل بحديثك هذا، لأنهم يا جوانا لا يرون إجازات أبدًا

من العام للعام، ولا يذهبون إلى السيرك، ولا إلى المسرح، ولا إلى عروض الزنوج، ولا إلى أي مكان».

«ولا الكنيسة؟».

«ولا الكنيسة».

«لكنك كنت تذهب دومًا إلى الكنيسة».

حسنًا، لقد وقعت في مأزق من جديد. لقد نسيت أنني خادم الرجل العجوز. لكن بعد دقيقة، توصلت إلى تفسير نوعًا ما عن كيف أن الوصيف يختلف عن الخادم العادي، وأن عليه الذهاب إلى الكنيسة سواء أراد ذلك أم لا، وأن عليه الجلوس مع العائلة بمقتضى القانون، لكنني لم أحبك الكذبة جيدًا ووجدت أنها لم تكن مقتنعة عندما انتهيت، إذ قالت لي:

«كن أمينًا الآن، هل كذبت علي كثيرًا؟».

قلت: «بأمانة؛ لا».

«ولا في أي جزء على الإطلاق؟».

قلت: «ولا في أي جزء على الإطلاق. ولا كذبة واحدة».

«ضع يدك على هذا الكتاب وقلها».

نظرت إلى الكتب، فوجدت أنه لم يكن سوى قاموس فوضعت يدي عليه وقلت ما طلبت مني أن أقوله، فبدت مقتنعة نوعًا ما، وقالت:

«حسنًا، إذًا، سأصدق بعضًا منه، لكنني لا أصدقه كله».

«ما هذا الذي لن تصدقيه يا جو؟» كان هذا صوت ماري جين التي دخلت ووراءها سوزان، وقالت: «ليس من الصواب أو من الطيبة أن تتحدثي إليه بهذه الطريقة، خصوصًا أنه غريب وبعيد جدًّا عن أهله، هل تحبين أن تعاملي بهذه الطريقة؟».

«أنت هكذا دائمًا، تتطوعين لمساعدة الأشخاص قبل أن يتأذوا، أنا لم أفعل له شيئًا، لقد أخبرني ببعض الأكاذيب على ما أعتقد، وقلت له إنني لن أصدقها كلها، وهذا هو كل ما قلته بالحرف. أعتقد أن باستطاعته أن يتحمل شيئًا بسيطًا كهذا، أليس كذلك؟».

«لا يهمني إن كان بسيطًا أم كبيرًا، إنه هنا في بيتنا وغريب، ولم يكن جيدًا منك أن تقولي هذا. لو كنت في مكانه، كنت ستشعرين بالخجل، ومن ثم لا يجب أن تقولي شيئًا من الممكن أن يجعل الآخرين يشعرون بالخجل».

«لقد كان يقول...».

«ما قاله لا يشكل فارقًا، هذه ليست الفكرة. الفكرة أن تعامليه بطيبة، وألا تقولي أشياء تجعله يتذكر أنه ليس في بلده ولا بين عائلته».

قلت لنفسي: هذه هي الفتاة التي أسمح لهذا الخسيس العجوز أن يسرق نقودها!

ثم تدخلت سوزان، وإن كنت ستصدقني، فقد وبخت ذات الشفة المشقوقة توبيخًا يوقظ الموتى!

قلت لنفسي: وهذه واحدة أخرى أسمح له بسرقة نقودها!

ثم عاودت ماري جين الحديث مرة أخرى، لكن بلطف وعذوبة هذه المرة كعادتها. وعندما انتهت من حديثها هذه المرة، كان أمر الفتاة ذات الشفة المشقوقة المسكينة قد انتهى، وأخذت تبكي.

قالت الفتاتان الأخريان: «حسنًا إذًا، اطلبي منه أن يسامحك».

ففعلت ذلك، وفعلته بطريقة جميلة؛ فعلته بطريقة جميلة جدًّا حتى أن سماعه كان جيدًا، وتمنيت لو أنني كذبت ألف كذبة حتى تفعلها من جديد.

ثم قلت لنفسي: وهذه واحدة أخرى أدعه يسرق نقودها. عندما انتهت، هدأ الجميع حتى يجعلونني أشعر كما لو أنني في منزلي ووسط أصدقائي، فشعرت بالوضاعة الشديدة والخسة والشر حتى قلت لنفسي إنني قررت أنني سأعطيهم هذه النقود مهما كلفني الأمر.

وحينئذ أسرعت إلى الفراش من أجل أن أنام؛ في وقت أو آخر. وعندما اختليت بنفسي، أخذت أفكر في الأمر، وقلت لنفسي: هل أذهب إلى هذا الطبيب سرًا وأفضح هذين المحتالين؟ لا لن يفلح ذلك، من الممكن أن يقول إنني أنا من أخبرته بالأمر ومن ثم سيلاحقني الملك والدوق، هل أذهب بمفردي وأخبر ماري جين؟ لا لن أفعل ذلك، لأن وجهها سيفضحها بالتأكيد، إن النقود معهم وسيتسللون إلى الخارج ويهربون بها، وإن اضطرت إلى طلب المساعدة فسأتورط في الأمر قبل أن ينتهي على ما أعتقد، لا لن تفلح إلا طريقة واحدة؛ يجب أن أسرق هذه النقود بطريقة ما، ويجب أن

أسرقها بطريقة لا تلقي بالشبهة عليَّ. إن لديهم فرصة جيدة هنا، ولن يرحلوا حتى يلعبوا بهذه العائلة وهذه البلدة قدر استطاعتهما، وهكذا سأجد الوقت الكافي لأسرق النقود وأخبئها، وبعد ذلك سأذهب إلى النهر وأكتب خطابًا وأخبر ماري جين بالمكان الذي خبأت فيه النقود. يجدر بي أن أحصل على النقود هذه الليلة إن استطعت، لأنني لا أعتقد أن الطبيب سيستسلم بهذه الطريقة التي تظاهر بها وربما يخيفهم حتى يخرجهم من هنا.

وهكذا فكرت في أن أذهب وأفتش غرفتيهما؛ كان الرواق مظلمًا في الطابق العلوي لكنني تمكنت من الوصول إلى غرفة الدوق وبدأت أفتش بيدي، لكنني تذكرت أنه من غير المحتمل أن يدع الملك أي شخص آخر غيره يحتفظ بتلك النقود، وهكذا ذهبت إلى غرفته وبدأت أفتش هناك. لكنني اكتشفت أنني لن أستطيع أن أفعل شيئًا بدون شمعة، ويجب ألا أضيء واحدة بالطبع. ومن ثم رأيت أنني يجب أن أفعل الشيء الآخر؛ أكمن لهما وأتنصت عليهما. حينئذ، سمعت خطواتهما وهما قادمان، كنت سأتسلل تحت الفراش وحاولت الوصول إليه، لكنه لم يكن في المكان الذي ظننت أنه موجود فيه، وعندئذ لمست الستارة التي غطت فساتين ماري جين وقفزت وراءها واختبأت وسط الفساتين ووقفت هناك ساكنًا تمامًا.

وعلى الفور، دخلا الغرفة وأغلقا الباب، وكان أول ما فعله الدوق هو أن انبطح ونظر أسفل الفراش، فسررت أنني لم أجد الفراش عندما أردته، إذ مثلما تعرف من الطبيعي أن تختبئ تحت

الفراش عندما تنوي القيام بشيء خلسة. وهكذا جلس الاثنان وقال الملك:

«حسنًا، ما الأمر؟ واختصر، لأن من الأفضل لنا أن نكون في الطابق السفلي نبكي وننتحب على أن نكون هنا ونمنحهم فرصة للحديث عنا».

«المسألة هي أنني لست مطمئنًا يا كابيت، لست مرتاحًا. ذلك الطبيب عالق في ذهني. أردت أن أعرف خططك. لدي فكرة، وأعتقد أنها فكرة صائبة».

«ما هي هذه الفكرة يا دوق؟».

«من الأفضل لنا أن نتسلل خارجًا قبل الثالثة صباحًا، ونذهب إلى النهر بما معنا، خصوصًا أننا حصلنا عليه بسهولة شديدة. لقد أعادوه إلينا، يمكنك القول إنهم جعلوه يحلق فوق رؤوسنا في الوقت الذي كنا ننوي سرقته مجددًا، أنا أؤيد سرقته والرحيل».

جعلني هذا أشعر باستياء شديد، إذ منذ حوالي ساعة أو ساعتين كان الأمر ليصبح مختلفًا بعض الشيء، أما الآن فقد جعلني الأمر أشعر بالاستياء وخيبة الأمل.

إلا أن غضب الملك وقال:

«ماذا! دون أن نسرق بقية الأملاك؟ نخرج مثل الحمقى ونترك أملاك قيمتها ثمانية أو تسعة آلاف دولار تنتظر من يغترف منها؟ وكلها أشياء جيدة يمكن بيعها».

تذمر الدوق وقال إن حقيبة الذهب تكفي وأنه لا يرغب في التمادي أكثر من ذلك وأنه لا ينوي سرقة هؤلاء اليتامى من كل شيء يمتلكونه.

فقال الملك: «ما هذا الذي تقوله! نحن لن نسرق شيئًا سوى هذه النقود فقط، لأن من سيشترون الأملاك هم من سيعانون، لأن عملية البيع لن تكون سارية فور أن يكتشف المشترون أننا لسنا المالكين الحقيقيين، ولن يستغرق اكتشاف ذلك وقتًا طويلًا بعد هروبنا، وسيعود كل شيء إلى الملاك. سيستعيد هؤلاء اليتامى أموالهم من جديد، وهذا يكفي. إنهن يافعات ونشيطات، وباستطاعتهن الكسب بسهولة، ولن يواجهن معاناة. فكر في الأمر، هناك الآلاف والآلاف ليسوا بحال طيب مثلهن. بارك الله لك، ليس لديهن ما يشتكون منه».

وهكذا أعماه الملك بكلامه حتى استسلم وأذعن في النهاية. ومع ذلك، فقد أخبره أنه يرى البقاء حماقة شديدة، خصوصًا أن ذلك الطبيب فوق رؤوسهم. إلا أن الملك قال:

«انس أمر الطبيب! لماذ نهتم لأمره؟ أليس جميع الحمقى في هذه البلدة إلى جانبنا؟ أليست هذه أغلبية كبيرة بما يكفي في أي بلدة؟».

وبينما كان يستعدان للنزول إلى الطابق السفلي من جديد، قال الدوق:

«لا أظن أننا وضعنا النقود في مكان جيد».

فرحت لسماع ذلك لأنني كنت قد بدأت أفكر في أنني لن أحصل على تلميح يساعدني، فقال الملك:

«لماذا؟».

«لأن ماري جين ستكون في حداد من الآن فصاعدًا، وأول ما ستفعله هو أن تجعل الزنجي الذي ينظف الغرف يحمل هذه الملابس في صندوق ويضعهم بعيدًا، هل تعتقد أن أي زنجي سيرى نقودًا لن يستعير بعضًا منها؟».

قال الملك: «لقد عدت إلى رشدك من جديد أيها الدوق»، وجاء يتحسس تحت الستارة على بعد قدمين أو ثلاثة أقدام مني، فالتصقت بالحائط وبقيت ساكنًا جدًّا رغم أنني كنت أرتعش، وأخذت أتساءل ماذا سيقولان لي إذا عثرا عليَّ، وحاولت أن أفكر في أفضل شيء يمكنني أن أقوله إذا عثرا علي، إلا أن الملك عثر على الحقيبة قبل أن أتمكن من الوصول إلى نصف فكرة، ولم يشعر بوجودي. وهكذا، وضعوا الحقيبة داخل قَطع في المرتبة القشية التي كانت موجودة تحت الفراش الريشي وحشرها على بعد قدم أو قدمين وسط القش، وقال إن الأمر قد أصبح على ما يرام الآن لأن الزنجي سيرتب الفراش الريشي فقط ولن يقلب المرتبة القشية إلا مرتين في العام، ولذلك لن يشكل هذا خطرًا على سرقتها الآن.

لكنني كنت أكثر وعيًا، فأخرجتها من هناك قبل أن يقطعا نصف الطريق إلى أسفل، وحملتها إلى حجيرتي بالأعلى وخبأتها هناك حتى تسنح لي الفرصة أن أقوم بأفضل من هذا. فكرت في

أن أخبأها خارج المنزل في مكان ما، لأنهم إن اكتشفوا اختفاءها فسيفتشوا المنزل جيدًا؛ كنت أعرف هذا جيدًا. ثم خلدت إلى الفراش، وأنا أرتدي ملابسي كاملة، لكنني لم أكن لأنام ولو أردت ذلك، لأنني كنت غارقًا في التفكير في حل ينهي هذه المسألة. وبعد قليل، سمعت الملك والدوق يصعدان إلى أعلى، فتقلبت فوق فراشي واستندت إلى ذقني وانتظرت لأرى إن كان شيء سيحدث، إلا أن شيئًا لم يحدث، وهكذا انتظرت حتى ذلك الوقت من الليل الذي تبدأ فيه كل الأصوات الليلية في الاختفاء ولا تكون الأصوات الصباحية قد بدأت في الظهور، ثم تسللت أسفل السلم.

(٢٧)



تسللت متجهًا إلى غرفتيهما وألصقت أذني بالباب، فسمعت غطيطًا. ومن ثم، تسللت على أطراف أصابعي إلى الطابق السفلي بهدوء؛ لم يكن هناك صوت في أي مكان، اختلست نظرة عبر شق في باب غرفة الطعام، فوجدت الرجال المخصصين لحراسة الجثة في نوم عميق على مقاعدهم. كانت الجثة قد وضعت في الصالون، وكان الباب الفاصل بين غرفة الطعام والصالون مفتوحًا، وكانت كلتا الغرفتين مضيئتين بالشموع. ورأيت أن الصالون كان خاليًا سوى من جثمان بيتر، وكان الباب الرئيسي لغرفة الصالون مغلقًا ولم يكن المفتاح موجودًا. وفجأة سمعت شخصًا يهبط الدرج ورائي، فدخلت إلى الصالون وألقيت نظرة سريعة على المكان، ولم أجد مكانًا أخبئ فيه الحقيبة سوى التابوت. كان جزء من الغطاء مكشوفًا، وكان يُظهر وجه الرجل المتوفى وقد وضِعتْ عليه قطعة قماش مبتلة وفوقها كفنه. وهكذا، وضعت حقيبة النقود تحت الغطاء، وراء المكان الذي تشابكت فيه يداه، وقد أفزعني الأمر لأن يديه كانتا باردتين جدًّا. وبسرعة، عدت راكضًا عبر الغرفة واختبأت وراء الباب.

كان الشخص الذي هبط الدرج ورائي هو ماري جين. مضت نحو التابوت برقة شديدة وجثت على ركبتيها ونظرت إلى والدها، ثم رفعت منديلها. ورغم أنني لم أسمع صوت بكائها، فقد عرفت أنها كانت تبكي. كان ظهرها في مواجهتي، فتسللت ومررت بغرفة الطعام. كنت أريد التأكد من أن الحُراس لم يلحظوا وجودي، فنظرت عبر الشق، وكان كل شيء على ما يرام، وكانوا في نوم عميق.

أخلدت إلى فراشي وأنا أشعر بالإحباط بسبب النتيجة التي آلت إليها الأمور بعد أن تكبدت كل هذا العناء ووضعت نفسي في هذه المخاطرة الكبيرة. قلت لنفسي إن كل شيء كان ليصبح على ما يرام لو بقيت النقود على حالها وفي مكانها، إذ سيكون بوسعي مراسلة ماري جين بعد أن أمضي بالطوافة مسافة مئة أو مئتي ميل، وأخبرها أن بإمكانها الحصول على النقود إذا حفرت مكان الجثة من جديد، إلَّا أن ذلك ما كان ليحدث، لأنهم سيعثرون على النقود فور أن يبدأوا تثبيت الغطاء، وهكذا كان الملك سيستعيد النقود من جديد، وستكون سرقة النقود مرة ثانية أمرًا صعبًا. كنت أريد أن أهبط إلى الطابق السفلي وأخرج النقود من هناك بالطبع، إلَّا أنني لم أحاول. كانت كل دقيقة تمر تعني اقتراب الشروق، وسرعان ما سيستيقظ الحراس، ومن الممكن أن يقبضوا عليَّ وفي يدي ستة آلاف دولار لم يطلب مني أحد أن أكون مسؤولًا عنها، ولم أكن أرغب في التورط في شيء كهذا.

عندما هبطت إلى الطابق السفلي في الصباح التالي، كان الصالون موصدًا والحراس قد رحلوا، ولم يكن هناك سوى العائلة والأرملة

بارتلي وجماعتنا. حاولت أن أستوضح ملامحهم لأرى إن كان شيء قد حدث، لكنني لم أستطع.

قرب منتصف النهار، جاء الحانوتي مع مساعده، ووضعا التابوت في منتصف الغرفة فوق كرسيين، ثم وضعا جميع المقاعد في صفوف، واستعارا المزيد من الجيران حتى امتلأ البهو والصالون وغرفة الطعام بالمقاعد. رأيت أن غطاء التابوت كان على نفس حالته التي كان عليها سابقًا، إلَّا أنني ما كنت لأرى داخله وسط هذا الجمع.

بدأ الناس في التوافد، واتخذ الدوق والملك والفتيات مقاعدهم في الصف الأول عند رأس التابوت. وعلى مدار نصف ساعة، وصلت الحشود ببطء، واحدًا تلو الآخر، وكانوا ينظرون إلى وجه الرجل المتوفى لدقيقة، ويذرف بعضهم دمعة. كانت الأجواء ساكنة جدًّا وكئيبة، باستثناء الفتيات والدوق والملك، الذين وضعوا مناديل على أعينهن وأبقوا رؤوسهم محنية، وبكوا قليلًا. لم يكن هناك صوت آخر باستثناء وقع الأقدام على الأرض وتنظيف المخاط، إذ إن الأشخاص دائمًا ما يتمخطون في الجنازات أكثر مما يفعلون في الأماكن الأخرى، ذلك باستثناء الكنيسة.

عندما امتلأ المكان عن آخره، ارتدى الحانوتي قفازه الأسود بطريقته المريحة الساكنة، ووضع اللمسات الأخيرة بتهدئة الحضور والتأكد من راحتهم، دون أن يحدث صوتًا. ولأنه لم يكن يتحدث أبدًا، فقد أخذ ينظم الحشود ويستعجل المتأخرين ويفسح الممرات

بإيماءات وإشارات بيديه، ثم ركن إلى مكانه عند الحائط. كان ذلك الحانوتي هو أكثر الرجال الذين رأيتهم في حياتي لطفًا وغموضًا، ولم ترتسم على وجهه ابتسامة على الإطلاق.

كذلك، فقد استعاروا آلة ميلوديان رديئة. وعندما كان الجميع مستعدًّا، جلست سيدة شابة وعزفتها. كان صوتها أشبه بالصراخ وتقلبات المعدة المغوصة، ورغم ذلك فقد انضم الجميع إليها وبدأوا في الغناء، وكنت أرى أن بيتر هو سعيد الحظ الوحيد. ثم ما لبث أن بدأ الواعظ هوبسون في خطبته ببطء وهدوء، حتى سمعنا أعلى صيحة يمكن للمرء سماعها من القبو. ورغم أن الصوت كان صادرًا عن كلب واحد، فقد كان صوته عاليًا جدًّا حتى لم يكن باستطاعة المرء أن يسمع أفكاره، وهكذا وقف القس فوق التابوت وانتظر. كان الوضع غريبًا، ولم يبدُ أن أحدًا يعرف ما العمل، ثم ما لبث أن أعطى ذلك الحانوتي الطويل إشارة إلى الواعظ، كما لو كان يقول: «لا تقلق، اترك هذه المسألة لي». ثم انحنى وبدأ يسير بمحاذاة الحائط دون أن يظهر منه سوى كتفيه اللتين ظهرتا فوق رؤوس الحضور. وهكذا استمر في سيره، بينما يتعالى صوت النباح أكثر فأكثر في تلك الأثناء، حتى تجاوز حائطين في الغرفة واختفى في قبو. وخلال ثانيتين، سمعنا ضربة وأطلق الكلب صيحة أو صيحتين عاليتين جدًّا، ثم توقف عن النباح وسكن كل شيء. وهكذا، استكمل القس خطبته من حيث توقف. وخلال دقيقة أو دقيقتين، عاد الحانوتي وكتفاه بمحاذاة الحائط من جديد، وظل يسير حتى تجاوز ثلاثة حوائط، ثم استقام وغطى فمه بيديه، ومد عنقه

نحو الواعظ، من فوق رؤوس الحضور، وقال في نوع من الهمس: «كان معه فأر!». ثم انحنى وسار بمحاذاة الحائط من جديد حتى وصل إلى مكانه. كان بإمكانك أن ترى رضا الناس الغامر، لأنهم كانوا يرغبون في معرفة الأمر بطبيعة الحال. لم يكن شيء صغير كهذا يكلف شيئًا، وكانت هذه الأشياء الصغيرة هي ما تجعل المرء محبوبًا ومثلًا يُقتدى به، ولهذا السبب لم يكن هناك رجل في البلدة أكثر شعبية من الحانوتي.

كانت مراسم الجنازة جيدة جدًّا، رغم أنها كانت متعبة وطويلة جدًّا. تقدم الملك، وألقى كلمة ملأها بترهاته المعتادة. وبعد أن انتهى، مضى الحانوتي نحو التابوت وبدأ يغلقه بالمفك. كنت في غاية القلق وراقبته بعناية شديدة، إلَّا أنه لم يعبث بالتابوت على الإطلاق وأغلق الغطاء بنعومة مثل نعومة العصيدة، ثم أحكم إغلاق المسامير سريعًا. وهكذا انتهى بي الأمر في عدم يقين حيال ما إذا كانت النقود هناك أم لا، متسائلًا إن كان أحد قد سرق الحقيبة خلسة؟ والآن كيف لي أن أعرف أمن المفترض أن أراسل ماري جين أم لا؟ ماذا ستظن بي إذا حفرت من جديد ولم تجد شيئًا؟ اللعنة، من الممكن أن تبحث عني الشرطة وأذهب إلى السجن. يجب أن أبقى ساكنًا وأتوارى عن الأنظار ولا أكتب شيئًا على الإطلاق، لقد تعقد كل شيء الآن وقد زدت الطين بلة مئة مرة وأنا أحاول إصلاح الأمر، يا ليتني ما تدخلت، اللعنة!

دفنوه وعدنا إلى المنزل، وعدت أنا إلى مراقبة الوجوه من جديد.

لم تكن بيدي حيلة ولم أتمكن من تهدئة نفسي، إلَّا أن ذلك لم يكن ذا فائدة، لأنني لم أستوضح شيئًا من وجوههم.

قام الملك بزيارات مسائية، وعمل على تلطيف الأجواء، وكان ودودًا جدًّا مع الجميع، وحكى لهم أن جماعته في إنجلترا ستكون في قلق شديد عليه، ومن ثم يجب أن يسرع ويدبر أمر الأملاك على الفور ويعود إلى بلده. وأخبرهم أنه يشعر بأسف شديد لأنه كان في عجلة من أمره. بادله الجميع نفس الشعور وتمنوا لو كان باستطاعته البقاء لفترة أطول رغم معرفتهم بأن الأمر لم يكن ممكنًا، ثم أخبرهم أنه وويليام سيصطحبان الفتيات معهما إلى موطنهما، وقد سُر الجميع بالأمر لأن ذلك كان يعني أن الفتيات سيكنَّ تحت رعايتهما ووسط أقاربهم، وكذلك فقد سُرَّت الفتيات بهذا الأمر كثيرًا حتى بدوا كما لو أنهن نسين جميع مشاكلهن، وطلبن إليه أن يبيع الممتلكات في الوقت الذي يريده، وأنهن جاهزات. كان هؤلاء المساكين يشعرن بسعادة وسرور كبيرين جعل قلبي يعتصر لرؤيتهم يتعرضون للخداع والكذب بهذه الطريقة، لكنني لم أجد طريقة آمنة أتدخل بها وأخبرهم الحقيقة.

وهكذا، عرض الملك المنزل والزنوج وكافة الممتلكات للبيع بعد يومين من الجنازة، إلَّا أن أي شخص كان بإمكانه شراء أي شيء بشكل شخصي قبل المزاد، إن أراد ذلك.

وهكذا، بدأت أولى ممتلكات الفتيات في الضياع ظهر اليوم الذي تلا الجنازة، إذ جاء تاجرا زنوج وباعهم الملك زنوجًا بسعر جيد،

وحصل على شيك، وهكذا رحل الصبيان شمال النهر إلى ممفيس بينما اتجهت الأم جنوب النهر إلى أولينز. شعرت أن قلوب الفتيات والزنوج ستنفطر من الحزن، إذ أخذ جميعهم يبكي كثيرًا حتى كدت أشعر بالغثيان من المنظر. قالت الفتيات إنهن لم يحلمن أبدًا برؤية العائلة وقد انفرط عقدها أو بيعت خارج البلدة. لا يمكنني أن أنسى أبدًا منظر الفتيات والزنوج المساكين البائسين وهم يتعانقون ويبكون، وأعتقد أنني ما كنت لأتحمل الأمر كله وأنني كنت لأفشي سر العصابة لو لم أكن أعرف أن البيعة سترد خلال أسبوع أو اثنين.

أحدث الأمر بلبلة كبيرة في البلدة، وأتى العديد يعترضون دون تحفظ على فصل الأم عن ولديها بهذه الطريقة، معتبرينه أمرًا مخزيًا. ورغم أن الأمر قد أساء إلى سمعة هذين المحتالين، فقد استمر الأحمق العجوز في لعبته رغم كل اعتراضات الدوق، إذ كان من الواضح أن الدوق يشعر بعدم ارتياح كبير.

كان اليوم التالي هو يوم المزاد، وصعد الملك والدوق إلى حجرتي وأيقظاني صباحًا، ورأيت من نظرتيهما أن مشاكل قد وقعت. قال الملك:

«هل كنت في غرفتي الليلة قبل الفائتة؟».

«لا يا جلالتك»، إذ كانت هذه هي الطريقة التي كنت أخاطبه بها ما لم يكن هناك أحد في الجوار سوى عصابتنا.

«هل كنت هناك بالأمس أو الليلة الماضية؟».

«لا يا جلالتك».

«اِصدُق القول الآن، لا تكذب».

«أصدقك القول يا جلالتك، أنا أقول الحقيقة. لم أقترب من غرفتك منذ أن أخذتك الآنسة ماري جين والدوق إليها لتراها».

قال الدوق:

«هل رأيت أحدًا آخر يدخل إلى هناك؟».

«لا، يا مولاي، ليس حسب ما أتذكر على الأقل».

«توقف وفكر».

فكرت قليلًا وانتهزت الفرصة، ثم قلت:

«حسنًا، رأيت الزنوج يدخلون إلى هناك مرات عديدة».

انتفض الاثنان قليلًا، وبدا أنهما لم يتوقعا الأمر أبدًا، ثم بدا كما لو أنهما كانا يتوقعان ذلك. ثم قال الدوق:

«ماذا؟ جميعهم؟».

«لا، على الأقل لم يكونوا جميعًا بالداخل دفعة واحدة، أعتقد أنني لم أرهم يخرجون جميعًا سوى مرة واحدة».

«يا إلهي! متى حدث ذلك؟».

«يوم الجنازة صباحًا. لم يكن الوقت مبكرًا، لأنني تأخرت في النوم. وكنت أهبط الدرج عندما رأيتهم».

«حسنًا، استمر استمر! ماذا كانوا يفعلون؟ كيف كانوا يتصرفون؟».

«لم يفعلوا أي شيء. حسب ما لاحظت، لم تصدر عنهم الكثير من التصرفات على أي حال، فقد تسللوا بعيدًا على أطراف أصابعهم، فتوقعت أنهم دخلوا لتنظيف غرفة جلالتك أو شيء من هذا القبيل، ووجدوا أنك كنت نائمًا على عكس ما افترضوا، وهكذا تسللوا إلى الخارج على أمل ألَّا يوقظوك، ما لم يكونوا قد أيقظوك بالفعل».

قال الملك: «يا إلهي، هذا هو ما حدث!». بدا على الاثنين غثيان شديد وحمق كبير، ووقفا يفكران ويحكان رأسيهما لوهلة، ثم خرجت عن الدوق ضحكة خشنة صغيرة، وقال:

«لقد حبك هؤلاء الزنوج الأمر جيدًا، لقد ادعوا الحزن لرحيلهم خارج المنطقة! وقد صدقت أنهم كانوا يشعرون بالحزن، وأنت نفسك صدقتهم. لقد صدقهم الجميع. لا تقل لي أبدًا بعد ذلك إن الزنوج لا يمتلكون موهبة مسرحية، إن الطريقة التي تصرفوا بها كان بإمكانها أن تخدع أي شخص. في رأيي، يمكنهم جني ثروة. إن كان معي نقود ومسرح، ما كنت لأرغب في ممثلين أفضل منهم، وها نحن قد بعناهم بمبلغ زهيد، حتى أننا لم نحصل على هذا المبلغ بعد. قل لي، أين هذا الشيك الذي حصلت عليه؟».

«أودعته في البنك، أين سيكون؟».

«حسنًا، هذا جيد، الحمد لله».

قلت على استحياء:

«هل هناك خطب ما؟».

التفت إليَّ الملك وصاح:

«لا دخل لك! اخرس واهتم بشؤونك إن كان لك شؤون. طالما نحن في هذه البلدة، لا تنسَ هذا الأمر.. أتسمعني؟»، ثم قال للدوق: «يجب أن نتقبل الأمر دون أن نقول شيئًا، الصمت هو الحل».

أثناء هبوطهم الدرج، ضحك الدوق من جديد وقال:

«بيع سريع وأرباح قليلة! إنها تجارة رابحة بالفعل».

زجره الملك قائلًا:

«كنت أعمل لما في صالحنا ببيعهم سريعًا، وإن كان الحال قد انتهى بنا إلى مكاسب قليلة، فهل هذا خطئي دون أن يكون خطأك أنت أيضًا؟».

«لو كنت استمعت إلى نصيحتي، لكنا رحلنا ولكانوا ظلوا هنا».

رد الملك على ما قاله الدوق قدر استطاعته، ثم عاد وزجرني من جديد لأنني لم أذهب وأخبره بأنني رأيت الزنوج وهم يخرجون من غرفته ويتصرفون على هذا النحو، وقال إن أي أحمق كان ليعرف أن الأمر مريب. ثم بدأ يؤنب نفسه لأنه لم يبقَ مستلقيًا على فراشه حتى وقت متأخر في ذلك اليوم كعادته، وقال إنه لن يفعل ذلك مرة ثانية. وهكذا، أخذ الاثنان يتلاومان، بينما أشعر أنا بسعادة شديدة أنني ألقيت الذنب على الزنوج دون أن يطالهم أذًى.

(٢٨)

سرعان ما حان وقت الاستيقاظ، فهبطت الدرج متجهًا إلى الطابق السفلي، وعندما مررت بغرفة الفتيات وجدت الباب مفتوحًا ورأيت ماري جين جالسة إلى جانب حقيبتها الكبيرة. كانت الحقيبة مفتوحة وكانت تجمع أغراضها استعدادًا للرحيل إلى إنجلترا. لكنها كانت قد توقفت عن جمع الأغراض في تلك اللحظة، وكان هناك فستان مطوي في حجرها، وكان وجهها مدفونًا في يديها وهي تبكي. شعرتُ باستياء شديد لأراها على هذه الحالة؛ كان أي شخص ليشعر باستياء حيالها. فذهبتُ إليها وقلت:

«آنسة ماري جين، أنت لا تتحملين رؤية الناس تتألم، وأنا مثلك على الأغلب. أخبريني ما الأمر».

وهكذا حكت لي أنها مستاءة من مسألة الزنوج، مثلما توقعت، وأخبرتني أن شعورها بالفرحة تجاه الرحلة الجميلة إلى إنجلترا قد تلاشى تقريبًا، وأنها لم تكن تعرف كيف ستكون سعيدة هناك وهي تعرف أن الأم وأبناءها لن يلتقوا ثانية، ثم بكت بمزيد من الحرقة

ورفعت يديها وهي تقول:

«يا إلهي، يا إلهي، التفكير في أنهم لن يلتقوا بعد الآن!».

قلت: «لكنهم سيلتقون من جديد في غضون أسبوعين، أنا أعرف ذلك!».

خرجت الكلمات دون أن أنتبه! وقبل أن أطرف، ضمتني بذراعيها وطلبت مني أن أقولها مجددًا، ومجددًا، ومجددًا!

كنت أعرف أنني تحدثت باندفاع وأسرفت في الحديث وأصبحت في مأزق، فطلبتُ إليها أن تدعني أفكر دقيقة. وهكذا، جلستْ بنفاد صبر، وقد بدا على وجهها الجميل الحماس والسعادة والارتياح مثل شخص خلع سنًّا لتوه. وهكذا أخذت أفكر في الأمر، وقلت لنفسي إن الشخص الذي يقول الحقيقة وهو في ورطة يعرض نفسه لمخاطر كبيرة، رغم أنني لم أكن متأكدًا لأنني لم أمر بموقف مثل هذا من قبل، إلَّا أن هذا ما بدا لي على أية حال، كذلك فقد بدا أن قول الحقيقة في هذا الموقف أفضل وأكثر أمانًا من الكذب. كان أمرًا غريبًا وغير معتاد أن أفكر في تنحية الأمر جانبًا لبعض الوقت حتى أفكر فيه لاحقًا، لم أصادف شيئًا مثل هذا من قبل. أخيرًا، قررت أن أخاطر وأقول الحقيقة هذه المرة، على الرغم من أن الأمر كان يشبه الجلوس على برميل بارود، متسائلًا إلى أين سيذهب بك عندما ينفجر.

وهكذا قلت:

«آنسة ماري جين، هل هناك أي مكان بعيد قليلًا عن البلدة يمكنك الذهاب إليه والمكوث فيه ثلاثة أو أربعة أيام؟».

«نعم، منزل السيد لوثروب. لماذا؟».

«دعك من السبب الآن. إذا أخبرتك كيف أعرف أن الزنوج سيلتقون مجددًا في هذا المنزل خلال أسبوعين، وأثبت لك صحة ما أقول، هل ستذهبين إلى منزل السيد لوثروب وتمكثين هناك أربعة أيام؟».

قالت: «أربعة أيام! سأبقى عامًا!».

قلت: «حسنًا، وأنا لا أريد منك أكثر من وعدك هذا، فهو عندي أفضل من تقبيل رجل للإنجيل»، فابتسمت واحمرت خجلًا برقة شديدة، فأردفت قائلًا: «إن لم يكن لديك مانع، فسأغلق الباب وأوصده بالرتاج».

ثم عدت وجلست من جديد وقلت:

«لا تفزعي، وكوني هادئة واستقبلي الأمر مثل الرجال. عليَّ أن أخبرك بالحقيقة يا آنسة ماري، وعليك أن تتحلي بالشجاعة، لأن ما سأقوله سيكون سيئًا وصعبًا، لكن لا مناص. إن هذين الرجلين اللذين يقولان إنهما عماك، ليسا بعميك على الإطلاق، بل زوجان من النصابين المحتالين. أما الآن، وقد تجاوزنا الجزء الأسوأ من القصة، فيمكنك سماع ما تبقى منها بأريحية أكبر».

أفزعها الأمر جدًّا بالطبع، لكنني كنت قد تجاوزت الأصعب الآن فاستكملت. كانت عيناها تتوهجان أكثر فأكثر وأنا أسرد عليها تفاصيل ما حدث، منذ أن قابلنا ذلك الشاب الأحمق عند الباخرة، مرورًا بها عندما ألقت بنفسها على صدر الملك عند البوابة

الأمامية وقبلته ست عشرة أو سبع عشرة مرة، فما لبثت أن قفزت ووجها أحمر مثل الشمس أثناء الغروب، وقالت:

«المتوحش! هلم، لا تضيع دقيقة واحدة -ولا حتى ثانية- سنكسيهما بالريش والقطران ونلقي بهما في النهر!».

قلت:

«بالتأكيد. لكن هل تقصدين قبل أن تذهبي إلى السيد لوثروب أم..».

قالت: «أوه، ما هذا الذي أفكر فيه!»، ثم جلست من جديد، وقالت: «دعك مما قلت من فضلك. لن تفكر فيما قلت، أليس كذلك؟»، ثم وضعت يدها الحريرية فوق يدي بطريقة جعلتني أقول إنني سأموت قبل أن أفكر فيما قالته، ثم أردفتْ: «لقد غضبت جدًّا ولم أفكر فيما أقول، والآن أكمل ولن أكرر ما فعلته. قل لي ماذا أفعل، وسأنفذ ما تقوله».

قلت: «إن هذين المحتالين يشكلان عصابة خطرة، وأنا مضطر إلى السفر معهما، شئت أم أبيت، إلَّا أنني أفضل ألَّا أخبرك سبب اضطراري. المشكلة أنك إن وشيتِ بهما، ستنقذني البلدة من قبضتيهما وسأكون على ما يرام، إلَّا أن شخصًا آخر لا تعرفينه سيقع في مأزق كبير. ولذلك يجب أن ننقذه، أليس كذلك؟ بالتأكيد، ولذلك لن نشي بهما».

جعلني هذا الكلام أفكر في حل جيد، وهو أننا إذا وضعنا

هذين المحتالين في سجن هنا، فستتخلص أنا وجيم منهما وسنتمكن من الرحيل.

لكنني لم أود أن أتحرك بالطوافة نهارًا دون أن يكون هناك أحد سواي ليجيب على الأسئلة، وعليه فلم أرغب في تنفيذ الخطة حتى وقت متأخر من تلك الليلة، وهكذا قلت:

«آنسة ماري جين، سأخبرك بماذا سنفعل ولن تكوني مضطرة إلى البقاء في منزل السيد لوثروب وقتًا طويلًا أيضًا. كم يبعد المنزل؟».

«أقل قليلًا من أربعة أميال، فور أن تصل إلى المنطقة الريفية».

«حسنًا، سيفي بالغرض إذًا. اذهبي إلى هناك الآن، وحافظي على هدوئك حتى التاسعة أو التاسعة والنصف، ثم تحججي بأنك نسيت أمرًا واطلبي إليهم أن يعيدوكِ إلى المنزل. إذا وصلتِ إلى هنا قبل الحادية عشرة، ضعي شمعة على النافذة، فإن لم أظهر حتى الحادية عشرة، فإن ذلك يعني أنني قد رحلت وأصبحت في مأمن بعيد، ومن ثم سيصبح بإمكانك الخروج ونشر الخبر والزج بهذين المحتالين إلى السجن».

قالت: «جيد، سأفعل ذلك».

«وإذا حدث أنني لم أتمكن من الهرب وزجوا بي إلى السجن معهما، فيجب أن تقولي إنني أخبرتك بالحقيقة كلها سلفًا، ويجب أن تدافعي عني قدر استطاعتك».

قالت: «أدافع عنك! بالتأكيد سأدافع عنك. لن يمسوا منك

شعرة واحدة!»، وكانت تقولها وفتحتا أنفها تتسعان وعيناها ترمشان.

قلت: «إذا هربت، فلن أكون هنا لأثبت أن هذين المحتالين ليسا عميك، ولن يمكنني إثبات الأمر وأنا هنا. ليس بوسعي سوى أن أقسم على أنهما وغدان وحثالتان. ومع ذلك، فهذا ليس بالشيء الهين. هناك آخرون يمكنهم إثبات الأمر بطريقة أفضل مني، ولن يكونوا أشخاصًا يُشك في أمرهم سريعًا مثلي. سأخبرك كيف تجدينهم. أعطيني قلمًا وورقة. «رويال نانساتش - بروكسفيل». خبئي الورقة ولا تضيعيها. وعندما ترغب المحكمة في التقصي وراءهما، اطلبي مراسلة بروكسفيل وقولي إنكم قبضتم على الرجلين الذين احتالا على رويال نانساتش، واطلبي شهادة البعض. ستجدين البلدة كلها قد أتت غاضبة قبل أن تطرفي يا آنسة ماري».

وهكذا، عندما رأيت أننا قمنا بكافة الترتيبات، قلت:

«دعي المزاد يستمر ولا تقلقي، إذ لن يضطر أحد إلى تسديد قيمة المشتريات حتى ينقضي يوم كامل على المزاد، استنادًا إلى سياسة الإخطار القصير، ولن يهرب الرجلان قبل تحصيل النقود. ووفقًا للخطة التي وضعناها، فلن تصبح البيعة سارية، ومن ثم لن يحصلا على النقود. والوضع نفسه في حالة الزنوج، لن تكون البيعة سارية، ومن ثم سيعود الزنوج سريعًا، ولن يكون بوسع الرجلين إنفاق النقود التي حصلا عليها مقابلًا للزنوج، لأنهما أصبحا في أسوأ مأزق يا آنسة ماري».

قالت: «حسنًا، سأذهب لتناول الإفطار الآن، وبعد ذلك سأتوجه مباشرة إلى منزل السيد لوثروب».

قلت: «لا يا آنسة ماري جين، لن يسري الأمر على هذا النحو بأي شكل من الأشكال، اذهبي قبل الإفطار».

«لماذا؟».

«لماذا تظنين أنني أريد منك الذهاب إلى هناك من الأساس يا آنسة ماري؟».

«لم أفكر في السبب. والآن وقد فكرت، لا أدري. ما السبب؟».

«لأن وجهك ليس جامدًا، وجهك مثل كتاب مفتوح، يمكن للمرء أن يجلس ويقرأه ويدرك أن هناك خطبًا ما. هل تعتقدين أن بإمكانك الذهاب ومواجهة عميك عندما يأتيان ليقبلاك قبلة الصباح دون أن..».

«مهلًا مهلًا، لا تكمل! حسنًا، سيسرني أن أذهب قبل الإفطار. لكن هل سأترك شقيقتيَّ معهما؟».

«نعم، لا تقلقي عليهما. يجب أن يتحملا الوضع قليلًا، لأن الرجلان من الممكن أن يشكا في الأمر إذا ذهبتن جميعًا. لا أريدك أن تلتقي بهما، ولا بشقيقتيكِ، ولا بأحد في هذه البلدة، لأنك إذا التقيت بأحد جيرانك وسألك كيف حال عميك هذا الصباح، فسيفضحك وجهك. لذلك، اذهبي على الفور يا آنسة ماري جين، وسأتدبر أمر الجميع. سأخبر الآنسة سوزان أن توصل حبك إلى

عميك وسأقول إنك ذهبت بعيدًا لعدة ساعات حتى تحصلي على قسط من الراحة والتغيير، أو لرؤية صديقة، وأنك ستعودين ليلًا أو صباح باكر».

«رؤية صديقة حجة جيدة، لكن لن أوصل حبي إليهما».

«حسنًا، لن أوصله إذًا». لم يكن هناك ضرر من أن أقول لها ذلك. لم تكن سوى كذبة بيضاء لن تضر. إن هذه الأشياء الصغيرة هي التي غالبًا ما تمهد الطرق للبشر. ستجعل هذه الكذبة ماري جين مرتاحة ولن تكلف شيئًا. ثم أردفت: «هناك شيء آخر؛ حقيبة النقود».

«حسنًا، حقيبة النقود معهما. إنني أشعر بحماقة شديدة عندما أفكر في الطريقة التي حصلا بها عليها».

«لا، الحقيبة ليست معهما».

«مع من إذًا؟».

«يا ليتني أعرف. كانت معي، لأنني سرقتها منهما حتى أعطيك إياها، وأنا أعرف أين خبأتها، لكنني أخشى أنها لم تعد موجودة في المكان الذي خبأتها فيه. أنا آسف جدًّا يا آنسة ماري جين، أنا آسف بكل ما تعنيه الكلمة، لكنني فعلت أقصى ما بوسعي حقًّا. كاد أمري أن ينكشف، فاضطررت إلى أن أخبئ الحقيبة في أول مكان ظهر أمامي وركضت، ولم يكن هذا المكان جيدًا».

«أوه، توقف عن إلقاء اللوم على نفسك، من السيئ جدًّا أن

تفعل ذلك ولن أسمح بهذا، لم يكن باليد حيلة، الخطأ ليس خطأك. أين خبأتها؟».

لم أكن أريدها أن تفكر في مشاكلها من جديد، ولم يبد أن باستطاعتي إجبار فمي على أن يقول ما من شأنه أن يجعلها ترى تلك الجثة وهي راقدة في التابوت، وحقيبة النقود تلك فوق معدته. وهكذا بقيت صامتًا لمدة دقيقة، ثم قلت:

«أفضل ألَّا أخبرك أين خبأتها يا آنسة ماري جين. إن لم يكن عندك مانع، أرجو أن تسمحي لي بأن أكتب المكان على ورقة، ومن ثم يصبح بإمكانك قراءة الورقة في الطريق إلى منزل السيد لوثروب إن أردتِ. هل تعتقدين أن ذلك سيفي بالغرض؟».

«أوه، نعم».

وهكذا كتبت: «وضعتها في التابوت. كانت موجودة عندما كنت تبكين هناك ليلًا. كنتُ خلف الباب، وكنت أشعر بأسف شديد تجاهك يا آنسة ماري جين».

دمعت عيناي قليلًا عندما تذكرت بكاءها هناك بمفردها في تلك الليلة، وهذان الشيطانان تحت سقف بيتها يحتالان عليها وينهبانها. عندما طويت الورقة وأعطيتها لها، رأيت دموعًا في عينيها هي أيضًا. صافحتني بقوة، وقالت:

«الوداع. سأفعل كل ما قلته لي بالضبط. لن أنساك أبدًا وسأفكر فيك كثيرًا وسأدعو لك أيضًا، حتى لو لم أرَك ثانية»، ثم رحلت.

تدعو لي! أعتقد أنها كانت لتختار مهمة أسهل لو كانت تعرفني. ومع ذلك، أعتقد أنها دعت لي، لأنها من هذا النوع الطيب الذي من الممكن أن يدعو ليهوذا لو قرر ذلك، لا أعتقد أنها من الأشخاص التي تخلف وعودها. مهما كان رأيك، فأعتقد أن هذه الفتاة تمتلك قدرًا من الشجاعة أكبر بكثير مما تمتلكه أي فتاة أخرى التقيتها في حياتي. أعتقد أنها تنبض شجاعة. من الممكن أن يبدو الأمر تملقًا، لكنه ليس كذلك. وعندما يأتي الأمر إلى الجمال والطيبة، فإنها تتفوق على الجميع. لم أرها منذ تلك المرة التي شاهدتها وهي تخرج من ذلك الباب، لا لم أرها منذ ذلك الحين، لكن أعتقد أنني فكرت فيها كثيرًا، ربما مليون مرة، وفكرت فيها وهي تقول إنها ستدعو لي. لو كنت أؤمن بأن دعائي لها سيكون ذا نفع، ما كنت لأتوقف عن الدعاء لها.

حسنًا، أعتقد أن ماري جين خرجت من الباب الخلفي، لأن أحدًا لم يرها وهي تخرج. وعندما التقيت بسوزان وذات الشفة المشقوقة، قلت: «ما اسم هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون هناك على الجانب الآخر من النهر؛ الذين تذهبن جميعًا إلى رؤيتهم أحيانًا؟».

فقالتا: «هناك أكثر من شخص، لكننا نزور آل بروكتور أغلب الوقت».

قلت: «هذا هو الاسم، كدت أنساه. حسنًا، لقد طلبت مني الآنسة ماري جين أن أخبركما بأنها ذهبت إلى هناك على عجل لأن أحدهم مريض».

«أيهم؟».

«لا أعرف، أعتقد أنني نسيت، لكنني أظن أن...».

«يا إلهي، أتمنى ألا يكون هانر؟».

قلت: «أنا آسف، لكن هانر هي المريضة».

«يا إلهي، لقد كانت بحالة جيدة جدًّا الأسبوع الماضي! هل وضعها سيئ؟».

«الوضع لا يوصف. لقد قالت الآنسة ماري جين إنهم جلسوا إلى جانبها طوال الليل ولا يعتقدون أنها ستصمد لأكثر من ساعات».

«ما العلة التي وصلت بها إلى هذه الحالة؟».

لم أستطع التفكير في أي شيء معقول على الفور، فقلت:

«الحمى النكافية».

«الحمى النكافية! إنهم لا يجالسون من يمرضون بالحمى النكافية».

«فعلًا؟ أعتقد أنهم يجالسون من يمرضون بهذا النوع من الحمى النكافية، لأن هذا النوع من الحمى مختلف، لقد قالت الآنسة ماري جين إنه نوع جديد».

«ماذا تقصد بنوع جديد؟».

«لأنه مُصاحب بأعراض أخرى».

«أي أعراض أخرى؟».

«حصبة، وسعال ديكي، والتهاب حمرة، وسُل، وصفراء، والتهاب سحائي، ولا أعرف ماذا أيضًا».

«يا إلهي! ويقولون إنه حمى نكافية؟».

«هذا ما قالته الآنسة ماري جين».

«بأي منطق يسمونه حمى نكافية؟».

«لأنه يبدأ بحمى نكافية».

«إن هذا غير منطقي؛ إذا تعثر شخص بإصبع قدمه وتسمم وسقط في بئر ودُق عنقه وكُسرت رأسه، ثم جاء شخص وسأل عن سبب وفاته ورد أحد الأغبياء، قائلًا: «لقد تعثر بإصبع قدمه»، فهل هناك منطق في ذلك؟ لا، وما تقوله أيضًا غير منطقي. هل هو معدٍ؟».

«معدٍ؟ هل تمزحين! هل الجرافة معدية؟ إن لم تجرفك واحدة من أسنانها فستجرفك الثانية، ولا يمكنك أن تتعلقي بهذه السن دون أن تكوني معلقة في بقية الجرافة، أليس كذلك؟ يمكنك القول إن هذا النوع من الحمى مثل جرافة قوية لا تتهاون، إذا تعلقت بها فلا مناص».

قالت ذات الشفة المشقوقة: «أعتقد أن هذا مريع، سأذهب إلى العم هارفي و..».

قلت: «أوه، نعم، بالتأكيد. كنت لأفعل ذلك، ما كنت لأضيع وقتًا».

«أما كنت لتفعل ذلك؟».

«فكري في الأمر قليلًا ويمكنك حينها أن تفهمي السبب؛ ألا يحتاج عماك إلى العودة إلى منزلهما في إنجلترا بأسرع وقت ممكن؟ هل تعتقدين أنهما بهذه القسوة أن يرحلا على أن تلحقن بهما كل هذه المسافة بمفردكن؟ أنت تعلمين أنهما سينتظران، ولا بأس في كل هذا، إلَّا أن عمك هارفي واعظ، أليس كذلك؟ هل من الممكن لواعظ أن يخدع عامل باخرة أو عامل سفينة من أجل أن يسمح للآنسة ماري جين بالصعود على متنها؟ أنت تعلمين أنه لن يفعل ذلك، وسيقول إن الأمر مؤسف وأن على الكنيسة أن تفعل ما بوسعها لتدبر أمورها وأن الواجب يحتم عليه البقاء هنا ثلاثة أشهر حتى يرى إن كانت ابنة أخيه قد أصيبت بهذه الحمى النكافية متعددة الأعراض. لكن لا تأبهي لكلامي إن كنت تظنين أن الأفضل هو أن تخبري عمك هارفي..».

«اللعنة، ونبقى هنا لنعرف ما إذا كانت ماري جين قد أصيبت أم لا، بدلًا من الاستمتاع بوقتنا في إنجلترا؟ هل أنت أحمق؟».

«حسنًا، ربما يكون من الأفضل أن تخبري بعض الجيران».

«استمع إلى نفسك. أنت أحمق بالفطرة. ألا تعرف أنهم سيفضحون الأمر؟ من الأفضل ألَّا نخبر أحدًا على الإطلاق».

«حسنًا، أعتقد أنك محقة. نعم، أعتقد أنك محقة».

«لكن أعتقد أن علينا إخبار العم هارفي بأنها خرجت قليلًا حتى لا يقلق عليها».

«نعم، لقد أرادت الآنسة ماري جين أن تفعلا ذلك، وقد طلبت مني أن توصلا حبها وقبلاتها إلى العم هارفي والعم ويليام وأن تقولا لهما إنها عبرت النهر لترى السيد.. السيد.. ما اسم تلك العائلة الثرية التي كان العم بيتر يفكر فيها كثيرًا؟ تلك العائلة التي..».

«لا بد أنك تتحدث عن آبثوربس، أليس كذلك؟».

«نعم. اللعنة على هذه الأسماء الغريبة؛ لا يمكن للمرء تذكرها نصف الوقت. تريدكما أن تقولا له إنها ذهبت إلى هناك لتؤكد على آل آبثوربس لحضور المزاد وشراء المنزل، لأنها تعتقد أن العم بيتر كان ليرحب بأن يكونوا هم من يحصلون على المنزل أكثر من أي شخص آخر، وأنها ستبقى معهم حتى تقنعهم بالقدوم ثم تعود إلى المنزل ما لم تكن مجهدة. أما إذا كانت مجهدة، فلن تعود وستأتي إلى هنا صباحًا. وقد طلبت مني أن أخبركما ألَّا تقولا شيئًا عن آل بروكتور، وأن تتحدثا فقط عن آل آبثوربس، ذلك أن ذهابها إلى آل آبثوربس، لأنها أخبرتني بنفسها أنها ستذهب إليهم لتتحدث إليهم بشأن بيع المنزل».

قالتا: «حسنًا»، وذهبا لينتظرا عميهما ويوصلان إليها الحب والقبلات والرسالة.

لقد أصبح كل شيء على ما يرام الآن؛ لن تقول الفتيات شيئًا لأنهما تريدان الذهاب إلى إنجلترا، وسيفضل الملك والدوق أن تذهب ماري جين وتسعى من أجل المزاد على أن تذهب إلى دكتور

روبنسون. كنت مطمئنًا جدًّا؛ أعتقد أنني حبكت المسألة جيدًا، أظن أن توم سوير ما كان ليحبكها أفضل من ذلك، بالطبع كان سيضيف إليها المزيد من اللمسات، إلَّا أن هذا الأمر ليس سهلًا عليَّ لأنني لم أنشأ عليه.

قرب العصر، انعقد المزاد في الميدان العام واستمر وقتًا طويلًا جدًّا. أما الرجل العجوز، فقد وقف إلى جانب البائع المسؤول عن المزاد بكل لزاجة يردد بين الحين والآخر أجزاءً صغيرة من الإنجيل أو أقوالًا طيبة من نوع ما، وأما الدوق فكان يصدر أصواتًا معبرة عن الأسى كيفما استطاع، ويستعرض وحسب.

سرعان ما انتهى المزاد سريعًا وبيع كل شيء باستثناء قطعة أرض صغيرة في المقبرة، ولذلك كان عليهم أن يبحثوا لها عن مشترٍ. لم أرَ شخصًا طماعًا يريد ابتلاع كل شيء هكذا مثل ذلك الملك. في تلك الأثناء، وصلت باخرة، وخلال دقيقتين أتى حشد صائحًا مهللًا ضاحكًا يقول:

«ها قد أتى منافسان لكما! أصبح لديكم الآن زوجان من ورثة بيتر ويلكس، ضعوا نقودكم وانظروا أيهما الورثة الحقيقيون!».

(٢٩)

أتى سيد نبيل عجوز حسن المظهر؛ معه شاب وسيم يده اليمنى مرفوعة على حاملة. ويا إلهي، كم استمرت صيحات الناس وضحكاتهم في الارتفاع، لكنني لم أكن أرى أي شيء مضحك في الأمر، وكنت أعتقد أن الدوق والملك لم يريا فيه أي شيء مضحك أيضًا. اعتقدت أن وجهيهما سيصبحان شاحبين، إلَّا أن ذلك لم يحدث. لم يبدُ على الدوق أنه فهم ما حدث أبدًا، بل استمر في إصدار تلك الأصوات بسعادة ورضًا مثل إبريق ينسكب منه حليب ممخوض، كذلك فقد ظل الملك يحدق ويحدق بأسًى إلى هؤلاء القادمين كما لو أن التفكير في وجود مثل هؤلاء المحتالين والمخادعين بالعالم قد أصابه بغصة في قلبه.

لقد أتقن تمثيل الدور باحترافية وتحلق حوله العديد من الأشخاص الهامة ليرى أنهم إلى جانبه. كان النبيل العجوز الذي أتى لتوه في ذهول شديد، وما لبث أن بدأ يتحدث، وقد لاحظت على الفور أنه يتحدث مثل الإنجليز وليس مثل الملك (رغم أن الملك كان يقلدهم جيدًا جدًّا)، ورغم أنني لا أستطيع تكرار

كلمات النبيل العجوز أو تقليده، فقد استدار إلى الحشد وقال ما معناه:

«هذه مفاجأة لم أتوقعها، وبصراحة لست في حالة جيدة أن أتعامل معها الآن لأنني واجهت مشاكل أنا وشقيقي، إذ كُسر ذراعه ووصلت أمتعتنا بالخطأ إلى بلدة مجاورة ليلة أمس. أنا هارفي، شقيق بيتر ويلكس. وهذا شقيقه ويليام، الذي لا يستطيع أن يسمع أو يتكلم، لكنه لا يستطيع أن يستخدم لغة الإشارة جيدًا الآن وقد كسر ذراعه. نحن من ندعي، وخلال يوم أو يومين عندما تصل أمتعتنا سأتمكن من إثبات الأمر. حتى ذلك الحين، لن أقول شيئًا وسأذهب إلى الفندق وأنتظر».

وهكذا مضى إلى الفندق مع شقيقه الأبكم، وضحك الملك قائلًا:

«كسر ذراعه؟ هذا أمر وارد ومناسب جدًّا لمحتال لا يعرف لغة الإشارة، لكنه يحتاج إلى استخدامها، أليس كذلك؟ أضاعوا أمتعتهم! هذا جيد جدًّا وعبقري جدًّا في مثل هذه الظروف!».

ثم ضحك من جديد، وضحك معه الجميع باستثناء ثلاثة أو أربعة أشخاص، أو ربما نصف دستة أشخاص، من بينهم الطبيب ورجل آخر نبيل وأنيق؛ كانت معه حقيبة قديمة المظهر مصنوعة من السجاد، إذ أتى على نفس الباخرة أيضًا. كان الرجل يتحدث إليه بصوت منخفض ويلقي نظرات إلى الملك من حين إلى آخر، بينما يومئ الاثنان برأسيهما. كان هذا الرجل هو ليفي بيل، المحامي

الذي ذهب إلى لويفيل. انضم إليهما رجل ثالث ضخم قوي تبدو عليه مظاهر الخشونة، واستمع إلى كل ما قاله النبيل العجوز، ثم استمع إلى الملك. عندما انتهى الملك، قال هذا الرجل القوي:

«إذا كنت هارفي ويلكس، متى أتيت إلى هذه البلدة؟».

قال الملك: «اليوم الذي سبق الجنازة يا صديقي».

«لكن في أي وقت من النهار؟».

«في المساء، قبل غروب الشمس بساعة أو ساعتين».

«كيف أتيت؟».

«أتيت على متن سوزان باول من سينسناتي».

«إذًا كيف كنت هناك في ذلك الوقت من الصباح على زورق؟».

«لم أكن هناك في ذلك الوقت من الصباح».

«أنت تكذب».

انتفض العديد، متوسلين إليه ألَّا يتحدث بهذه الطريقة إلى واعظ ورجل عجوز.

«إنه ليس واعظًا، إنه محتال وكاذب. لقد كان هناك في ذلك الوقت من الصباح، أنا أعيش هناك، وكنت هناك وكان هو أيضًا هناك، لقد رأيته هناك، لقد أتى في زورق مع تيم كولينز وأحد الفتيان».

قال الطبيب:

«هل ستتمكن من التعرف على الفتى إذا رأيته مجددًا يا هاينز؟».

«أعتقد أنني سأتعرف عليه، رغم أنني لست متأكدًا. ها هو ذا، لقد تعرفت عليه بسهولة شديدة».

كنت أنا من أشار إليه، فقال الطبيب:

«أيها الجيران، أنا لا أعرف ما إذا كان القادمان الجديدان محتالين أم لا، لكن إن لم يكن هذان الاثنان محتالين، فأنا أحمق. هذا كل ما في الأمر. أعتقد أن من واجبنا عدم إفلاتهما حتى ننظر في هذا الأمر. تعال يا هاينز وأنتم أيضًا جميعًا، سنأخذ هذين الاثنين إلى الفندق ونواجههما بالاثنين الآخرين، وأعتقد أننا سنكتشف الحقيقة قبل أن ينتهي الأمر».

كان الجميع متحمسًا تقريبًا باستثناء أصدقاء الملك. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب، فأمسكني الطبيب من يدي. ورغم أنه كان طيبًا معي، فلم يترك يدي أبدًا.

دخلنا جميعًا إلى غرفة كبيرة في الفندق وأضأنا بعض الشموع وحضر الرجلان الآخران.

تحدث الطبيب أولًا، فقال:

«لا أود أن أقسو على هذين الرجلين، إلَّا أنني أعتقد أنهما محتالان، بل ربما يكون لديهما شركاء جريمة لا نعرف عنهم شيئًا. إن كان لديهم شركاء، أليس من المحتمل أن يهربوا بحقيبة النقود التي تركها بيتر ويلكس؟ إن لم يكن هذان الشخصان محتالين، فلن يمانعا أن نرسل لإحضار تلك النقود ونبقي عليها هنا حتى نتأكد من صدقهما، أليس كذلك؟».

وافق الجميع على الفكرة، فظننت أن عصابتنا قد وقعت في مأزق كبير من البداية، إلَّا أن الملك بدا حزينًا وقال:

«أتمنى لو كانت النقود هناك يا سادة، لأنني لست بصدد الوقوف في طريق تحقيق نزيه وعادل، في هذه المشكلة المأساوية، لكن للأسف النقود ليست هناك؛ يمكنكم أن ترسلوا أحدًا إلى هناك للتأكد من صحة كلامي إن أردتم».

«أين هي إذًا؟».

«عندما أعطتني ابنة أخي النقود من أجل أن أحافظ لها عليها، أخذتها وخبأتها في مرتبة فراشي القشية، لأنني لم أرغب في أن أودعها في البنك هذه الأيام القليلة التي سنمكثها هنا، واعتبرت الفراش مكانًا آمنًا لأننا لسنا معتادين على الزنوج، وافترضنا فيهم الأمانة مثل الخدم في إنجلترا، إلَّا أن الزنوج سرقوا النقود في الصباح التالي بمجرد أن نزلت إلى الطابق السفلي، ولم أكتشف اختفاءها حتى بعتهم، وهكذا هربوا دون أن يقعوا في مشاكل. يمكن لخادمي أن يخبركما بالأمر يا سادة».

قال الطبيب وآخرون: «اللعنة!». كنت أرى أن الجميع صدقوه. سألني أحد الرجال إن كنت قد رأيت الزنوج وهم يسرقون النقود، فقلت إنني لم أرهم وهم يسرقونه ولكنني رأيتهم وهم يتسللون خارج الغرفة ويبتعدون سريعًا، ولم أشك في شيء على الإطلاق، لأنني ظننت أنهم خائفون من أن يكونوا قد أيقظوا سيدي ويحاولون الهرب قبل أن يقعوا في مشاكل. كان هذا كل ما سألوني عنه، ثم

التفت إلى الطبيب وقال:

«هل أنت أيضًا إنجليزي؟».

قلت نعم، فضحك هو وآخرون، ثم قال: «إنجليزي صرف!».

وهكذا، استأنفوا التحقيق، ساعة بعد ساعة، دون أن يذكر أحد شيئًا عن العشاء، حتى بدا كما لو أنهم لا يفكرون فيه على الإطلاق. كان أكثر تحقيق معقد يمكن للمرء أن يراه، إذ جعلوا الملك يروي حكايته من جديد، ومن بعده النبيل العجوز. كان بإمكان أي شخص، لا يتسم بالغباء ولا يطلق أحكامًا مسبقة، أن يرى أن النبيل العجوز يقول الحقيقة وأن الآخر يكذب. وبعد قليل، انتقلوا إليَّ وسُئلت عما أعرفه، فنظر إليَّ الملك بطرف عينه اليسرى، فقررت أن أتحدث عن الأشياء التي أعرف أنها حقيقية، وبدأت أتحدث عن شيفيلد وعن حياتنا هناك وعن كل شيء يخص عائلة ويلكس الإنجليزية، وما إلى ذلك. إلَّا أن الطبيب ما لبث أن بدأ في الضحك، هو والمحامي ليفي بيل، وقال:

«اجلس يا بني، ما كنت لأتوتر لو كنت مكانك. أعتقد أنك لست معتادًا على الكذب، لأن الأمر لا يبدو يسيرًا بالنسبة إليك. أنت بحاجة إلى الممارسة لأنك تكذب بطريقة غريبة جدًّا».

لم أفرح بالإطراء، لكنني كنت مسرورًا أنني خرجت من المأزق على أية حال.

بدأ الطبيب يتحدث، فاستدار وقال:

«إذا كنت قد أتيت إلى البلدة أولًا، ليفي بيل...»، إلَّا أن الملك قاطعه ومد يده قائلًا:

«هل هذا صديق شقيقي المتوفى الذي كان يتحدث عنه كثيرًا في خطاباته؟».

تصافح الاثنان، ثم ابتسم المحامي وبدا عليه السرور. تحادثا قليلًا، ثم تنحيا جانبًا وتحدثا بصوت منخفض. وأخيرًا، قال المحامي بصوت مرتفع:

«أعتقد أن هذا سيفي بالغرض. سأكتب الأمر وأعطيه إلى شقيقك، وسيصبح كل شيء على ما يرام».

وهكذا أحضرا قلمًا وبعض الورق، وجلس الملك وأمال رأسه إلى أحد الجانبين وعض على لسانه وكتب شيئًا، ثم أعطيا القلم للدوق. كانت هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها على الدوق شعور الغثيان، ومع ذلك فقد أخذ القلم وكتب. ثم التفت المحامي إلى النبيل العجوز القادم حديثًا وقال:

«من فضلك اكتب أنت وشقيقك سطرًا أو اثنين ووقعا اسميكما».

كتب النبيل العجوز شيئًا، لكن لم يستطع أحد قراءة ما كتبه. بدا على المحامي الدهشة الشديدة وقال:

«يا لها من معضلة»، ثم أخرج من جيبه مجموعة كبيرة من الخطابات وفحصها، ثم فحص كتابة الرجل العجوز، ثم عاود

فحص الخطابات من جديد، ثم قال: «هذه الخطابات من هارفي ويلكس، ويمكن لأي شخص أن يرى أن هذين الخطين لم يكتبا هذه الخطابات» (بدا على الملك والدوق الغم والحماقة بعد أن رأيا كيف خدعهما المحامي)، «وهذا هو خط النبيل العجوز، ويمكن لأي شخص أن يرى بسهولة شديدة أنه لم يكتبهم، والحقيقة أن هذه الخربشة لا ترقى إلى أن تكون كتابة على الإطلاق. والآن، هذه بعض الخطابات التي وصلتني من..».

قال النبيل العجوز القادم حديثًا:

«من فضلك دعني أشرح، لا يمكن لأحد أن يقرأ خطي باستثناء شقيقي هذا، ولذلك فهو من يكتب الخطابات بدلًا مني، والخط الوارد في هذه الخطابات هو خطه، وليس خطي».

قال المحامي: «حسنًا، إن هذه مسألة غريبة، لكنني أحمل بعضًا من خطابات ويليام أيضًا. إذا جعلته يكتب سطرًا أو ما إلى ذلك، فيمكننا..».

قال النبيل العجوز: «لا يمكنه الكتابة بيده اليسرى. إن كان بوسعه استخدام يده اليمنى، سترى أنه قد كتب خطاباته وخطاباتي أنا أيضًا. انظر إلى الاثنين من فضلك؛ لقد كتبتهما نفس اليد».

وهكذا، فعل المحامي ما طلبه وقال:

«أعتقد أن ما تقوله صحيح. وإن لم يكن صحيحًا، فهناك تشابه قوي جدًّا لم ألحظه من قبل على أية حال. حسنًا، حسنًا، حسنًا!

ظننت أننا كنا على الطريق الصحيح للوصول إلى حل، لكنه ذهب هباءً على نحو ما. لكن على أية حال، لقد أثبتنا شيئًا واحدًا، وهو أن هذين الشخصين ليسا من عائلة ويلكس»، وأشار برأسه ناحية الملك والدوق.

ماذا تعتقد؟ هل استسلم العجوز العنيد؟ بالطبع لا. لقد قال إن هذا الاختبار لم يكن عادلًا، وأن شقيقه ويليام لم يكتب بشكل جدي، لأنه صاحب أكبر مقالب في العالم، وقال إنه عرف أن ويليام كان يدبر مقلبًا فور أن وضع القلم على الورقة، وأخذ يثرثر ويثرثر حتى بدأ حقًّا في تصديق نفسه، إلَّا أن النبيل القادم حديثًا ما لبث أن قاطعه قائلًا:

«لقد واتتني فكرة. هل هناك من ساعد في تحضير شقــ.. ساعد في تحضير بيتر ويلكس للدفن؟».

رد أحدهم: «نعم، أنا وآب ترنر ساعدنا في تحضيره، كنا هناك نحن الاثنين».

وهكذا، التفت الرجل العجوز إلى الملك وقال:

«ربما يمكن لهذا الرجل أن يخبرني بالوشم الذي كان محفورًا على صدره».

كان الأمر مفاجئًا جدًّا حقًّا، فبُهِت الملك. كيف له أن يعرف الوشم الذي حُفِر على الرجل؟ كان بحاجة إلى أن يستجمع شجاعته قبل أن يتحول إلى شاطئ جرفه النهر، إلَّا أنه لم يستطع إخفاء دهشته

وشحب وجهه قليلًا، فسكنت الغرفة تمامًا واشرأبت الأعناق وحدقوا إليه. قلت لنفسي إنه سيستسلم الآن لأنه لم تعد هناك فائدة، فهل استسلم؟ لا يمكن لشخص أن يصدق هذا، لكنه لم يستسلم. أعتقد أنه قرر أن يُبقي التحقيق مستمرًّا حتى يشعر الجميع بالتعب ويقرروا الرحيل، ومن ثم يهرب هو والدوق. على أية حال، جلس الملك وسرعان ما أخذ يبتسم، وقال:

«همف! إنه سؤال شديد الصعوبة، أليس كذلك! نعم يا سيدي، أستطيع أن أخبرك ما الوشم المحفور على صدره؛ إنه سهم أزرق رفيع وصغير. هذا هو الوشم الذي إن لم تمعن النظر فيه، فلن تراه. ما قولك الآن؟».

لم أرَ شخصًا بهذه الجرأة من قبل.

التفت النبيل العجوز، الوافد حديثًا، إلى آب ترنر ورفيقه بسرعة، وكانت عيناه تلمعان كما لو كان قد انتصر على الملك هذه المرة، وقال:

«لقد سمعتما ما قاله! هل كانت هذه العلامة موجودة على صدر بيتر ويلكس؟».

تحدث كلاهما وقالا:

«لم نرَ مثل هذا الوشم».

قال النبيل العجوز: «جيد! والآن، هل كان ما رأيتما «ب» محفورة بخط صغير وباهت، وإلى جانبها «پ» (كان يستخدمها

في كتابة اسمه وهو صغير)، وحرف الواو، ويفصل بين كل منهم شَرطة بحيث يظهر الوشم بهذا الشكل: ب ـ پ ـ و»، ثم رسم الوشم على ورقة وأردف: «ألم يكن هذا ما رأيتما؟».

تحدث كلاهما ثانية وقالا:

«لا، لم يكن هذا ما رأينا، لأننا لم نرَ أي وشوم على الإطلاق».

ثارت الحشود، وصاحوا قائلين:

«إنهم جميعًا محتالون! لنقبض عليهم! لنغرقهم! لنضعهم على القضبان!». كان الجميع يصيح في الوقت نفسه كما لو أنهم هنود، فما لبث أن قفز المحامي على الطاولة، وصاح قائلًا:

«يا سادة، يا سادة! من فضلكم اسمعوني، سأقول كلمة واحدة فقط! لا يزال هناك حل؛ لنذهب ونحفر مكان الجثة ونتأكد من الأمر».

انتبه الجميع إلى ما قاله، ثم صاحوا: «هيا!»، إلَّا أنهم ما بدأوا أن يتحركوا حتى صاح المحامي والطبيب، قائلين:

«مهلًا، مهلًا! قيدوا هؤلاء الرجال الأربعة وهذا الصبي بالأغلال، وأحضروهم!».

صاحوا جميعًا: «سنقيدهم! وإن لم نجد الوشمين سنشنقهم جميعًا!».

تملكني الخوف في تلك اللحظة، لكن لم يكن هناك مفر مثلما تعرف، وقد أمسكوا بنا جميعًا، وساروا بنا مباشرة إلى المدافن، التي

كانت تبعد عن النهر ميلًا ونصف. كانت البلدة كلها في أعقابنا، إذ لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة، فضلًا عن أن الجلبة التي أحدثناها كانت كبيرة.

عندما مررنا بالمنزل، تمنيت لو أنني لم أطلب من ماري جين ترك البلدة. لولا أنها خارج البلدة، لكنت غمزت لها من أجل أن تتحدث وتشي بهذين المحتالين وتنقذني.

مضينا في الطريق المؤدية إلى النهر في أفواج مثل الحيوانات البرية، وقد زادت ظلمة السماء من رهبة الموقف. سرعان ما أخذت الأضواء ترتعش وتتمايل وبدأ الهواء يحدث حفيفًا وسط الأغصان. لقد كان هذا أسوأ مأزق تعرضت له في حياتي وأكثرهم خطورة على الإطلاق، وقد كنت مدهوشًا نوعًا ما، إذ إن كل شيء كنت قد خططت له اختلف الآن، فبعد أن خططت لأن يحدث كل شيء وفقًا لما يتناسب مع وقتي وبعد أن كنت سأستمتع بمشاهدة الملك والدوق يقبض عليهما بينما تدافع عني ماري جين وتنقذني وتحررني، لم يعد يفصل بيني وبين الموت شيء في العالم سوى وشمين. إن لم يجدوا هذين الوشمين.

كان التفكير في الأمر غير محتمل، ومع ذلك لم أستطع التفكير في شيء آخر. ازدادت الظلمة شيئًا فشيئًا، وكان الوقت ملائمًا للهرب لولا أن ذلك الرجل الضخم قوي البنية، هاينز، كان يمسكني من رسغي، وكان الأمر أشبه بمحاولة الفرار من جالوت. كان يجرني جرًّا من شدة حماسه، وكنت أركض حتى أستطيع اللحاق به.

عندما وصلوا إلى هناك، امتلأت المدافن بالحشود كما لو أنهم نهر قد فاض. عندما وصلوا إلى القبر، اكتشفوا أنهم أحضروا مجارف أكثر من حاجتهم مئة مرة، وأن أحدًا لم يفكر في إحضار مصباح. شرعوا في الحفر على أية حال، مستنيرين بضوء شمعة، وأرسلوا رجلًا من أجل أن يستعير مصباحًا من منزل قريب يبعد نصف ميل.

استمروا في الحفر بكل ما لديهم من قوة، ولم يبدُ أنهم لاحظوا تزايد العتمة وهطول المطر وصوت الرياح وضوء البرق وهزيم الرعد، ذلك أنهم كانوا مستغرقين تمامًا في عملية الحفر. بين لحظة وأخرى، كان بإمكانك أن ترى كل شيء وكل شخص في هذا الحشد الكبير والجواريف الممتلئة بالطين المُستخرج من القبر، ثم تأتي العتمة فتغشي كل شيء ولا يصبح بمستطاعك أن ترى أي شيء على الإطلاق.

أخيرًا، أخرجوا التابوت وبدأوا في فك مسامير الغطاء، فازداد التزاحم والتدافع بدرجة لا توصف من أجل إلقاء نظرة على الجثة. كان الأمر مرعبًا جدًّا بسبب الظلمة، وآلمني رسغي جدًّا بسبب الطريقة التي كان يتدافع بها هاينز، وأعتقد أنه نسي وجودي تمامًا في هذا العالم من شدة حماسه.

وفجأة، أطلق البرق ضوءًا أبيض مشعًّا، فصاح أحدهم:

«يا إلهي، حقيبة النقود هنا على صدره!».

صاح هاينز مثله مثل الجميع، وأفلت رسغي واندفع بقوة من

أجل أن يلقي نظرة على الجثة، فكانت السرعة، التي فررت بها متلمسًا الطريق وسط الظلمة، غير مسبوقة.

ركضت، أو بالأحرى حلقت، في الطريق بمفردي، لم يكن معي على الطريق سوى الظلمة ووميض البرق المتواتر والمطر المتساقط والرعد الذي يصم الآذان، وكنت أركض بأقصى سرعتي!

لم يكن هناك أحد بالخارج بسبب العاصفة، ولذلك لم أبحث عن شوارع جانبية وركضت مباشرة على الطريق الرئيسي. عندما بدأت أقترب من المنزل، زدت من سرعتي. لم يكن هناك أي ضوء، وكان المنزل كله معتمًا. لا أدري لماذا، لكنني كنت أشعر بالأسف والإحباط. عندما أصبحت أمام المنزل أخيرًا، رأيت ضوءًا قادمًا من نافذة ماري جين! فشعرت بقلبي يؤلمني حتى ظننت أنه سينفجر، إلَّا أنني ما لبثت أن تركت الظلام يبتلع المنزل وكل شيء ورائي؛ لن أرى هذا المنزل من جديد. لقد كانت هذه أفضل وأشجع فتاة رأيتها في حياتي.

عندما ابتعدت عن البلدة بما يكفي وأصبح بإمكاني الوصول إلى الشاطئ، بدأت أبحث بعناية عن قارب أستعيره. ومع أول ومضة برق، لمحت زورقًا غير مربوط بشيء سوى بحبل، فانتشلته وجررته. كان الشاطئ بعيدًا جدًّا في وسط النهر، وعليه لم أضيع وقتًا. عندما وصلت إلى الطوافة أخيرًا، كنت أشعر بإرهاق شديد وشعرت بحاجة إلى أن ألهث وألتقط أنفاسي، لكنني لم أفعل ذلك وقفزت على متنه وصحت:

«تعالَ يا جيم، دعنا ننطلق! المجد لله، لقد تخلصنا منهما!».

خرج جيم وانطلق نحوي باسطًا ذراعيه من فرط السعادة، إلَّا أن قلبي قفز إلى حلقي عندما رأيته تحت وميض البرق وسقطت بظهري من على الطوافة؛ لقد نسيت أنه كان مرتديًا ملابس الملك لِير ويدعي أنه عربي تعرض للغرق -الاثنان معًا- ولذلك فقد أفزعني منظره إلى أقصى درجة. أخرجني جيم من المياه، وكان على وشك أن يعانقني ويباركني، وما إلى ذلك، لأنه كان مسرورًا جدًّا أنني عدت وأننا تخلصنا من الملك والدوق، لكنني قلت:

«ليس الآن، أجل هذا للإفطار، أجل هذا للإفطار! فك وثاق الطوافة ودعنا نتحرك!».

خلال ثانيتين، أصبحنا في النهر سعيدين أننا استعدنا حريتنا وأصبحنا في هذا النهر الشاسع من جديد، بمفردنا دون صحبة أحد يضايقنا. لم أستطع أن أتمالك نفسي فأخذت أركض وأقفز وأطرقع أصابعي أكثر من مرة، ومع الطرقعة الثالثة؛ سمعت صوتًا أعرفه جيدًا. حبست أنفاسي وأنصتُّ وانتظرت حتى تأكدت من الصوت مع وميض البرق التالي، ثم رأيتهما يجدفان قاربهما في النهر بأقصى سرعة؛ الملك والدوق!

وهكذا سقطت على ألواح الطوافة واستسلمت، وقد كان هذا كل استطعت أن أفعله حتى أمنع نفسي من البكاء.

(٣٠)



عندما صعد الملك إلى متن الطوافة، انطلق نحوي وأمسكني من رقبتي وأخذ يهزني قائلًا:

«أتحاول الهرب منا أيها الغر! سئمت من صحبتنا؟».

قلت:

«لا يا جلالتك، لم نكن نحاول الهرب، لطفًا يا جلالتك!».

«أسرع إذًا وأخبرنا في ماذا كنت تفكر، وإلَّا فلن ترى خيرًا!».

«سأكون أمينًا معك وأخبرك بما حدث بالضبط يا جلالتك؛ لقد كان الرجل القابض على يدي طيبًا جدًّا معي وأخذ يحكي لي عن طفل له في مثل عمري توفي العام الماضي وعن شعوره بالأسف لأن يرى طفلًا في مثل هذا المأزق الخطر، وهكذا عندما تفاجأ الجميع بالعثور على حقيبة النقود واندفعوا ناحية التابوت، أفلتني وهو يهمس قائلًا: «أسرع الآن، وإلَّا فإنهم حتمًا سيشنقونك»، وهكذا ركضت لأن البقاء لم يبدُ أمرًا مجديًا، خصوصًا أن ليس بيدي حيلة. كذلك، لم أكن أريد أن أشنق طالما كان بوسعي الهرب،

وهكذا أخذت أركض حتى وجدت الزورق. وعندما وصلت إلى هنا، طلبت إلى جيم أن يسرع وإلَّا فسيمسكون بي ويشنقونني، وقد قلت له إنني أخشى وفاتك أنت والدوق وكنت أشعر بأسف شديد، وكذلك كان جيم، إلَّا أننا شعرنا بسعادة غامرة عندما رأيناكما قادمين، يمكنك أن تسأل جيم».

أقر جيم كلامي، إلَّا أن الملك طلب منه أن يخرس، وقال: «أوه، نعم، هذا وارد جدًّا!»، ثم هزني من جديد، وهددني بإغراقي في النهر. إلَّا أن الدوق قال:

«دع الفتى أيها الأحمق العجوز! هل كنت ستتصرف على نحو آخر؟ هل سألت عنه عندما هربت؟ لا أتذكر أنك فعلت».

وهكذا تركني الملك، وبدأ يلعن ذلك البلد وكل من فيه. إلَّا أن الدوق قال:

«أعتقد أن عليك أن تلعن نفسك، لأنك أكبر مسؤول عما حدث. إنك لم تفعل شيئًا حكيمًا من البداية، باستثناء ما قلته بشأن ذلك الوشم التخيلي للسهم الأزرق. كان ذلك أمرًا ذكيًّا وفطنًا جدًّا، وهذا هو ما أنقذنا، لولاه لكنا في زنزانة ننتظر وصول أمتعة هذين الرجلين، وحتمًا كنا سُنسجن بعد ذلك! إلَّا أن تلك الكذبة جعلتهم يذهبون إلى المدافن، وقد أسدى إلينا الذهب معروفًا أكبر، ولولا أن هؤلاء الحمقى تحمسوا وأفلتونا من أجل إلقاء نظرة على الذهب، لكنا رقدنا إلى الأبد برباط عنق حول رقبتينا».

صمت الاثنان، وأخذا يفكران قليلًا. ثم قال الملك بشرود:

«همف! لقد ظننا أن الزنوج سرقوا النقود!».

جعلتني هذه الجملة أرتبك!

رد الدوق، بمزيج من التمهل والتفكير والتهكم، قائلًا: «نعم، لقد ظننا ذلك».

ثم قال الملك متشدقًا بعد نصف دقيقة تقريبًا:

«على الأقل، هذا ما ظننته أنا».

قال الدوق بنفس الطريقة:

«على النقيض، هذا ما ظننته أنا».

انزعج الملك نوعًا ما، ثم قال:

«ماذا تقصد يا بيلجووتر؟».

رد الدوق بسرعة شديدة:

«عندما يصل الأمر إلى هذا الحد، فربما ستسمح لي بأن أسألك عن قصدك أنت».

رد الملك بتهكم شديد، قائلًا: «اللعنة! لا أدري، ربما كنت نائمًا ولم تكن واعيًا لما تفعله».

نهض الدوق على الفور، وقال:

«دعك من هذا الهراء، هل تعتقد أنني أحمق؟ أتظن أنني لا أعرف من خبأ النقود في التابوت؟».

«نعم يا أفندي! أنا أعرف أنك تعرف، لأنك أنت من خبأته بنفسك!».

«هذا افتراء!»، ثم اندفع نحوه فصاح الملك:

«ابعد يديك عني! ابعد يديك عن حلقي! اسحب كل ما قلته!».

فقال الدوق:

«حسنًا، اِعترف أنك خبأت النقود هناك، وأنك كنت تنوي الهرب مني يومًا ما من أجل أن تعود وتحفر وتحتفظ بالنقود كلها لنفسك».

«انتظر لحظة أيها الدوق، أجبني على هذا السؤال بصراحة وأمانة، إن لم تضع النقود هناك، فقل لي وسأصدقك وأسحب كل ما قلته».

«لم أضعه هناك أيها العجوز المحتال، وأنت تعرف ذلك!».

«حسنًا إذًا، أصدقك. لكن أجبني على سؤال آخر ولا تغضب؛ ألم يخطر إلى بالك أن تسرق النقود وتخبئها؟».

لم يرد الدوق لوهلة، ثم قال:

«حسنًا، لا يهمني إن كان ذلك خطر إلى بالي، لأنني لم أفعل ذلك على أية حال. أما أنت فلم يقتصر الأمر معك على أنه خطر إلى بالك، بل نفذت الأمر أيضًا».

«يا ليتني لا أموت أبدًا لو كنت قد فعلت ذلك أيها الدوق، هذه

هي الحقيقة. أنا لا أقول إنني لم أنوِ فعل ذلك لأنني كنت أنوي، لكنك.. أعني.. لقد سبقني شخص ما وفعل ذلك».

«أنت تكذب! لقد خبأتها ويجب أن تعترف بذلك وإلَّا..».

أخذ الملك يصدر صوتًا مثل غرغرة، ثم اندفع قائلًا:

«هذا يكفي! لقد خبأته!».

سررت جدًّا عندما سمعته يقول ذلك وشعرت براحة كبيرة جدًّا، ثم رفع الدوق يديه وقال:

«إذا أنكرت الأمر ثانية، فسأدعك تغرق في النهر. إن الجلوس هناك والبكاء مثل طفل يليق بك بعد الطريقة التي تصرفت بها، إنك مثل نعامة عجوز تريد أن تأكل كل ما يأتي في طريقها. لقد وثقت بك كما لو كنت أبي. عليك أن تخجل من نفسك لأنك وقفت تسمع التهم وهي تُلقى على هؤلاء الزنوج المساكين دون أن تقول كلمة واحدة تدافع بها عنهم. إنني أشعر بحمق شديد لأنني كنت غرًّا إلى هذا الحد، وصدقت كل هذه الترهات. عليك اللعنة، لقد فهمت الآن لماذا كنت حريصًا إلى هذا الحد أن تضع ما كان ناقصًا من النقود فور وصولنا إلى هناك؛ لقد أردت أن تحصل على حصتي من النقود التي جنيناها في نانساتش، إلى جانب النقود الأخرى التي اكتسبتها من عملية النصب هذه أو تلك، وتأخذها كلها لنفسك!».

قال الملك على استحياء وهو لا يزال يشهق:

«أنت من تحدث عن سد عجز النقود، لست أنا أيها الدوق».

رد الدوق: «توقف عن البكاء! لا أريد أن أسمع منك شيئًا! انظر إلى ما وصلنا إليه بسبب ما فعلته. لقد استردوا كل نقودهم، وحصلوا على نقودنا كلها أيضًا باستثناء شيكل أو اثنين. اخلد إلى الفراش ولا تتحدث معي بشأن النقود الناقصة طالما حييت!».

وهكذا، زحف الملك إلى داخل الكوخ وبدأ يسكر من أجل أن تتحسن حالته، ثم ما لبث أن بدأ الدوق هو أيضًا يسكر، وفي غضون نصف ساعة تصالحا من جديد، وكان ودهما يتزايد كلما ازدادوا سكرًا، ثم خلدا إلى النوم في محتضنين. ورغم أنهما قد ثملا جدًّا، فقد لاحظت أن الملك لم يمثل إلى الحد الذي منعه من أن يتذكر أن ينكر مرة أخرى إخفاء حقيبة النقود.

جعلني ما حدث أشعر بارتياح ورضًا. وعندما خلدا إلى النوم، أخذت أثرثر أنا وجيم كثيرًا وقصصت عليه كل شيء.

(٣١)

مضينا في النهر عدة أيام دون أن نتوقف عند أي بلدة. كنا نبتعد عن موطننا أكثر فأكثر، متجهين جنوبًا، وكان الجو شديد الحرارة. رأينا أشجارًا تتدلى من أطرافها طحالب إسبانية، مثل ضفائر رمادية طويلة، وكانت هذه المرة الأولى التي أشاهد فيها هذا النوع من الطحالب وهو ينمو، إلَّا أن منظرها جعل الغابة موحشة وكئيبة. عندما شعر المحتالان أنهما أصبحا بمنأًى عن الخطر، عادا إلى عمليات النصب التي يمارسانها على القرى.

في البداية، حاولا إلقاء محاضرة عن ضبط النفس إلَّا أنهما لم يتمكنا من جني ما يكفي من النقود لشراء خمر لكليهما، ومن ثم حاولا تعليم الرقص في قرية أخرى إلَّا أن موهبة الرقص التي كانا يمتلكانها لم تكن أفضل من تلك التي يمتلكها كنغر، وهكذا مع أول وثبة يثبانها وثب الحضور وراءهما حتى أخرجوهما من القرية، وفي مرة ثانية حاولا إلقاء خطبة إلَّا أنهما ما لبثا أن بدءا يخطبان حتى لعنهما الجمهور وأجبروهما على الرحيل، ثم حاولا مع التبشير والتنويم المغناطيسي والطب والتنجيم وقليلًا من كل شيء فلم

يخالفهما الحظ حتى أوشك الاثنان على الإفلاس فالتزما الطوافة وطفقا يفكران ويفكران دون أن يتحدث أيهما بكلمة واحدة نصف النهر تقريبًا، وشعرا باكتئاب ويأس شديدين.

أخيرًا، ذهب عنهما الاكتئاب وقرَّبا رأسيهما معًا داخل الكوخ وأخذا يتحدثان همسًا ساعتين أو ثلاث ساعات. شعرت أنا وجيم بالقلق، ولم يعجبنا الوضع، وكنا نعرف أنهما يخططان لشيء أسوأ بكثير من أي احتيال سابق. قلبنا الأمر كثيرًا وتوقعنا أنهما يخططان لاقتحام منزل أو متجر أو لتزوير نقود أو شيء من هذا القبيل. كنا نشعر بخوف شديد، واتفقنا على عدم توريط أنفسنا في مثل هذه الأمور أبدًا، وقررنا أن نمضي ونتركهما وراءنا إن حدث وتورطنا في شيء. ثم في صباح أحد الأيام، خبأنا الطوافة في مكان آمن يبعد ميلين تقريبًا عن قرية فقيرة اسمها بايكسفيل، وقال الملك إنه سيذهب إلى الشاطئ ليعرف إن كان أحد قد سمع شيئًا عما حدث في رويال نانساتش وطلب منا جميعًا أن نبقى مختبئين حتى يذهب إلى البلدة (حدثت نفسي: قصدك لتسرق منزلًا، وعندما تنتهي من سرقته تعود إلى هنا وترى أين ذهبت أنا وجيم والطوافة وتبقى هكذا طوال حياتك تطرح هذا التساؤل)، وقال إنه لو لم يعد قبل منتصف النهار، فسأعرف أنا والدوق أن كل شيء على ما يرام وحينئذ نذهب إليه.

وهكذا بقينا في مكاننا، إلَّا أن الدوق كان قلقًا ومضطربًا وكانت حالته سيئة جدًّا فأخذ يوبخنا على أي شيء نفعله؛ إذ لم يبدُ له أننا نفعل أي شيء على نحو صحيح ووجد في كل شيء صغير فعلناه

خطأً. لقد كانا يدبران أمرًا بالتأكيد، ولذلك كنت سعيدًا عندما لم يعد الملك عند منتصف النهار، لأن ذلك كان يعني أن شيئًا من الممكن أن يتغير وأننا من الممكن أن نتخلص من هذين المحتالين، وهكذا ذهبت أنا والدوق إلى البلدة وبحثنا عن الملك في كل مكان، وسرعان ما وجدناه في غرفة خلفية بحانة صغيرة وضيعة. كان ثملًا جدًّا، وكانت هناك مجموعة من المتسكعين الذين يضايقونه من أجل التسلية، وقد أخذ يلعنهم ويهددهم بكل قوته، إلَّا أنه كان ثملًا بدرجة لم تسمح له بالسير أو حتى بأن يفعل بهم شيئًا. أخذ الدوق يصيح عليه وينعته بالأحمق العجوز، فرد عليه الملك سبابه، وعندما حمي بينهما العراك بسطت ساقي للريح وركضت على الطريق المؤدية إلى النهر مثل غزال، لأني رأيت في هذه المعركة فرصتنا وقررت أن أجعله يومًا طويلًا عليهما قبل أن يعثرا عليَّ أنا وجيم من جديد. وصلت إلى الطوافة مقطوع الأنفاس، لكنني كنت مفعمًا بالسعادة وصحت قائلًا: «فك وثاق الطوافة يا جيم! لقد أصبحنا في أمان الآن»!

إلَّا أنه لم يرد، ولم يخرج أحد من الكوخ. لقد اختفى جيم! أخذت أصيح وأصيح وأصيح، ثم ركضت إلى الغابة وأنا أصيح وأصرخ في كل اتجاه، دون فائدة. لقد اختفى جيم. لم أستطع أن أتمالك نفسي، فجلست وبكيت، إلَّا أنني لم أستطع البقاء ساكنًا فترة طويلة، وسرعان ما خرجت إلى الطريق محاولًا التفكير في أفضل حل عليَّ القيام به. بالصدفة مررت بفتًى، فسألته إن كان قد رأي زنجيًّا غريبًا عن البلدة ووصفت له ملابسه، فقال:

«نعم».

قلت: «أين؟».

«في سيلاس فيليبس، على بعد ميلين. لقد كان زنجيًّا هاربًا وقد ألقوا القبض عليه، هل كنت تبحث عنه؟».

«بالطبع لا! لقد صادفته في الغابة منذ حوالي ساعة أو ساعتين، وهددني بقطع أمعائي إن صرخت، وأمرني بأن أنبطح وأبقى مكاني، ففعلت ما قاله لي وبقيت هناك منذ ذلك الحين لأنني كنت خائفًا أن أخرج».

قال: «حسنًا، لا داعي إلى الخوف الآن لأنهم ألقوا القبض عليه؛ إنه هارب من الجنوب».

«من الجيد أنهم ألقوا القبض عليه».

«أعتقد ذلك! لقد كانت هناك جائزة مئتي دولار لمن يعثر عليه؛ الأمر أشبه بالعثور على نقود في الطريق».

«نعم، هذا حقيقي. كنت لأحصل على الجائزة لو كنت كبيرًا بما يكفي لأنني رأيته أولًا، من عثر عليه؟».

«رجل عجوز غريب عن البلدة؛ لقد سلمه مقابل أربعين دولارًا فقط، إذ كان مضطرًّا إلى ركوب النهر ولم يكن بوسعه الانتظار، كنت لأنتظر حتى لو استغرق الأمر سبع سنوات».

قلت: «وأنا أيضًا، كنت لأفعل نفس الشيء. لكن إذا باعه بثمن بخس هكذا، فربما لا يستحق الأمر أكثر من ذلك وربما يكون هناك شيء مريب في الأمر».

«لكنه يستحق أكثر من ذلك، لأن كل شيء كان مضبوطًا، لقد رأيت الإعلان بنفسي، إنه يحكي كل شيء عنه بالتفصيل وهناك رسمة تصوره بالضبط، كذلك فإن الإعلان يقول إنه من نيو أورلينز. لا يا أفندي، ليس هناك خطأ في الأمر بالتأكيد. قل لي، هل يمكن أن تعطيني مضغة تبغ؟».

لم يكن معي أي تبغ، فرحل وعدت أنا إلى الطوافة. جلست داخل الكوخ أفكر، لكنني لم أتوصل إلى حل. أصابني صداع من كثرة التفكير دون أن أرى مخرجًا من الورطة. بعد كل هذه الرحلة الطويلة، وبعد كل ما فعلناه من أجلهما، ضاع كل شيء وذهب سدًى لأن قلبيهما طاوعهما لخداع جيم بهذه الطريقة، وعاد عبدًا من جديد وسط أغراب، وسيبقى هكذا طوال حياته من أجل أربعين دولارًا حقيرين.

خطر إليَّ أن أكتب إلى توم سوير وأطلب منه أن يخبر الآنسة واتسون بمكان جيم، لأنني رأيت أنه طالما كان على جيم أن يبقى عبدًا فمن الأفضل له ألف مرة أن يكون عبدًا في موطنه ووسط عائلته، إلَّا أنني سرعان ما تخليت عن الفكرة لسببين، الأول أنها ستكون غاضبة ومشمئزة من نذالته وجحوده، اللذين مكناه من الرحيل، ومن ثم ستبيعه على الفور إلى الجنوب مرة أخرى، وحتى لو لم تفعل ذلك، فإن الجميع يكرهون الزنوج الجاحدين وسيجعلون جيم يشعر بذلك طوال الوقت، وبالتالي سيشعر بالعدوانية والخزي. ثم فكرت في وضعي! سيعرف الجميع أن هاك فِن ساعد زنجيًّا على نيل حريته، وإن قُدر لي أن أرى شخصًا في

تلك البلدة من جديد، فسأكون مستعدًّا أن أجثو وألعق نعليه من الخزي. هذا هو حال المرء: يفعل شيئًا دنيئًا ثم يعزف عن تحمل عواقبه. لقد ظننت أن الأمر غير مخزٍ طالما ظل جيم مختبئًا، لقد كان هذا بالضبط هو المأزق الذي وقعت فيه. كان ضميري يؤنبني أكثر وشعوري بالشر والخسة يتزايد كلما فكرت في الأمر. في نهاية الأمر، اكتشفت أن ما حدث هو لطمة صريحة على وجهي من يد العناية الإلهية لتوضح لي أنها كانت تراقب شري طوال الوقت من السماء، ورأتني وأنا أسرق زنجيًّا تملكه امرأة عجوزة مسكينة لم تؤذني أبدًا، ولهذا فهي تريني الآن أن هناك إلهًا مطلعًا على الدوام ولن يسمح بالتمادي في مثل هذه الأفعال الدنيئة إلى هذا الحد، فكدت أفقد وعيي من شدة الخوف. حاولت قدر استطاعتي أن ألطف من وقع الأمر على نفسي بطريقة ما بأن قلت إنني نشأت على الشر، وأنني ما كنت لألام كثيرًا، إلَّا أن شيئًا ما بداخلي ظل يقول: «كانت هناك مدرسة الأحد، كان بإمكانك أن تذهب إليها، وكانوا سيعلمونك أن الأشخاص الذين يتصرفون بمثل هذه الطريقة التي تصرفت بها حيال ذلك الزنجي ستقودك إلى نار خالدة».

جعلني الأمر أرتجف، فعقدت العزم على أن أصلي وأرى إن كان بوسعي أن أتخلص من طبيعتي وأصير فتًى أفضل. وهكذا، جثوت على ركبتي، إلَّا أن الكلمات رفضت أن تخرج، لماذا ترفض أن تخرج؟ لم تكن هناك فائدة من محاولة إخفاء الأمر عنه أو عني؛ لقد كنت أعرف جيدًا السبب الذي يمنع الكلمات من الخروج؛ ذلك أن قلبي لم يكن نقيًّا ولم أكن صادقًا وكنت منافقًا لأنني كنت

مستعدًّا أن أتخلى عن خطاياي، ورغم ذلك كنت متمسكًا في داخلي بأكبر خطيئة على الإطلاق. لقد كنت أحاول أن أجعل لساني يقول إنني سأفعل الشيء الصائب والصحيح، وأنني سأذهب وأكتب إلى مالكة هذا الزنجي وأخبرها بمكانه، لكن في أعماقي كنت أعرف أن هذه كذبة وأنه كان يعرف ذلك. لقد اكتشفت أنه لا يمكن للمرء أن يدعو بكذبة.

كنت منغمسًا في المشاكل تمامًا؛ منغمسًا إلى أقصى درجة. لم أدرِ ماذا أفعل. وأخيرًا واتتني فكرة وقررت أن أذهب وأكتب الخطاب وأرى إن كان بوسعي حينئذ أن أدعو. كانت فكرة مدهشة؛ جعلتني أشعر أنني خفيف مثل الريشة وأن مشاكلي اختفت تمامًا. وهكذا، أحضرت ورقة وقلم رصاص وجلست أكتب وأنا مفعم بالسرور والحماس:

الآنسة واتسون.. الزنجي جيم الذي هرب منك موجود هنا على بعد ميلين جنوب بايكسفيل، وقد أصبح الآن بحوزة السيد فيلبس، لكنه سيعيده إليك إذا دفعت المكافأة.

هاك فِن

وهكذا، أحسست لأول مرة في حياتي أن ذنوبي كلها قد محيت وشعرت بسعادة. كنت أعرف أن بوسعي الدعاء الآن، لكنني لم أدعُ على الفور. وضعت الورقة وجلست أفكر في كيف أن الطريقة التي جرت عليها الأمور كانت جيدة، وكيف أنني كنت على شفا الضياع ودخول النار، ثم فكرت في رحلتنا جنوب النهر وأنا أرى

جيم أمام عيني طوال الوقت، ليل نهار، تحت ضوء القمر أحيانًا، ووسط العواصف أحيانًا أخرى، ونحن نتحرك في المياه، ونتحدث ونغني ونضحك. لسبب ما، لم أستطع أن أتذكر شيئًا يجعلني أشعر باستياء ناحيته. على النقيض، تذكرته عندما كان يناوب فوق مناوبته حتى لا يوقظني ويتركني نائمًا، ورأيته كيف كان مسرورًا عندما عدت بعد أن تفرقنا وسط الضباب وعندما رأيته مجددًا عند المستنقع حيث كانت الخصومة، وما إلى ذلك. كان دائمًا يناديني «عزيزي»، وكان يدللني ويفعل كل شيء يستطيع التفكير فيه من أجلي، وكان طيبًا جدًّا معي طوال الوقت، وأخيرًا تذكرت المرة التي أنقذته فيها عندما قلت للرجلين إننا مصابون بالجدري على متن الطوافة، وكيف كان ممتنًا وكيف قال إنني أفضل صديق حظي به جيم على الإطلاق وكيف أنني كنت صديقه الوحيد. حينئذ وقع نظري على الورقة بالصدفة بينما أحرك رأسي.

كان موقفًا صعبًا؛ أخذت الورقة وأمسكتها في يدي وأنا أرتعش. كان عليَّ أن أختار بين أمرين، وكنت أعرف أن نتيجة قراري ستلازمني إلى الأبد. فكرت دقيقة وأنا أحبس أنفاسي نوعًا ما، ثم قلت:

«حسنًا إذًا، سأذهب إلى الجحيم»، وقطعت الورقة.

كانت أفكارًا مروعة وكلمات مروعة، لكنني قلتها ولم أتراجع عنها ولم أفكر في إصلاح نفسي مرة أخرى. نفضت الأمر كله من رأسي وقررت العودة إلى الشر مجددًا طالما أنه يسير في دمي ونشأت

عليه، بخلاف الآخرين. كبداية، قررت أن أذهب وأخطط لسرقة جيم وتحريره من العبودية مرة أخرى، وإن استطعت التفكير في شيء أسوأ سأفعله، إذ طالما سأكون شخصًا سيئًا فربما من الأفضل أن أكون سيئًا على أكمل وجه.

جلست أفكر في حل، وبالفعل توصلت إلى أكثر من طريقة ووضعت خطة ملائمة في النهاية؛ قررت التوجه إلى جزيرة شجيرية تبعد قليلًا عن النهر. فور أن أظلم الليل، مضيت نحو الجزيرة بالطوافة، وعندما وصلت إلى هناك خبأتها وخلدت إلى النوم. قضيت الليل كله نائمًا واستيقظت قبل شروق الشمس، ثم تناولت إفطاري وارتديت بعض الملابس الجاهزة، ووضعت بقية الملابس مع أغراض أخرى داخل حزمة، وركبت الزورق وتوجهت إلى الشاطئ ورسوت في مكان اعتقدت أنه قصر فيلبس، ومن ثم خبأت حزمتي في الغابة وملأت الزورق بالماء والحجارة وأغرقته في مكان يمكنني العودة إليه عند الضرورة، وكان هذا المكان يبعد مسافة ربع ميل عن ضفة متواجد عليها ورشة لنشارة الخشب.

مضيت في الطريق المؤدية إلى الورشة، وعندما وصلت إليها رأيت لافتة مكتوب عليها «ورشة فيلبس لنشارة الخشب». عند مروري بالبيوت الزراعية، التي تبعد مئتين أو ثلاث مئة ياردة، أبقيت عينيَّ مفتوحتين لكنني لم أرَ أحدًا في الجوار رغم أن الشمس كانت ساطعة في تلك اللحظة. لم يضايقني هذا الأمر، لأنني لم أرغب في رؤية أحد وكان كل ما أرغب فيه هو رؤية الأرض. وفقًا إلى الخطة التي وضعتها، كنت سأذهب إلى القصر من ناحية القرى

وليس من النهر، وهكذا ألقيت نظرة حولي ومضيت مباشرة نحو البلدة، وكان أول شخص رأيته هو الدوق؛ كان يلصق إعلانًا عن عرض يمتد ثلاث ليال، مثل ذلك الذي قدماه في رويال نانساتش. كم كان هذان المحتالان جريئين! وللأسف تلاقينا قبل أن أتمكن من الهرب، فبدت عليه الدهشة ثم قال:

«أهلًا! من أين أتيت؟»، ثم قال بنوع من السعادة والحماس: «أين الطوافة؟ هل وضعتها في مكان جيد؟».

قلت:

«هذا بالضبط ما كنت سأسأل سموك بشأنه».

فاختفت السعادة من على وجهه، وقال:

«ولماذا كنت ستسألني عنها؟».

قلت: «عندما رأيت الملك في تلك الحانة بالأمس، قلت لنفسي إننا لن نتمكن من إعادته إلى الطوافة قبل ساعات؛ حتى يفيق. وهكذا أخذت أتسكع في البلدة لأملأ الوقت، فالتقيت رجلًا عرض عليَّ عشرة سنتات نظير مساعدته في جر زورق إلى النهر ثم العودة من أجل إحضار خروف، فوافقت. لكننا عندما حاولنا جر الخروف إلى القارب، طلب مني الرجل أن أمسك الحبل حتى يتمكن من دفع الخروف من الخلف، إلَّا أن الخروف كان قويًا جدًّا فاندفع وأفلت من يدي. ونظرًا إلى أنه لم يكن معنا كلب، ركضنا وراءه في كل مكان في البلد حتى حلول الظلام، وعندما أنهكه التعب أمسكنا به وعدت إلى الطوافة، لكنني وجدت أنها قد اختفت، فقلت لنفسي:

«لقد وقعوا في المشاكل واضطروا إلى الرحيل، وأخذوا خادمي الزنجي؛ الزنجي الوحيد الذي أملكه في العالم، وصرت الآن في بلد غريب دون أملاك ودون شيء ودون وسيلة أوفر بها ما يكفي معيشتي، فجلست وبكيت ونمت في الغابة طوال الليل. لكن ماذا حدث للطوافة إذًا؟ وجيم.. جيم المسكين!»».

«يا ليتني أعرف ما حدث للطوافة. كل ما أعرفه هو أن ذلك العجوز الغبي جنى أربعين دولارًا، وعندما وجدناه في تلك الحانة كان هؤلاء المتسكعون قد قايضوه على أنصاف دولارات وحصلوا على كل سنت لم ينفقه على الويسكي، وعندما أوصلته إلى الطوافة في وقت متأخر من الليلة الماضية ووجدت أن الطوافة قد اختفت، قلنا: «لقد سرق ذلك المحتال الصغير طوافتنا وهرب جنوب النهر»».

«ما كنت لأهرب من خادمي الزنجي، أليس كذلك؟ لقد كان هذا الزنجي الوحيد هو كل ما أمتلكه في هذه الدنيا».

«لم نفكر في هذا، والحقيقة أننا كنا نعتبره خادمنا. نعم، كنا نعتبره خادمنا، والرب يعلم كَمَّ الصعاب التي واجهناها من أجله. وهكذا، عندما رأينا أن الطوافة قد اختفت وأننا أفلسنا، لم يكن أمامنا سوى أن نجرب حيلة رويال نانساتش مرة أخرى. إن جيوبي فارغة مثل حاوية بارود، وبالكاد أستطيع تدبر نفقاتي. أين هذه العشرة سنتات؟ أعطني إياها».

كانت معي نقود كثيرة فأعطيته العشرة سنتات، لكنني توسلت إليه أن ينفقها على شراء طعام وأن يعطيني بعضًا من ذلك

الطعام، لأن هذه العشرة سنتات كانت كل ما أملك من نقود، وأنني لم أتناول شيئًا منذ البارحة، لكنه لم يرد. وبعد دقيقة، التفت إليّ وقال:

«هل تعتقد أن ذلك الزنجي سيشي بنا؟ لأننا سنسلخ جلده إذا فعل ذلك!».

«كيف سيشي؟ ألم يهرب؟».

«لا! لقد باعه هذا الأحمق العجوز، ولم يقسم النقود معي، وضاعت النقود».

قلت: «باعه؟»، ثم بدأت أبكي، وأردفت: «لقد كان خادمي الزنجي، وكانت هذه النقود نقودي. أين هو؟ أنا أريد خادمي الزنجي».

«توقف عن البكاء، لن تتمكن من استعادة خادمك الزنجي. انظر هنا؛ هل تعتقد أنك ستخاطر بأن تشي بنا؟ لا أظن أنني أثق بك. إن كنت ستشي بنا..».

ثم توقف عن الحديث، وظننت حينها أنني لم أرَ عيني الدوق بهذا القبح من قبل، استمررت في البكاء وقلت:

«لا أريد أن أشي بأحد، وليس لديَّ وقت للوشاية على أي حال. يجب أن أذهب وأبحث عن خادمي الزنجي».

بدا متضايقًا نوعًا ما، وأخذت الملصقات تتطاير على ذراعه وهو يفكر مجعد الجبين. ثم قال أخيرًا:

«سأعقد معك اتفاقًا. سنبقى هنا ثلاثة أيام. إذا وعدتني بأنك لن تشي بنا، ولن تدع الزنجي يشي بنا، سأخبرك بمكانه».

وهكذا وعدته، ثم قال:

«مزارع اسمه سايلاس فيـ» ثم توقف. كان على وشك أن يخبرني بالحقيقة، لكنني أعتقد أنه كان على وشك أن يغير رأيه عندما توقف بهذه الطريقة وبدأ يفكر ويدرس الأمر من جديد. وهذا هو ما حدث؛ لم يثق بي وأراد أن يتأكد من أنني لن أعترض طريقه طوال الثلاثة أيام. وهكذا قال سريعًا: «الرجل الذي اشتراه يدعى أبرام فوستر؛ أبرام جي فوستر، ويعيش على بعد أربعين ميلًا خارج البلدة، على الطريق إلى لافايت».

قلت: «حسنًا، يمكنني أن أقطع هذه المسافة خلال ثلاثة أيام؛ سأتحرك بعد ظهر اليوم».

«لا. تحرك الآن، لا تنتظر إلى العصر؛ لا تضيع وقتًا ولا تتحدث تمامًا. أَبقِ لسانك معقودًا وامضِ في طريقك، ولن تتورط معنا في مشاكل، هل تسمعني؟».

كان هذا هو الأمر الذي انتظرت تلقيه، وهذا ما لعبت من أجل الحصول عليه؛ كنت أريد أن أُترك حرًّا حتى أنفذ خطتي.

قال: «تحرك إذًا. يمكنك أن تقول للسيد فوستر ما تريد، وربما سيصدق أن جيم هو خادمك الزنجي؛ لأن بعض الحمقى لا يطلبون أي مستندات، أو على الأقل هذا ما سمعت أنه يحدث هنا في الجنوب. وعندما تخبره أن الإعلان والجائزة مزيفان، ربما سيصدقك

عندما تشرح له الغرض الذي صنع من أجله الإعلان. اذهب الآن وقل له ما تريد، لكن تأكد من ألَّا تفتح فمك حتى تصل إلى هناك».

وهكذا رحلت، متوجهًا إلى ما وراء البلدة. ورغم أنني لم ألتفت حولي، فقد شعرت بطريقة ما أنه يراقبني. كنت أعرف أنني سأرهقه سريعًا. ابتعدت عن البلدة بمقدار ميل، ثم توقفت وعدت أدراجي متجهًا إلى فيلبس عبر الغابة. قررت أن أبدأ في تنفيذ خطتي على الفور، دون أن أضيع وقتًا، لأنني أردت منع جيم من التحدث حتى يتمكن هذان الرجلان من الهرب، ذلك أنني لم أرغب في أي مشاكل مع هذه النوعية من الأشخاص؛ لقد رأيت ما يكفي منهما، وأردت أن أتخلص منهما تمامًا.

(٣٢)

عندما وصلت إلى هناك، كان كل شيء هادئًا هدوء أيام الآحاد؛ كان الجو حارًّا والشمس ساطعة والمزارعون يعملون في الحقول والبعوض والحشرات يحدثون طنينًا خافتًا يجعلك تشعر بأن الهواء يحمل إحساسًا بالوحدة، كما لو أن جميع البشر قد رحلوا أو ماتوا، وكان اهتزاز الأغصان بفعل الهواء يمنح شعورًا بالحزن، لأنه يجعلك تشعر أن أرواحًا ميتة منذ سنوات عديدة تهمس وتتحدث عنك، وكان هذا الهمس يجعل المرء يتمنى الموت وينتهي من كل شيء.

كانت أرض فيلبس واحدة من تلك المزارع القطنية الصغيرة التي تتشابه جميعًا، وكان هناك سياج حديدي مشقوق حول باحة مساحتها فدانان، وكان هناك سلم مصنوع من ألواح خشبية مقطوعة على أشكال جعلتها تشبه براميل ذات أطوال مختلفة؛ وكان هذا السلم مخصصًا لتسلق السور ومن أجل أن تصعد عليه النساء عند ركوب الجياد، وكانت هناك رقعة من أعشاب ضعيفة في الباحة الكبيرة، ورغم ذلك فقد كانت الأعشاب ناعمة ومكشوفة مثل

قبعة قديمة مهترئة، وكان هناك منزل من طابقين، للسكان البيض، قد بني من ألواح خشبية مشقوقة قد سُدت شقوقها بطين أو معجون، وقد دُهِنت هذه الشرائط الطينية باللون الأبيض في وقت ما، وكان هناك مطبخ مبني من جذوع شجر مستديرة، وكان يصل بين المطبخ والمنزل ممر واسع كبير مفتوح ومسقف، وكانت هناك مدخنة في ظهر المطبخ، وعلى الجانب المقابل من المدخنة اصطفت ثلاث غرف صغيرة، للزنوج، بنيت من الخشب، وكان هناك كوخ واحد صغير وقف بمفرده بعيدًا في مواجهة السور الخلفي، وكانت هناك بعض المراحيض الخارجية في مكان بعيد نوعًا ما عند الجانب الآخر، وكانت هناك سلة للرماد وغلاية كبيرة لغلي الشوربة بالقرب من الكوخ الصغير، وكان هناك مقعد إلى جانب باب المطبخ، وكانت هناك علبة مياه وقرعة، وكان هناك كلب نائم تحت الشمس، بالإضافة إلى كلاب أخرى نائمة في المكان، وكانت هناك ثلاث شجرات ظلية بعيدًا في ركن، بالإضافة إلى بعض أجمة الزبيب والمشمش في مكان ما إلى جانب السور، وكانت هناك حديقة ورقعة مزروعة بالبطيخ خارج السور، ثم بدأت حقول القطن ومن بعدها بدأت الغابة.

درت حول المزرعة، وتسلقت السلم المجاور لسلة الرماد، وتوجهت ناحية المطبخ. وعندما تقدمت قليلًا، سمعت صوتًا قادمًا من دولاب غزل، وكان الصوت يرتفع ثم ما يلبث أن ينخفض. وقد تمنيت حينها لو أنني ميت، لأن ذلك الصوت هو أكثر الأصوات الموحشة في العالم بأسره.

ثم مضيت قدمًا دون أي خطة محددة سوى ثقتي بأن العناية الإلهية ستلهمني بالكلمات الصحيحة في الوقت المناسب، إذ إنني لاحظت أن العناية الإلهية دائمًا ما تلهمني بالكلمات الصحيحة إذا سمحت لها.

عندما قطعت نصف الطريق نحو المطبخ، نهض كلب وتقدم نحوي، ثم نهض آخر، وبالطبع توقفت وواجهتهما صامتًا. ويا للضجة التي أحدثوها! خلال ربع دقيقة، أصبحت إن جاز التعبير محور عجلة وأصبحت الكلاب الإطار، إذ تجمع نحو خمسة عشر كلبًا حولي في دائرة، وامتدت أعناقهم ورقابهم وأنوفهم نحوي؛ وهم ينبحون ويصيحون، ثم أخذ المزيد منهم يتوافدون؛ حتى كان باستطاعتك أن تراهم قادمين من فوق الأسوار ومن الأركان في كل مكان.

اندفعت امرأة زنجية خارج المطبخ تمسك في يدها نشابة وتصيح: «ابتعد أيها الكلب! توقف مكانك! ارحل من هنا!»، ثم ضربت واحدًا، ومن بعده آخر، فابتعدا وهما ينبحان، ولحق بهم الآخرون. ثم عاد نصف الآخرين، وهم يهزون ذيولهم حولي ويحاولون كسب ودي. لا ضير من كلب، مهما كان.

خرجت فتاة زنجية صغيرة وراء هذه المرأة الزنجية، ومعها صبيان زنجيان صغيران. لم يكن يرتدي ثلاثتهم أي ملابس سوى قمصان قطنية، وكانوا يمسكون برداء والدتهم، ويختلسون النظر من ورائها في خجل، مثلما يفعلون دائمًا. ثم ما لبثت أن أتت سيدة

بيضاء من المنزل ركضًا؛ كان عمرها يناهز الخامسة والأربعين أو الخمسين، وكان شعرها مكشوفًا وعصا الغزل في يدها. ثم على نفس النحو الذي تصرف الزنوج الصغار، خرج أطفالها البيض الصغار وراءها وتصرفوا. كانت السيدة البيضاء تبتسم بكل كيانها حتى أنها واجهت صعوبة في الوقوف. وهكذا قالت: «ها قد جئت أخيرًا!».

وقبل أن أفكر، قلت: «نعم يا سيدتي».

جذبتني وعانقتني بقوة، ثم أمسكتني بكلتا يديها وأخذت تهزني كثيرًا، حتى اغرورقت عيناها بالدموع وأخذت تبكي. لم يبد أنها كانت تعانقني وتهزني بما يكفي، وظلت تقول: «إنك لا تبدو مثل والدتك على عكس ما ظننت، لكن هذا لا يهم، فأنا سعيدة جدًّا لرؤيتك! عزيزي، عزيزي، أود التهامك! يا صغار، هذا هو ابن خالتكم توم! حيوه».

إلَّا أنهم خفضوا رؤوسهم ووضعوا أصابعهم في أفواههم واختبئوا خلفها، فأردفت:

«لايز، أسرعي وأحضري له فطورًا ساخنًا على الفور، أم أنك تناولت إفطارك على القارب؟».

قلت إنني تناولته على القارب، فمضت نحو المنزل وهي تمسكني من يدي، وأطفالها يركضون وراءها، وعندما وصلنا إلى المنزل أجلستني فوق كرسي له مقعد مصنوع من أخشاب متقاطعة، ثم جلست أمامي فوق كرسي قصير نوعًا ما، وهي تمسك بكلتا يديَّ وتقول:

«الآن يمكنني أن أمعن النظر إليك. يا إلهي، كم اشتقت إلى هذه اللحظة طوال تلك السنوات الطويلة، وها قد أتت أخيرًا! لقد توقعنا قدومك منذ يومين أو أكثر. ما الذي أخرك؟ هل توقف القارب؟».

«نعم يا سيدتي، لقد..».

«لا تقل سيدتي، قل الخالة سالي. أين توقفت».

لم أدرِ ما أقول في بداية الأمر، لأنني لم أكن أعرف إن كان القارب من المفترض أن يأتي من شمال النهر أم من جنوبه، إلَّا أنني كنت أمتلك حدسًا جيدًا وكان حدسي يخبرني أنه كان قادمًا من الجنوب تجاه الشمال، من ناحية أورلينز. إلَّا أن ذلك لم يكن ذا نفع كبير، لأنني لم أكن على علم بأسماء الشواطئ المتواجدة في تلك الناحية، ورأيت أنه سيتعين عليَّ اختراع اسم شاطئ أو أن أدعي نسيان اسم الشاطئ الذي توقفنا عنده، ثم واتتني فكرة وقلت:

«لم يكن الوقوف هو ما أخرنا؛ لأن ذلك لم يستغرق وقتًا طويلًا، إلَّا أن رأس الأسطوانات انفجرت».

«يا إلهي، هل تأذى أحد؟».

«لا يا سيدتي. ومع ذلك، فقد لقي زنجي مصرعه».

«هذا من حسن الحظ، إذ إن الناس يتأذون في بعض الأحيان. منذ عامين، في عيد الميلاد المجيد، كان زوج خالتك سايلاس قادمًا من نيو أورلينز على متن لالي رووك، وانفجرت رأس الأسطوانات

وتسببت في إعاقة رجل، وأعتقد أنه توفي بعد ذلك. لقد كان معمدانًا. كان زوج خالتك سايلاس يعرف عائلة في باتون روج، وكانت هذه العائلة تعرف أهله جيدًا. نعم، لقد تذكرت الآن؛ لقد توفي. أصابته غَنْغَرِينا، واضطروا إلى بترها. إلّا أن ذلك لم ينقذه. نعم، أصابته غَنْغَرِينا؛ هذا ما حدث. تحول جسده كله إلى اللون الأزرق، ومات على أمل البعث المجيد. قالوا إن منظره كان رهيبًا. لقد ظل زوج خالتك يذهب كل يوم إلى البلدة من أجل إحضارك، وقد ذهب مجددًا منذ ما لا يزيد عن الساعة، وسيعود خلال أي دقيقة الآن. لا بد وأنك التقيته على الطريق، أليس كذلك؟ رجل عجوز، بـ».

«لا، لم أرَ أحدًا يا خالتي سالي. لقد رسا القارب عند شروق الشمس بالضبط. ولهذا، فقد تركت أمتعتي على المرفأ وذهبت أستطلع البلدة، ثم مضيت قليلًا ناحية الريف لأمرر الوقت، حتى لا أصل إلى هنا في وقت مبكر، ثم أتيت إلى هنا من الطريق الخلفي».

«إلى من أعطيت أمتعتك؟».

«لم أعطها لأحد».

«لكنها ستُسرق بهذه الطريقة يا صغيري!».

قلت: «لا أعتقد أنها ستُسرق من المكان الذي خبأتها فيه».

«كيف تمكنت من تناول إفطارك على القارب في ذلك الوقت المبكر؟».

رأيت أنني كنت في مأزق، لكنني قلت:

«لقد رآني القبطان واقفًا بمفردي، فنصحني أن أتناول شيئًا قبل أن يرسو القارب، ثم أخذني إلى قاعة الطعام الخاصة بالطاقم، وأعطاني كل ما اشتهيت».

كان قلقي قد تزايد، فلم أستطع أن أستمع إليها جيدًا؛ كان تفكيري منصبًّا على الأطفال طوال الوقت، لأنني أردت أن أتحدث إليهم على انفراد وأستقي منهم المعلومات حتى أعرف من أنا، لكنني لم أستطع لأن السيدة فيلبس ظلت تثرثر، وسرعان ما جعلت الرعشة تسير في ظهري عندما قالت:

«لقد تحدثتُ كثيرًا، ولم أدع لك مجالًا لكي تخبرني بشيء عن شقيقتي ولا عن أيٍّ منهم، ولهذا فسأتوقف قليلًا حتى تتحدث أنت؛ أخبرني كل شيء عن كل واحد منهم جميعًا، وكيف هي أحوالهم، وماذا يفعلون، وماذا طلبوا منك أن تقوله لي، وكل شيء يخطر إلى بالك».

رأيت أنني أصبحت في مأزق، وأن المأزق كان كبيرًا؛ لقد ساندتني العناية الإلهية كثيرًا حتى هذه اللحظة، لكنني أصبحت في ورطة الآن، ولم أرَ فائدة من الاستمرار، ورأيت أن أنهي الأمر. وهكذا قلت لنفسي إن هذه مرة أخرى يتعين عليَّ فيها المخاطرة بقول الحقيقة، إلَّا أنني عندما فتحت فمي لأتحدث، أمسكتني وأخفتني وراء الفراش، وقالت:

«ها قد أتى! اخفض رأسك.. هكذا، بالضبط. لا يمكنه أن

يراك الآن. لا تدعه يلحظ أنك هناك، سأدبر له مقلبًا. لا تقولوا كلمة واحدة يا أولاد».

لقد رأيت أنني أصبحت في مأزق الآن، لكن لم تكن هناك فائدة من القلق، إذ لم يكن بوسعي القيام بشيء سوى أن أبقى ساكنًا وأكون مستعدًّا لتفادي البرق عندما يومض.

اختلستُ نظرة واحدة سريعة على السيد العجوز عندما دخل، إلّا أن الفراش أخفاه بعد ذلك. اندفعت السيدة فيلبس نحوه، قائلة:

«هل وصل؟».

قال زوجها: «لا».

قالت: «يا إلهي! يا ترى ماذا حدث له؟».

قال السيد العجوز: «لا أعرف، ويجب أن أعترف أن الأمر يقلقني كثيرًا».

قالت: «يقلقك! لقد كدت أُجن! لا بد من أنه قد وصل وأنك لم تنتبه إليه على الطريق. أنا متأكدة أن هذا هو ما حدث، قلبي يحدثني».

«لا يمكن ألّا أنتبه إلى على الطريق يا سالي، أنت تعلمين ذلك».

«لكن يا عزيزي، يا عزيزي، ماذا ستقول شقيقتي! لا بد من أن يكون قد وصل! لا بد من أنك لم تنتبه إليه. إنه..».

«لا تقلقيني أكثر من القلق الذي أحمله بداخلي، لا أعرف ماذا حدث، لقد أوشكت على الجنون، ولا أخفي عليك أنني خائف

جدًّا. لكن ليس هناك علامة على قدومه، لأنه ليس من الممكن أن يكون قد وصل ولم أنتبه إليه. إن الوضع رهيب يا سالي؛ رهيب. لقد حدث شيء للقارب؛ أنا متأكد!».

«سايلاس! انظر إلى هناك! على الطريق! هل أتى شخص؟».

انطلق ناحية النافذة المتواجدة عند رأس الفراش، فسنحت الفرصة التي كانت السيدة فيلبس بحاجة إليها، فانبطحت بسرعة إلى قدم الفراش وجذبتني، فخرجت. وعندما أشاح السيد العجوز بنظره عن النافذة واستدار، وقف مكانه مبتهجًا ومبتسمًا مثل منزل محترق، بينما وقفت أنا هناك في وداعة وقلق. أخذ السيد العجوز يحدق، ثم قال:

«من هذا؟».

«من هذا في رأيك؟».

«ليس لديَّ أدنى فكرة، من هو؟».

«إنه توم سوير!».

كدت أقع على الأرض! لكن لم يكن هناك وقت، إذ أمسكني السيد العجوز بيدي وهزني، وظل يهزني، وأخذت السيدة ترقص وتضحك وتبكي طوال الوقت، ولم يتوقف الاثنان عن طرح أسئلة عن سيد وماري وبقية العائلة.

مهما كانت سعادتهم غامرة، لم تكن تُضاهي ما شعرت به؛ لقد شعرت بأنني ولدت من جديد وكنت سعيدًا جدًّا لأنني عرفت

من أكون. تمسمر الاثنان أمامي ساعتين، وحكيت لهم أشياء تكفي ستة عائلات سوير، حتى شعرت بألم في ذقني وأحسست أنه لم يعد بوسعي أن أتحدث أكثر من ذلك. وقصصت عليهم كل شيء يخص انفجار رأس الأسطوانات عند فم النهر الأبيض، وحكيت لهم أن إصلاحه استغرق ثلاثة أيام، وقد مرت هذه الحكاية بسلام وعلى أفضل وجه، لأنهم لم يكونوا على علم بما يستغرق إصلاحه ثلاثة أيام، وكان الأمر ليسير على ما يرام أيضًا لو أخبرتهم أنه رأس ترباس.

أصبحت الآن مرتاحًا جدًّا من ناحية ومضطربًا جدًّا من ناحية أخرى. أن أكون توم سوير سهل ومريح، وقد ظل سهلًا ومريحًا حتى سمعت صوت باخرة تصل إلى النهر بعد فترة قصيرة، فقلت لنفسي: افترض أن توم سوير وصل على هذا القارب؟ وافترض أنه أتى إلى هنا في أي دقيقة، وصاح باسمي قبل أن أغمز له ليبقى هادئًا؟ لا يمكن أن أدع هذا يحدث، لن يفلح الأمر على الإطلاق، يجب أن أخرج إلى الطريق وأرقب وصوله، وهكذا أخبرتهم أنني أرغب في الذهاب إلى البلدة من أجل إحضار أمتعتي، فعرض السيد العجوز أن يذهب معي، لكنني رفضت وأخبرته أن بإمكاني ركوب الحصان بنفسي وأنني أُفضل ألَّا يتكبد عناءً من أجلي.

(٣٣)

وهكذا تحركت نحو البلدة بالعربة. وعندما قطعت نصف الطريق، رأيت عربة قادمة وكنت متأكدًا من أن توم سوير كان فيها. وهكذا، توقفت وانتظرت حتى وصلت عربته إلى المكان الذي كنت أقف فيه، ثم قلت: «مهلًا!»، فتوقفت العربة إلى جواري. انفتح فمه مثل حقيبة، وظل على هذه الحالة، ثم ابتلع ريقه مرتين أو ثلاث مرات مثل شخص جف حلقه وقال:

«أنا لم أتعرض لك بأي أذًى أبدًا، أنت تعرف ذلك، فلماذا عدت لملاحقتي؟».

قلت:

«أنا لم أعد، لأنني لم أمت من الأساس».

ارتاح قليلًا عندما سمع صوتي، لكنه لم يكن مقتنعًا بعد، فقال:

«لا تخدعني، لأنني ما كنت لأخدعك. قل لي بأمانة، ألست شبحًا؟».

قلت: «بأمانة، أنا لست شبحًا».

«حسنًا.. آ.. آ.. حسنًا، هذا يحسم الأمر بالتأكيد، لكنني لا أستطيع أن أفهم ما حدث، ألم تتعرض للقتل من الأساس؟».

«لا. لم أتعرض للقتل، لقد خدعتهم. تعالَ إلى هنا والمسني إن لم تكن تصدق».

ففعل ما قلت واقتنع وكان مسرورًا جدًّا لرؤيتي من جديد حتى لم يدرِ ما يفعل، وأراد أن يعرف كل شيء عن الأمر على الفور، لأنها كانت مغامرة عظيمة ومليئة بالغموض، خصوصًا أن هذا النوع من الحكايات كان المفضل لديه. لكنني طلبت منه أن ينتظر قليلًا، ثم طلبت إلى سائقه أن ينتظر، وسرنا بالعربة قليلًا وأخبرته بالورطة التي وضعت نفسي فيها، وسألته عن الحل الأفضل في رأيه، فطلب مني أن أتركه بمفرده دقيقة وألا أزعجه، وأخذ يفكر ويفكر، ثم قال بعد قليل:

«حسنًا، لقد وجدت حلًا. احمل حقيبتي إلى عربتك، وتظاهر بأنها حقيبتك، وعد أدراجك ببطء حتى تصل إلى المنزل في الوقت المفترض أن تصل فيه، أما أنا فسأذهب إلى البلدة وأعود من جديد حتى أصل بعدك بربع أو نصف ساعة. وتظاهر بأنك لا تعرفني».

قلت:

«حسنًا، لكن تمهل دقيقة، هناك شيء آخر لا يعرفه أحد عني؛ أنا أريد تحرير عبد زنجي من هنا. اسمه جيم؛ خادم الآنسة واتسون».

قال:

«ماذا! جيم..».

توقف وأخذ يفكر، فقلت:

«أنا أعرف ماذا ستقول؛ ستقول إنه عمل قذر وحقير، لكن حتى وإن كان كذلك؟ أنا حقير وسأسرقه، وأريد منك ألَّا تقول شيئًا وأن تتظاهر بأنك لا تعرف شيئًا عن الأمر، هل يمكنك فعل ذلك؟».

التمعت عيناه، وقال:

«سأساعدك على أن تسرقه!».

صدمت مما قاله كما لو كنت تعرضت إلى إطلاق نار، إذ كان هذا أكثر شيء مدهش سمعته على الإطلاق، ويتعين عليَّ أن أقول إن رأيي في توم سوير قد تغير كثيرًا، لأنني لم أستطع تصديق الأمر. توم سوير سارق زنوج!

قلت: «يا إلهي! هل تمزح؟».

«أنا لا أمزح».

قلت: «حسنًا إذًا، سواء كان هذا مزاحًا أم لا؛ إذا سمعت أي شيء عن زنجي هارب، لا تنسَ أن تتظاهر بأنك لا تعرف شيئًا عنه وأنني لا أعرف شيئًا عنه».

وهكذا، أخذنا الحقيبة ووضعناها في عربتي، ومضى كل منا في طريقه. لكنني بالطبع نسيت كل شيء عن القيادة ببطء لأنني كنت

مسرورًا ومستغرقًا في التفكير فوصلت إلى المنزل بسرعة أكبر بكثير مقارنة بطول الرحلة. كان السيد العجوز عند الباب، وقال:

«عظيم! من كان يظن أن هذه الفرس تمتلك تلك القدرة؟ يا ليتنا حسبنا الوقت. إنها لم تتعرق ولم تتساقط منها نقطة عرق واحدة حتى. يا له من أمر رائع. لن أقبل بأقل من مئة دولار مقابل هذه الفرس الآن، مع أنني كنت لأبيعها مقابل خمسة عشر دولارًا من قبل لأنني ظننت أنها لا تساوي أكثر من ذلك».

كان هذا هو كل ما قاله، إذ كان أكثر الأشخاص التي التقيتها طيبة ونقاءعلى الإطلاق، إلَّا أن هذا الأمر لم يكن مفاجئًا لأنه لم يكن مزارعًا وحسب بل كان واعظًا أيضًا، وكان يمتلك كنيسة صغيرة وراء المزرعة؛ كان قد تولى بناءها بنفسه وعلى نفقته الخاصة. كانت تحتوي بداخلها على كنيسة ومدرسة. ولم يكن يتلقى مقابلًا نظير خدماته الوعظية، رغم أن بوسعه القيام بذلك. كان هناك العديد من «الواعظين - المزارعين» في الجنوب على نفس شاكلته وكانوا يفعلون الشيء نفسه.

في غضون نصف ساعة، توقفت عربة توم أمام السلم، ورأتها الخالة سالي عبر النافذة، لأنها كانت على بعد خمسين ياردة فقط، ثم قالت:

«لقد جاء أحد ما! يا ترى من هو؟ أعتقد أنه غريب. جيمي (كان هذا أحد الأطفال)؛ اذهب واطلب من لايز أن تضع طبقًا إضافيًّا من أجل الغداء».

اندفع الجميع نحو البوابة الأمامية، إذ لم يكن قدوم الغرباء أمرًا معتادًا، ولذلك فقد كان الغرباء يحظون بكل الانتباه عند قدومهم. تسلق توم السلم وتقدم ناحية المنزل، بينما عادت العربة إلى القرية. وقفنا جميعًا عند البوابة الأمامية، وقد جذب توم سوير انتباه الجميع بما كان يرتديه من ملابس جاهزة، وقد كان توم سوير يحب هذا الأمر. كان بوسع توم سوير أن يضع قدر ما يشاء من لمسات خاصة، في مثل هذه الظروف، وعليه فلم يدخل عبر الباحة بمظهر الحمل الوديع، بل تقدم في هدوء وهيبة الكباش، وعندما أصبح في مواجهتنا، رفع قبعته برقة وتهذيب، كما لو كانت قبعته غطاء صندوق مملوء بالفراشات النائمة التي لم يرغب في إزعاجها، ثم قال:

«السيد أرشيبالد نيكولاس، على ما أعتقد؟».

قال السيد العجوز: «لا يا فتاي، يؤسفني أن أخبرك أن سائقك قد خدعك؛ إن قصر نيكولاس يقع على بعد ثلاثة أميال تقريبًا. تفضل، تفضل».

ألقى توم نظرة وراء ظهره، ثم قال: «لقد تأخرت وغاب عن مرمى البصر».

«نعم، لقد ذهب يا بني، ويجب أن تدخل وتتناول عشاءك معنا، ومن ثم سنوصلك إلى قصر نيكولاس».

«أوه، لا يمكنني أن أتسبب لكم في كل هذه المشقة، ليس لي أن أفعل ذلك. سأسير، لا تضايقني المسافة».

«لكننا لن نسمح لك بأن تسير، فهذا ليس من شيم الجنوب. تفضل إلى الداخل».

قالت الخالة سالي:

«تفضل، لن تتسبب لنا في أي قدر من المشقة على الإطلاق؛ يجب أن تبقى. إن هذه الأميال الثلاثة طويلة وتربة، ولا يمكن أن ندعك تسير هذه المسافة، فضلًا عن أنني طلبت منهم بالفعل أن يضعوا طبقًا إضافيًّا عندما رأيتك قادمًا، فلا تحبط آمالنا. تفضل واعتبر نفسك في بيتك».

شكرهم توم بود وامتنان، وتظاهر بأنهم أقنعوه، ثم دخل. وبعد أن دخل، قال إنه غريب قادم من هيكسفيل الواقعة في أوهايو، وأن اسمه ويليام تومسون، ثم انحنى مرة أخرى.

ظل يثرثر ويختلق أشياء عن هيكسفيل وعن ساكنيها قدر استطاعته، إلَّا أنني كنت قد بدأت أتوتر وأتساءل كيف من الممكن لهذا أن يُخرجني من ورطتي. وأخيرًا، بينما كان يتحدث، نهض وانحنى ناحية الخالة سالي وقبَّلها على شفتيها، ثم عاد إلى مقعده مرة أخرى بكل أريحية، بل إنه كان على وشك التحدث لولا أنها وثبت ومسحت مكان القبلة بظهر يدها وقالت:

«أيها الوغد الصغير!».

بدا مجروحًا نوعًا ما، ثم قال:

«أنا مصدوم فيك يا سيدتي».

«مصدوم؛ لماذا؟ ما ظنك بي؟ أريد أن أسألك ماذا كنت تقصد بتقبيلك لي؟».

بدت عليها المهانة نوعًا ما، وقال:

«لم أقصد شيئًا يا سيدتي، لم أقصد شرًّا، لقد ظننت أنك ستحبين ذلك».

«لماذا أيها الأحمق الصغير!»، ثم أمسكت بعصا الغزل وبدا أنها تبذل قصارى جهدها حتى لا تضربه بها، ثم أردفت: «ما الذي جعلك تظن أنني سأحب ذلك؟».

«لا أعرف؛ لقد.. لقد أخبروني أنك ستحبين ذلك».

«أخبروك أنني سأحب ذلك؛ أيًّا من كان الذي قال لك هذا فهو مجنون آخر، لم أسمع بمثل هذا الحديث أبدًا، من هم أولاء؟».

«الجميع، لقد قال الجميع ذلك يا سيدتي».

أخذت عيناها ترمشان، وظلت أصابعها تتحرك بطريقة توحي بأنها تود خربشته، إلَّا أنها فعلت كل ما بوسعها حتى تكتم غضبها وقالت:

«من هم الجميع؟ أخبرني بأسمائهم وإلَّا فسيودع العالم أحمق آخر».

نهض وقد بدا عليه الضيق، ثم أسقط قبعته وقال:

«أنا آسف؛ لم أكن أتوقع حدوث ذلك. لقد أخبروني أن أفعل

ذلك، لقد أخبروني جميعًا أن أفعل ذلك، لقد أخبروني جميعًا: قبلها وستحب ذلك. لقد قالوا جميعًا هذا؛ جميعهم. لكنني آسف يا سيدتي، ولن أكرر الأمر مرة ثانية، لن أكرره حقًّا».

«لن تكرر الأمر فعلًا؟ حسنًا، أعتقد أنك لن تكرره!».

«لا يا سيدتي. أصدقك القول؛ لن أكرر ذلك مرة ثانية أبدًا حتى تطلبي مني».

«حتى أطلب منك! أنا لم أسمع بهذا الحديث أبدًا طوال حياتي! لن أطلب منك ولا من أمثالك حتى يصبح عمرك مثل عمر ميتهسيلاه»[1].

قال: «إنني متفاجئ، لا أستطيع أن أفهم، لقد قالوا إنك ستحبين ذلك، وظننت أنك ستحبين ذلك، لكن..»، ثم توقف عن الحديث ونظر حوله ببطء، كما لو كان يبحث عن عين ودودة، ثم نظر إلى السيد العجوز وقال: «ألم تظن أنها ستحب أن أقبلها يا سيدي؟».

«لا، آ.. آ.. حسنًا، لا، أعتقد أنني لم أظن ذلك».

ثم نظر حوله بنفس الطريقة مرة أخرى، ونظر إليَّ قائلًا:

«توم، ألم تعتقد أن الخالة سالي ستفتح ذراعيها وتقول: سيد سوير..».

(١) بطريرك إنجيلي يقال إنه عاش ٩٦٩ سنة.

قاطعته واندفعت ناحيته، قائلة: «يا إلهي! أيها المحتال الصغير، كيف استطعت أن تخدعنا بهذه الطريقة..»، ثم حاولت أن تعانقه لولا أن تملص منها وهو يقول:

«لا، ليس قبل أن تطلبي مني أولًا».

وهكذا، لم تضيع وقتًا وطلبت منه أن يعانقها على الفور. ظلت تعانقه وتقبله كثيرًا، ثم تركته للسيد العجوز حتى يعانقه هو الآخر. وبعد أن هدأوا مرة ثانية، قالت:

«يا عزيزي، لم أتوقع مثل هذه المفاجأة أبدًا. لم نكن نتوقع قدومك على الإطلاق؛ ترقبنا قدوم توم فقط. لم تذكر شقيقتي شيئًا عن قدوم أي أحد غيره».

قال: «لم يكن من المخطط لأيٍّ منا القدوم باستثناء توم، لكنني توسلت إليها كثيرًا، فسمحت لي بالقدوم في آخر لحظة. عندما كنا في النهر، ظننت أنا وتوم أنها ستكون مفاجأة جميلة لو أنه وصل إلى المنزل أولًا، ثم تلكأت أنا قليلًا وأتيت إلى هنا متظاهرًا بأنني غريب، إلَّا أن ذلك كان خطأ يا خالة سالي؛ إن هذا ليس مكانًا آمنًا للغرباء».

«لا، ليس لأمثالك من المحتالين يا سيد، يجب أن أضربك على فمك لأنني لم أتفاجأ بهذه الطريقة منذ وقت طويل. لكن لا يهم، لا أمانع الأمر ومستعدة أن أتحمل آلاف من هذه المقالب من أجل أن تكون هنا. يا له من أداء رائع! لا أنكر أنني تسمرت من هول المفاجأة عندما قبلتني».

تناولنا الغداء بالخارج؛ في ذلك الممر الواسع المفتوح الواصل بين المنزل والمطبخ، وكان على الطاولة طعام يكفي سبع عائلات. كان كله ساخنًا؛ لا يشبه ذلك اللحم اليابس المملوء بالدهون، الذي تحفظه طوال الليل في خزانة داخل قبو رطب، فيصبح طعمه مثل لحم البشر في الصباح. دعا العم سايلاس طويلًا قبل تناول الطعام، لكن الأمر كان يستحق، ولم يبرد الطعام ولو قليلًا مثلما يحدث عادة.

تحدثنا كثيرًا طوال العصر، وكنت أنا وتوم حريصين على الانتباه إلى ما نقوله، إلَّا أن ذلك لم يكن ضروريًّا لأنهم لم يتطرقوا في حديثهم عن أي زنجي هارب، وقد خشينا أن نبادر نحن بالحديث عن الأمر. لكن ليلًا أثناء العشاء، قال أحد الصبية الصغار:

«أبي، هل يمكن أن أذهب أنا وتوم وسيد إلى العرض؟».

قال الرجل العجوز: «لا، أعتقد أنه لن يكون هناك عرض، وحتى إن كان هناك عرض فلا يمكنك الذهاب، لأن ذلك الزنجي الهارب أخبرني أنا وبيرتون كل شيء عن هذا العرض الفاضح، وقد أخبرني بيرتون أنه سيُعلِم الناس، ولذلك أعتقد أنهم طردوا هذين المتشردين الجريئين خارج البلدة بالفعل».

ها قد عرفت! لم أستطع أن أتمالك نفسي؛ كان من المُفترض أن أنام أنا وتوم في نفس الغرفة وعلى نفس الفراش، فتظاهرنا بأننا مجهدان، وتمنينا لهم ليلة سعيدة، وصعدنا إلى الفراش بعد العشاء مباشرة، ثم تسللنا عبر النافذة وهبطنا على مانعة الصواعق، وتوجهنا

إلى البلدة، لأنني لم أصدق أن أحدًا كان سيحذر الملك والدوق، وعليه فلما لم أسرع وأحذرهما سيقعان في المشاكل بالتأكيد.

في طريقنا إلى البلدة، حكى لي توم كيف ظنوا أنني قُتِلت، وكيف اختفى أبي سريعًا بعد ذلك بلا رجعة، وعن البلبلة التي أحدثها هروب جيم، وحكيتُ له أنا كل شيء عن المحتالين ورويال نانساتش، وعن رحلتنا على الطوافة قدر ما سمح الوقت. وعندما دقت الساعة الثامنة والنصف، رأينا حشدًا قادمًا. كانوا يحملون مصابيح، وكان الغضب باديًا عليهم، وكانوا يصيحون عاليًا ويدقون على أواني من القصدير وينفخون في أبواق، فتنحينا جانبًا حتى نفسح لهم الطريق. وعندما مروا إلى جانبنا، رأيت الملك والدوق مربوطين إلى قضيب، وقد ميزت أن هذين الاثنين هما الملك والدوق رغم أنهما كانا مكسوين تمامًا بالقطران والريش. لم يكن منظرهما يشبه البشر على الإطلاق، بل كانا يشبهان ريشتين كبيرتين من تلك التي يضعها الجنود على قبعاتهم. أصابتني رؤيتهما على هذه الحالة بالغثيان، وشعرت بأسف شديد تجاه هذين المحتالين البائسين المسكينين، وبدا أنني لم أعد أحمل أي ضغينة تجاههما. لقد كان منظرًا رهيبًا؛ يمكن للبشر أن يكونوا قساة جدًّا بعضهم مع بعض.

أدركنا أننا تأخرنا ولم يعد بوسعنا فعل شيء، ثم سألنا بعض المارة عن الأمر، فأخبرونا أن الجميع دخل إلى العرض متظاهرًا بالبراءة الشديدة، ولم يقل أحد شيئًا حتى وصل الملك العجوز المسكين إلى منتصف العرض الذي يقدمه على المسرح، ثم أعطى أحدهم الإشارة فنهض المسرح كله وأمسك بهما.

وهكذا عدنا إلى المنزل، إلَّا أنني لم أكن أشعر بتلك الثقة التي كنت أشعر بها من قبل، بل كنت أشعر بالخسة والوضاعة والذنب، رغم أنني لم أفعل شيئًا. هذا هو حال الضمير دائمًا؛ لا يختلف شعورك سواء كان الذي فعلته صوابًا أم خطأ. إن ضمير الإنسان لا يسير وفق المنطق، بل يسير وفقًا لهواه. إذا كان عندي كلب أصفر، وكان له ضمير لا يعرف أكثر مما يعرفه ضمير الإنسان، سأضع له سمًّا. إن الضمير يشغل مساحة أكبر من أي شيء آخر داخل الإنسان، ومع ذلك فليس له أي فائدة. توم سوير يرى نفس الشيء.

(٣٤)

توقفنا عن الحديث وطفقنا نفكر، ثم قال توم بعد قليل:

«كم نحن حمقى لأننا لم نفكر في هذا من قبل! لقد عرفت مكان جيم».

«حقًّا! أين؟».

«في ذلك الكوخ المجاور لسلة الرماد. أتتذكر عندما كنا نتناول الغداء، ألم ترَ رجلًا زنجيًّا يدخل إلى هناك ومعه بعض الطعام؟».

«بلى».

«إلى من ظننت أنه يحمل هذا الطعام؟».

«إلى كلب».

«وهكذا ظننت أنا أيضًا، لكنه لم يكن لكلب».

«لماذا؟».

«لأن جزءًا منه كان بطيخًا».

«هذا صحيح، لقد لاحظت ذلك، لكنني نسيت أن الكلاب لا تأكل البطيخ. إن هذا الأمر دلالة على أن بإمكان المرء أن يرى الشيء ولا يراه في نفس الوقت».

«لقد فتح الزنجي القفل عندما دخل، ثم أغلقه مرة ثانية عندما خرج، ثم أعطى زوج خالتي مفتاحًا في الوقت الذي تركنا فيه الطاولة. أراهن أنه نفس المفتاح. البطيخ دلالة على أنه رجل، والقفل دلالة على وجود سجين، وليس من المحتمل أن يكون هناك سجينان في مثل هذه المزرعة الصغيرة، لا سيما وأنهم في غاية الطيبة. جيم هو السجين. حسنًا، أنا سعيد أننا اكتشفنا ذلك على طريقة المحققين، ما كنت لأهتم لو اكتشفنا مكانه بطريقة أخرى. والآن، أَعمِل عقلك وضع خطة لسرقة جيم، وسأضع أنا أيضًا خطة، وسننفذ الخطة التي نراها أفضل».

كم كان ذكيًّا بالنظر إلى كونه فتًى! إن كان لديَّ عقل مثل عقل توم سوير، ما كنت لأقايضه مقابل أن أصبح دوقًا أو ربان باخرة أو مهرج في سيرك أو أي شيء يخطر إلى بالي. طفقت أفكر في خطة من أجل تمرير الوقت فقط، ذلك أنني كنت أعرف جيدًا من أين ستأتي الخطة الصائبة. سرعان ما قال توم:

«مستعد؟».

قلت: «نعم».

«حسنًا، ما هي خطتك؟».

قلت: «يمكننا بسهولة أن نتأكد إن كان جيم هو من بالداخل

أم لا، ثم نركب زورقي ليلة غد، ونحضر طوافتي من على الجزيرة، وفور أن يحل الظلام نسرق المفتاح من بنطال الرجل العجوز بعد أن يخلد إلى النوم، ثم نمضي في النهر على الطوافة مع جيم، ونختبئ نهارًا ونتحرك ليلًا على نفس النحو الذي اعتدت عليه أنا وجيم من قبل. ألن تنجح هذه الخطة؟».

«تنجح؟ بالطبع ستنجح بسهولة تشبه سهولة تعارك الفئران، لكنها بسيطة جدًّا، ليس بها أي إثارة، ما الفائدة من خطة لا تتضمن إثارة أكبر؟ إنها خفيفة خفة لبن الإوز، ولن تثير الانتباه أكثر مما يثيره اقتحام مصنع صابون».

لم أقل شيئًا، لأنني لم أتوقع غير ذلك وكنت أعرف جيدًا أن خطته لن تلقى أيًّا من هذه الاعتراضات فور أن تكتمل.

وبالفعل لم تكن هناك أي اعتراضات؛ حكى لي خطته ورأيت على الفور أن بها لمسات أكبر من تلك التي تحملها خطتي خمس عشرة مرة، فضلًا عن أنها ستجعل من جيم رجلًا حرًّا مثلما كانت خطتي، بل ربما نُقتل جميعًا أثناء تنفيذ الخطة. وهكذا اقتنعت ووافقت على تنفيذها؛ لست بحاجة إلى أن أسرد الخطة هنا، لأنني كنت أعرف أنها لن تبقى على حالها، وكنت أعرف أنه سيظل يغيرها بكل طريقة ممكنة أثناء التنفيذ، مبتكرًا خدعًا جديدة كلما سنحت له فرصة، وهذا هو ما حدث.

كان هناك أمر واحد أكيد، وهو أن توم سوير كان جادًّا وكان سيساعدني على تحرير ذلك الزنجي من العبودية. كان هذا هو

الشيء الذي لم أفهمه، لأنه كان فتًى محترمًا حسن التربية، وكانت لديه سمعة من الممكن أن يخسرها، وكانت لدى عائلته في المنزل سمعة يخسرونها، ولم يكن أحمق أو جاهلًا أو شريرًا؛ بل كان ذكيًّا ومثقفًا وطيبًا، وها هو ذا دون تكبُّر أو مثالية أو شعور بأنه ينحدر من مستواه بالتورط في هذه المسألة، يخاطر بتعريض نفسه وعائلته للعار أمام الجميع. لم أستطع فهم الأمر على الإطلاق لأن ما كنا نخطط له مشين، وكنت أدرك أن عليَّ تنبيهه، بصفتي أقرب صديق له، وأن أنصحه بأن يتوقف عند هذا الحد وينقذ نفسه، إلَّا أنني ما لبثت أخبره بالأمر حتى طلب مني أن أصمت وقال:

«ألا تعتقد أنني أعرف ما نحن بصدده؟ ألا تعتقد أنني أدرك ما أفعله بصفة عامة؟».

«بلى».

«ألم أقل إنني سأساعدك في تحرير الزنجي؟».

«بلى».

«حسنًا إذًا».

كان هذا هو كل ما قلناه، إذ لم تكن هناك فائدة من مناقشة الأمر أكثر من ذلك، لأنه عندما يقرر فعل شيء، ينفذه دائمًا. ورغم أن الحديث انتهى دون أن أفهم السبب وراء قيامه بذلك، فإنني تناسيت الأمر ولم أفكر فيه ثانية، إذ إن كانت هذه هي الطريقة التي يريد أن تسير الأمور وفقًا لها، فليس بوسعي فعل شيء.

عندما وصلنا إلى المنزل، وجدناه ساكنًا ومظلمًا تمامًا، فتوجهنا ناحية الكوخ المجاور لسلة الرماد لنعاينه. سرنا في الباحة لنختبر رد فعل الكلاب، إلَّا أنهم تعرفوا علينا ولم يحدثوا ضجة أكبر من تلك الضجة التيَ تحدثها الكلاب الريفية عندما يتحرك أي شيء إلى جانبها ليلًا. عندما وصلنا إلى الكوخ، ألقينا نظرة على مقدمته وعلى الجانبين. وفي الناحية الشمالية التي لم تكن مألوفة بالنسبة إليَّ، وجدنا تجويفًا مربعًا في مكان مرتفع جدًّا؛ إذ كان هذا التجويف بمثابة نافذة دُق عليها لوح خشبي واحد. قلت:

«هذه هي الحيلة التي سنلجأ إليها؛ إن هذا التجويف كبير بما يكفي لأن يمر جيم عبره إذا نزعنا اللوح الخشبي».

قال توم:

«هذه الحيلة بسيطة بساطة الفوز في لعبة إكس أو (XO) وسهلة سهولة الهرب من المدرسة؛ آمل أن نجد طريقة أكثر تعقيدًا من هذه يا هاك فِن».

قلت: «ما رأيك في أن نهربه بنفس الطريقة التي هربت بها قبل أن أتظاهر بأنني قُتِلت؟».

قال: «يروقني هذا؛ إنها طريقة جيدة ومثيرة للمشاكل وغامضة حقًّا، لكنني أراهن أن باستطاعتنا التوصل إلى طريقة تستغرق وقتًا مضاعفًا. نحن لسنا في عجلة من أمرنا؛ لنستمر في البحث».

كانت هناك سقيفة مبنية من ألواح خشبية، في الجزء الخلفي

الواصل بين الكوخ والسور، وكانت هذه السقيفة تتصل بإفريز الكوخ، وكان طولها من نفس طوله، باستثناء أنها كانت أضيق، إذ كان عرضها ستة أقدام. وكانت بوابتها المتواجدة في الطرف الجنوبي موصدة. ذهب توم إلى غلاية الصابون، وأخذ يبحث حولها عن شيء، ثم أحضر تلك القطعة الحديدية التي يرفعون بها الغطاء واستعان بها في إزاحة العارضة، فسقطت السلسلة وفتحنا الباب ودخلنا ثم أغلقناه وأشعلنا كبريتًا. اكتشفنا أن السقيفة كانت مبنية في مواجهة الكوخ، وليست متصلة به، ولم تكن هناك لها أرضية، وكانت خالية سوى من بعض المجارف والملاقط والمعاول الصدئة القديمة ومحراث مكسور. وعندما انطفأ الكبريت، خرجنا وأعدنا العارضة إلى مكانها مرة أخرى وأغلقنا الباب مثلما كان مغلقًا بالضبط. كان توم مسرورًا، وقال:

«لقد توصلت إلى الحل. سوف نحفر؛ سيستغرق الأمر أسبوعًا تقريبًا ومن ثم سنتمكن من تهريبه!».

ثم مضينا نحو المنزل. تسللتُ من البوابة الخلفية، بينما تسلق توم مانعة الصواعق، إذ كان كل ما على المرء فعله لفتح الباب هو أن يجذب حبل مزلاج مصنوع من جلد الغزال، لأنهم لم يكونوا يغلقون الأبواب، وبالطبع لم يكن هذا رومانسيًّا بما يكفي لتوم سوير، ومع ذلك فقد سقط ثلاث مرات بعد أن قطع نصف المسافة إلى أعلى، وكاد رأسه أن ينكسر في المرة الأخيرة فرأى أن يعزف عن الأمر، إلَّا أنه قرر أن يجرب مرة أخرى ويرى حظه بعد أن استراح قليلًا، وبالفعل تمكن من الصعود في تلك المرة.

في الصباح، استيقظت عند شروق الشمس وذهبت إلى غرف الزنوج لألعب مع الكلاب وأكوِّن صداقة مع الزنجي الذي يُدخِل الطعام إلى جيم، إن كان جيم هو من يدخل له الطعام. كان الزنوج قد انتهوا لتوهم من الإفطار وفي طريقهم إلى الحقول، وكان الزنجي الذي يُطعِم جيم يضع خبزًا ولحمًا وأشياء أخرى داخل وعاء من القصدير، ثم وصل المفتاح من المنزل وقت خروج الآخرين.

كان لهذا الزنجي وجه بشوش ولطيف، وكان شعره عبارة عن عقد صغيرة مربوطة بخيوط من أجل إبعاد الساحرات، إذ قال إن الساحرات يضايقنه كثيرًا تلك الليالي، ويجعلنه يرى كافة الأشياء الغريبة، ويسمع كافة الأصوات والكلمات الغريبة، وكان يرى أنه لم يُسحر لهذه الفترة الطويلة من قبل. ثم استغرق كثيرًا وأخذ يحكي عن همومه ونسي كل شيء عما كان سيفعله، فقال توم:

«إلى من هذا الطعام؟ هل ستُطعِم الكلاب؟».

تشكلت على وجه الزنجي ابتسامة بطيئة مثل تشكل الموجات عند إلقاء حجر في بركة طين، وقال:

«نعم، كلب يا سيدي، وكلب مثير للاهتمام أيضًا، هل تريد أن تلقي نظرة عليه؟».

«نعم».

أخذت توم جانبًا وهمست:

«هل ستذهب إلى هناك في وضح النهار؟ لم تكن هذه خطتنا».

«لا، لم تكن، لكنها أصبحت خطتنا الآن».

وهكذا، مضينا رغم أنني لم أحبذ الفكرة. وعندما دخلنا، كانت الظلمة شديدة جدًّا ولم نكد نرى شيئًا، إلَّا أن جيم كان هناك بكل تأكيد وتعرف علينا، وصاح:

«هاك! يا إلهي! أليس هذا السيد توم؟».

كنت أعلم أن هذا هو ما سيحدث؛ لقد توقعت ذلك. لم أدرِ ما أفعل، وحتى إن كنت أدري؛ ما كان بوسعي أن أفعل شيئًا، لأن ذلك الزنجي تدخل قائلًا:

«يا إلهي! هل يعرفكما يا سادة؟».

كان باستطاعتنا الرؤية على نحو جيد الآن، فنظر توم إلى الزنجي بثبات، وقال متسائلًا:

«من الذي يعرفنا؟».

«هذا الزنجي الهارب».

«لا أعتقد أنه يعرفنا؛ من وضع هذه الفكرة في رأسك؟».

«من وضع هذه الفكرة في رأسي؟ ألم يصِح الآن كما لو كان يعرفكما؟».

قال توم بطريقة تشي بحيرته:

«حسنًا، هذا محير جدًّا. من الذي صاح؟ متى صاح؟ وماذا قال؟». ثم التفت إليَّ بهدوء تام، وقال: «هل سمعت أحد يصيح؟».

بالطبع لم يكن هناك سوى شيء واحد يمكنني أن أقوله، وهكذا قلت:

«لا، لم أسمع أحدًا يقول شيئًا».

ثم التفت إلى جيم، ونظر إليه كما لو لم يره من قبل وقال:

«هل صحت؟».

قال جيم: «لا يا سيدي، لم أقل شيئًا يا سيدي».

«ولا كلمة؟».

«لا يا سيدي، لم أقل كلمة واحدة».

«هل رأيتنا من قبل؟».

«لا يا سيدي، ليس على حد علمي».

فالتفت توم إلى الزنجي، الذي بدا عليه الذعر والقلق، وقال بحزم:

«ما خطبك؟ ما الذي جعلك تظن أن شخصًا قد صاح؟».

«إنهن الساحرات اللعينات يا سيدي، يا ليتني كنت ميتًا، إنهن يفعلن ذلك دائمًا يا سيدي، سيقضين عليَّ، إنهن يخيفونني جدًّا، من فضلك لا تخبر أحدًا بهذا الأمر يا سيدي، وإلَّا فسيوبخني السيد سايلاس لأنه لا يؤمن بوجود الساحرات. يا ليته كان هنا الآن لنرى ما كان سيقول! أراهن أنه ما كان ليجد طريقة يتحايل بها على الأمر، إلَّا أن هذا هو الحال دائمًا؛ من يقتنع بشيء يظل مقتنعًا به ولا

يحاول أن يستكشف الأمر بنفسه، وعندما تكتشف أمرًا وتخبرهم به لا يصدقونك».

وعده توم بأننا لن نخبر أحدًا، ثم أعطاه سنتًا من أجل شراء المزيد من الخيوط التي يربط بها شعره، ونظر إلى جيم قائلًا:

«أتساءل إن كان العم سايلاس سيشنق هذا الزنجي، لأنني إن قبضت على زنجي ناكر للجميل إلى الحد الذي يجعله يهرب، ما كنت لأتركه. كنت سأشنقه». وبينما مضى الزنجي ناحية الباب لينظر إلى السنت ويعضه ليرى إن كان حقيقيًّا، همس توم لجيم قائلًا:

«تظاهر بأنك لا تعرفنا، وإذا سمعت دقًّا ليلًا فاعلم أننا نحن من ندق؛ سنحررك».

لم يسمح الوقت لجيم بأكثر من أن يمسك يدينا ويضغط عليها. عندما عاد الزنجي، أخبرناه أن بإمكاننا العودة في وقت لاحق إن أراد ذلك، فقال إنه يود ذلك؛ خصوصًا عند حلول الظلام، لأن الساحرات يترصدن به عادة في الظلام، وسيكون من الجيد أن يكون بصحبته أحد.

(٣٥)

كانت أمامنا ساعة قبل حلول موعد الإفطار، فمضينا نحو الغابة لأن توم قال إننا بحاجة إلى ضوء يساعدنا على الحفر وأن ضوء المصابيح واضح جدًّا ومن الممكن أن يوقعنا في المشاكل وأن علينا إحضار كمية كبيرة من أضواء فسفورية، تسمى نار الثعلب، يصدر عنها وهج بسيط عند وضعها في مكان مظلم، وبالفعل أحضرنا من هذه الأضواء ملء أيدينا وخبأناها وسط الحشائش وجلسنا لنستريح، ثم قال توم بنوع من عدم الرضا:

«اللعنة، إن هذه الخطة سهلة وغريبة إلى أقصى درجة، حتى أن ابتكار خطة صعبة أصبح صعبًا جدًّا. لا يوجد حارس نخدره؛ يجب أن يكون هناك حارس، ولا يوجد كلب نضع له منومًا، وجيم مربوط من ساق واحدة بسلسلة طولها عشرة أقدام إلى قائم فراشه؛ وكل ما عليك فعله هو أن ترفع قائمة الفراش فتنسل السلسلة، والعم سايلاس يثق بالجميع ويعطي المفتاح إلى الزنجي الأحمق ولا يرسل أحدًا لمراقبته. كان بإمكان جيم أن يهرب من فتحة النافذة من قبل لولا أنه لن تكون هناك فائدة من محاولة السفر بسلسلة طولها

عشرة أقدام مربوطة إلى ساقه. اللعنة، إن هذه أسوأ ظروف رأيتها في حياتي على الإطلاق يا هاك. لكن لا حيلة لنا، يجب أن نخترع كل العقبات وأن نفعل أفضل ما بوسعنا بما لدينا من عناصر، لأن هناك شرفًا في تهريبه وسط المشاكل والمخاطر، حتى لو اضطررت إلى أن تلفقها بنفسك، بسبب أن أولئك المنوط بهم هذه المهمة لم ينفذوها. خذ المصباح مثالًا؛ لقد اضطررنا إلى التظاهر بأن المصباح خطر، إلَّا أننا في حقيقة الأمر يمكن أن نحفر بسرب من المصابيح إن أردنا. أرى أننا يجب أن نبحث عن شيء نصنع منه منشارًا مع أول فرصة».

«ما الحاجة إلى المنشار؟».

«ما الحاجة إلى المنشار؟ ألن نحتاج إلى أن ننشر قائم فراش جيم حتى نخرج السلسلة؟».

«لقد قلت لتوك إنه ليس على المرء سوى أن يرفع قائم الفراش من أجل أن تنسل السلسلة».

«أنت دائمًا هكذا يا هاك فِن؛ تأتي بأكثر الطرق طفولية في تنفيذ الأمور. ألم تقرأ كتبًا على الإطلاق؟ البارون ترينك أو كازانوفا أو بنفينوتو تشيليني أو هنري الرابع أو أيًّا من هؤلاء الأبطال؟ هل سمعت أبدًا عن تحرير سجين بهذه الطريقة القديمة؟ لا، الطريقة الأفضل التي يلجأ إليها أمهر من في المجال هي نشر قدم السرير إلى نصفين وتركه على هذه الحالة، ومن ثم إخفاء نشارة الخشب حتى لا يتم العثور عليها، ثم وضع بعض الأوساخ والشحوم حول المكان المنشور حتى لا يستطيع أفضل ضابط أن يلحظ أي علامة على نشرها

ويظن أن قدم الفراش سليمة تمامًا. وفي الليلة الموعودة، تضرب القدم فتسقط وتنسل السلسلة وينتهي الأمر. ومن ثم لا يتبقى شيئًا سوى أن تربط سلمك المصنوع من الحبال في السور، وتنزل وتنكسر ساقك في الخندق لأن السلم المصنوع من الحبال أقصر تسعة عشر قدمًا، ثم تأتي جيادك ورجالك الذين تثق بهم ويحملونك إلى أعلى ويضعونك على سرج، ثم تمضي إلى موطنك في لانجيدوك أو نافارا أو أيًا كان المكان. إنه أمر رائع يا هاك، يا ليت كان هناك خندق تحت الغرفة. إن أسعفنا الوقت، سنحفر واحدًا ليلة الهروب».

قلت:

«ما الحاجة إلى خندق إن كنا سنهربه من تحت الغرفة؟».

إلَّا أنه لم يسمعني على الإطلاق؛ لقد نسي وجودي ونسي كل شيء آخر ووضع ذقنه في يده وأخذ يفكر، وسرعان ما تنهد وهز رأسه وتنهد مجددًا وقال:

«لا، لن يفلح الأمر، ليست هناك حاجة كبيرة إلى ذلك».

قلت: «إلى ماذا؟».

قال: «إلى نشر قدم جيم».

قلت: «يا إلهي! ليست هناك حاجة إلى ذلك، ولماذا تريد أن تنشر قدمه على أية حال؟».

«لقد فعل ذلك بعض أساطير المجال؛ لم يتمكنوا من فك السلسلة فقطعوا أيديهم وهربوا. القدم أفضل أيضًا، لكننا يجب أن

ننسى الأمر لعدم وجود حاجة ملحة إلى القيام بذلك في هذه الحالة، بالإضافة إلى أن جيم زنجي ولن يفهم الأسباب وراء ذلك وكيف أنها عادة في أوروبا، لذلك سننسى الأمر. لكن يمكنه أن يحصل على سلم من الحبال؛ يمكننا أن نقطع ملاءاتنا ونصنع سلمًا من الحبال بسهولة شديدة، ويمكننا أن نرسلها إليه في فطيرة؛ عادة ما تُرسل على هذا النحو. لقد أكلت فطائر أسوأ».

قلت: «ما هذا الذي تقوله يا توم سوير، إن جيم ليس بحاجة إلى سلم من الحبال».

«ما هذا الذي تقوله أنت، إنه بحاجة إليه، أنت لا تعرف شيئًا عن الأمر ويجب أن يكون معه سلم من الحبال؛ جميعهم بحاجة إلى ذلك».

«ماذا سيفعل به بحق الأمة؟».

«ماذا سيفعل به؟ يمكنه أن يخفيه في فراشه، أليس كذلك؟ هذا هو العرف، ولذلك فعليه أن يفعل ذلك. هاك! لا يمكن أن تفعل دائمًا ما هو معتاد، دائمًا ما يجب أن تبتكر شيئًا جديدًا. اِفترض أنه لن يفعل به شيئًا؟ ألن يظل في فراشه ويصبح دليلًا بعد رحيله؟ ألا تظن أنهم سيكونون بحاجة إلى أدلة؟ بالطبع سيكونون بحاجة إلى ذلك. ألن تترك لهم أي دليل؟ ستكون هذه لفتة لطيفة، أليس كذلك! لم أرَ شيئًا مماثلًا من قبل».

قلت: «حسنًا، إن كان من العرف أن يكون معه حبل فسنعطيه حبلًا، لأنني لا أود مخالفة الأعراف، لكن هناك مشكلة يا توم سوير

وهي أننا إذا قطعنا الملاءات لنصنع بها حبلًا لجيم، فسنقع في مشاكل مع العمة سالي بالتأكيد. ولهذا، فأنا أرى أن صنع حبل من لحاء شجر الجوز لن يكلف شيئًا ولن يتسبب في إتلاف شيء، وسيكون مناسبًا لأن نضعه في فطيرة وأن نخبئه في المرتبة القشية تمامًا مثل أي سلم يمكنك صنعه من الخِرق، وبالنسبة إلى جيم فليس لديه خبرة ولن يهتم بنوع الـ».

«اللعنة يا هاك فِن، إن كنت في مثل جهلك كنت لأصمت، هذا ما كنت سأفعل. من سمع من قبل عن سجين هرب عن طريق سلم مصنوع من لحاء شجر الجوز؟ إنه هذا سخف شديد».

«حسنًا يا توم، اصنع السلم بالطريقة التي تروق لك، لكن إذا أردت نصيحتي؛ دعني أستعير ملاءة من على حبل الملابس».

قال إن هذا سيفي بالغرض، ثم أعطته نصيحتي فكرة أخرى؛ فأردف:

«استعر قميصًا أيضًا».

«ما حاجتنا إلى القميص يا توم؟».

«أريده من أن أجل أن يكتب عليه جيم يومياته».

«يوميات في عينك، جيم لا يستطيع الكتابة».

«فرضًا أنه لا يستطيع الكتابة، ألا يمكنه أن يضع علامات على القميص إذا صنعنا له قلمًا من ملعقة معدنية قديمة أو من طوق برميل قديم؟».

«توم، يمكننا أن نجذب ريشة إوزة ونصنع له قلمًا أفضل بسرعة أكبر».

«الإوز لا يركض حول زنازين القلعة حتى يتسنى للمساجين صنع أقلام من ريشها أيها الأبله، إنهم دائمًا يصنعون أقلامهم من أكثر الشمعدانات النحاسية القديمة صلابة ومتانة وقوة أو من أي شيء شبيه يمكنهم الحصول عليه، ويستغرقهم الأمر أسابيع وأسابيع وشهورًا وشهورًا ليصنعوه، لأنهم يصنعونه بحكه في الحائط. ما كانوا ليستخدموا ريشة إوزة إن كان بإمكانهم، لأن هذا غير معتاد».

«ومن ماذا سنصنع له الحبر؟».

«العديد يصنعونه من صدأ الحديد والدموع، إلَّا أن هذه هي الطريقة الشائعة بين عوام الناس والنساء، أما أساطير المجال فيكتبون بدمائهم. يمكن لجيم أن يفعل ذلك، وعندما يرغب في توصيل أي رسالة غامضة صغيرة ليخبر العالم بمكان احتجازه، يمكنه أن يكتبها أسفل طبق من القصدير بشوكة، ثم يلقي بها إلى خارج النافذة؛ كان الرجل ذو القناع الحديدي دائمًا ما يفعل ذلك، وهي طريقة جيدة جدًّا».

«جيم ليس لديه أي أطباق من القصدير، إنهم يطعمونه في وعاء».

«هذه ليست مشكلة، يمكننا أن نحضر بعض الأطباق».

«لا يمكن لأحد أن يقرأ أطباقه».

«لا علاقة لهذا بالأمر يا هاك فِن؛ كل ما عليه فعله هو أن يكتب على الطبق ثم يلقيه، ليس من الضروري أن يتمكن أحد من قراءته، إذ لا يمكن لأحد أن يقرأ ما يكتبه السجناء على أطباق القصدير أو على أي شيء آخر نصف الوقت».

«إذًا ما المنطق في إهدار الأطباق؟».

«إنها ليست أطباق السجين».

«لكنها أطباق شخص ما، أليس كذلك؟».

«فرضًا أن هذا صحيح؛ ما همُّ السجين بصاحب..».

وفي تلك اللحظة، سمعنا صوت البوق المُنذر بميعاد الإفطار فلم يكمل حديثه ومضينا ناحية المنزل.

في أثناء الصباح، استعرت ملاءة وقميصًا أبيض من على حبل الملابس، ثم وجدت حقيبة قديمة فوضعتها بداخلها، ثم ذهبت وأحضرت الأضواء الفسفورية ووضعتها بداخلها أيضًا. كنتُ أسمي هذا الفعل استعارة لأن هذا ما كان أبي يقوله، أما توم فقال إنه لم يكن استعارة وإنما سرقة. قال إننا نمثل المساجين وأن المساجين لا يهتمون بالكيفية التي يحصلون بها على الشيء طالما حصلوا عليه، وأنهم لا يُلامون على الأمر أيضًا. قال توم إنها ليست جريمة أن يسرق السجين الشيء الذي يحتاج إليه من أجل الهرب، وأن هذا من حقه، وبالتالي وطالما أننا نمثل مسجونًا، فإن لنا الحق التام في سرقة أي شيء في هذا المكان مهما كانت حاجتنا إليه ضئيلة، في سبيل

تهريب شخص من السجن. وقال إن الوضع كان ليصبح مختلفًا لو لم نكن نمثل السجناء لأن من يسرقون دون أن يكونوا سجناء هم مجرد أشرار وضعاء. وهكذا قررنا أن نسرق كل شيء كان في متناول أيدينا. ورغم ذلك، فقد أثار جلبة في أحد الأيام التالية عندما سرقتُ بطيخة من حديقة الزنوج وأكلتها، وجعلني أذهب وأدفع إليهم سنتًا دون أن أخبرهم السبب. قال توم إن ما قَصَدَه هو أن بوسعنا سرقة أي شيء نحن بحاجة إليه، وهكذا قلت له إنني كنت بحاجة إلى البطيخ، فقال إن الفارق هو أنني لم أكن بحاجة إلى البطيخ في شيء يتعلق بالسجن وأن السرقة ما كانت لتصبح مشكلة لو أنني كنت بحاجة إلى البطيخة من أجل أن أخبئ فيها سكينًا وأهربها لجيم ليقتل بها الضابط، وهكذا قررت أن أنهي النقاش عند هذه النقطة، رغم أنني لم أرَ فائدة من تمثيلي دور السجين طالما أنني كنت مضطرًّا إلى الجلوس ساكنًا هكذا في كل مرة تتاح لي فيها فرصة لسرقة بطيخة.

حسنًا، مثلما كنت أقول، فقد انتظرنا ذلك الصباح حتى انشغل الجميع في أعمالهم ولم نعد نرى أحدًا حول الباحة، ثم حمل توم الحقيبة إلى السقيفة بينما وقفت أنا على مسافة لأراقب الوضع. وعندما خرج بعد قليل، ذهبنا لنجلس على كومة خشبية نتحدث ثم قال:

«لقد أصبح كل شيء معدًّا باستثناء الأدوات، وهذه أمرها سهل».

قلت: «أدوات؟».

«نعم».

«لماذا الأدوات؟».

«لنحفر بها. لن نقرض بأسناننا من أجل إخراجه، أليس كذلك؟».

قلت: «أليست الملاقط القديمة والأشياء الأخرى الموجودة بالداخل كافية للحفر وتهريب الزنجي؟».

التفت إليَّ، ونظر بشفقة كافية لأن تتسبب في بكاء أحد، ثم قال:

«هاك فِن، هل سمعت من قبل عن سجين لديه الملاقط والمجارف وكافة الوسائل الحديثة اللازمة لتهريبه، في خزانته؟ والآن، إن كان لديك أي منطق على الإطلاق، أريد أن أسألك: أي واحدة من هذه الأشياء ستجعله بطلًا؟ لم لا يعطونه المفتاح وينتهي الأمر؟ ملاقط ومجارف! ما كانوا ليعطوا هذه الأدوات لملك».

قلت: «حسنًا إذًا، إن لم نكن بحاجة إلى ملاقط ومجارف، فإلى ماذا نحتاج؟».

«مطواتين».

«لنحفر الأساسات الموجودة تحت الغرفة؟».

«نعم».

«اللعنة، إن هذه طريقة حمقاء يا توم».

«لن تشكل حماقتها فارقًا، لأن هذه هي الطريقة الصحيحة والمعتادة، وقد قرأت كافة الكتب التي تعطي جميع المعلومات المتعلقة بهذه الأمور ولم أسمع عن طريقة أخرى، لأنهم دائمًا يحفرون بمطواة، ولا يحفرون التربة؛ بل يحفرون الصخور الصلبة. ويستغرق الأمر أسابيع وأسابيع وأسابيع، إلى وقت لا نهاية له. خذ مثالًا على ذلك أحد مساجين الزنزانة السفلية لقلعة ديف في ميناء مارسيليا الذي حفر من أجل تحرير نفسه؛ كم استغرقه الأمر في ظنك؟».

«لا أدري».

«خمن».

«لا أدري؛ شهرًا ونصفًا».

«سبعة وثلاثين عامًا؛ لقد حفر حتى وصل إلى الصين. هذه هي الطريقة التي سننفذ بها هذه الخطة؛ يا ليت قاعدة هذا الحصن كانت مبنية من الصخور الصلبة».

«إن جيم لا يعرف أحدًا في الصين».

«ما دخل هذا بالأمر؟ لم يكن ذلك السجين يعرف أحدًا في الصين أيضًا. لكنك دائمًا ما تتفرع إلى موضوع جانبي. لماذا لا يمكنك التركيز في النقطة الأساسية؟».

«حسنًا، لا يهمني إلى أين يصل الحفر طالما سيتمكن من الهرب، ولا أعتقد أن جيم يهتم بالأمر أيضًا. لكن هناك نقطة مهمة، وهي

أن سن جيم كبيرة بدرجة لا تسمح بأن تتم عملية الحفر بمطواة، لأنه لن يصمد».

«سيصمد. أتعتقد أننا سنستغرق سبعة وثلاثين عامًا في هذه القاعدة؟».

«كم سيستغرق الأمر يا توم؟».

«حسنًا، لا يمكننا أن نخاطر بالحفر لمدة طويلة، إذ ربما تصل أخبار إلى العم سايلاس قريبًا ويعرف أن جيم ليس من نيو أورلينز، ذلك أن الخطوة التالية ستكون إعلان جيم زنجيًّا هاربًا أو ما شابه ذلك، ولذلك لا يمكننا المخاطرة بالحفر لمدة طويلة. أعتقد أن الأمر سيستغرق عامين، لكن لا يمكننا أن نفعل ذلك. ونظرًا إلى أن الأمور غير واضحة، فنصيحتي هي أن نحفر بأقصى سرعة لدينا، وبعد ذلك يمكننا أن نتظاهر أمام أنفسنا بأننا حفرنا لمدة سبعة وثلاثين عامًا، ومن ثم نهربه بعيدًا مع أول إنذار بالخطر. نعم، أعتقد أن هذه أفضل طريقة».

قلت: «هذا هو الكلام المعقول؛ التظاهر لا يكلف شيئًا ولا يتسبب في مشاكل، ولا أمانع أن أتظاهر بأننا حفرنا مئة وخمسين عامًا، لن يضايقني ذلك على الإطلاق بعد أن ننتهي من الأمر؛ سأذهب الآن وأسرق مطواتين».

قال: «اِسرق ثلاثة؛ نريد واحدة لنصنع منها منشارًا».

قلت: «توم، إن لم يكن ضد الأعراف أو التقاليد أن أقترح؛

هناك سِن منشار صدئ قديم عند الألواح الخشبية وراء المدخنة».

بدا عليه الإرهاق والإحباط نوعًا ما، ثم قال:

«لا فائدة من محاولة تعليمك أي شيء يا هاك؛ اركض واسرق المطاوي.. ثلاثة»، ففعلت ذلك.

(٣٦)

تسللنا خارجًا في تلك الليلة بمجرد أن شعرنا بأن الجميع قد نام، مستعينين بمانعة الصواعق، ثم أغلقنا السقيفة وراءنا وأخرجنا كومة الأضواء الفسفورية وشرعنا في العمل؛ نحينا كل شيء جانبًا مسافة أربعة أو خمسة أقدام بمحاذاة منتصف اللوح السفلي، وقال توم إنه كان وراء فراش جيم مباشرة الآن وأننا سنحفر تحته وعندما ننتهي من الحفر لن يلحظ أحد وجود حفرة في الغرفة على الإطلاق، لأن ملاءات جيم متدلية وتصل إلى الأرض تقريبًا، وسيتعين على المرء رفعها والنظر تحتها حتى يرى الحفرة. وهكذا أخذنا نحفر ونحفر بالمطواتين حتى منتصف الليل تقريبًا، حتى أنهكنا التعب وتقرحت أيدينا، وعلى الرغم من ذلك ما كان بوسع المرء أن يرى أي إنجاز حقيقي. وفي النهاية، قلت: «إن هذه العملية لن تستغرق سبعة وثلاثين عامًا يا توم سوير، إنها ستستغرق ثمانية وثلاثين عامًا».

تنهد توم، لكنه لم يقل شيئًا. توقف عن الحفر بعد قليل، ثم أدركت بعد فترة من الوقت أنه كان يفكر.

ثم قال: «لا فائدة يا هاك، لن ينجح الأمر. كان لينجح لو كنا سجناء وأمامنا ما نحتاج من السنين. ما كنا لنصبح في عجلة من أمرنا وما كنا لنحفر أكثر من دقائق كل يوم، أثناء تبديل نوبات الحراسة، ومن ثم ما كانت أيدينا لتتقرح وكنا لنستمر في الحفر عامًا بعد عام، وكنا لنحفر كما ينبغي بطريقة صحيحة. إلَّا أننا لا يمكن أن نتلكأ ويجب أن نسرع، إذ ليس أمامنا وقت لنضيعه. وإذا كنا سنكرر ما فعلناه الليلة في وقت لاحق، فسيتعين علينا أن ننتظر أسبوعًا حتى تتحسن حالة أيدينا، إذ لا يمكنني أن ألمس مطواة قريبًا».

«حسنًا، ماذا سنفعل إذًا يا توم؟».

«سأخبرك. هذه ليست الطريقة الصحيحة أو الطريقة الأخلاقية ولا أود أن أقولها لكن ليست هناك طريقة أخرى؛ يجب أن نحفر بالملاقط ونتظاهر بأنها مطاوي».

قلت: «هذا هو الكلام! تفكيرك يزداد عملية أكثر فأكثر مع الوقت يا توم سوير؛ الملاقط هي الوسيلة الصحيحة سواء كانت أخلاقية أم لا، ومن ناحيتي فأنا لا أهتم بأخلاقيات الحفر على الإطلاق لأنني عندما أذهب لسرقة زنجي أو بطيخة أو كتاب من مدرسة الأحد لا أكون محددًا بشأن الطريقة التي أفعل بها الأمر طالما أفعله. سواء كان الذي أريده زنجيًا أم بطيخة أم كتابًا من مدرسة الأحد، أختار الوسيلة الأسهل وتكون هي الوسيلة التي أحصل بها على ذلك الزنجي أو تلك البطيخة أو ذلك الكتاب من مدرسة الأحد، ولا ألقي بالًا كيف يرى خبراء المجال الأمر أيضًا».

قال: «هناك عذر لاستخدام الملاقط في هذه الحالة. لولا ذلك، ما كنت لأوافق على الأمر وما كنت لأقف وأرى القواعد وهي تُخالف، لأن الصواب صواب والخطأ خطأ، ولا يجب على المرء أن يفعل الخطأ طالما كان عارفًا بالصواب ولم يكن جاهلًا به. يمكن أن يكون الحفر بالملقاط دون أن تتظاهر بأنه مطواة أمرًا مناسبًا لك، لأنك لا تعرف أفضل من هذا، إلَّا أن ذلك لا يناسبني لأنني أعرف أفضل من هذا. أعطني مطواة».

كانت مطواته معه، فأعطيته مطواتي. إلَّا أنه ألقاها أرضًا وقال: «أعطني مطواة».

لم أدرِ ما أفعل، إلَّا أنني سرعان ما فهمت قصده فبحثت بين المعدات القديمة وأعطيته فأسًا فأخذه وشرع في العمل دون أن ينطق بكلمة.

كان هكذا دائمًا صعب الإرضاء ومتشبثًا بالمبادئ.

أحضرتُ جاروفًا وأخذنا نتمايل ونحن ننبش الأرض ونحفرها، بينما التراب يتطاير في كل مكان. بقينا على هذه الحالة نصف ساعة هي المدة التي استطعنا أن نتحملها، وأصبحت لدينا حفرة يمكننا أن نراها. عندما صعدت إلى الطابق العلوي، نظرت خارج النافذة ورأيت توم وهو يبذل أقصى جهده ليصعد على مانعة الصواعق، إلَّا أنه لم يستطع تسلقها لأن يديه كانتا متقرحتين. ثم قال أخيرًا:

«لا جدوى من الأمر؛ لا يمكنني الصعود. ما هو أفضل شيء أفعله في رأيك؟ أيمكنك التفكير في طريقة؟».

قلت: «نعم، لكنني لا أعتقد أنها طريقة معتادة؛ اصعد على السلالم وتظاهر بأنها مانعة للصواعق».

ففعل ذلك.

في اليوم التالي، سرق توم ست شمعات، وملعقة معدنية وشمعدانًا نحاسيًّا من المنزل ليصنع منهما أقلامًا لجيم. وتسكعت أنا حول غرف الزنوج منتظرًا فرصة أسرق فيها ثلاثة أطباق قصدير، إلَّا أن توم قال إنها لن تكفي فقلت له إن أحدًا لن يرى الأطباق التي سيلقيها جيم إلى الخارج لأنها ستسقط وسط الشمر والأعشاب المتواجدة تحت النافذة، ومن ثم سيكون بإمكاننا استعادتهم من أجل أن يستخدمهم مجددًا، فاقتنع وقال:

«الأمر الذي علينا التفكير فيه الآن هو الطريقة التي سنعطي بها جيم هذه الأشياء».

قلت: «عندما يكون كل شيء معدًّا، يمكننا أن نهربها إليه عبر النافذة».

فما كان منه سوى أن تهكم قائلًا إنه لم يسمع بمثل هذه الفكرة البلهاء من قبل، ثم استغرق في التفكير لوهلة وقال إنه توصل إلى فكرتين أو ثلاث أفكار وأننا لسنا بحاجة إلى أن نستقر على واحدة منها حتى نتحدث إلى جيم أولًا.

بعد العاشرة بقليل، أخذنا شمعة وتسللنا عبر مانعة الصواعق، وعندما وصلنا إلى السقيفة حاولنا الإنصات لنرى إن كان بإمكاننا أن نسمع شيئًا، وبالفعل كان جيم يغط في النوم، وهكذا شرعنا في

عملنا دون أن نوقظه، وخلال ساعتين ونصف من الحفر بالملقاط والجاروف تمكنا من إنجاز المهمة وتسللنا زاحفين تحت فراش جيم ومن ثم إلى الغرفة. بحثنا عن الشمعة التي أخذناها معًا وأشعلناها ووقفنا قليلًا إلى جانب جيم، الذي كان منظره وديعًا ومعافًى، ثم أيقظناه تدريجيًّا على مهل. كان مسرورًا جدًّا لرؤيتنا حتى كاد أن يبكي، وأخذ يدللنا بكل أسماء التدليل التي استطاع أن يفكر فيها، وطلب منا أن نبحث عن إزميل من أن أجل قطع السلسلة المربوطة إلى قدمه على الفور والهرب دون تضييع أي وقت. إلَّا أن توم قال له إن هذا سيكون مخالفًا للأعراف، ثم جلس وحكى له الخطط التي رسمناها وكيف أن باستطاعتنا تغيير الخطة في أي وقت إذا شعرنا بخطر، ثم طلب منه أن يطمئن إلى أنه سيهرب دون شك. وعندما وافق جيم، جلسنا معًا نستعيد الذكريات ولم ينفك توم عن طرح الكثير من الأسئلة، وعندما أخبره جيم بأن العم سايلاس يزوره كل يوم أو يومين ويصلي معه وأن الخالة سالي تأتي لتطمئن إن كان مرتاحًا ويتناول ما يكفيه من الطعام أم لا، وأن الاثنين كانا يحسنان معاملته إلى أقصى درجة، قال:

«لقد عرفت كيف سننفذ الخطة؛ سنرسل إليك بعض الأغراض من خلالهما».

قلت له: «لا تفعل شيئًا من هذا القبيل، لأن هذه واحدة من أكثر الأفكار الغبية التي سمعتها على الإطلاق»، إلَّا أنه لم ينصت إليَّ لأنه كان يتصرف على هذا النحو دائمًا عندما يستقر على خطة.

وهكذا قال لجيم إننا سنهرب له سلم الحبال وغيره من الأشياء من خلال نات، الزنجي الذي يحضر له الطعام، وطلب منه ألَّا يتفاجأ وألَّا يدع نات يراه وهو يفتح هذه الأشياء أمامه، وقال له إننا سنضع أشياء صغيرة في جيوب معطف العم سايلاس وأن عليه سرقتها، وأننا سنربط أشياء في مريولة الخالة أو في جيبها إن سنحت لنا فرصة، ثم حددنا له الأشياء التي سنضعها وبيَّنا له فائدة كل منها وأخبرناه كيف يكتب يومياته على القميص بدمه وكل هذه الأشياء. أخبره توم كل شيء؛ ورغم أن جيم لم يفهم المنطق وراء أغلب هذه الأمور، فإنه خمَّن أننا أدرى منه لأننا فتيان أبيضان، وهكذا اقتنع وقال إنه سيفعل كل ما قاله توم بالضبط.

كان مع جيم تبغ وغلايين كثيرة مصنوعة من كيزان الذرة، فمكثنا ندخن قليلًا ثم تسللنا خارجًا عبر الحفرة وعدنا إلى الفراش بأيادٍ يبدو أن أحدًا قد مضغها. كان توم سعيدًا جدًّا وقال إنه لم يستمتع بهذا القدر أبدًا في حياته وتمنى أن يبقى الوضع على هذا الحال حتى يكون أولادنا هم من يحررون جيم، إذ كان يرى أن جيم سيحب هذا الوضع أكثر فأكثر فور أن يعتاده، وقال إن الوضع من الممكن أن يستمر على هذا النحو ثمانين عامًا ونحقق رقمًا قياسيًّا ونشتهر جميعًا لأننا كنا جزءًا منه.

ذهبت أنا وتوم صباحًا لنقطع الشمعدان النحاسي إلى أجزاء صغيرة عند كومة الأخشاب، ثم وضعه في جيبه هو والملعقة المعدنية وذهبنا إلى غرف الزنوج. بينما قمت أنا بتشتيت انتباه نات؛ حشر توم قطعة الشمعدان وسط الذرة التي كانت موجودة في وعاء جيم،

ثم ذهبنا مع نات لنرى إن كان الأمر سينجح. لقد نجح نجاحًا مذهلًا، ما كان لشيء أن ينجح مثل هذا النجاح، لقد كادت أسنان جيم كلها تتحطم عندما مضغها. قال توم لنفسه إن جيم تعامل مع الأمر كما لو أنها حصاة أو ما على شاكلتها من الأشياء التي دائمًا ما تكون داخل الخبز، إلَّا أنه بعد ذلك لم يمضغ شيئًا ما لم يضع فيه شوكته ثلاث أو أربع مرات أولًا.

وبينما كنا جالسين هناك في الضوء الخافت، تسلل كلبان عبر الحفرة إلى أسفل فراش جيم، ثم ما لبثت الكلاب أن بدأت تتجمع حتى وصل عددها إلى أحد عشر كلبًا ولم تعد هناك مساحة لأكثر من ذلك. اللعنة، لقد نسينا أن نغلق باب السقيفة! لم يسع الزنجي نات سوى أن يصيح قائلًا «ساحرات»، ثم جثا على الأرض وسط الكلاب وبدأ يتأوه كما لو كان يُحتضر، ففتح توم الباب سريعًا وألقى بقطعة لحم من التي كان جيم يأكل منها إلى الخارج فانقضت الكلاب عليها، وخلال ثانيتين كان توم قد خرج هو أيضًا ثم عاد وأغلق الباب، وقد علمت أنه قد أغلق الباب الآخر أيضًا. ثم التفت إلى الزنجي، وأخذ يواسيه ويلاطفه ويسأله إن كان قد تخيل أنه يرى شيئًا من جديد، فنهض وأخذ يرمش بعينيه متلفتًا وقال:

«ستقول عني أحمق يا سيدي، لكنني أتمنى الموت هنا وحالًا لو أني لم أرَ ملايين الكلاب أو الشياطين أو شخصًا ما، أنا متأكد من أنني رأيتهم يا سيدي، لقد شعرت بوجودهم، لقد كانوا يحيطون بي من كل اتجاه. اللعنة، أتمنى لو كان بوسعي أن أضع يدي على واحدة

من تلك الساحرات، واحدة فقط، هذا هو كل ما أريده، يا ليتهم يتركنني وشأني، أنا أريد هذا حقًّا».

قال توم:

«سأقول لك رأيي: ما الذي يأتي بهن إلى هنا في موعد إفطار الزنجي الهارب؟ لأنهن جائعات؛ هذا هو السبب. اِصنع لهن فطيرة ساحرات وسيُحل الأمر».

«لكن كيف يمكنني أن أصنعها يا سيدي؟ أنا لا أعرف طريقة صنعها، فأنا لم أسمع بها من قبل».

«حسنًا، سأصنعها بنفسي إذًا».

«هل ستصنعها بنفسك حقًّا يا عزيزي؟ سأمسح الأرض من تحت قدميك؛ سأمسحها!».

«نعم، سأصنعها من أجلك لأنك كنت طيبًا معنا وجعلتنا نرى الزنجي الهارب، لكن يجب أن تكون حذرًا وتدير ظهرك عند قدومنا ولا تنظر إلى ما نضعه في الوعاء إطلاقًا ولا عندما يُفرغه جيم، لأن شيئًا لا أدري كنهه من الممكن أن يحدث. وقبل كل شيء، لا تفعل تلك الأشياء التي تطرد الساحرات».

«أطردهن يا سيدي؟ ما هذا الذي تقوله؟ لن أجعل إصبعي يقربهن ولا حتى مقابل مئة ألف مليار دولار، لن أفعل ذلك».

(٣٧)



أصبح كل شيء معدًّا؛ ذهبت أنا وتوم إلى كومة القمامة المتواجدة في الباحة الخلفية لأنهم كانوا يحتفظون فيها بالأحذية القديمة والأسمال وما تبقى من القوارير وما بلي من القصدير وغيرها، وأخذنا نبحث فيها حتى عثرنا على وعاء غسيل مصنوع من القصدير وسددنا ما به من ثقوب حتى يتسنى لنا استخدامه في صنع الفطيرة، ثم ذهبنا إلى القبو وسرقنا ملء الوعاء دقيقًا. وفي طريقنا لتناول الإفطار، وجدنا زوجًا من المسامير فقال توم إنها ستكون وسيلة سهلة يمكن للسجين الاستعانة بها في حفر اسمه ومآسيه على حوائط الزنزانة. وهكذا، وضع واحدًا في جيب مريولة الخالة سالي التي كانت معلقة على مقعد، ووضع الآخر بين ثنايا قبعة العم سايلاس التي كانت موضوعة على المكتب، ثم وضع الملعقة المعدنية في جيب معطف العم سايلاس، لأننا سمعنا الأطفال وهم يقولون إن والديهم سيذهبان إلى غرفة الزنجي الهارب هذا الصباح. ومن ثم مكثنا ننتظر عودة الخالة سالي من أجل تناول الإفطار.

وعندما وصلت، كان وجهها متوهجًا من الغضب ولم تتمهل

حتى ندعو قبل تناول الإفطار وبدأت تسكب القهوة بيد واحدة وتضرب الطفل الأقرب إلى مقعدها على رأسه بالكشتبان بيدها الأخرى، ثم قالت:

«لقد بحثت في كل مكان عن قميصك، ولا أجد له أثرًا».

سقط قلبي بين أضلعي وفوق كبدي وكل شيء آخر واصطدم بقشة ذرة كنت قد ابتلعتها، وأسفر التصادم عن سعال خرجت بسببه القشة من فمي لتطير فوق الطاولة وتضرب أحد الأطفال في عينه مثل طعم سمكة، وتجعله يصرخ. كذلك، تحول وجه توم إلى الأزرق، وكانت هناك جلبة لمدة ربع دقيقة تقريبًا تمنيت خلالها لو أن بوسعي فعل أي شيء حتى أخرج من هنا، إلَّا أن كل شيء أصبح على ما يرام بعد أن خف وقع المفاجأة، ثم قال العم سايلاس:

«إنه أمر محير جدًّا، لا أستطيع أن أفهم ماذا جرى، أنا متأكد تمامًا من أنني خلعته لأن..».

«.. لأنك لا ترتديه، أنا أعرف أنك خلعته ومتأكدة من ذلك لأنه كان على حبل الملابس أمس ورأيته بنفسي، لكنه اختفى وهذه هي خلاصة الأمر وسيتعين عليك أن ترتدي قميصًا أحمر حتى يتاح لي الوقت أن أصنع لك واحدًا آخر، وسيكون هذا ثالث قميص أصنعه خلال عامين، إنني أبذل مجهودًا من أجل أن يكون لديك ما يكفي من القمصان، وأظن أنه قد حان الوقت من أجل أن تتعلم العناية بقمصانك».

«أنا أعلم ذلك يا سالي وأبذل قصارى جهدي للعناية بهم،

لكن هذا لا يعني بالضرورة أن الخطأ كله يقع عليَّ، لأنك تعرفين أن علاقتي بالقمصان محصورة على ارتدائها وأنني لا أراهم باستثناء ذلك، ولا أظن أنني ضيعت قميصًا أثناء ارتدائه».

«حسنًا، إن لم تكن قد ضيعته فالخطأ ليس خطأك يا سايلاس، رغم أنك كنت لتضيعه لو كان بإمكانك على ما أعتقد، إلَّا أن القميص لم يكن الشيء الوحيد الذي اختفى فهناك ملعقة أيضًا غير موجودة لأنهم كانوا عشر ملاعق وأصبحوا تسعًا؛ أعتقد أن العجل من الممكن أن يكون قد أكل القميص، لكنه بالتأكيد لم يأخذ الملعقة».

«ما الذي اختفى أيضًا يا سالي؟».

«ست شمعات؛ أعتقد أن الفئران من الممكن أن تكون قد قرضتهم؛ إنها معجزة أنهم لم يقرضوا المكان بأكمله. لقد تعهدت مرارًا بغلق جحورهم ولم تفعل حتى أصبح من الممكن أن يناموا في شعرك دون أن تلحظ يا سايلاس، لكنهم لا يمكن أن يكونوا قد قرضوا الملعقة؛ أنا متأكدة من ذلك».

«حسنًا يا سالي، لقد أخطأت وأعترف بتقصيري، ولن أدع غدًا يمر دون أن أسد الجحور».

«أوه، لا حاجة إلى العجلة؛ من الممكن أن نسدها العام القادم يا ماتيلدا أنجلينا أرامينتا فيلبس!».

ثم ضربت طفلها بكشتبان فأبعد يده عن برطمان السكر على الفور، وحينئذ دخلت سيدة زنجية إلى الممر وقالت:

«لقد اختفت ملاءة يا سيدتي».

«اختفت ملاءة! يا إلهي!».

قال العم سايلاس بأسًى:

«سأسد هذه الجحور اليوم».

«من فضلك اصمت! هل تظن أن الفئران أخذت الملاءة؟ أين اختفت يا لايز».

«الله أعلم، ليس لديَّ أي فكرة يا سيدة سالي، لقد كانت على حبل الملابس أمس لكنها اختفت الآن ولم تعد موجودة هناك».

«أعتقد أن القيامة ستقوم، أنا لم أشهد شيئًا مثل هذا أبدًا في حياتي؛ قميص وملاءة وملعقة وست شمـ».

جاءت فتاة صغيرة تقول: «يا سيدتي، لقد اختفى شمعدان نحاسي».

«اغربي عن وجهي وإلَّا لطمتك بمقلاة!».

كانت تغلي من الغضب حتى أنني أخذت أبحث عن فرصة أتسلل فيها إلى الغابة إلى أن تهدأ الأجواء، وقد كانت هي الوحيدة الغاضبة بينما بقي الجميع هادئًا. وأخيرًا أخرج العم سايلاس الملعقة من جيبه وقد بدت على وجهه الحماقة، فتوقفت وفتحت فمها ورفعت يديها على نحو جعلني أتمنى لو كنت في القدس أو في مكان آخر، إلَّا أن الشعور ما لبث أن زال عندما قالت:

«مثلما توقعت بالضبط، لقد كان في جيبك كل هذا الوقت،

أتوقع أن تكون بقية الأشياء الأخرى معك أيضًا، كيف وصلت إلى جيبك؟».

قال بنوع من الاعتذار: «أنا لا أعرف حقًّا يا سالي، وإلَّا كنت أخبرتك. لقد كنت أقرأ الفصل السابع عشر قبل الإفطار، وأعتقد أنني وضعتها هنا دون أن أنتبه بدلًا من أن أضع إنجيلي، يبدو أن هذا هو ما حدث لأن إنجيلي ليس هنا، لكنني سأذهب وأراه وإن كان الإنجيل موجودًا حيث كنت، فسيكون هذا معناه أنني لم أضعه هنا ووضعت الملعقة بدلًا منه، و..».

«يا إلهي! توقف عن الحديث! اذهبوا جميعًا الآن ولا يقترب أحد مني حتى أهدأ».

كنت لأسمعها لو كانت قالت هذه الجملة لنفسها، ناهيك عن قولها بصوت عالٍ، وكنت لأنهض وأطيعها حتى لو كنت ميتًا. بينما كنا نمر عبر غرفة المعيشة، أمسك الرجل العجوز بقبعته فسقط المسمار على الأرض فالتقطه ووضعه على رف الموقد دون أن يقول شيئًا ثم خرج. عندما رآه توم يفعل ذلك، تذكر أمر الملعقة وقال:

«حسنًا، لم تعد هناك فائدة من تهريب الأشياء من خلاله بعد الآن لأنه لا يُعتمد عليه، لكنه أسدى إلينا معروفًا بإعادة الملعقة على كل حال، حتى لو لم يكن يعرف ذلك، وعليه سنرد إليه المعروف من وراء ظهره ونسد جحور الفئران».

كانت جحور الفئران كثيرة جدًّا داخل القبو فاستغرقنا الأمر ساعة كاملة، لكننا أتممنا المهمة على أكمل وجه. ثم سمعنا خطوات

على السلالم فأطفأنا الشموع واختبأنا؛ لقد جاء الرجل العجوز ومعه شمعة في يده ومجموعة من الأشياء في يده الأخرى، وقد بدا شارد الذهن جدًّا. ثم أخذ ينتقل من جحر إلى آخر حتى تفقدهم جميعًا، ثم وقف حوالي خمس دقائق يلتقط الشمع المنصهر من على شمعته ويفكر، ثم التفت ببطء وبطريقة حالمة إلى السلالم وهو يقول:

«أنا لا أتذكر متى سددت الجحور، يمكنني أن أثبت لها الآن أنني لم أكن السبب في الفئران، لكن لا يهم فلأنسَ الأمر لأنني لا أعتقد أن هذا سيفيد».

وهكذا، صعد السلالم وهو يتمتم وكذلك رحلنا نحن أيضًا؛ لقد كان رجلًا عجوزًا طيبًا جدًّا على الدوام.

كان توم مهمومًا جدًّا بشأن الحصول على ملعقة وقال إننا يجب أن نحصل على واحدة، وهكذا أخذ يفكر في طريقة وعندما توصل إلى حل أخبرني كيف سننفذ الأمر. وهكذا، ذهبنا ووقفنا إلى جانب سلة الملاعق حتى رأينا الخالة سالي قادمة، فأخذ يحصي توم الملاعق ويضعها إلى جانب واحد بينما قمت أنا بإخفاء واحدة منهم في كمي، ثم قال توم:

«خالة سالي، لا يوجد هنا سوى تسع ملاعق».

قالت:

«اذهب لتلعب ولا تضايقني؛ لقد أحصيتهم بنفسي وأعرف عددهم جيدًا».

«لقد أحصيتهم مرتين يا خالتي ووجدتهم تسع ملاعق في المرتين».

بدا أن كل ما لديها من صبر قد نفد، إلَّا أنها جاءت لتحصيهم بالطبع، إذ إن أي شخص كان ليفعل ذلك.

قالت: «يا إلهي، إنهم تسع ملاعق! ما الذي يحدث، اللعنة، سأحصيهم مجددًا».

ومن ثم، وضعت الملعقة العاشرة من جديد، وعندما انتهت من العد قالت:

«اللعنة، لقد أصبحوا عشر ملاعق!»، وقد بدت غاضبة ومتضايقة في نفس الوقت، إلَّا أن توم قال:

«يا خالتي، لا أظن أنهم عشر».

«أيها الأبله، ألم ترني وأنا أحصيهم؟».

«أنا أعرف، لكن..».

«حسنًا، سأحصيهم مجددًا».

وحينئذ، انتشلت واحدة فأصبحوا تسعًا مرة أخرى، فاستشاطت غضبًا وكان جسدها كله يرتعش من شدة الحنق، إلَّا أنها أحصت الملاعق من جديد مرات كثيرة، فأصابت ثلاثًا وأخطأت ثلاثًا، ثم تشوشت وأخذت تخطئ العد، ثم أمسكت بالسلة وألقتها على الأرض فحطمت كل شيء، ثم طلبت منا أن نخرج وندعها تهدأ، وقالت إننا إذا أتينا لمضايقتها مرة أخرى من الآن وحتى موعد الغداء

فستسلخنا. وهكذا، وضعنا تلك الملعقة في جيب مريولتها بينما كانت تطردنا، وهكذا وصلت إلى جيم مع المسمار قبل الظهيرة على خير ما يرام. سررنا كثيرًا بما حققناه، وقال توم إن الأمر كان يستحق حتى ضعف ما تكبدناه من عناء لأنها لن تحصي هذه الملاعق من جديد طوال حياتها، وحتى إن فعلت فلن تصدق أنها أحصتها بشكل صحيح، وقال إنه يعتقد أنها ستظل تحصيهم طوال الثلاثة أيام التالية ثم ستتوقف، وإن طلب منها أحد أن تحصيهم مجددًا فستُفضل قتله على إحصائهم.

في تلك الليلة، أعدنا الملاءة إلى حبل الملابس وسرقنا ملاءة أخرى من خزانتها، وأخذنا نعيدها ونسرقها لمدة يومين، حتى لم تعد تعرف كم ملاءة لديها أو حتى تهتم بذلك، ومن ثم قررت أنها تفضل الموت على أن تحصيهم مرة ثانية.

وهكذا أصبح كل شيء على ما يرام فيما يخص القميص والملاءة والملعقة والشمع، بفضل العجل والفئران والخطأ في الحساب. أما بالنسبة إلى الشمعدان، فكنا سرعان ما سنتدبر أمره.

إلَّا أن صنع هذه الفطيرة كان عملًا جيدًا ومتعبًا، إذ قمنا بطهوها في الغابة، وعندما انتهينا منها أخيرًا كانت النتيجة مرضية جدًّا رغم أننا لم ننتهِ من صنعها في يوم واحد واضطررنا إلى أن نستخدم ملء ثلاث أوعية غسيل دقيقًا حتى ننتهي من صنعها، وحرقنا أنفاسنا في مواضع كثيرة، وغطى الدخان أعيننا. ومثلما ترى، فإن كان ما أردنا صنعه هو فطيرة، إلَّا أننا لم نستطع صنعها على نحو صحيح

وكانت دائمًا ما تهبط إلى أسفل، ومع ذلك فقد توصلنا إلى الطريقة الصحيحة في نهاية الأمر، وهي أن نضع السلم داخل الفطيرة أثناء طهوها. وهكذا، دخلنا إلى جيم في الليلة التالية وقطعنا الملاءة إلى حبال صغيرة وربطناها معًا، وقبل شروق الشمس بوقت طويل أصبح لدينا حبل لطيف يمكنك أن تشنق به أحدًا، وتظاهرنا بأنه استغرق تسعة أشهر من العمل.

وعند الضحى، أخذناه إلى الغابة لكنه كان كبيرًا جدًّا على الفطيرة نظرًا إلى أنه كان ملاءة كاملة، وقد كان الحبل طويلًا بما يكفي لأن يوضع داخل أربعين فطيرة، وكان ليتبقى منه ما يكفي لأن يوضع في الشوربة أو السجق أو أي شيء تختاره، بل كان ليكفي غداءً كاملًا.

ولأننا لم نكن بحاجة إلى الحبل كله، فإننا وضعنا ما يكفي داخل الفطيرة وألقينا الباقي. كذلك، فلم نطهُ الفطيرة في وعاء الغسيل، لأننا خشينا أن ينصهر اللحام. كان لدى العم سايلاس وعاء حراري قديم مصنوع من النحاس وله مقبض خشبي طويل؛ كان أحد أجداده قد أحضره معه من إنجلترا على سفينة مايفلاور وقت غزو ويليام، وكان العم سايلاس يبجله كثيرًا لأنه يخص أحد أجداده ولهذا كان يبقيه في الغرفة العلوية مع الكثير من الأواني القديمة والأشياء القيمة. ولم يكن يحتفظ بها على هذه الحال لأنها كانت ذات قيمة، لأنها لم تكن ذات قيمة، وإنما لأنها كانت تحفة قديمة مثلما تعرف. وهكذا، هربناها إلى الخارج سرًّا وأخذناها إلى هناك، لكننا فشلنا في المحاولات الأولى لأننا لم نعرف كيف

نستخدمها، ثم نجحت المحاولة الأخيرة، إذ قمنا بتبطين الوعاء بالدقيق ووضعناه فوق الفحم، ثم وضعنا الحبل القماشي بداخله ووضعنا طبقة أخرى من الدقيق، ثم أغلقنا الغطاء ووضعنا جمرًا حارًّا أعلاه، ثم وقفنا على بعد خمسة أقدام بهدوء وأريحية، ممسكين بالمقبض الطويل. وخلال خمس عشرة دقيقة، أصبح لدينا فطيرة تسر العينين. إلَّا أن على الشخص الذي كان سيأكلها إحضار حقيبتين من خلل الأسنان، لأن ابتلاع الحبل القماشي من المؤكد سيكون صعبًا جدًّا وسيصيبه بألم في المعدة أيضًا.

لم يختلس نات النظر عندما وضعنا فطيرة الساحرة في وعاء جيم، ومن ثم تمكنا من وضع أطباق القصدير الثلاثة تحت وعاء الطعام، وهكذا وصل كل شيء إلى جيم على خير ما يرام. وبمجرد أن أصبح بمفرده، كسر الفطيرة وخبأ سلم الحبال داخل مرتبته القشية وقام بخربشة بعض العلامات على أحد أطباق القصدير، ثم ألقاه خارج النافذة.

(٣٨)



كان صنع هذه الأقلام مهمة غاية في الصعوبة وكذلك كان صنع المنشار، وقال جيم إن النقش والخربشات التي سيصنعها السجين على الحائط ستكون أصعب شيء على الإطلاق، إلَّا أنه كان مجبرًا على النقش وقال توم إن عليه القيام بذلك لأنه لم تكن هناك حالة واحدة لم ينقش فيها سجين على حائط السجن ويخربش شعاره.

قال: «انظر إلى الليدي جين جراي، انظر إلى جيلفور ددلي، انظر إلى نورثمبرلاند! وفرضًا كان الأمر متعبًا يا هاك؟ ماذا ستفعل؟ كيف ستتحايل على الأمر؟ يجب أن ينقش جيم على الحائط ويخربش شعاره مثل الجميع».

قال جيم:

«لكنني لا أملك شعارًا يا سيد توم، ليس معي سوى هذا القميص القديم وأنت تعرف أنني يجب أن أكتب عليه يومياتي».

«أوه، أنت لا تستوعب الأمر يا جيم. الشعار أمر مختلف جدًّا».

قلت: «لقد كان جيم محقًّا عندما قال إن ليس لديه شعار لأنه لا يمتلك شعارًا».

قال توم: «أعتقد أنني أعرف ذلك، لكنني أراهن أنه سيمتلك شعارًا قبل أن يخرج من هنا، لأنه سيخرج بطريقة صحيحة ولن يكون هناك أي عيب في سجله».

وبينما عكفت أنا وجيم على صنع الأقلام؛ هو من النحاس وأنا من الملعقة، جلس توم يفكر في الشعار. بعد قليل، أخبرنا توم أنه توصل إلى شعارات كثيرة جيدة، ولم يدر أيهم يختار، إلَّا كان يفضل واحدًا على البقية ويشعر بأنه سيختاره في النهاية. ثم قال:

«سنضع منحنى على غطاء كالون أو على الناحية اليمنى، ونضع علامة X في المنتصف، مع كلب مستلقي دلالة على العمومية، وتحت قدمه سلسلة دلالة على العبودية، مع علامة خضراء في الجانب العلوي، وسنضع ثلاثة خطوط على حقل أزرق، مع نقاط مبعثرة على ساحة رقص، وسنضع زنجيًّا هاربًا يضع على كتفيه أحمالًا فوق عمود الشر، وإلى جانبه وحشان دلالة على الدعم، وهذا الوحشان هما أنت وأنا، وسيكون الشعار ماجيوري فريتا ميتوري أوتو. لقد تعلمته من كتاب ومعناه: كلما زاد التسرع قلت السرعة».

قلت: «عظيم جدًّا، لكن باستثناء الجملة الأخيرة ماذا يعني كل هذا؟».

قال: «ليس لدينا وقت للتفكير في هذا، يجب أن نحفر بأقصى سرعة».

قلت: «حسنًا، لكن ألا يمكنك أن تشرح جزءًا منه؟ ما علامة الـX هذه؟».

«علامة الـX، علامة الـX، لا حاجة إلى أن تعرف معناها، سأوضح له كيف يرسمها عندما نصل إلى هذه النقطة».

قلت: «اللعنة يا توم، أعتقد أن بإمكانك أن تخبر أحدًا بمعناها. ما هو عمود الشر؟».

«لا أعرف، لكن يجب أن يكون موجودًا، لقد حصل عليه كل النبلاء».

كانت هذه طريقته دائمًا؛ طالما لم يرغب في شرح شيء ما فلن يشرحه. حتى وإن أكثرت عليه الإلحاح لمدة أسبوع؛ لن يتغير شيء.

الآن وقد انتهى من أمر الشعار، شرع يفكر في مسألة النقوش الحزينة التي قال إن على جيم كتابتها مثل الجميع، وقد قام بتأليف العديد من هذه الجمل وكتبها على ورقة وقرأها. وكانت كالتالي:

١. هنا قلب أسير مكسور.

٢. هنا سجين مسكين هجره العالم والأصدقاء قلق على حياته الحزينة.

٣. هنا قلب وحيد مكسور وروح متعبة قد ماتت بعد سبعة وثلاثين عامًا من الحبس الانفرادي.

٤. هنا قد مات الوريث الشرعي لويس الرابع عشر غريبًا شريدًا وبدون أصدقاء بعد سبعة وثلاثين عامًا من السجن المرير.

ارتعش صوت توم وهو يقرأهم حتى كاد أن ينهار، وبعد أن انتهى لم يكن بوسعه أن يقرر أي واحدة يتعين على جيم نقشها على الحائط، لأنهم كانوا جميعًا جيدين جدًّا، فقرر أن ينقشهم جميعًا في النهاية، إلَّا أن جيم قال إن نقش كل هذه الجمل على الألواح الخشبية بمسمار سيستغرق عامًا بالإضافة إلى أنه لا يعرف كيف يكتب الحروف، فقال توم إنه سيرسمها له ولن يكون عليه سوى أن يسير فوق الخطوط. ثم قال بعد قليل:

«إذا فكرت في الأمر، ستجد أن الألواح الخشبية لن تفي بالغرض، لأن الزنازين لا تُبنى من الألواح الخشبية، ومن ثم يجب أن نحفر هذه النقوش على صخرة؛ سنحضر صخرة».

فقال جيم إن الصخرة كانت أسوأ من الألواح، وقال إن نقشهم على صخرة سيستغرق وقتًا طويلًا جدًّا وربما لا يستطيع الهرب أبدًا، إلَّا أن توم قال له إنه سيدعني أساعده، ثم أخذ يراقبني أنا وجيم ليرى كيف سنؤدي هذه المهمة المضنية المملة المزعجة البطيئة التي لم تسمح للقروح التي كانت على يدي بأن تُشفى. وعندما لم يبد أننا نحرز تقدمًا، قال توم:

«لقد وجدت الحل؛ يجب أن نأتي بصخرة ننقش بها الشعار والجمل الحزينة، وبذلك نكون قد ضربنا عصفورين بحجر واحد. يوجد مِسن كبير في المزرعة؛ سنجلبه ونحفر عليه ومن الممكن أن نسن عليه الأقلام والمنشار أيضًا».

لم تكن فكرة سيئة، وهكذا قررنا أن ننفذ الأمر رغم أن المِسن

كان كبيرًا. لم تكن الساعة قد دقت دقتها الثانية عشرة بعد فمضينا نحو المزرعة وتركنا جيم يعمل. أخذنا المِسن وقررنا أن نجره إلى المنزل، إلَّا أنها كانت مهمة صعبة جدًّا، ورغم أننا بذلنا ما في وسعنا فلم نستطع منعه من السقوط، وقد كاد يحطمنا في كل مرة يسقط فيها حتى قال توم إنه حتمًا سيقضي على واحد منا قبل أن ننقله، وعندما وصلنا به إلى منتصف الطريق، كنا نشعر بتعب شديد ونتصبب عرقًا فلم نجد بُدًّا من إحضار جيم، وهكذا رفع جيم فراشه فانسلت السلسة من رجل السرير، ثم ربطها حول عنقه وتسللنا إلى الخارج عبر الفتحة، وعندما وصلنا إلى هناك حملتُ أنا وجيم المِسن دون أدنى مجهود بينما أخذ توم يشرف علينا. لقد كان بوسعه أن يتفوق على أي صبي آخر في الإشراف؛ لقد كان يعرف كيفية القيام بكل شيء.

ورغم أن الحفرة التي صنعناها كانت كبيرة جدًّا فإنها لم تكن كافية لأن يدخل المِسن عبرها، ومن ثم أمسك جيم الملقاط وقام بتوسعتها سريعًا. بعد ذلك، أمسك توم بالمسمار ورسم تلك الأشياء، ثم ترك جيم يحفرها بمسمار وإزميل وترباس حديدي كان قد حصل عليه من القمامة التي كانت موجودة في السقيفة، من أجل أن يستخدمه بدلًا من المطرقة، ثم طلب إليه أن يعمل حتى تنطفئ شمعته ومن ثم يمكنه أن يخلد إلى النوم ويخبئ المِسن تحت مرتبته القشية وينام فوقها. بعد أن ساعدناه على إعادة سلسلته داخل رجل السرير، كنا مستعدين للخلود إلى النوم نحن أيضًا لولا أن خطر شيء إلى توم وقال:

«هل يوجد هنا أي عناكب يا جيم؟».

«لا يا سيدي، لا يوجد عناكب حمدًا لله يا سيد توم».

«حسنًا، سنحضر لك بعض العناكب».

«من فضلك لا أريد أي عناكب يا عزيزي لأنني أخشاهم وسرعان ما ستأتي حيات الجرس».

فكر توم دقيقة أو دقيقتين ثم قال:

«إنها فكرة جيدة، وأعتقد أنها حدثت من قبل، بالتأكيد حدثت لأنها منطقية. نعم، إنها فكرة جيدة جدًّا، أين يمكنك الاحتفاظ بها؟».

«الاحتفاظ بماذا يا سيد توم؟».

«حية الجرس».

«يا إلهي! إذا أتت إلى هنا حية جرس سأندفع عبر هذا الحائط الخشبي برأسي».

«لكن خوفك منها سيتضاءل بعد قليل يا جيم؛ يمكنك ترويضها».

«ترويضها!».

«نعم، هذا أمر سهل جدًّا. جميع الحيوانات تشعر بالامتنان ناحية الطيبة والتدليل، ولن يفكروا في إيذاء شخص يدللهم، وهذا مذكور في كل الكتب. كل ما أطلبه منك هو أن تحاول، حاول فقط

لمدة يومين أو ثلاثة أيام؛ يمكنك أن تجعلها تحبك خلال وقت قصير وتنام معك ولا تتبعد عنك دقيقة واحدة وتدعك تلفها حول رقبتك وتضع رأسها في فمك».

«من فضلك يا سيد توم لا تتحدث بهذه الطريقة! لا أستطيع أن أتحمل! ستقدم لي معروفًا وتدعني أضع رأسها في فمي، أليس كذلك؟ أعتقد أنها ستنتظر طويلًا قبل أن أفعل ذلك. كذلك، فأنا أيضًا لا أريدها أن تنام معي».

«لا تتصرف بهذه الحماقة يا جيم، يجب أن يكون لدى السجين حيوان. وإن لم يكن أحد قد جرب الأمر مع حية الجرس من قبل، فسيكون المجد الذي تحققه أكبر من أي مجد تخيلته في حياتك لأنك ستكون أول من يجرب الأمر».

«أنا لا أريد مجدًا من هذا النوع يا سيد توم، افترض أن الحية لدغتني من رقبتي، أين المجد في هذا؟ لا يا سيدي، ليس لي شأن بهذه الأمور».

«ألا يمكنك أن تحاول؟ كل ما أريده منك هو أن تحاول ولست مضطرًا إلى الاحتفاظ بها ما لم ينجح الأمر».

«لكن كل شيء سينتهي إذا لدغتني الحية وأنا أحاول ترويضها يا سيد توم، أنا مستعد لفعل أي شيء يتسم بالمنطق، لكن إذا أحضرت أنت وهاك حية جرس إلى هنا حتى أروضها فسأرحل بالتأكيد».

«حسنًا انس الأمر إذًا، إن لم يكن باستطاعتك تقبل الأمر إلى

هذا الحد فيمكننا أن نحضر بعض الأفاعي المخططة التي يمكنك أن تربط على ذيولها بعض الأزرار وتتظاهر بأنها حيات جرس. أعتقد أن هذا سيفي بالغرض».

«يمكنني أن أتحمل الأفاعي المخططة يا سيد توم، لكنني أقول لك إن بإمكاني التعايش بدونها. لم أكن أعرف من قبل أن السجن بهذه المشقة».

«إنه دائمًا شاق عندما يكون سجنًا حقيقيًّا، هل يوجد هنا أي فئران؟».

«لا يا سيدي، لم أر أي فئران».

«حسنًا، سُنحضر إليك بعض الفئران».

«أنا لا أريد أي فئران يا سيدي؛ إنها أسوأ المخلوقات وأكثرها إزعاجًا على الإطلاق، إذ تتحرك فوق المرء وتعض قدمه بينما يحاول أن ينام. لا يا سيدي، اجلب أفاعي مخططة إن كان يتعين عليك ذلك، لكن لا تجلب أي فئران فلست بحاجة إليهم».

«لكن يجب أن يكون لديك فئران مثل الجميع يا جيم، لذلك لا تحدث جلبة بهذا الشأن. لا يوجد سجين بدون فئران، لم يحدث هذا أبدًا. بل إنهم يدربونهم ويدللونهم ويعلمونهم خدعًا ويتآلفون معهم مثلما يألف المرء الذباب. لكن يجب أن تعزف لهم ألحانًا، هل لديك شيء تعزف عليه موسيقا؟».

«ليس لدي شيء سوى مشط وورقة وقيثار اليهود الصغير الذي

يصدر الأصوات بالاهتزاز، لكنني لا أعتقد أنهم سيحبون الموسيقى التي تصدر عنه».

«لا، سيحبونها. إنهم لا يهتمون بنوع الموسيقى، فضلًا عن أن موسيقى الاهتزازات التي تصدر عن قيثار اليهود جيدة جدًّا للفئران، جميع الحيوانات تحب الموسيقى في السجن، وبخاصة الموسيقى المؤلمة، ولا يمكن أن يصدر عن هذه القيثارة سوى موسيقى مؤلمة، إنها تشوقهم دائمًا وسيخرجون من جحورهم ليعرفوا سبب حزنك. لا تقلق ستكون على ما يرام. أريد منك أن تجلس على فراشك ليلًا قبل أن تخلد إلى النوم ومبكرًا في الصباح أيضًا، ثم تعزف «انكسر آخر خيط» وسيخرجوا بسرعة كبيرة، وعندما تعزف لمدة دقيقتين سترى أن كل الفئران والثعابين والعناكب قد بدأت تشعر بالقلق تجاهك وستأتي إليك وتتدفق ناحيتك وسيقضون وقتًا طيبًا».

«أعتقد أنهم سيقضون وقتًا طيبًا يا سيد توم، لكن كيف سأقضي أنا وقتي؟ أنا لا أفهم المنطق من وراء هذا، لكنني سأفعله إن كان يجب عليَّ ذلك. أعتقد أنني من الأفضل أن أجعل الحيوانات راضية دون حدوث مشاكل في المنزل».

انتظر توم قليلًا ليفكر في الأمر ويرى إن كان هناك شيء آخر ناقصًا، وسرعان ما قال:

«أوه، لقد نسيت شيئًا واحدًا، هل تظن أن بإمكانك أن تزرع وردة هنا؟».

«لا أعرف، ربما! لكن الظلمة شديدة هنا ولا فائدة من زرع وردة، خصوصًا أن الأمر سيكون مضنيًا».

«حسنًا، حاول على الأقل. لقد فعلها من قبلك سجناء آخرون».

«أعتقد أن بوسعي زراعة أعواد المولين الكبيرة يا سيد توم، لكنها لا تستحق نصف المجهود الذي سيُبذل في زراعتها».

«ستستحق؛ سنحضر لك واحدة صغيرة ويمكنك أن تزرعها في الركن هناك وتتركها تنمو. لكن لا تقل عليها مولين؛ بل بيتشيولا، لأن هذا هو الاسم الصحيح لما يُزرع في السجن، ويجب أن تسقيها بدموعك».

«لكن لديَّ ماء ينابيع كثير يا سيد توم».

«ماء الينابيع لن يكون مناسبًا، يجب أن تسقيها بدموعك. هذه هي الطريقة الصحيحة».

«لكن يا سيد توم، أعتقد أن ري زرعة واحدة من أعواد المولين بالدموع سيستغرق ضعف الوقت الذي يستغرقه ريها بمياه الينابيع».

«هذه ليست الفكرة، يجب أن تسقيها بالدموع».

«ستموت في يدي يا سيد توم، أنا متأكد من ذلك، فأنا لا أبكي على الإطلاق».

أصبح توم في حيرة من أمره فأخذ يفكر في الأمر وقال إن البصل من الممكن أن يجعل جيم يبكي، وهكذا وعده بأن يذهب إلى

غرف الزنوج ويسرق واحدة سرًّا ثم يضعها في إبريق القهوة الخاص بجيم صباحًا. إلَّا أن جيم قال إنه يفضل لو وضع تبغًا في قهوته، ثم أردف أنه يجد خطأً كبيرًا في الأمر وفي المجهود والتعب المصاحبين لزرع المولين وعزف القيثارة للفئران وتدليل الأفاعي والعناكب وغيرها، بخلاف كل المجهود الذي بذله في صنع الأقلام والنقوش واليوميات وغيرها، إذ إن كل هذا قد جعل الصعوبة والمسؤولية التي تحملها لكونه سجينًا أكبر من أي مشقة أخرى تحملها، وهكذا شعر توم بأن صبره أوشك أن ينفد وقال إن الفرص المتاحة لأن يصنع جيم اسمًا له كانت أكبر من أي فرصة حظي بها سجين آخر، ومع ذلك فهو ليس لديه ما يكفي من الوعي ليقدر ما بين يديه إلى الدرجة التي يبدو معها أن هذه الأشياء قد أهدرت بتوفيرها له، فاعتذر جيم وقال إنه لن يتصرف على هذا النحو بعد ذلك، وخلدت أنا وتوم إلى الفراش.

(٣٩)

في الصباح، ذهبنا إلى القرية واشترينا مصيدة فئران ووضعناها أمام أكبر جحر للفئران، وخلال ساعة تقريبًا كان لدينا خمسة عشر فأرًا من أفضل الأنواع، ثم أخذناها ووضعناها في مكان آمن تحت فراش الخالة سالي. إلَّا أننا عندما ذهبنا لنبحث عن العناكب، وجد توماس فرانكلين جيفرسون ألكسندر فيلبس الصغير المصيدة وفتح باباها ليرى إن كانت الفئران ستخرج، وبالطبع خرجت الفئران. عندما عدنا، وجدنا الخالة سالي تصيح من فوق فراشها بينما الفئران تقدم لها عرضًا حتى لا تشعر بالملل. وهكذا تلقينا ضربتين بعصا مصنوع من شجر الجوز واضطررنا إلى قضاء ساعتين في الحصول على خمسة عشر أو ستة عشر فأرًا آخرين، إلَّا أنهم لم يكونوا أفضل من المجموعة الأولى، لأن المجموعة الأولى كانت من الطراز الأول؛ لم أر مجموعة فئران أفضل من تلك المجموعة الأولى على الإطلاق.

حصلنا على تشكيلة رائعة من العناكب والحشرات والضفادع واليرقات وغيرها من الأشياء، وكنا نرغب في الحصول على عش

دبابير لكننا لم نستطع، إذ انتظرنا طويلًا حتى تتعب الدبابير وتخرج من العش إلَّا أن ما حدث هو أننا نحن من شعرنا بالتعب من كثرة اللدغ، فذهبنا لإحضار بعض من نبات الرَاسَن من أجل أن نضعه على الأماكن التي لدغتنا فيها الدبابير. تحسنت حالتنا، لكننا لم نستطع الجلوس بأريحية. ثم ذهبنا بعد ذلك لنجلب الثعابين، وبالفعل حصلنا على العشرات من أفاعي مخططة وأفاعي منازل ووضعناهم في حقيبة داخل غرفتنا. عندما حان وقت العشاء، كان قد يوم عمل جيد قد انتهى وكنا نتضور جوعًا. إلَّا أننا عندما عدنا إلى غرفتنا لم نجد ثعبانًا واحدًا، إذ لم نغلق الحقيبة جيدًا فتمكنوا من أن يتسللوا خارجها بطريقة ما. إلَّا أن ذلك لم يكن مهمًا لأنهم بالتأكيد كانوا لا يزالون في المكان، وتوقعنا أن بوسعنا استعادة بعضًا منهم من جديد، وبالفعل ظلوا داخل المنزل فترة من الوقت يتدلون من الأسقف ويخرجون من كل مكان ويجلسون فوق طبقك ويتحركون عند مؤخرة عنقك وفي أماكن أخرى مزعجة. ورغم أن منظرهم كان جميلًا وكانوا مخططين ولم يتسببوا في أي أذى، فإن ذلك لم يشكل فارقًا للخالة سالي، لأنها كانت تكره الأفاعي بغض النظر عن نوعها ولم تكن تطيقهم، وفي كل مرة كانت إحداهن تقترب منها كانت تترك ما تفعله -أيًا كان- وتهرب. لم أر مثل هذه السيدة أبدًا؛ كانت تصيح طلبًا لنجدة السماء، وما كانت توافق على أن تمسك أيًا من الثعابين ولو حتى بملقاط، وكانت تندفع وتصرخ بصوت يجعلك تظن أن المنزل يحترق إذا تقلبت ووجدت أحد الثعابين إلى جانبها. وقد كان هذا الأمر مزعجًا جدًّا للرجل

العجوز حتى أنه تمنى لو أن الثعابين لم تُخلق. وحتى بعد أسبوع من خروج آخر ثعبان من المنزل، لم تستطع الخالة سالي أن تتجاوز الأمر، والحق أنها لم تكن حتى على وشك تجاوزه، إذ كانت تقفز تاركة جوربها على الأرض إذا أتيت من ورائها وهي جالسة تفكر في شيء ما ولمست عنقها بريشة. كان أمرًا مثيرًا للاهتمام جدًّا، إلَّا أن توم أخبرني أن كل النساء بنفس الطريقة، وأنهن قد خُلقن بهذه الطريقة لسبب أو آخر.

كانت الخالة سالي تضربنا في كل مرة يظهر فيها أي ثعبان، وأخبرتنا أن هذا الضرب ليس شيئًا مقابل الضرب الذي سنتلقاه إذا كررنا هذا الأمر ثانية. لم يضايقني الضرب قدر ما ضايقتني المشقة التي تكبدناها من أجل أن نأتي بتشكيلة أخرى من الثعابين، لكننا أتينا بها على أية حال ووضعناها مع غيرها مما قمنا بجمعه وأصبحت غرفة جيم هل الغرفة الأكثر حيوية على الإطلاق، إذ خرجوا جميعًا ليستمعوا إليه وهو يعزف الموسيقى. لم يكن جيم يحب العناكب ولم تكن العناكب تحبه، وهكذا كانت العناكب تجلس ساكنة ويجلس جيم متوجسًا. قال جيم إن وجود الفئران والثعابين والمِسن لم يترك له مكانًا ينام فيه داخل الغرفة، وأنه حتى لو كان هناك مكان فلم يكن بوسعه أن ينام لأن البقية لم تكن تنام في نفس الوقت، إذ كانت الفئران تستيقظ عندما تنام الثعابين وكانت الثعابين تنهض للمناوبة عندما تنام الفئران، وهكذا كان محاطًا من تحته بمجموعة نائمة بينما المجموعة الأخرى تلعب في السيرك فوقه، وأنه إذا نهض ليبحث عن مكان جديد كانت العناكب تنتهز الفرصة وتتحرك فوقه، وأنه

إن حدث وأن خرج من هنا أبدًا، فلن يعود سجينًا مرة أخرى حتى وإن تلقى أجرًا.

بنهاية الأسبوع الثالث، كان كل شيء على خير ما يرام. أرسلنا القميص في وقت مبكر، داخل فطيرة، وكان جيم ينهض ويكتب يومياته بدمه في كل مرة يعضه أحد الفئران، وصنعنا الأقلام وحفرنا النقوش وكل شيء على المِسن، ونشرنا رجل السرير إلى نصفين وأكلنا نشارة الخشب؛ وقد تسبب لنا ذلك في ألم رهيب بالمعدة، وظننا أننا سنموت جميعًا إلَّا أن ذلك لم يحدث. كانت هذه النشارة هي الأصعب هضمًا على الإطلاق، وقد قال توم نفس الشيء. لكن مثلما كنت أقول، انتهينا من كل شيء أخيرًا وكنا متعبين جدًّا؛ خصوصًا جيم. كان الرجل العجوز قد راسل تلك المزرعة الموجودة في نيو أورلينز من أجل أن تأتي وتستعيد الزنجي الهارب، إلَّا أنه لم يتلق ردًا لأن هذه المزرعة لم تكن موجودة من الأساس، وهكذا قرر أن يعلن عن جيم في صحيفتي نيو أورلينز وسانت لويز، وقد جعلني ذكر سانت لويز أرتجف ورأيت أنه لم يعد أمامنا وقت لنضيعه. ومن ثم قال توم إن وقت الخطابات المجهولة قد حان.

قلت: «ما هذه الخطابات؟».

«تحذير للأشخاص بأن هناك شيئًا يحدث، ويمكن تنفيذ ذلك بطريقة أو بأخرى، دائمًا ما يكون هناك شخص يتجسس ويحذر حاكم القلعة، لقد فعلت إحدى الخادمات هذا الشيء عندما كان لويس السادس عشر على وشك الهروب من قصر تويلري؛ إنها طريقة جيدة

جدًّا هي وطريقة الخطابات المجهولة، وسنستخدم الطريقتين، ومن المعتاد أيضًا أن تبدل أم السجين ملابسها معه وتبقى هي مكانه بينما يهرب هو مرتديًا ملابسها؛ سنفعل ذلك أيضًا».

«لكن لماذا علينا أن نحذر أحدًا يا توم؟ اتركهم يكتشفوا الأمر بمفردهم، إن مسؤولية المراقبة تقع عليهم».

«أنا أعرف ذلك لكنهم لا يُعتمد عليهم، لأن هذه هي طريقتهم من البداية، لقد تركونا نفعل كل شيء، إنهم حمقى ويثقون كثيرًا إلى درجة لا تجعلهم يلحظون شيئًا على الإطلاق. وعليه، ما لم نعطهم تحذيرًا فلن يكون هناك أحد أو شيء يعترض طريقنا، وسيذهب كل شيء هباء بعد كل التعب والمشقة اللذين تكبدناهما من أجل عملية التهريب، وسيصبح كل ما فعلناه بلا قيمة أو معنى».

«من ناحيتي، فهذه هي الطريقة التي أريد أن تحدث بها عملية التهريب يا توم».

فقال والاشمئزاز باد على وجهه: «اللعنة». فقلت:

«لكنني لن أشتكي، الطريقة التي تناسبك تناسبني. كيف ستتدبر أمر هذه الخادمة؟».

«ستكون أنت الخادمة؛ ستتسلل في منتصف الليل وتسرق فستان تلك الفتاة السمراء».

«لكن هذا سيتسبب في مشاكل يا توم، لأنها بالتأكيد لا تمتلك سوى فستان واحد».

«أعرف ذلك، لكنك ستحتاج إلى خمس عشرة دقيقة فقط تحمل فيها الخطاب وتضعه تحت الباب الأمامي».

«حسنًا، سأفعل ذلك، رغم أن بإمكاني حمله وأنا أرتدي ملابسي».

«لكنك لن تبدو مثل خادمة في ملابسك، أليس كذلك؟».

«لا، لكن لن يكون هناك أحد ليراني كيف أبدو على أية حال».

«ليس لهذا علاقة بالأمر، المهم هو أن نقوم بواجبنا دون أن نفكر فيما إذا كان أحد سيرانا ونحن نفعل ذلك أم لا، أليس لديك مبادئ على الإطلاق؟».

«حسنًا، لن أقول شيئًا، سأكون الخادمة. من ستكون والدة جيم؟».

«سأكون أنا والدته، سأسرق فستانًا من الخالة سالي».

«حسنًا إذًا، ستضطر إلى البقاء في الغرفة بعد أن أرحل أنا وجيم».

«ليس كثيرًا، لأنني سأحشو ملابس جيم بالقش وأضعها على فراشه باعتبارها والدته المتنكرة، وسيخلع عني جيم ملابس والدته الزنجية ويرتديها، ثم نتملص متنكرين، إذ يُسمى الهرب تملصًا إذا كان للهارب مكانة مرموقة. دائمًا ما يسمونها هكذا عندما يهرب ملك أو ابن ملك، على سبيل المثال، ولا يكون هناك فرق سواء كان ابن الملك حقيقيًّا أم غير حقيقي».

وهكذا، كتب توم الخطاب المجهول، وسرقت أنا فستان الفتاة في تلك الليلة وارتديه، ثم وضعت الخطاب عند الباب الأمامي مثلما قال توم. وكان الخطاب يقول:

احذر. المشاكل تلوح في الأفق. انتبه جيدًا.

صديق مجهول

في الليلة التالية، وضعنا صورة جمجمة وعظام متصالبة كان توم قد رسمها بالدم، عند الباب الأمامي، وفي الليلة التي تلتها وضعنا صورة أخرى لتابوت، عند الباب الخلفي. لم أر عائلة متوترة بهذا القدر، إذ ما كانوا ليشعروا بقدر أكبر من الخوف لو أن المكان كان مسكونًا بأشباح تسير في الهواء وتختبئ تحت الأسرة وفي كل مكان، وكانت الخالة سالي تنتفض وتقول «أوتش!» إذا دق الباب أو سقط شيء، وإذا حدث وأن لمسها أحد دون أن تكون منتبهة كانت تفعل الشيء نفسه، إذ لم تكن مرتاحة في أي وضع لأنها كانت تعتقد أن شيئًا وراءها طوال الوقت، ولهذا السبب كانت دائمًا ما تلتفت وراءها فجأة وتقول «أوتش»، وقبل أن تستكمل ثلثي الاستدارة كانت تلتفت من جديد وتكرر ما قالته، وكانت تخشى الخلود إلى الفراش لكنها لم تستطع المخاطرة بالبقاء مستيقظة. كان كل شيء يسير على نحو جيد جدًا، وقال توم إنه لم ير شيئًا ينجح بهذا القدر من قبل وأن هذا دليل على أننا نفذنا الأمر على النحو الصحيح.

وهكذا، قال توم: إلى الخطوة الكبرى!

مع فجر الصباح التالي، جهزنا خطابًا آخر وأخذنا نفكر فيما

نفعل به لأننا سمعناهم في العشاء وهم يقولون إنهم سيجعلون زنجيًّا يراقب البابين طوال الليل، وهكذا تسلل توم عبر مانعة الصواقع من أجل أن يتجسس فوجد الزنجي الذي يحرس الباب الخلفي نائمًا فوضع الخطاب خلف عنقه وعاد. كان الخطاب يقول:

لا تشكك فيما أقوله لأنني أريد صداقتك؛ ستسرق عصابة سفاحين من الإقليم الهندي خادمك الزنجي الهارب الليلة، وقد حاولوا إخافتك حتى تترك المنزل ويخلو لهم الجو. أنا أحد أفراد العصابة، لكنني أصبحت متدينًا وأود ترك العصابة وأعيش حياة مستقيمة من جديد وسأحاول أن أحبط خطتهم. سيتسللون عند منتصف الليل بالضبط من الجهة الشمالية عند السور، وسيدخلون لسرقة غرفة الزنجي بنسخة المفتاح التي معهم، أما أنا فسأقف بعيدًا لأن مهمتي هي أن مراقبة الوضع والنفخ في بوق من القصدير إذا رأيت خطرًا قادمًا، إلَّا أنني لن أنفخ وسأقلد صوت الماشية فور أن يدخلوا. وفي الوقت الذي يحاولون فيه فك وثاقه، يمكنك أن تتسلل إلى هناك وتغلق عليهم الباب وتقتلهم في وقت فراغك. لا تفعل أي شيء سوى ما قلته لك، لأنك إن فعلت شيئًا آخر سيشكوا في الأمر ويطلقوا إنذارًا بالخطر. لا أريد أي مكافأة سوى أن تعرف أنني فعلت الصواب.

صديق مجهول

(٤٠)

كنا سعيدين جدًّا بعد الإفطار، فأخذنا الزورق وطعام الغداء وذهبنا إلى النهر لنصطاد، وقد استمتعنا بوقتنا. ثم ذهبنا بعد ذلك لنلقي نظرة على الطوافة فوجدناها على ما يرام. وعندما عدنا متأخرين على موعد العشاء، وجدناهم في توتر وقلق شديدين لم يعرفوا بسببه رأسًا من قدم وطلبوا أن نذهب إلى غرفتنا مباشرة بعد تناول العشاء. لم يخبرونا بالمشكلة ولم يقولوا كلمة واحدة عن الخطاب الجديد، إلَّا أنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك، لأننا كنا نعرف بالأمر مثلنا مثل الجميع. وعندما صعدنا نصف السلم وأعطتنا ظهرها، تسللنا إلى خزانة القبو وحملنا طعامًا يكفي للغداء ثم صعدنا به إلى غرفتنا وخلدنا إلى النوم. استيقظنا مجددًا حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف، وارتدى توم فستان الخالة سالي الذي سرقه، ثم أخذ الغداء وكان على وشك التحرك. ثم قال: «أين الزبدة؟».

قلت: «لقد أخذت قطعة كبيرة من الزبدة ووضعتها فوق الذرة».

«لقد تركتها إذًا، لأنها ليست هنا».

قلت: «يمكننا أن نتدبر أمرنا بدونها».

قال: «ويمكننا أن نتدبر أمرنا بوجودها أيضًا، اذهب إلى القبو واجلبها، ثم تسلل عبر مانعة الصواعق والحق بي، وسأذهب أنا لأحشو ملابس جيم بالقش لنضعها مكان والدته المتنكرة. استعد لتقليد صوت الماشية والتحرك فور أن تصل إلى هناك».

وهكذا خرج، وذهبت أنا إلى القبو. وجدت قطعة الزبد، التي كانت بحجم قبضة يد، حيث تركتها فأخذها هي والذرة وأطفأت الشمعة وصعدت على السلالم بحذر ووصلت إلى الطابق الرئيسي بسلام، إلَّا أن الخالة سالي جاءت وفي يدها شمعها فوضعت الأغراض في قبعتي ووضعت قبعتي فوق رأسي، وفور أن فعلت ذلك رأتني الخالة سالي وقالت:

«هل كنت في القبو؟».

«نعم يا سيدتي».

«ماذا كنت تفعل هناك؟».

«لا شيء».

«لا شيء!».

«لا يا سيدتي».

«حسنًا إذًا ما الذي جعلك تنزل إلى هناك ليلًا في مثل هذا الوقت من الليل؟».

«لا أعرف يا سيدتي».

«لا تعرف؟ لا تجيبني بهذه الطريقة. توم، أنا أريد أن أعرف ما الذي كنت تفعله هناك».

«لم أكن أفعل شيئًا يا خالة سالي، أقسم أنني لم أكن أفعل شيئًا».

ظننت أنها ستدعني أذهب مثلما تفعل دائمًا، لكن أعتقد أن كل الأمور الغريبة التي كانت تحدث جعلتها قلقة حيال كل شيء صغير ما لم يكن طبيعيًّا تمامًا، وهكذا قالت بحزم شديد:

«اذهب إلى غرفة الجلوس على الفور وابق هناك حتى آتي، لقد كنت تفعل أمرًا ليس لك أن تفعله وسأكتشف ما هو هذا الأمر قبل أن أنتهي من أمرك».

وهكذا تركتني وذهبت. عندما فتحت باب غرفة الجلوس ودخلت، وجدت زحامًا كبيرًا! يا إلهي، لقد كان هناك خمسة عشر فلاحًا جميعهم يحملون أسلحة، فشعرت بغثيان شديد ومضيت نحو مقعد لأجلس. كان الجميع جالسًا أيضًا، وكان بعضهم يتحدث قليلًا بصوت منخفض. ورغم أنهم كانوا جميعًا متململين ومضطربين، فقد حاولوا التظاهر بخلاف ذلك، لكنني كنت أعرف أنهم مضطربون لأنهم ظلوا يخلعون قبعاتهم ويرتدونها ويهرشون رؤوسهم ويغيرون مقاعدهم ويمسكون بأزاز ملابسهم. أنا نفسي لم أكن مرتاحًا، لكنني لم أخلع قبعتي.

تمنيت لو أن تأتي الخالة سالي وتنتهي من أمري وتضربني إن أرادت وتتركني أذهب، حتى يتسنى لي أن أخبر توم أننا بالغنا

ووضعنا أنفسنا في ورطة كبيرة وأننا يجب أن نتوقف عن العبث فورًا ونهرب بجيم قبل أن ينفد صبرهم ويقبضون علينا.

أخيرًا، جاءت الخالة سالي وأخذت تطرح عليَّ أسئلة، إلَّا أنني لم أستطيع أن أجيبها بصراحة لأنني كنت مضطربًا جدًّا بسبب البلبلة التي كان يحدثها هؤلاء الرجال في تلك اللحظة، ذلك أن بعضًا منهم أراد أن يتحرك وينتظر العصابة قبل منتصف الليل بدقائق، بينما كانت البقية تحاول إقناعهم بانتظار الإشارة. ورغم كل هذا، كانت الخالة تنهال عليَّ بالأسئلة بينما كان جسدي كله يرتعش وكدت أغرق في مقعدي من شدة الخوف. كانت سخونة المكان تتزايد أكثر فأكثر، وبدأت الزبدة تنصهر وتنحدر فوق عنقي ووراء أذني، وعندما قال أحد الرجال: «سأذهب وأدخل الغرفة الآن وأمسك بهم عند دخولهم» كدت أقع من طولي وسقطت قطعة من الزبدة على جبهتي. وما أن رأتني الخالة سالي على هذه الحالة حتى ابيض وجهها مثل الملاءة وقالت:

«يا إلهي، ما خطب هذا الصبي؟ لقد أصيب حتمًا بالالتهاب السحائي، إن مخه ينصهر!».

ركض الجميع ليرى الأمر، وخلعت هي عني قبعتي. وعندما سقط الخبز وما تبقى من الزبدة، أمسكت بي وعانقتني وقالت:

«أوه، كم أفزعتني! كم أنا سعيدة وممتنة أن الأمر ليس أسوأ، لأن النحس قد أصابنا والمصائب لا تأتي فرادى. عندما رأيت الزبدة وهي تنصهر ظننت أنني فقدتك لأنني اعتقدت أنك مرضت

بالالتهاب السحائي من هيئتك ولونك. يا عزيزي، لماذا لم تخبرني بأن هذا هو السبب الذي نزلت من أجله، ما كنت لأتضايق. اذهب إلى الفراش الآن ولا تدعني أراك حتى الصباح!».

صعدت إلى الطابق العلوي في ثانية، وتسللت إلى الخارج عبر مانعة الصواعق في ثانية أخرى، وركضت بسرعة البرق حتى وصلت إلى السقيفة. خرجت الكلمات من فمي بصعوبة من شدة التوتر، لكنني أخبرت توم بأقصى سرعة أننا يجب أن نتحرك الآن دون أن نضيع دقيقة واحدة، لأن المنزل مكتظ برجال مسلحين!

لمعت عيناه وقال:

«حقًّا؟ أليس هذا رائعًا؟! لو كان بإمكاني إعادة الكرة مرة أخرى، أراهنك أنني كنت لأجعلهم يجلبون مئتي رجل! لو كان بإمكاننا تأجيل الأمر حتى...».

قلت: «أسرع! أسرع! أين جيم؟».

«عند كوعك، إذا مددت يدك ستلمسه. لقد ارتدى ملابسه وأصبح كل شيء جاهزًا، وسنتسلل إلى الخارج الآن ونعطيهم الإشارة».

إلَّا أننا سمعنا جماعة الرجال تقترب من الباب وتعبث بالقفل، ثم قال أحدهم:

«لقد أخبرتك أننا تعجلنا، لم يأتوا بعد والباب مغلق. اسمعوا، سأترك بعضكم في الداخل وأغلق الباب، وستنتظرونهم هنا في

الظلام وتقتلونهم عند وصولهم، ولينتشر البقية في جميع الأرجاء ويروا إن كان بإمكانهم أن يسمعوا شيئًا».

وهكذا دخلوا؛ لم يتمكنوا من رؤيتنا في الظلام وكادوا يدهسوننا ونحن نسرع لندخل تحت الفراش، إلَّا أننا تمكنا من الدخول تحت الفراش بسلام، ومنه تسللنا عبر الحفرة بسرعة وهدوء؛ جيم أولًا ثم أنا ثم توم، وفقًا لتعليمات الأخير. عندما خرجنا إلى السقيفة، سمعنا حركة بالخارج على مقربة، فزحفنا نحو الباب حتى أوقَفَنا توم. حاول توم بعد ذلك أن ينظر عبر شق الباب، إلَّا أنه لم يستطع أن يتبين شيئًا في الظلمة، فهمس إلينا قائلًا إنه سينصت حتى يتأكد أنهم قد ابتعدوا وحينها سيعطينا ضربة، ومن ثم يجب أن نتسلل إلى الخارج؛ جيم أولًا وهو آخرًا. وهكذا، وضع أذنه على الشق وأنصت، وأنصت، وأنصت، إلَّا أن صوت الخطوات ظل موجودًا. وأخيرًا، أعطانا ضربة فتسللنا إلى الخارج وتحركنا دون أن نحدث أدنى ضوضاء، حتى أننا حبسنا أنفاسنا وسرنا ناحية السور حتى وصلنا إليه بأمان وتسلقناه أنا وجيم، أما توم فقد شبك بنطاله في قطعة حديد بالسلك العلوي للسور، وفي تلك اللحظة سمع توم صوت خطوات قادمة فجذب البنطال ليحرر نفسه فاهتز السلك وأحدث ضوضاء. وفور أن سقط إلى جانبنا، صاح شخص:

«من هناك؟ أجبني وإلَّا سأطرق النار!».

لم نجب وأطلقنا أقدامنا للريح وركضنا، فاندفعوا وراءنا وهم يطلقون النار! كانت الطلقات تمر من جانبنا! سمعناهم يصيحون:

«ها هم أولاء! إنهم يتجهون ناحية النهر! الحقوا بهم يا فتيان وحرروا الكلاب!».

لحقوا بنا بأقصى ما لديهم من سرعة، وكان باستطاعتنا سماعهم لأنهم كانوا يصيحون ويرتدون أحذية، على عكسنا. كنا على طريق المزرعة فاختبأنا بين الأجمة، عندما شعرنا باقترابهم، وانتظرنا حتى تجاوزونا ثم خرجنا إلى الطريق وراءهم. كانت الكلاب كلها مربوطة حتى لا يخيفوا اللصوص، إلَّا أن أحد الرجال أطلق سراحهم في تلك اللحظة، فركضوا ناحيتنا وهم ينبحون بأعلى صوت. ولأن الكلاب كانت تعرفنا لأننا أصحابها توقفنا في مكاننا حتى وصلوا إلينا، وعندما لم تجد الكلاب شيئًا مريبًا ألقت علينا التحية ثم انطلقت وهي تصيح وتنبح، فانطلقنا وراءها حتى اقتربنا من المزرعة ثم دخلنا عبر الأجمة إلى حيث كان زورقي مخبئًا، وقفزنا داخله ومضينا إلى منتصف النهر نحو الحياة الغالية، لكننا لم نُحدث ضوضاء أكثر من حاجتنا، ثم اتجهنا بهدوء وأريحية إلى الجزيرة التي كانت عليها الطوافة، وكان باستطاعتنا أن نسمعهم وهو يتصايحون فوق كل جزء من الضفة، حتى ابتعدنا ومن ثم أخذت الأصوات تتخافت حتى اختفت تمامًا. وعندما وضعنا أقدامنا على الطوافة، قلت:

«والآن يا جيم، لقد أصبحت حرًا من جديد وأراهن أنك لن تعود عبدًا من جديد».

«لقد كانت خطة جيدة جدًّا أيضًا يا هاك، لقد تم التخطيط

للأمر بشكل جميل، وكان التنفيذ جميلًا أيضًا، وما كان لأحد أن يأتي بخطة معقدة ورائعة على هذا النحو».

كنا جميعًا سعداء إلى أقصى درجة، إلَّا أن توم كان أسعدنا جميعًا لأنه تلقى رصاصة في سمانة قدمه.

عندما سمعت أنا وجيم بالأمر، لم نعد نشعر بالسعادة مثلما كنا نشعر من قبل. كان الجرح يؤلمه كثيرًا وكان ينزف، فجعلناه يستلقي داخل الكوخ وقطعنا أحد قمصان الدوق من أجل أن نربط مكان الجرح، لكنه قال:

«أعطياني قطعة القماش، يمكنني أن أربطها بنفسي. لا تتوقفا الآن، لا تضيعان الوقت بينما تسير عملية التملص على نحو رائع، جدفا وانطلقا! لقد فعلناها على نحو رائع يا فتيان! لقد فعلناها على نحو رائع حقًّا. يا ليتنا كنا من حرر لويس السادس عشر، إذ ما كان ليُكتب في سيرته «ابن القديس لويس، اصعد إلى السماء»، لا يا سادة، كنا لنجعله يعبر الحدود، هذا ما كنا سنفعله، وكنا سنفعله ببراعة فائقة أيضًا. جدفا، جدفا، جدفا!».

إلَّا أنني كنت أتشاور مع جيم، وكنا نفكر. وبعد أن فكرنا دقيقة، قلت:

«تحدث يا جيم».

فقال:

«هكذا أرى الأمر يا هاك، إذا كان هو من نحاول تحريره، وأصيب

أحد الفتيان، هل كان سيقول: «أنقذاني، لا تحضرا طبيبًا لإنقاذ هذا الفتى»؟ هل هذه طبيعة السيد توم سوير؟ هل كان سيقول ذلك؟ أراهنك أنه ما كان ليقول ذلك! وبالمثل، هل سيقول جيم ذلك؟ لا يا سيدي، لن أتحرك خطوة واحدة من هذا المكان بدون طبيب، حتى لو انتظرت أربعين عامًا!».

كنت أعرف أن جيم من داخله رجلًا أبيض وتوقعت أن يقول ما قال. حُسِم الأمر وأخبرت توم أنني ذاهب لأبحث عن طبيب، فعارض الأمر كثيرًا إلَّا أننا التزمنا بقرارنا وصمدنا أمامه، فزحف خارج الكوخ وحاول فك الطوافة بنفسه إلَّا أننا لم نسمح له، ثم حاول أن يقنعنا لكن الأمر لم يفلح.

وهكذا عندما رأى أنني بدأت أجهز الزورق، قال:

«حسنًا، إذا كنت مصرًّا على الذهاب فسأخبرك ماذا تفعل عندما تذهب إلى القرية. أغلِق الباب وغطي عين الطبيب بإحكام وسرعة، واجعله يقسم بحفظ السر حتى الموت، وضع حقيبة مملوءة بالذهب في يده، ثم خذه وامشي معه في كل الزقاقات الخلفية في الظلام، ثم أحضره إلى هنا في الزورق، وسر به وسط الجُزر، وفتشه وخذ منه طبشوره ولا تعطه إياه حتى تعيده إلى القرية، وإلَّا فسيضع علامة على الزورق حتى يستطيع العثور عليه مجددًا، لأنهم جميعًا يفعلون ذلك».

فقلت له إنني سأفعل مثلما قال ثم رحلت، وكان جيم سيختبئ في الغابة عندما يرى الطبيب قادمًا وحتى يرحل مرة أخرى.

(٤١)

كان الطبيب رجلًا عجوزًا؛ لطيفًا جدًّا وتبدو عليه الطيبة. عندما أحضرته، قلت له إنني وشقيقي كنا نصطاد على جزيرة إسبانية عصر أمس، وخيمنا على طوافة عثرنا عليها، وأنني أعتقد أنه ارتطم بسلاحه في أثناء نومه عند منتصف الليل تقريبًا لأنه أصيب بطلق ناري في قدمه، وأننا نريد منه أن يذهب إلى هناك ويعالجه دون أن يقول شيئًا عن الأمر ودون أن يُخطر أحدًا، لأننا نريد العودة إلى المنزل هذا المساء ونفاجئ العائلة.

قال: «من هي عائلتك؟».

«آل فيلبس هناك».

قال: «أوه»، ثم بعد دقيقة قال: «كيف قلت أنه تعرض لإطلاق النار؟».

قلت: «كان يحلم فأصابته الرصاصة».

قال: «حلم فردي».

ومن ثم، أشعل مصباحه وقام بتجهيز سرجه ومضينا. إلَّا أنه عندما رأى الزورق، لم يعجبه منظره وقال إنه يكفي شخصًا واحدًا ولا يبدو آمنًا لشخصين. فقلت:

«أوه، لا تخف يا سيدي، لقد ركبناه نحن الثلاثة بأمان تام».

«أنتم الثلاثة؟».

«أعني أنا وسيد و.. و.. والأسلحة».

قال: «أوه».

وضع قدمه على حافة الزورق وحركه، ثم هز رأسه وقال إنه سيبحث عن زورق أكبر، ولأنهم كانوا جميعًا مربوطين بأقفال، أخذ زورقي وطلب مني أن أنتظره حتى يعود أو أن أبحث عن واحد غيره في مكان أبعد أو ربما أذهب إلى المنزل وأجعلهم يستعدون للمفاجأة إن أردت. لكنني قلت له إنني لن أذهب، وأخبرته بطريقة الذهاب إلى الزورق، وتركته يمضي.

بعد أن مضى، أخذتُ أفكر وأقول لنفسي: ماذا لو لم يستطع علاجها بسرعة؟ ماذا لو استغرقه الأمر ثلاثة أو أربعة أيام؟ ماذا سنفعل؟ نبقى هناك حتى يشي بنا للجميع؟ لا يا سيدي، أعرف ماذا سأفعل. سأنتظره حتى يعود، وإذا قال إنه بحاجة إلى الذهاب هناك مرة أخرى سأذهب أنا أيضًا ولو اضطررت إلى السباحة، وسنقيده ونأخذه أسيرًا ونتحرك في النهر، وعندما ينتهي علاج توم سنعطيه أجره أو حتى كل ما نملك وندعه يذهب إلى اليابسة.

ومن ثم، تسللت تحت كومة من الأخشاب لأحظى بقسط من النوم، وعندما استيقظت وجدت أن الشمس قد أشرقت! فانطلقت إلى منزل الطبيب، إلَّا أنهم أخبروني أنه قد خرج ليلًا ولم يعد حتى الآن، فتوقعت أن حالة توم لا بد من أن تكون سيئة وقررت أن أجد طريقة للوصول إلى الجزيرة على الفور، فانطلقت وبينما كنت أنعطف كدت أصطدم برأسي في بطن العم سايلاس، الذي قال:

«توم! أين كنت طوال هذا الوقت أيها المتشرد؟».

قلت: «لم أكن في أي مكان، كنت أبحث أنا وسيد عن الزنجي الهارب».

قال: «أين كنتما؟ لقد كانت خالتكما قلقة جدًّا».

قلت: «لا داعي للقلق. نحن بخير. حاولنا اللحاق بالرجال والكلاب لكنهم سبقونا ففقدنا أثرهم، ثم تخيلنا أننا سمعنا أصواتهم في النهر فأخذنا زورقًا لنلحق بهم وعبرنا إلى الجانب الآخر إلَّا أننا لم نجد لهم أثرًا. وهكذا مضينا بطول الشاطئ حتى أنهكنا التعب فربطنا الزورق وخلدنا إلى النوم ولم نستيقظ إلَّا منذ ساعة، وجدفنا حتى وصلنا إلى هنا. وعندما سمعنا الأخبار، ذهب سيد إلى مكتب البريد ليستطلع الأمر وركضت أنا لأجلب طعامًا نأكله، وكنا سنعود إلى المنزل بعد ذلك».

وهكذا، ذهبنا إلى مكتب البريد لنبحث عن سيد، لكنه لم يكن هناك مثلما توقعت، فاستلم الرجل العجوز خطابًا من المكتب وانتظرنا قليلًا، إلَّا أن سيد لم يأت، فاقترح الرجل العجوز أن ندع

سيد يعود سيرًا على الأقدام أو حتى على زورق عندما ينتهي من التسكع، وقال إن علينا الرحيل راكبين. لم أستطع إقناعه بأن يدعني أنتظر سيد لأنه قال إنه لا فائدة من الأمر وأن عليَّ الذهاب معه من أجل أن تتأكد الخالي سالي من أننا بخير.

عندما وصلنا إلى المنزل، كانت الخالة سالي سعيدة جدًّا لرؤيتي فأخذت تبكي وتضحك في الوقت نفسه، وعانقتني، ثم ضربتني ضربًا خفيفًا وقالت إنها ستضرب سيد بالمثل عندما يأتي.

كان المكان ممتلئًا بالفلاحين وزوجات الفلاحين المدعوين إلى الغداء، وكان هناك ضجيج لم يسمعه شخص من قبل. كانت السيدة العجوزة هوتشكِس هي الأسوأ، إذ كانت تثرثر طوال الوقت وتقول:

«لقد فتشت الغرفة يا أخت فيلبس، وأعتقد أن هذا الزنجي كان مجنونًا. لقد قلت هذا للأخت دامريل، ألم أقل ذلك يا أخت دامريل؟ لقد قلت إنه مجنون، لقد قلت هذه الكلمات بالضبط. لقد سمعتموني جميعًا، لقد قلت إنه مجنون، وقلت إن كل شيء يؤكد ذلك. قلت انظري إلى المِسن، قلت هل تريدون إقناعي أن شخصًا عاقلًا كان لينقش كل هذه الأشياء المجنونة على مِسن؟ هناك حديث عن شخص كسر قلبه، وعن توسلات امتدت سبعة وثلاثين عامًا، وعن ذلك الابن الحقيقي للويس لا أعرف ماذا، وكل هذه الترهات. لقد قلت إنه مجنون تمامًا، هذا أول وآخر قولي، هذا الزنجي مجنون، لقد قلت إنه مجنون مثل نبوخذ نصر».

قالت السيدة العجوز دامريل: «وانظري إلى ذلك السلم المصنوع من القماش يا أخت هوتشكِس، ما الذي كان يريد بحق الإله أن..».

«لقد كنت أقول نفس الشيء منذ أقل من دقيقة للأخت أتارباك، ويمكنها أن تقول لك هذا بنفسها، لقـ لقد نظرتْ إلى ذلك السلم القماشي، وقالـ قالت انظري إليه، فقلتْ نعم انظري إليه، لماذا أراد هذا السلم. إن إنها يا أخت هوتشكِس، إن إنهـ».

«لكن كيف أحضروا ذلك المِسن إلى هناك على أية حال؟ ومن حفر تلك الحفرة؟ ومن..».

«هذا هو ما قلته بالضبط يا أخي بِنرود! كنت أقول -هل يمكنك أن تمرر هذا العسل الأسود؟- كنت أقول للأخت دانلاب منذ دقيقة: كيف وصل هذا المِسن إلى الدخل. بدون مساعدة! بدون مساعدة! هذا هو ما أريد أن أعرفه. قلت: لا تخبريني أنه لم يتلق مساعدة، لأنه تلقى مساعدة، بل مساعدة كبيرة أيضًا، قلت إن عشرة زنوج ساعدوا ذلك الزنجي، وسأجلدهم جميعًا حتى أعرف من ساعده، بل أكثر من ذلك..».

«عشرة! لا أظن أن أربعين شخصًا كانوا ليستطيعوا القيام بكل ذلك. انظر إلى المطاوي والمناشير وغيرها من الأشياء، لقد كان صنعهم مضنيًا دون شك، انظر إلى رجل السرير التي نُشرت بهم، إن هذا الأمر يحتاج إلى ستة رجال يعملون أسبوعًا، انظر إلى ذلك الزنجي المصنوع من القش الموضوع على الفراش، وانظر إلى..».

«بالضبط يا أخي هايتاور! هذا بالضبط ما كنت أقوله إلى الأخ

فيلبس بنفسه، إذ سألني: ما رأيك في الأمر يا أخت هوتشكِس؟ فقلت: رأيي في ماذا يا أخ فيلبس؟ فقال: رأيك في رجل السرير المنشورة؟ فقلت: رأيي أنها لم تُنشر بمفردها، لقد نشرها أحد، هذا هو رأيي، اقبله أو ارفضه، يمكن ألّا يكون له قيمة، لكنه يظل رأيي، وإن كان لأحد رأي آخر فليقله، هذا كل ما عندي. قلت للأخت دانلاب..».

«إن ما حدث يحتاج زنوجًا، ملء الغرفة، يعملون كل ليلة طوال أربعة أسابيع من أجل إتمام هذه المهمة يا أخت فيلبس، انظر إلى ذلك القميص؛ إن كل شبر فيه مُغطى بنقوش أفريقية سرية مكتوبة بالدم! لا بد وأن مجموعة كبيرة منهم كانت تعمل عليه. أنا مستعد أن أدفع دولارين مقابل أن أعرف المكتوب. أما بالنسبة إلى الزنوج الذين كتبوه، فأعتقد أنني سأجلدهم حتى..».

«لقد تلقى مساعدة يا أخي ماربلز! كنت ستدرك هذا بنفسك إذا كنت متواجدًا في المنزل خلال الفترة الأخيرة، لأننا لاحظنا أنهم سرقوا كل شيء استطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه. لقد سرقوا ذلك القميص من على الحبل مباشرة! أما بالنسبة إلى تلك الملاءة التي صنعوا منها السلم القماشي فلا أعرف كم عدد المرات التي حاولوا فيها سرقتها؛ لقد سرقوا دقيقًا وشمعًا وشمعدانات وملاعق ووعاء حراري قديم، وألف شيء آخر لا أتذكره الآن، وفستاني القطني الجديد. لقد حدث كل هذا رغم أنني وسايلاس وسيد وتوم كنا نراقب الوضع باستمرار ليل نهار، مثلما كنت أقول لك، ولم يستطع أي منا أن يلمح طرف شعرة أو يسمع صوت أحد منهم. وفي

اللحظة الأخيرة، تسللوا من تحت أنوفنا وخدعونا. إنهم لم يخدعونا نحن فقط، بل خدعوا لصوص الإقليم الهندي أيضًا وهربوا ذلك الزنجي بأمان وسلام، من وسط ستة عشر رجلًا واثنين وعشرين كلبًا يطاردونهم! أؤكد لك أن هذا يفوق كل شيء سمعت به في حياتي، إذ ما كان للأشباح أن تنفذ الأمر بطريقة أفضل أو أذكى، حتى أنني أعتقد أنهم كانوا أشباحًا، ذلك أن كلابنا التي لا تتفوق عليها أي كلاب لم تجد لهم أثرًا! فسروا لي هذا إن كان بإمكانكم! فليفسر لي هذا أي منكم!».

«حسنًا، إن هذا يتفوق على أي شيء..».

«يا إلهي، أنا لم..».

«ساعدوني، ما كنت لـ».

«لصوص منازل و..».

«يا إلهي، لقد كنت خائفة من أن أعيش في مثل..».

«خائفة من أن تعيشي! لقد كنت خائفة إلى درجة منعتني من أن أنام أو أستيقظ أو أستلقي أو أجلس يا أخت ريدجواي. إن بوسعهم سرقة.. يا إلهي، لك أن تتخيلي كم التوتر الذي كنت فيه عندما دقت الساعة الثانية عشرة ليلة أمس، يعلم الرب أنني كنت خائفة من أن يخطفوا بعض أفراد العائلة! لقد كنت في حالة من التوتر شعرت معها بأنني فقدت عقلي، الأمر يبدو في غاية الحمق الآن وقد أصبحنا نهارًا، لكنني كنت أفكر في الصبيين المسكينين النائمين في الطابق العلوي في تلك الغرفة الموحشة، وأقسم أنني

كنت أشعر بتوتر شديد جعلني أتسلل إلى هناك وأغلق عليهما الباب! لقد فعلت ذلك بالفعل. كان أي شخص ليفعل ذلك، إذ عندما يكون المرء في مثل هذه الحالة من التوتر تتزايد مخاوفه ويقل تركيزه ويفعل أشياء غريبة. وهذا هو ما حدث لي، إذ أخذتُ أفكر في الصبيين وصعدت إلى الغرفة فوجدت أن الباب لم يكن موصدًا، و..». توقفتْ الخالة سالي عن الحديث وقد بدت عليها الحيرة، ثم أدارت رأسها حتى وقعت عيناها عليَّ، فنهضتُ وابتعدتُ.

قلت لنفسي إنني سأستطيع تفسير عدم تواجدنا بالغرفة هذا الصباح إذا ابتعدت وفكرت قليلًا، ففعلت ذلك، لكنني لم أبتعد كثيرًا وإلَّا كانت ستطلب مني العودة. وعندما تأخر الوقت ورحل جميع الضيوف، عدت إلى المنزل وأخبرتها أن الضوضاء وإطلاق النار أوقظاني أنا وسيد وأردنا أن نستمتع بمشاهدة ما يحدث، وعندما وجدنا الباب مغلقًا تسللنا عبر مانعة الصواعق. ثم أخبرتها أننا لن نكرر الأمر ثانية لأننا تأذينا قليلًا ونحن نفعل ذلك، ثم سردتُ عليها كل ما قلته للعم سايلاس من قبل فقالت إنها سامحتنا، وأن ما حدث ربما كان خيرًا على أية حال، وماذا على المرء أن يتوقع من الصبية، وأن كل الصبية مجانين، وأنه طالما لم يتأذى أحد فقد رأت أن من الأفضل الشعور بالامتنان أننا لا نزال حيين وبخير وإلى جانبها بدلًا من التفكير فيما سبق، ثم قبلتني وربتت على رأسي. إلَّا أنها سرعان ما شردت وانتفضت فجأة وقالت:

«يا إلهي، لقد أوشك الظلام أن يحل وسيد لم يعد حتى الآن! ماذا حدث لذلك الصبي؟».

قررت أن أنتهز الفرصة، فقلت:

«سأذهب إلى البلدة على الفور وأتي به».

قالت: «لا، لن تذهب. ستبقى حيث أنت، يكفي أن يكون أحدكما غائبًا. إن لم يعد حتى موعد العشاء، فسيذهب زوج خالتك».

وبالطبع لم يعد حتى موعد العشاء، فذهب العم سايلاس ليبحث عنه على الفور.

وعند الساعة العاشرة تقريبًا، عاد والقلق باد على وجهه لأنه لم يجد أثرًا لتوم. كانت الخالة سالي قلقة جدًّا، إلَّا أن العم سايلاس قال إنه لم يكن هناك داعيًا للقلق لأن الفتيان سيبقوا فتيانًا وأن سيد سيعود سالمًا في الصباح وأن تطمئن، إلَّا أنها قالت إنها ستنتظره قليلًا على أية حال وتترك شمعة مشتعلة حتى يتمكن من الرؤية لدى عودته.

وعندما صعدت لأنام، رافقتني وأحضرت معها شمعتها ووضعتني في الفراش وعاملتني بأمومة كبيرة حتى شعرت أنني شرير ولم أستطع النظر إلى وجهها. جلستْ الخالة على الفراش وتحدثتْ معي طويلًا عن سيد حتى شعرت بأنها لن تتوقف أبدًا، وأخذت تقول إنه كان فتى رائعًا وظلت تسألني بين الحين والآخر إن كنت أعتقد أنه تاه أو تأذى أو ربما غرق ويرقد في مكان ما في تلك اللحظة يتألم أو يواجه الموت، بينما هي جالسة هنا وليست إلى جانبه تساعده. وكانت الدموع تتساقط من عينيها في صمت، وكنت أقول لها إن سيد على ما يرام وأنه حتمًا سيعود إلى المنزل في الصباح،

وعندما كنت أقول ذلك كانت تضغط على يدي أو تقبلني وتطلب مني أن أكرر ما قلته لأنها كانت تطمئن لسماعه لأنها كانت قلقة جدًا. وعندما كانت على وشك الذهاب، نظرت إليَّ في عيناي بثبات ونعومة وقالت:

«الباب لن يُغلق يا توم والنافذة، ومانعة الصواعق موجودتان، لكنك ستكون فتى مطيعًا.. أليس كذلك؟ لن تخرج؟ من أجلي».

يعلم الرب كم أردت أن أذهب وأرى توم، وكنت أنوي ذلك بكل وجداني، لكنني ما كنت لأذهب بعد ما قالته مهما كان المقابل.

كان نومي مضطربًا جدًّا لأنني كنت أفكر فيها وفي توم، فتسللت عبر مانعة الصواعق مرتين ومضيت نحو واجهة المنزل ورأيتها جالسة إلى جانب النافذة وعيناها على الطريق والدموع تنسال على وجنتيها، تمنيت لو أن أفعل لها شيئًا، لكن لم يكن بوسعي سوى أن أقسم ألَّا أفعل شيئًا يتسبب لها في الحزن أكثر من ذلك. وفي المرة الثالثة، استيقظت عند الفجر وتسللت وكانت لا تزال هناك، وكانت شمعتها على وشك الانطفاء، وكان رأسها الأشيب فوق يدها، وكانت نائمة.

(٤٢)

ذهب الرجل العجوز إلى البلدة مرة ثانية قبل الإفطار لكنه لم يجد أثرًا لتوم. جلس الاثنان على الطاولة يفكران دون أن يقول أحدهما شيئًا، وقد كان الحزن باديًا عليهما. بردت قهوتيهما، ولم يتناولا شيئًا. ثم بعد قليل، قال الرجل العجوز: «هل أعطيتك الخطاب؟».

«أي خطاب؟».

«الخطاب الذي استلمته من مكتب البريد أمس».

«لا، لم تعطني أي خطابات».

«لا بد وأنني قد نسيت».

فتش في جيوبه، ثم ذهب إلى المكان الذي وضع فيه الخطاب وأحضره وأعطاها إياه. فقالت:

«إنه من شقيقتي في سانت بطرسبرج».

أردت أن أسير قليلًا مثلما فعلت من قبل لكنني لم أستطع أن أتحرك. قبل أن تفتحه، لمحت الخالة سالي شيئًا فألقت الخطاب

وركضت، ولحقت بها. جاء توم سوير محمولًا على ملاءة بصحبة الطبيب العجوز وجيم -الذي كان مرتديًا فستانها القطني ومربوطًا من يديه وراء ظهره- وحشد من الناس، فخبأتُ الخطاب على الفور وانطلقت، بينما اندفعت هي نحو توم باكية تقول:

«أوه، لقد مات، لقد مات، أنا أعرف أنه مات!».

إلَّا أن توم أمال رأسه قليلًا وتمتم بشيء، فاتضح أنه لم يكن واعيًا، فبسطتْ يديها وقالت:

«إنه حي، وهذا يكفي، حمدًا لله!»، ثم قبلته وركضت ناحية المنزل لتجهز الفراش وأخذت تلقي بالأوامر يمينًا ويسارًا إلى الزنوج وغيرهم بأقصى سرعة لديها.

تبعتُ الرجال لأرى ما سيفعلون بجيم، بينما تبع الطبيب العجوز والعم سايلاس توم إلى داخل المنزل. كان الرجال غاضبين جدًّا، وأراد بعضهم شنق جيم حتى يكون عبرة لأمثاله من الزنوج في المنطقة وألَّا يحاولوا الهرب مثلما فعل جيم ويستسببوا في هذا القدر من القلق والخوف الذي تسبب فيه جيم لعائلة بأكملها، على مدار أيام وليال. إلَّا أن بعضهم كان ضد الشنق ولم يروا جدوى من ورائه لأنهم سيضطروا إلى دفع ثمنه عندما يظهر مالكه ويطالب بحقه. وهكذا هدأوا قليلًا، إذ إن الأشخاص الذين كانوا عادة يطالبون بشنق الزنوج بسبب الأخطاء التي يرتكبونها هم دائمًا من كانوا يتراجعون عن دفع المقابل بعد أن تنتهي متعتهم التي حصلوا عليها منهم.

كان الرجال يلعنون جيم كثيرًا، وكانوا يضربونه على جانب رأسه مرة أو مرتين من حين إلى آخر، إلَّا أن جيم لم يقل شيئًا أبدًا ولا حتى أنه يعرفني. أخذوه إلى نفس الغرفة، وجعلوه يرتدي ملابسه، وربطوه مجددًا، لكن ليس في رجل السرير هذه المرة، وإنما في دعامة مثبتة في اللوح السفلي، وربطوا يديه وقدميه أيضًا، وقالوا إنه لن يتناول سوى الخبز والمياه حتى يأتي مالكه، وإن لم يأت في فترة زمنية محددة فسيعرضونه للبيع في مزاد، وسدوا الحفرة، وقالوا إن مزارعين مسلحين يجب أن يقفا لحراسة الغرفة كل ليلة، وأن كلب بولدوج سيُربط في الباب نهارًا، وبهذا انتهت مهمتهم ورحلوا وهم يسبون. ثم جاء الطبيب ليلقي نظرة وقال:

«لا تقسو عليه كثيرًا لأنه ليس زنجيًّا سيئًا، فعندما وصلتُ إلى المكان الذي كان فيه الصبي اكتشفتُ أنني لن أستطيع إخراج الرصاصة بدون مساعدة، ولم يكن الفتى في حالة تسمح لي بأن أتركه وأذهب طلبًا للمساعدة، ثم أخذت حالته تتدهور شيئًا فشيئًا، وبعد فترة طويلة جن جنونه ومنعني أن أقترب منه وقال إنه سيقتلني إذا وضعت علامة على طوافته، ومثل هذه الترهات التي لا نهاية لها. أيقنت حينئذ أنني لن أتمكن من القيام بشيء وقلت إنني يجب أن أحصل على المساعدة بطريقة ما، فخرج الزنجي في نفس اللحظة من مكان ما وقال إنه سيساعدني، وقد ساعدني كثيرًا فعلًا. وبالطبع توقعت أن يكون الزنجي الهارب! ولهذا، اضطررت إلى البقاء هناك طوال النهار وطوال الليل، وقد كنت في مأزق! إذ كان هناك مريضان مصابان بالبرد، وبالطبع كنت أريد أن أذهب

إلى البلدة وأراهما، لكنني لم أستطع لأنني خشيت أن يهرب الزنجي وألام على الأمر. في نفس الوقت، لم يقترب أي زورق بالدرجة الكافية التي تسمح لي بأن أصيح وأعلمهم بمكاني، وعليه بقيت ساكنًا حتى فجر اليوم. لكنني لم أر زنجيًّا يؤدي دور ممرضة على نحو أفضل أو أكثر إخلاصًا؛ لقد خاطر بحريته في سبيل تأدية هذه المهمة، وقد كان متعبًا جدًّا وكنت أرى بوضوح أنه تعرض لإجهاد كبير خلال الآونة الأخيرة. أقول لكم يا سادة إنني أحببت ما فعله الزنجي، إنه يساوي ألف دولار ويستحق معاملة جيدة أيضًا، لقد وفر لي كل ما كنت بحاجة إليه، وكان الصبي يتحسن كما لو كان في منزله، بل ربما أفضل مما لو كان في المنزل لأن المكان كان هادئًا جدًّا. وهكذا، وجدت نفسي مع الاثنين واضطررت إلى البقاء حتى فجر اليوم، ثم مر بعض الرجال في قارب، وكان حظي سعيدًا أن الزنجي كان جالسًا إلى جانب الفراش ورأسه تتدلى على ركبتيه بعد أن استغرق في نوم عميق. أشرت إلى الرجال بهدوء، فتسللوا وأمسكوا به وربطوه قبل أن ينتبه، ولم نواجه أي مشاكل. وكان الصبي نائمًا نومًا متقطعًا أيضًا، فجهزنا المجاديف وربطنا الطوافة في القارب وسحبناها بهدوء. لم يتسبب الزنجي في أي بلبلة ولم يقل كلمة واحدة من البداية. إنه ليس زنجيًّا سيئًا يا سادة، هذا ظني به».

فقال أحدهم: «يجب أن أعترف أن هذا يبدو جيدًا جدًّا أيها الطبيب».

وهكذا، رقت قلوب الآخرون قليلًا فشعرتُ بامتنان شديد تجاه الطبيب العجوز لأنه قَلَبَ الوضع ليكون أفضل ناحية جيم،

وكنتُ مسرورًا أيضًا أن ذلك قد وافق توقعاتي تجاهه، لأنني شعرت بأن لديه قلبًا طيبًا وأنه كان رجلًا صالحًا منذ المرة الأولى التي التقيته فيها. ومن ثم اتفق الجميع على أن جيم أحسن التصرف، وأن ذلك يجب أن يؤخذ في الاعتبار، وأنه يجب أن يُكافئ. وعليه، تعهد الجميع بإخلاص أنهم لن يسبوه مرة أخرى.

ثم خرجوا وحبسوه؛ كنت أتمنى أن يقولوا إن بإمكانه التحرر من واحد أو اثنين من قيوده لأنها كانت ثقيلة جدًّا، أو أن باستطاعته تناول اللحوم والخضروات إلى جانب الخبز والمياه، إلَّا أن ذلك لم يخطر ببالهم، ورأيت من الأفضل ألَّا أتدخل في الأمر، لأنني توقعت أنني سأوصل قصة الطبيب إلى الخالة بطريقة أو بأخرى بمجرد أن أنتهي من المشاكل التي كنتُ على وشك مواجهتها، وأعني بذلك التفسيرات التي يتعين عليَّ تقديمها فيما يتعلق بأنني نسيت أن أذكر أن سيد تلقى رصاصة بينما كنت أنا وهو نجدف بحثًا عن الزنجي الهارب.

لكنني كنت أمتلك وقتًا طويلًا لأن الخالة سالي بقيت في غرفة المريض طوال النهار وطوال الليل. أما بالنسبة إلى العم سايلاس، فقد كنت أتحاشاه كلما رأيته.

في الصباح التالي، سمعتُ أن حالة توم قد تحسنت كثيرًا وأن الخالة سالي قد ذهبت لتأخذ قيلولة، فقررت أن أذهب إلى غرفة المريض وأرى إن كان مستيقظًا وإن كان بوسعنا أن نؤلف قصة يمكن أن تصدقها العائلة. إلَّا أنه كان نائمًا ملء جفونه، وكان وجهه

شاحبًا؛ ليس متقدًّا مثلما كان عندما جاء. وهكذا جلست وانتظرته أن يستيقظ. خلال نصف ساعة، جاءت الخالة سالي وأصبحت في مأزق من جديد! أومأتْ لي بأن أبقى صامتًا، ثم جلست إلى جانبي وبدأت تهمس وتقول إن بإمكاننا جميعًا الشعور بالسعادة الآن لأن مؤشرات شفائه قوية جدًّا وأنه نائم على هذه الحالة منذ وقت طويل وأن حالته تتحسن مع مرور الوقت وسرعان ما سيعود إلى حالته الطبيعية.

وهكذا جلسنا هناك نراقبه. وبعد فترة وجيزة، فتح عينيه بشكل طبيعي جدًّا وألقى نظرة على المكان وقال:

«أنا في المنزل! كيف حدث هذا؟ أين الطوافة؟».

قلت: «لا بأس».

«وجيم؟».

قلت: «على نفس حالته»، لكنني لم أستطع أن أقولها بثقة كبيرة فلم ينتبه وقال:

«جيد! رائع! لقد أصبحنا بأمان! هل أخبرت خالتي؟».

كنت على وشك أن أقول «نعم»، إلَّا أنها تدخلت وقالت: «يخبرني بماذا يا سيد؟».

«يخبرك كيف حدث كل هذا».

«كل هذا؟».

«لا يوجد سوى شيء واحد نتحدث عنه هنا، وهو أننا حررنا الزنجي الهارب؛ أنا وتوم».

«يا إلهي! حررت الزنـ ، عن ماذا يتحدث هذا الفتى! يا إلهي، لقد عاد للهلوسة من جديد!».

«لا، أنا لا أهلوس، أنا واع لكل ما أقوله. لقد حررناه أنا وتوم. لقد وضعنا خطة ونفذناها. وقد نفذناها ببراعة أيضًا»، ثم أخذ يسترسل دون أن تحاول الخالة منعه، إذ لم يسعها سوى أن تحدق إليه وهو يحكي. أما أنا، فلم أر فائدة من التدخل. أخذ يقول: «لقد كلفنا الأمر مشقة كبيرة، لقد استغرقنا الأمر أسابيع وساعات وساعات من العمل كل ليلة، بينما كنتم نائمين. وتعين علينا سرقة الشموع والملاءة والقميص وفستانك والملاعق وأطباق القصدير والمطاوي والوعاء الحراري والمِسن والدقيق وأشياء لا حصر لها، ولا يمكنك أن تتخيلي المجهود الذي بذلناه في صنع المناشير والأقلام والنقوش وغيرها من الأمور، ولا يمكنك أن تتخيلي كم الاستمتاع الذي استمتعنا به. لقد رسمنا صور التوابيت وكتبنا الخطابات المجهولة التي أرسلها اللصوص، وكنا نصعد وننزل عبر مانعة الصواعق، وحفرنا الحفرة الموجودة في الغرفة، وصنعنا السلم المصنوع من الحبال وأرسلناه في فطيرة مطهوة، وهربنا ملاعق وأشياء عبر جيب مريولتك..».

«يا إلهي!».

«.. وملأنا الغرفة بالفئران والثعابين وغيرها من الأشياء حتى يكونوا برفقة جيم، ثم أتيت أنت وجعلت توم يبقى هنا فترة طويلة عندما كانت الزبدة في قبعته وكاد الأمر كله أن ينكشف، لأن الرجال تسللوا إلى الغرفة قبل أن نخرج منها. وهكذا تعين علينا

الإسراع، إلَّا أنهم لاحظوا وجودنا ولاحقونا وتلقيت رصاصة، ثم انعطفنا عن الطريق ففقدوا أثرنا، وعندما وصلت الكلاب إلينا لم تجد شيئًا مريبًا فمضت ناحية الضوضاء، ومن ثم صعدنا إلى الزورق ووصلنا إلى الطوافة وأصبحنا بأمان وأصبح جيم رجلًا حرًا، وقد فعلنا كل ذلك بأنفسنا، أليس هذا رائعًا يا خالتي!».

«أنا لم أسمع شيئًا مماثلًا طوال حياتي! أنتما، أيها المحتالان، من تسبب في كل هذا القلق، أنتما من قلب كل شيء رأسًا على عقب وأخفتمونا جميعًا حد الموت. يتراءى ليَّ الآن أن أضربكما أنتما الاثنان، لقد كنت أجلس هنا الليلة تلو الأخرى و.. بمجرد أن تتحسن أيها الوغد الصغير سأسلخ جلديكما أنتما الاثنين!».

إلَّا أن توم كان يشعر بفخر وفرحة شديدتين لم يستطع كتمهما، وظل يتحدث وهي تقاطعه وتوبخه، وظل الاثنان يتحدثان في نفس الوقت كأنهما قطتان تتعاركان، حتى قالت:

«استمتع قدر ما شئت الآن لأنني إذا أمسكت بك وأنت تتدخل في شؤونه مرة أخرى..».

قال توم وقد اختفت ابتسامته وبدا مندهشًا: «أتدخل في شؤون من؟».

«في شؤون من؟ الزنجي الهارب بالطبع. عن من تظن أنني أتحدث؟».

نظر إليَّ توم بجدية شديدة، وقال:

«توم، ألم تقل لتوك أن كل شيء على ما يرام؟ ألم يهرب؟».

قالت الخالة سالي: «يهرب؟ الزنجي الهارب؟ بالطبع لم يهرب؛ لقد أعادوه مرة ثانية آمنًا سليمًا، وقد وضعناه في الغرفة من جديد، ولا نقدم له سوى الخبز والمياه، وسيظل مقيدًا بالأغلال حتى يأتي صاحبه أو نبيعه!».

نهض توم واستقام فوق الفراش، بينما الغضب يتطاير من عينيه وفتحتا أنفه تتسعان وتضيقان كأنهما خياشيم، ثم خاطبني صائحًا:

«لا يحق لهم أن يحبسوه! تحرك! ولا تضيع دقيقة واحدة. حرره! إنه ليس عبدًا، إنه حر مثل أي مخلوق يسير على هذه الأرض!».

«ماذا يقصد هذا الصبي؟».

«أنا أقصد كل كلمة أقولها يا خالة سالي، وإن لم يذهب أحد ليحرره سأذهب بنفسي؛ لقد عرفته طوال حياتي وكذلك توم. لقد ماتت الآنسة واتسون منذ شهرين، وكانت تشعر بالخزي لأنها كانت ستبيعه جنوب النهر، وقد قالت ذلك بنفسها وحررته في وصيتها».

«إذًا لماذا أردت أن تحرره وأنت تعرف أنه حر بالفعل؟».

«أي سؤال هذا! من أجل المغامرة بالطبع، لقد كنت مستعدًا أن أغوص في الدم حتى عنقي من أجل.. يا إلهي، الخالة بولي!».

فلتدهسني عربة إن لم تكن الخالة بولي واقفة عند الباب والعذوبة والسعادة باديان عليها كأنها ملك!

انتفضت الخالة سالي لترحب بها وكادت أن تخلع رقبتها وهي

تعانقها وتبكي على كتفها، فانتهزت الفرصة وتلمست لنفسي مكانًا تحت الفراش لأنني شعرت بأن الغرفة تضيق علينا. كنت أختلس النظر ووجدت الخالة بولي قد انتهت من العناق ووقفت هناك تنظر إلى توم من فوق نظارتها وتتفحصه كل شبر فيه، ثم قالت:

«نعم، من الأفضل أن تدير رأسك بعيدًا عني، كنت لأفعل ذلك لو كنت مكانك يا توم».

قالت الخالة سالي: «أوه، يا عزيزتي! هل تغير إلى هذا الحد؟ إن هذا ليس توم، إنه سيد، توم.. توم.. أين توم؟ لقد كان هنا منذ دقيقة».

«أعتقد أن من تبحثين عنه هو هاك فِن! أعتقد أنني لم أقض هذه السنوات الطويلة في تربية وغد مثل توم من أجل ألَّا أتعرف عليه عندما أراه، وإلَّا فسيكون هذا شيئًا مثيرًا للاهتمام. اخرج من تحت الفراش يا هاك فِن».

فخرجت من تحت الفراش، لكنني لم أكن أشعر بالثقة.

كانت الخالة سالي واحدة من أكثر الأشخاص الذين رأيت الحيرة بادية على وجوههم، طوال حياتي، باستثناء شخص واحد وهو وجه العم سايلاس عندما دخل وحكوا له كل شيء. كان مثل السكارى، إن جاز التعبير، ولم يبد أنه يستوعب شيئًا بقية النهار، حتى أنه ألقى خطبة في اجتماع صلاة تلك الليلة تسببت له في سمعة، لأن أكبر الناس سنًا في العالم ما كانت لتفهم ما قاله. ومن ثم حكت لهم الخالة بولي كل شيء عني، فاضطررت إلى الاعتراف بأنني كنت في مأزق

عندما ظنت السيدة فيلبس أنني توم سوير -قاطعتني في تلك اللحظة وقالت: «أوه، استمر في منادتي بالخالة سالي، لقد اعتدت على سماعها منك، ولا حاجة إلى أن تتوقف عن قولها»- وعندما ظنت الخالة سالي أنني توم سوير كان عليَّ أن أقبل الأمر، لأنه لم يكن هناك خيار آخر، وكنت أعرف أنه ما كان ليمانع، لأن ذلك الغموض سيكون مشوقًا له وسيصنع منه مغامرة وسيكون سعيدًا جدًّا. وهكذا جاء وتظاهر بأنه سيد وجعل كل شيء سهلًا عليَّ.

ثم قالت الخالة بولي إن توم كان محقًّا بشأن تحرير الآنسة واتسون لجيم في وصيتها، ولهذا السبب بالطبع تكبد توم سوير كل هذا العناء لتحرير زنجي حر! لم أستطع أن أفهم حتى تلك اللحظة وحتى هذا الحديث كيف كان بوسعه أن يساعد شخصًا على تحرير زنجي، بالنظر إلى نشأته.

وقالت الخالة بولي إنها عندما تلقت خطابًا من الخالة سالي تقول فيه إن توم وسيد قد وصلا بخير وسلام، حدثت نفسها قائلة:

«انظر إلى هذا الكلام الآن! كان عليَّ أن أتوقع ذلك عندما تركته يذهب بمفرده دون مراقبة أحد، وعندما لم أتلق منك ردًا قررت أن أسافر كل هذه المسافة البالغ قدرها ألف ومئة ميل حتى أصل إلى جنوب النهر من أجل أن أعرف ماذا فعل هذا الصبي هذه المرة».

قالت الخالة سالي: «لم أتلق منك خطابًا أبدًا».

«هذا أمر غريب! لقد أرسلت إليك مرتين أسألك عما تقصدين بوصول سيد».

«لم يصلاني أبدًا يا شقيقتي».

التفتت الخالة بولي ببطء وحزم، وقالت:

«توم!».

قال بتوتر: «ماذا؟».

«لا تتظاهر بأنك لا تعرف عما أتحدث أيها الصفيق، أعطني هذين الخطابين».

«أي خطابين؟».

«هذان الخطابان. أقسم أنني سأمسك بك وستـ».

«لقد وضعتهما في الحقيبة على حالتهما التي استلمتهما عليها من مكتب البريد، لم أنظر بداخلهما ولم ألمسهما، لكنني كنت أعرف أنهما سيتسببان في مشاكل ورأيت أنك إن لم تكوني على عجلة من أمرك، فسـ».

«حسنًا، أنت بحاجة حقيقية إلى الجلد؛ لا شك في ذلك. لقد كتبت لك خطابًا آخر أخبرك فيه أنني قادمة، وأفترض أنه..».

«لا، لقد وصل هذا الخطاب أمس ولم أقرأه بعد، لكن لا بأس لأن هذا الخطاب معي».

لقد أردت أن أراهن على أنه ليس معها مقابل دولارين، لكنني رأيت أن من الأفضل ألَّا أفعل ذلك فلم أقل شيئًا.

الفصل الأخير



فور أن استطعت الانفراد بتوم، سألته عما كان يخطط له وقت عملية التهريب؟ وماذا كان سيفعل إذا نجحت عملية التهريب وتمكنا من تحرير زنجي كان حرًّا بالفعل؟ فحكى لي عما كان يدور في رأسه من البداية، وأخبرني أننا لو كنا قد تمكنا من تهريبه كنا سنقضي رحلتنا في مغامرات نهرية ثم نخبره أنه حر ونعيده إلى المنزل على باخرة من أحدث طراز، ومن ثم كنا سندفع له مقابل الوقت الذي ضاع منه ونرسل مسبقًا إلى كل الزنوج من أجل أن يزفوه إلى البلدة في موكب من الأضواء بصحبة فرقة تعزف على الأدوات النحاسية، ومن ثم نصبح جميعًا أبطالًا. لكنني أعتقد أن الطريقة التي جرت عليها الأمور كانت جيدة أيضًا.

حررنا جيم من أغلاله في أسرع وقت، وعندما علمت الخالة بولي والعم سايلاس والخالة سالي بمساعدته للطبيب في تمريض توم، احتفوا به كثيرًا وأحسنوا معاملته وأعطوه كل ما أراد من طعام، ولم يطلب منه أحد شيئًا واستمتع بوقته. ثم صعدنا به إلى غرفة المريض، وتحدثنا عن أمور مهمة، ثم أعطاه توم أربعين دولارًا

تعويضًا على صبره في السجن وحسن تصرفه، وكان جيم مسرورًا إلى أقصى درجة، فقال:

«ماذا قلت لك يا هاك؟ ماذا قلت لك على جزيرة جاكسون؟ لقد أخبرتك أن شعر صدري كثيف، وأن لذلك دلالة، وأخبرتك أنني كنت ثريًّا من قبل، وأنني سأصبح ثريًّا من جديد، وقد تحقق ما قلته لك، وها هي النقود! لا تقل خلاف ذلك الآن، الدلالات هي الدلالات، وكنت متيقنًا يقين وجودي أمامك الآن أنني كنت سأصبح ثريًّا من جديد!».

أخذ توم يتحدث ويتحدث، واقترح أن يتسلل ثلاثتنا من هنا ذات ليلة وأن نذهب لشراء أزياء ونخوض مغامرة لمدة أسبوعين وسط الهنود القاطنين بالإقليم، فوافقت وأخبرته أن الأمر يلائمني، لكنني أوضحت له أنني لا أملك النقود لشراء الزي وأنني لا أظن أن بإمكاني استعادة ما كنت أملك من نقود، إذ من المرجح أن يكون أبي قد عاد وحصل عليها جميعًا من القاضي ثاتشر وأنفقها كلها على الخمور.

فقال توم: «لا، لم يحصل عليها. إنها لا تزال موجودة؛ ستة آلاف أو أكثر. أما بالنسبة إلى والدك، فلم يعد أبدًا منذ ذلك الحين؛ على الأقل لم يكن هناك وقت رحيلي».

قال جيم بجدية:

«إنه لن يعود مرة أخرى يا هاك».

قلت:

«لماذا يا جيم؟».

«لا تفكر في هذا الأمر يا هاك، لكنه لن يعود مرة أخرى».

لكنني ألححت عليه حتى قال أخيرًا:

«ألا تتذكر المنزل الذي كان طائفًا على النهر، الذي كان بداخله رجل مغطى، ودخلت وكشفت الغطاء ولم أسمح لك بالدخول؟ يمكنك أن تستعيد نقودك متى أردت لأن هذا الرجل كان والدك».

أصبح توم بخير الآن، وعلق الطلقة في سلسلة ساعة الجيب الخاصة به، وكان ينظر إلى ساعته دائمًا لمعرفة الوقت. وعليه، لم يعد هناك شيء آخر أكتب عنه، وأنا سعيد جدًّا بذلك لأنني لو كنت أعرف مشقة تأليف كتاب ما كنت شرعت في الأمر، ولهذا فلن أكتب أكثر من ذلك. لكنني أعتقد أن عليَّ الهرب رأسًا إلى الإقليم الهندي، لأن الخالة سالي تريد أن تتبناني وتجعلني متمدنًا، وأنا لا أطيق الأمر وقد جربته من قبل.

النهاية

المخلص لكم

هاك فِن

"الأدب الأمريكي المعاصر بأكمله مستوحى من كتاب واحد لمارك توين اسمه هكلبري فن".

إرنست همينجوي - روائي أمريكي

"إن شخصية هكلبري فن هي ما تعطي الكتاب طابعه الخاص، أما النهر فيمنحه الصورة الحية. كان من الممكن أن يكون الكتاب مجرد سلسلة من المغامرات التي تنتهي نهاية سعيدة وحسب، إلَّا أن النهر الشاسع المتلاطم هو القوة الطبيعية الوحيدة التي من الممكن أن تصف دورة التقلبات الإنسانية بهذه الشمولية. وبالتالي فإن النهر هو ما يجعل الكتاب عظيمًا".

ت. س. إليوت - كاتب أمريكي



مارك توين

مغامرات هكلبري فِن


9 789921 723076

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com